الدكتور
بسيوني عبد الفتاح فيود

من بلاغة النظم القرآني

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

من
بلاغة النظم القرآني

تاليف

الدكتور
بسيوني عبد الفتاح فيود
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
فى كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ — ١٩٩٢ م

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
تليفون : ٩١٩٧٢٤

مكتبة لسان العرب
أ.علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين ، سبحانه علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، خلق الإنسان فسواه فعدله ، وكرمه تكريما ، وفضله على كثير من خلقه تفضيلا ، وعلمه البيان **« الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان »** •

نحمده حمدا كثيرا ونستغفره ونتوب إليه ونصلى ونسلم على خير خلقه ، سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله الذى أوتى جوامع الكلم ، وكان أفصح العرب ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تمسك بهديه ومضى على شريعته إلى يوم الدين •

وبعد : •••

فهذه دراسات بلاغية تقوم على النظر فى القرآن الكريم وتأمل تراكيبه وتدبر تصويره ، وضعتها لتكون شعاعا من نور يمضى فى ضوئه الدارس لكتاب الله عز وجل ، الباحث عن أسراره ولطائفه ••

وما من ريب فى أن تراكيب الكلام ، وما لها من دلالات وخصائص ، وما يكون بها من تصوير ، تحتاج من الدارس إلى تمهل وتأن ، وبحث وتنقير ـ كما يقول الزمخشرى ـ آونة وأزمنة •

ويعظم الأمر ويزداد خطرا إذا كانت تلك التراكيب التى ينظر فيها هى تراكيب القرآن الكريم ، ونظمه المبدع ، وتصويره المعجز ، الأمر إذاً ليس هينا ، ولكنه جد خطير ، يحتاج إلى مضاعفة الجهد ، والتشمير عن السواعد ، وطلب العون من العلى القدير •

لقد وجدت فى نفسى الرغبة فى أن أقوم بهذا العمل وأنهض بـه خدمة لكتاب الله المعجز ، فلم أتردد ، بل شمرت عن سواعد الجـد ، وأخذت الأمر مأخذ الحزم ، وأقبلت على القرآن ، أتأمل تراكيبه وأنظر فى تصويراته ، لأكشف عن دلالاتها ، وأبرز خصائصها ومزاياها ، وأجلى شيئا مما يكمن وراءها من لطائف وأسرار ٠

ثم أودعت ما من الله على بإيضاحه وإظهاره ، وألهمنى تجليته وبيانه ، اودعته هذا الكتاب ، وسميته : من بلاغة النظم القرآنى ٠

فهو ثمرة عمل جاد ، ودراسة متأنية ، أسأل الله تبارك وتعالى أن تكون شعاعا من نور ، يمضى فى ضـوئه طلبة العـلم ودارسـوه ، فينهضون بتجلية المزيد من لطائف الكتاب العزيز والكشف عن أسراره٠

كما أضرع إليه جل فى علاه أن يجزينا خير الجزاء ، وأن يوفقنا ويلهمنا الرشد والصواب ، ويحفظنا من الزلل ، إنه خير مسئول وهو نعم المـولى ونعم النصـير ، وصـلى الله على نبينا محمد وعلى آلـه وصحبه وسلم ٠

* * *

السيسى بالهرم فى

١٢ من ربيع الأول سنة ١٤١٣ هـ

١٠ من سـبتمبر سـنة ١٩٩٢ م

المؤلف

بسيونى عبد الفتاح فيود

الأستاذ المساعد فى جامعة الأزهر

لـكل مقـام مقـال

قال تعالى : « من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصـيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفـل منها وكان الله على كل شىء مقيتا » • النساء ٨٥ •

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا • أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا» الإسراء ٩٠،٩١ •

« وإذ نجيناكم من آل فرعون يسـومونكم سوء العـذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » البقرة ٤٩ •

« وإذ قال موسى لقومه اذكـروا نعمـة الله عليكـم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » إبراهيم ٦ •

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » الأنعام ١٥٣ •

« قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » يوسف ١٠٨ •

« يا يحيى خذ الكتاب بقـوه وآتيناه الحكم صـبيا • وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا • وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا • وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » مريم ١٢ ـ ١٥ •

« قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا • وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا • وبرا بوالدتى ولـم يجعلنى جبارا شقيا • والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » مريم ٣٠ ـ ٣٣ •

« واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون • إذ أرسلنا

إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا : إنا إليكم مرسلون • قالوا : ما انتم إلا بشر مثلنا وما انــزل الرحمن من شىء إن انتم إلا تكذبون • قالوا : ربنا يعلـم إنا إليكم لمرسـلون • وما علينا إلا البـلاغ المبـين »
يس ١٣ ــ ١٧ •

« كذبت عاد فكيف كان عذابى ونـذر • إنا أرسلنا عليهم ريحـا صرصرا فى يوم نحس مستمر • تنزع الناس كانهم اعجاز نخل منقعر »
القمر ١٨ ــ ٢٠ •

« واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية • سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما فترى القوم فيها صرعى كانهم أعجاز نخل خاوية »
الحاقة ٦ ــ ٧ •

عندما ننعم النظر فى النظم القرآنى ، ونتأمل الفاظه وتراكيبه ، يبدو لنا اختلافا فى استخدام الألفاظ ، وفى التراكيب ، فهذه جملـة مؤكدة ، وتلك خالية من التوكيد ، هذا اللفظ مفرد فى سياق وجمع فى سياق آخر ، وذاك نكرة فى موضع ومعرفة فى موضع آخر ، هذه الكلمة قدمت فى آية وأخرت فى آية أخرى ، وردت مفردة فى موضع ، وجمعا فى موضع آخر ، أوثر التعبير فى هذا الموطن بلفظ ، وبمرادف له فى موطن آخر ، وردت واو العطف فى تلك الآية ولم ترد فى الأخرى •

هذا الاختلاف وراءه أغراض قد اقتضته ، وأسرار دعت إليه ، إنه يرجع إلى أن لكل مقام مقالا ، ولننظر فى هذه الآيات الكريمة ليتجلى لنا ما وراء اختلاف التعبير فيها من أسرار وأغراض •

ففى قوله تعالى : **« من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصـيب منها ومن يشفع شفاعة سـيئة يكن له كفـل منها »**(١) أوثر التعبير بكلمـة

---

(١) سورة النساء آية ٨٥ •

« نصيب » فى الشفاعة الحسنة ، وبكلمة « كفل » فى الشفاعة السيئة ، فلماذا ؟ أبين النصيب والكفل فرق ؟ وما هو ؟ وهل أوثر التعبير بكل منهما فى موضعه من أجل هذا الفرق ؟

إن الكفل فى اللغة معناه : النصيب ، ولكن بينهما فرق دقيق ومن أجل هذا الفرق وجب أن يعبر بالنصيب فى الشفاعة الحسنة ، وبالكفل فى الشفاعة السيئة ، ويتجلى لنا ذلك فيما يلى :

١ - أن الكفل وإن كان بمعنى النصيب إلا أنه غلب فى الشر وندر فى الخير ، ومن النادر قوله تعالى : « **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته** ٠٠ »(٢) إذ لم يرد الكفل فى الخير والرحمة فى النظم القرآنى إلا فى هذه الآية الكريمة ، أما النصيب فعلى العكس كثر استعماله فى الخير ، وندر فى الشر ، فلقلة استعمال النصيب فى الشر ، وكثرة استعمال الكفل فيه ، غوير بينهما فى الآية الكريمة حيث أتى بالكفل مع السيئة ، وبالنصيب مع الحسنة (٣) ٠

٢ - قال بعض المحققين : الكفل هو المثل المساوى ، والنصيب يشمل الزيادة عن المثل ، فالتعبير بالنصيب فى جانب الحسنة للإشعار بأن جزاء الحسنة يضاعف ، والتعبير بالكفل فى جانب السيئة للدلالة على أن من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا بمثلها ، ففى الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده (٤) ٠

٣ - وقيل : الكفل يطلق على النصيب الذى يكون اعتماد الناس عليه ، ولذا يقال : كفل البعير أى : حمى ظهره بذلك الكساء الذى

---

(٢) سورة الحديد آية ٢٨ ٠

(٣) انظر الفتوحات الإلهية ١/ ٤٠٧ ٠

(٤) انظر روح المعانى ٥/ ٩٨ ٠

يوضع عليه ، وحمى الراكب عن الارتماس بظهره فيتأذى ، ومنه قيل للضامن : كفيل ، قال ﷺ : (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة) وقال تعالى : « **وكفلها زكريا ..** »(٥) .

فلما كان الكفل هو النصيب الذى عليه اعتماد الناس ، كان التعبير به فى جانب السيئة للدلالة على أن الشفاعة المؤدية إلى ضياع الحق وتقوية الباطل تكون عظيمة العقاب عند الله تعالى ، إذ جزاؤها كفل أى : نصيب عليه الاعتماد (٦) .

٤ ـ التعبير بالكفل فى جانب الشفاعة السيئة يوحى بأن صاحب هذه الشفاعة متكفل بجرائرها التى نجمت عن شفاعته ، فإن الكفل وإن كان بمعنى النصيب فى اللغة إلا أنه يحمل معنى الضمان والكفالة(٧) .

أرأيت كيف كان التعبير بلفظ « نصيب » ملائما للشفاعة الحسنة؟ وكيف كان التعبير بلفظ « كفل » ملائما للشفاعة السيئة ؟ إن لكل مقام مقالا ، فلفظ « نصيب » يلائم الشفاعة الحسنة ، ولا يصلح فى الشفاعة السيئة ، وكذا لفظ « كفل » يلائم الشفاعة السيئة ، ولا يصلح استعماله فى الشفاعة الحسنة .

يقول ابن عطية : (وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد ، ونحن تتبين لنا البراعة فى أكثره ، ويخفى علينا وجهها فى مواضع ، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ فى سلامة الذوق وجودة القريحة) (٨) .

---

(٥) سورة آل عمران آية ٣٧ .
(٦) انظر تفسير الفخر الرازى ٢١٣/١٠ .
(٧) انظر فى ظلال القرآن ٧٢٥/٥ .
(٨) الإتقان ٩/٤ .

ويتجلى لنا ذلك فى آيتى سورة الإسراء : « **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا** »(٩) لأن الينبوع وهى العين التى لا ينضب ماؤها تختلف عن الأنهار الجارية ، فقد أريد بتفجير الأنهار كثرة المياه، فجاءت الأنهار جمعا ، وعبر فى جانبها بلفظ « تفجر » بضم التاء وتشديد الجيم من « فجر » الرباعى ، ثم جىء بالمصدر « تفجيرا » .

أما الينبوع فلم يرد بفجرها الكثرة ، كثرة المياه ، ولذا جاءت الينبوع مفردة ، وعبر فى جانبها بلفظ « تفجر » بفتح التاء وضم الجيم من « فجر » الثلاثى ، ولم يؤت بمصدره .

ولا يستقيم وضع إحدى اللفظتين فى مكان الأخرى ، لقلة مياه الينبوع إذا ما قورنت بمياه الأنهار ، فالذى يلائم الأنهار التفجير ، والملائم للينبوع الفجر ، ولذا نرجح قراءة التخفيف فى قوله تعالى : « **تفجر لنا من الأرض ينبوعا** » على قراءة من قرأ بالتشديد .

ونتأمل آيتى سورة البقرة وسورة إبراهيم ، نجد فى سورة البقرة: « **يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم** .. » وفى سورة إبراهيم : « **يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم** » لقد جاء التعبير بدون الواو فى سورة البقرة ، فلم يعطف بها تذبيح الأبناء واستحياء النساء على سومهم سوء العذاب ، بل وقع بيانا له وتفسيرا ، ومثل ذلك جاء قوله تعالى فى سورة الأعراف : « **يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم** »(١٠) فتقتيل الأبناء واستحياء النساء بيان لسوم سوء العذاب ، أما فى سورة إبراهيم فقد جاء قوله تعالى :

---

(٩) سورة الإسراء ٩٠ ، ٩١ .   (١٠) سورة الأعراف آية ١٤١ .

« **يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم** » معطوفا بالواو على قوله تعالى: « **يسومونكم سوء العذاب** » ٠

إن العطف بالواو قد جعل التذبيح شيئا آخر سوى سوء العذاب ، لأن المقام فى سورة إبراهيم مقام تذكير بأيام الله تعالى ، ومثل هذا المقام يقتضى تعداد النعم وتفصيلها ، فجعل النجاة من التكاليف الشاقة « **يسومونكم سوء العذاب** » نعمة تستوجب الشكر ، والنجاة من التذبيح نعمة أخرى ، والنجاة من استحياء النساء ـ أى : استبقاء البنات حتى يصرن نساء مشتهيات فيفترشن وينتهك عرضهن ـ نعمة ثالثة ٠

أما المقام فى سورة البقرة وسورة الأعراف فمقام تذكير بجنس النعمة ، ومثل هذا المقام لا يحتاج إلى تعداد النعم ، ولذا تركت الواو ووقع التذبيح والاستحياء بيانا لسوم سوء العذاب ٠

يقول الفخر الرازى : « إن الفائدة التى يجوز أن تكون هى المقصودة من ذكر حرف العطف فى سورة إبراهيم أن يقال : إنه تعالى قال قبل تلك الآية « **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله ٠٠** »(١١) والتذكير بأيام الله لا يحصل إلا بتعديد نعم الله تعالى فوجب أن يكون المراد من قوله « **يسومونكم سوء العذاب** » نوعا من العذاب ، والمراد من قوله « **ويذبحون أبناءكم** » نوعا آخر ليكون التخلص منهما نوعين من النعمة ، فلهذا وجب ذكر العطف هناك ـ أى فى سورة إبراهيم ـ وأما فى هذه الآية ـ آية سورة البقرة ـ فلم يرد الأمر إلا بتذكير جنس النعمة ، وهى قوله تعالى : « **اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم** » فسواء كان المراد من سوء العذاب هو الذبح أو غيره ، كان تذكير جنس النعمة حاصلا فظهر الفرق »(١٢)

---

(١١) سورة إبراهيم آية ٥ ٠

(١٢) تفسير الفخر الرازى ٣/٧٣ ٠

وفى سورة الأنعام جاء التعبير عن ملة الإسلام بإفراد الصراط والسبيل : « **وأن هذا صراطى مستقيما ... فتفرق بكم عن سبيله** » وجاء التعبير عن طرق أهل الزيغ والضلال بالجمع « **ولا تتبعوا السبل** » وهذا هو الملائم ، لأن الطريق الموصل إلى مرضاة الله واحد لا ثانى له، وهو دينه الحق ، ولذا أمر - ﷺ - فى سورة يوسف أن يقول للناس : إنه ماض على هذا الطريق الواضح الحق ، يدعو إلى الله على بصيرة من نور الله وهديه « **قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة انا ومن اتبعنى ..** »(١٣) .

أفرد السبيل عندما أريد به دين الله وملة الإسلام ، لأنها واحدة وواضحة ، لا لبس فيها ولا اعوجاج ، قال تعالى : « **إن الدين عند الله الإسلام** »(١٤) وقال عز وجل « **إن هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون** »(١٥) .

وجمع عندما أريد طرق أهل الزيغ والضلال ، لأنها متعددة معوجة لا تؤدى إلى خير « **ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** » ومما يلاحظ فى آية سورة الأنبياء ، أنه عندما أخبر عن الملة بأنها واحدة ، كان أهلها حاضرين يخاطبون « **أمتكم ... انا ربكم فاعبدون** » فلما تفرقوا وتقطعوا وصاروا شيعا ، التفت عنهم ، لأنهم غابوا عن **سبيل الله** ، غابوا عن الخير والدين الحق ، ولننعم النظر فى الآيتين : « **إن هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون . وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون** »(١٦) لقد غيبوا ، إذ لم يعودوا أهلا للخطاب عندما تركوا الملة الواحدة ، وأزاغهم الشيطان ، فتقطعوا أمرهم بينهم ..

---

(١٣) سورة يوسف آية ١٠٨ .
(١٤) آل عمران آية ١٩ .
(١٥) سورة الأنبياء آية ٩٢ .
(١٦) الأنبياء ٩٢ ، ٩٣ .

ولذا أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال : (هذا سبيل الله تعالى مستقيما ، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط ، وعن شماله ، ثم قال: وهذه السبل ، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﷺ : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ..) (١٧) .

هذا وقد وردت « السبيل » فى آيات الذكر الحكيم مفردة مرادا بها سبيل الغى والطاغوت ، والإفساد والإجرام ، كما وردت جمعا مرادا بها سبل الله ، وسبل السلام ، والهدى والحق ، ووراء ذلك أسرار دقيقة ومعان جليلة ،على نحو ما سنرى فى الإفراد والتثنية والجمع (١٨) .

وفى الآيات الكريمة المذكورة من سورة مريم نجد أن السلام قد ألقى على كل من يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ ولكن السلام الملقى على يحيى جاء نكرة « **وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا** » والملقى على عيسى جاء معرفة « **والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** » **فهل** اقتضى المقام تلك المخالفة ؟

بتأمل النظم الكريم فى سياق القصتين يتجلى لنا ما يلى :

١ ـ السلام الملقى على يحيى ـ عليه السلام ـ من قبل الله تعالى ، والقليل منه تعالى كثير ومغن عن كل تحية ، ولذا جاء نكرة، وبتتبع آيات الذكر الحكيم نجد أن السلام لم يرد من قبل الله تعالى إلا نكرة ، لهذا الغرض ، قال تعالى : « **سلام قولا من رب رحيم** »(١٩) وقال تعالى : « **قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم**

---

(١٧) روح المعانى ٥٧/٨ . (١٨) انظر ص ٢٥ ، ٢٦ .

(١٩) سورة يس آية ٥٨ .

ممن معك »(٢٠) وقال تعالى : « **وتركنا عليه فى الآخرين ٠ سلام على نوح فى العالمين ٠٠٠ سلام على إبراهيم ٠٠٠ سلام على موسى وهارون ٠٠٠ سلام على إلياسين** »(٢١) ٠

يقول جار الله الزمخشرى معلقا على الآية الكريمة : « **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** »(٢٢) ٠

يقو ل معلقا على تنكير لفظة (رضوان) : « وشىء من رضوان الله أكبر من ذلك كله ، لأن رضاه هو سبب كل فوز وسعادة ، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته ، والكرامة أكبر أصناف الثواب ، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر فى نفسه مما وراءه من النعم ، وإنما تتهنأ له برضاه ، كما إذا علم بسخطه تنغصت عليه ، ولم يجد لها لذة وإن عظمت ، وسمعت بعض أولى الهمة البعيدة ، والنفس المرة من مشايخنا ، يقول : لا تطمح عينى ، ولا تنازع نفسى، إلى شىء مما وعد الله فى دار الكرامة ، كما تطمح وتتنازع إلى رضاه عنى ، وأن أحشر فى زمرة المهديين المرضيين عنده »(٢٣) ٠

وأما السلام الملقى على عيسى ـ عليه السلام ـ فهو من قبل نفسه ومن قوله هو « **قال إنى عبد الله ٠٠٠ والسلام على** » أى : وقال السلام على ، ولذا جاء معرفا ٠

٢ ـ أن قصة يحيى قد تقدمت قصة عيسى فى السورة الكريمة ، فيصح أن يكون التعريف فى (السلام) للعهد ، ويكون المعنى : ذلك

---

(٢٠) سورة هود آية ٤٨ ٠

(٢١) سورة الصافات : الآيات ٧٩، ١٠٩، ١٢٠، ١٣٠ ٠

(٢٢) سورة التوبة : آية ٧٢ ٠ (٢٣) الكشاف ٢/٢٠٢ ٠

السلام الموجه إلى يحيى يوم مولده ويوم مماته ويوم يبعث حيا موجه إلىّ فى المواطن الثلاثة ..

٣ - فى سياق قصة عيسى اتهام لمريم « **قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا** »(٢٤) فيصح أن تكون اللام فى (والسلام) للجنس ، والمعنى عندئذ على التعريض باللعنة والعذاب لمن اتهم مريم ، وبيانه أن اللام للجنس ،فإذا قال : وجنس السلام على خاصة ، فقد عرض بأن ضده وهو اللعنة والعذاب عليهم .

ونظير ذلك قوله تعالى : « **والسلام على من اتبع الهدى** »(٢٥) فهى تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى ، فلم يتبع هدى الله الذى أرسل به أنبياءه ...

وهكذا يتجلى لنا أن المقام وسياق النظم الكريم قد اقتضى تنكير السلام الملقى على يحيى ، وتعريف السلام الملقى على عيسى ، عليهما وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وننظر فى الآيات الكريمة المذكورة من سورة يس نجدها تخبر عن أصحاب القرية ، وما كان من تكذيبهم وإنكارهم ، وما قاله الرسل الذين أرسلوا إليهم ، لقد أرسل إليهم اثنان من الرسل (فكذبوهما) فكان التعزيز برسول ثالث ، فقال الثلاثة : « **إنا إليكم مرسلون** » ، وجاء رد أصحاب القرية : « **ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون**) وفى مواجهة هذا الإنكار قالت الرسل : (**ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين**) .

وقع تكذيب من أصحاب القرية أخبر النظم القرآنى عنه بقوله

---

(٢٤) سورة مريم : آية ٢٧، ٢٨ .   (٢٥) سورة طه : آية ٤٧ .

(فكذبوهما) مجرد إخبار بوقوع التكذيب ، والتكذيب يقتضى التوكيد ، ولذا كان توكيد الرسل لرسالتهم إليهم **(إنا إليكم مرسلون)** حيث أكد الخبر بإن ، وتقديم الجار والمجرور (إليكم) على الخبر ، واسمية الجملة .

لم يستجب أصحاب القرية فيقلعوا عن تكذيبهم ويؤمنوا ، وإنما ازدادوا إنكارا وطغيانا ، واشتد تكذيبهم **(ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون)** وازدياد الإنكار يقتضى زيادة التوكيد ومضاعفة وسائله ، ولذا كانت إجابة الرسل : **(ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين)** لقد تضاعفت وسائل التوكيد فزيد على ما أكد به الخبر السابق جملة (ربنا يعلم) وهى بمثابة القسم ، وزيدت اللام فى (لمرسلون) وزيد أسلوب القصر **(وما علينا إلا البلاغ المبين)** الذى قصر مهمتهم على البلاغ المبين ، لا تتجاوزه إلى إكراههم وقسرهم على الإيمان .

جاء التوكيد - كما نرى - ملائما لحال المخاطب ، وما هو عليه من إنكار ، وقد قرر البلاغيون أن أضرب الخبر ثلاثة : ابتدائى وطلبى وإنكارى .

فالابتدائى يلقى لخالى الذهن ، ويكون بلا توكيد ، كما فى قوله تعالى : « **كتب عليكم الصيام ... أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم** »(٢٦) فالمخاطب إزاء هذه الأحكام خالى الذهن ، ولذا جاء إعلامه بها بلا توكيد .

والطلبى يلقى للمتردد السائل الذى يشك ويرتاب فى الخبر ، ولذا استحسن أن يؤكد له الخبر بمؤكد واحد دفعا لهذا الشك ، كما فى قول بشار :

---

(٢٦) سورة البقرة : الآيتان ١٨٣ ، ١٨٧ .

بكرا صاحبى قبل الهجير إن ذاك النجاح فى التبكير

فهو عندما أمر صاحبيه بالتبكير ، شغلا بهذا الأمر ، وفكرا فيما يمكن أن يكون فى التبكير حتى يؤمر به ، فجاء التوكيد (إن ذاك النجاح فى التبكير) مطمئنا وحاسما لهذا التردد .

ومن ذلك قوله تعالى : « **لا تحزن إن الله معنا** »(٢٧) حيث شغل الصديق - رضى الله عنه - وقال لرسول الله - ﷺ - (**لو نظر أحدهم فى موضع قدميه لأبصرنا**) فلما فكر فى الأمر وانشغل به ، كانت طمأنته بهذا التوكيد : (**لا تحزن إن الله معنا** ..) .

وأما الإنكارى فيلقى للمخاطب المنكر الذى يجحد الخبر ويكذب قائله ، ويجب أن يؤكد بأكثر من مؤكد دفعا للإنكار ، وذلك على نحو ما رأينا فى الآيات الكريمة من سورة يس .

ووسائل التوكيد كثيرة منها : إن وأن ، ولام الابتداء ، والقسم ، ونون التوكيد ، وحروف التنبيه نحو ألا وها ، والحروف الزائدة ، وقد وضمير الفصل والتقديم وطرق القصر ، إلى غير ذلك من وسائل التوكيد .

هذا وقد يخاطب المخاطب ، ويلقى إليه الخبر على خلاف ما تقتضى حاله لنكتة بلاغية ، وعندئذ يكون الكلام قد خرج على خلاف مقتضى الظاهر ، من أجل تلك النكتة البلاغية .

انظر إلى قوله تعالى : « **ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون** »(٢٨) تجد أن الإخبار بوقوع الموت قد أكد بأكثر من مؤكد بإن واللام واسمية الجملة والتعبير عنه بالاسم (ميتون) ولم يؤكد

---

(٢٧) سورة التوبة : آية ٤٠ . (٢٨) سورة المؤمنون : ١٤ - ١٦ .

الإخبار بالبعث إلا بمؤكدين : إن واسمية الجملة ، والموت لم ينكر أحد وقوعه ، وإنما أنكر البعث ، فما سبب زيادة التوكيد فى الأول ، وقلته فى الثانى ، وقد كان ينبغى العكس ؟

لقد نزل المخاطبون لتماديهم فى الغفلة وإعراضهم عن العمل والتفكر فيما بعد الموت ، نزلوا منزلة من ينكر وقوعه ، كما أن الموت يكره وقوعه ، فلكراهة وقوعه كأنهم ينكرونه ، وكذا قد فصلت الآيات الكريمة المتقدمة على هذه الآيات ، فصلت خلق الإنسان ، وكيف أبدع الله خلقه وأحسن صنعه ، حتى قال فى ختام هذا التفصيل : (**فتبارك الله أحسن الخالقين**) فمن لم يشاهد الموت يستبعد إماتة من خلق بهذا الإبداع وبتلك الصفة العجيبة .

لهذه الأمور الثلاثة ، وهى الغفلة ، وكراهة النفوس للموت ، وما تقدم من بيان الإبداع فى خلق الإنسان ، أكد الموت الذى لم ينكر أحد وقوعه ..

أما البعث فلكونه حياة بعد الموت ، والنفوس محبة للحياة ، كارهة للموت ، ولكون الأدلة على وقوعه واضحة جلية ، فقد نزل المنكرون له منزلة من يتردد فقط ويرتاب فى وقوعه ، فهذا أقصى ما يمكن أن يكون فى شأن البعث .

ومما تجدر الإشارة إليه أن حال المخاطب ليست هى المعول عليه دائما فى إلقاء الخبر فقد يعول على غيرها كحال المتكلم نفسه ، ومدى امتلائه بالخبر ، فإن انفعل به ، وامتلأت به نفسه أكده ، وإلا ألقاه بلا توكيد ..

انظر إلى قوله تعالى : « **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزءون** »(٢٩)

(٢٩) البقرة : ١٤ .

فإنه لا يخفى عليك عدم استقرار الخبر الأول « آمنا » في نفوسهم ، ولذا خلا من التوكيد ، أما الخبر الثانى ، فانفسهم به ممتلئة ولذا جاء مؤكدا (**إنا معكم إنما نحن مستهزءون**) .

وقد يؤكد دفعا لغرابته لكونه غريبا ، كما فى قوله تعالى : « **فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين** »(٣٠) . وقد يؤكد تحقيقا للوعد أو الوعيد ، أو لمجيئه على خلاف ما كان يرجو المتكلم ، إلى غير ذلك مما يعول عليه فى إلقاء الأخبار (٣١) .

ونجد فى الآيات الكريمة المذكورة من سورتى القمر والحاقة تشبيهين لمصرع عاد قوم هود ، حيث شبهوا فى إهلاكهم والريح تنزعهم باعجاز النخل المنقعر (**تنزع الناس كانهم اعجاز نخل منقعر**) وذلك فى سورة القمر ، وأما فى سورة الحاقة فقد شبهوا باعجاز النخل الخاوية (**فترى القوم فيها صرعى كانهم أعجاز نخل خاوية**) .

وكل تشبيه منهما يلائم السياق الذى ورد فيه ، ولا يصلح أحدهما فى مكان الآخر ، إن التشبيه فى سورة القمر يصور مصرع القوم فى بداية إرسال الريح (**إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر**) فالريح تنزعهم وهم يقاومون ، ويعانون شدتها ، وانى لهم المقاومة ، لقد أتت عليهم فصاروا كأعجاز النخل المنقعر ، أى : المنقلع عن مغارسه ، الساقط على الأرض ، فما زالت به قوة وصلابة .

أما التشبيه فى سورة الحاقة ، فهو يصور القوم وقد سخرت عليهم الريح سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فصاروا عندئذ كأعجاز النخل الخاوية ، أى : التى خلت أجوافها فصارت ضعيفة بالية . .

---

(٣٠) سورة القصص : آية ٣٠ .

(٣١) انظر كتابنا علم المعانى : ج ١ ص ٥٠ وما بعدها .

لا يتأتى هنا فى سورة الحاقة أن يشبهوا بأعجاز النخل المنقعر، لأن هذا يتنافى مع وصف الريح بالعتو وقوة العصف ، ويتعارض مع ذكر مدة التسخير ، كما لا يتأتى هناك فى سورة القمر أن يشبهوا بأعجاز النخل الخاوية ، لأن هذا يتناقض مع كون الإهلاك فى بداية الإرسال ، ومع مقاومة القوم للريح (**أرسلنا ... تنزع الناس**) .

أرأيت كيف ينسجم التشبيه فى موضعه فى كل من السورتين ؟ وكيف يتلاءم مع السياق الذى سيق فيه ؟ وكيف كان الأمر محالا إن حاولنا وضع أحدهما فى موضع الآخر ؟ مع أن كلا التشبيهين فى تصوير مصارع عاد قوم هود ... إن لكل مقام مقالا يحسن فيه ولا يصح فى غيره ، مهما تشابه المقامان واقتربا ، كما رأينا فى التشبيهين .

ولذا استقر رأى البلاغيين على أن البلاغة مطابقة الكلام لما يقتضيه المقام ، فقد عرفت البلاغة تعريفات شتى ، قالوا : هى الإيجاز ، وقالوا : هى معرفة الفصل والوصل ، وقالوا : هى اختيار الكلام وتصحيح الأقسام ، وقالوا : هى إجاعة اللفظ وإشباع المعنى ، وقالوا : هى حسن العبارة وصحة الدلالة .

ورأى ابن المقفع أن البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل ، ومنها ما يكون ابتداء .

فعامة ما يكون من هذه الأبواب ، الوحى فيها ، والإشارة إلى المعنى ، والإيجاز هو البلاغة .

فأما الخطب بين السماطين ، وفى إصلاح ذات البين ، فالإكثار

فى غير خطل ، والإطالة فى غير إملال ، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك .

قال له سائل : فإن مل السامع الإطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف ؟ فاجاب : إذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنهما لا يرضيهما شىء (٣٢) .

وقد استقر رأى البلاغيين فى تحديد مفهوم البلاغة على أنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، ولعل هذا التحديد لمفهوم البلاغة مستمد مما ذكره عبد الله بن المقفع .

* * *

الإفراد والتثنية والجمع

قال تعالى :

« ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » البقرة : ٧ .

« فما لنا من شافعين • ولا صديق حميم » الشعراء : ١٠٠، ١٠١

« وأرسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه وما انتم له بخازنين » الحجر : ٢٢ .

« وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم • ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » الذاريات : ٤١، ٤٢ .

« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين

---

(٣٢) انظر البيان والتبيين ١/ ٩٦ ، ١١٥ .

كفـروا أوليـاؤهم الطاغوت يخرجونهم من النـور إلى الظلمات أولئك أصحاب النـار هم فيهـا خالدون » البقـرة : ٢٥٧ .

« وقالوا لن تمسـنا النـار إلا اياما معـدودة قـل أتخذتم عنـد الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون » .

البقـرة : ٨٠ .

« إن المتقـين فى جنـات ونهـر . فى مقعـد صـدق عنـد مليـك مقتـدر » القمـر ٥٤ ، ٥٥ .

« ولمن خاف مقام ربه جنتـان » الرحمن : ٤٦ .

« مثـل الجنـة التى وعد المتقـون فيهـا انهـار من ماء غير آسن وانهـار من لبن لم يتغير طعمـه وانهـار من خمر لذة للشاربين وانهـار من عسـل مصفى .. » محمـد : ١٥ .

« واذكر اسـم ربك وتبتل إليه تبتيـلا . رب المشرق والمغـرب لا إلـه إلا هو فاتخذه وكيـلا » المزمـل : ٨ ، ٩ .

« رب المشرقين ورب المغـربين . فبأى آلاء ربكما تكذبان »

الرحمـن : ١٧ ، ١٨

« فلا اقسم برب المشـارق والمغـارب إنا لقـادرون . على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين » المعـارج : ٤٠، ٤١ .

« الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » الطلاق : ١٢

« الم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينـابيع فى الأرض »

الزمـر : ٢١

« إن فى خلـق السموات والأرض واختـلاف الليـل والنهـار لآيات لأولى الألبـاب » آل عمـران : ١٩٠ .

« فلو أن لنـا كـرة فنكون من المؤمنين » الشعراء : ١٠٢

« **ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير** » الملك : ٤ .

عندما نتدبر آيات النظم الكريم ، وننعم النظر فى الفاظه يتجلى لنا أن هناك الفاظا لازمت الإفراد ، فلم يرد استعمال المثنى منها ولا الجمع وذلك مثل الفاظ : النور والنار والأرض والسمع والصديق ، ونجد الفاظا أخرى لازمت الجمع كلفظ (الألباب) ولفظ (الظلمات) ، والفاظا استعملت مفردة وجمعا ، مثل : الريح والرياح ، السماء والسموات ، السبيل والسبل ، الولى والأولياء ، البصر والأبصار ، الفؤاد والأفئدة ، الشفيع والشفعاء ، والفاظا وردت مفردة ومثناة ومجموعة ، مثل : الجنة والمشرق والمغرب ، والفاظا جاءت مفردة ومثناة مثل : كرة وكرتين .

ووراء هذا الاستخدام للألفاظ ، أسرار ولطائف ، تظهر لمن أنعم النظر ، والقى السمع وهو شهيد ، فتعالوا ننظر ونتأمل لنقف على ما يوحى به الإفراد والتثنية والجمع من معان جليلة ، فى ضوء الآيات الكريمة التى ذكرناها .

الفاظ السمع والبصر والفؤاد والقلب ، عندما ترد مضافة إلى جمع ، كما فى الآية الكريمة (**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة**) يكون السمع مفردا والقلوب والأبصار جمعا ، وقد عللوا ذلك بأن السمع فى أصله مصدر ، والمصادر لا تجمع ، فلمح الأصل ، وبأن مدركات السمع نوع واحد وهو الأصوات ، أما مدركات القلوب والأبصار ، فالوان شتى ، وأنواع مختلفة ، فأشير بالجمع والإفراد إلى متعلق كل(٣٣) .

ولذا لم يرد لفظ (السمع) فى القرآن الكريم إلا مفردا ، إشارة إلى أن متعلقه شىء واحد وهو الأصوات .

---

(٣٣) انظر الإتقان ٢/٣٠١ .

هذا شأن هذه الألفاظ عندما تكون مضافة إلى جمع ، ولنقرأ الآيات : « **قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ••• فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ••• أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ••** »(٣٤) •

أما إذا كانت مضافة إلى مفرد ، أو دل السياق على أن المخاطب أو المتحدث عنه فرد واحد ، فإن البصر والفؤاد يردان مفردين ، كما في الآيات : « **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ••• أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ••• ما زاغ البصر وما طغى ••• ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** »(٣٥) •

لأن المراد بصر وفؤاد فرد واحد ، فلا يتأتى الجمع عندئذ •

وكذا إذا أريد الدلالة على السرعة ، كما في قوله تعالى : « **وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب** »(٣٦) فإن الغرض من التشبيه الدلالة على سرعة الوقوع ، والذى يناسب ذلك لفظ (البصر) لا الأبصار •

ومما لازم الإفراد في آيات الذكر الحكيم لفظ (الصديق) قال تعالى : « **فما لنا من شافعين • ولا صديق حميم** »(٣٧) • فقد جمع الشفيع وأفرد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة ، وقلة الصديق، « ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من

---

(٣٤) الآيات بالترتيب : الأنعام : ٤٦ ، الأحقاف : ٢٦ ، النحل : ١٠٨
(٣٥) الآيات بالترتيب : ق ٢٢ ، الجاثية ٢٣ ، النجم ١٧ ، الإسراء ٣٦
(٣٦) النحل : ٧٧ • (٣٧) الشعراء : ١٠٠، ١٠١ •

اهـل بلده لشـفاعته رحمـة له وحسـبة ، وإن لم يسـبق له باكثرهم معـرفة ، وأما الصديق وهو الصادق فى ودادك ، الذى يهمه ما أهمك ، فاعـز من بيض الأنوق ، وعن بعض الحكماء انه سـئل عن الصـديق فقال : اسم لا معنى له »(٣٨) ٠

ولنفس المعنى افـرد الصديق فى قوله تعـالى : « ٠٠٠ **أو بيوت اعمامكم او بيوت عماتكم او بيوت اخوالكم او بيوت خالاتكم أو ما ملكت مفاتحه أو صديقكم** »(٣٩) ولم يرد لفظ الصديق فى آيات الذكر الحكيم إلا فى هذين الموضعين ، ولعل فى هذا ما يشعر بندرة الصديق الحميم ، وقـلة وجـوده ٠

ومما ورد مفـردا وجمعا لفظ (الريح) فحيث اريد الرحمة جاءت (الرياح) جمعـا ، وحيث اريد العذاب جاءت (الريح) مفـردة ، كما فى الآيتين المذكـورتين (**ارسلنا الرياح لواقـح ٠٠٠ ارسلنا عليهم الريح العقيم**) وذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهبات والمنافع، فهى لواقح ، وهى بشرى ، وهى تقـل السحاب الثقـال ، وتثيره إلى حيث يشـاء الله ، وإذا هاجت منهـا ريح ، اثير لهـا من مقابلها ريح أخـرى تكسر من حدتها ، وتضعف من شدتها ، وتثبط من هيجانها ،

---

(٣٨) الكشاف ١١٩/٣ ، و « أعز من بيض الأنوق » مثـل يضرب لمن يعز وجوده ، والأنوق بفتح الهمزة وضم النون : الرخمة بفتح الراء والخاء جمعها : الرخم ، وهو نوع من الطير ، موصوف بالغدر ، وقد عز بيضها لأنه لا يظفر به ، إذ أوكارها فى رءوس الجبال وفى الأماكن الصعبة البعيدة ، قال الأخطل :

من الجاريـات الحـور مطلب سـرها
كبيض الأنـوق المستكنـة فى الوكر

انظر مجمع الأمثال للميداني : جـ ٢ ص ٣٩٠ ، ولسان العرب مـادة : رخـم ٠

(٣٩) النـور : ٦١ ٠

فينشا من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات ، ولذا عبر فى الرحمة بالرياح جمعا ٠

وريح العذاب تهب من مهب واحد ، لا معارض لها ، ولذا فهى تهلك ، وتدمر كل شىء بامر ربها ، وما تذر من شىء اتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وهذا هو سبب إفراد الريح فى العذاب ٠

واما قوله تعالى : « **حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ٠٠٠** »(٤٠) فإن الريح الأولى ريح رحمة ، وقد وصفت بانها ريح طيبة ، ولكنها افردت ولم تات جمعا لسببين :

١ - مقابلتها بريح العذاب فى الآية الكريمة **(جاءتها ريح عاصف)** ورب شىء يجوز فى المقابلة ولا يجوز استقلالا ٠

٢ - أن تمام الرحمة فى الفلك تكون بوحدة الريح لا باختلافها ، فإن السفينة لا تسير إلا بريح تهب من جهة واحدة ، فإن اختلفت عليها المهاب كان الهلاك ، الرحمة فى هذا المقام فى وحدة الريح ، ولذا أفردت ووصفت بالطيب « **ريح طيبة** »(٤١) ٠

وكذا القول فى الريح المسخرة لسليمان - عليه السلام - فقد جاءت فى التعبير القرآنى مفردة ، قال تعالى : « **فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب** »(٤٢) وذلك لأن هبوبها من جهة واحدة هو الذى يحقق الغاية من التسخير ، حيث تجرى بامره رخاء حيث أراد ، أما اختلاف المهاب فيناقض ذلك ، ولذا أفردت الريح لتتحقق الغاية من تسخيرها لسليمان عليه السلام ٠

---

(٤٠) يونس :٢٢ ٠ (٤١) انظر الإتقان ٣٠٠/٢ ٠

(٤٢) سوة ص : آية ٣٦ ٠

ومن الألفاظ التى وردت مفردة وجمعا : الولى والأولياء ، السبيل والسبل ، السماء والسموات ، قال تعالى : « **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** »(٤٣) ، وقال تعالى : « **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** »(٤٤) .

فولى المؤمنين واحد ، هو الله عز وجل ، وأولياء الكفار متعددون متشعبون فى الضلال والإضلال ، ولذا وحد ولى المؤمنين ، وجمع أولياء الكفار ، وكذا سبيل الحق واحدة ، وسبل الباطل متعددة ، فأفرد سبيل الحق وجمعت سبل الباطل(٤٥) .

ولما كانت الظلمات بمثابة طرق الباطل ، والنور بمنزلة طريق الحق ، فقد جمعت الظلمات ، وأفرد النور ، ولم يرد النور فى آيات الذكر الحكيم إلا مفردا ، وكذا الظلمات لم ترد إلا جمعا ، وذلك للإشعار بتعدد طرق الضلال وتشعبها ، والدلالة على وضوح طريق الحق وجلائه .

هذا وقد وردت (السبل) جمعا مرادا بها سبل السلام والهدى والحق ، قال تعالى : « **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام** »(٤٦) ، وقال تعالى : « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** »(٤٧) ، وهذا الجمع يشعر بوضوح طرق الحق وجلائها أمام طرق الباطل المعوجة ، فما من سبيل من سبل الباطل والفساد والشر ، إلا وترى سبيل الحق أمامها مشرقة واضحة ،

---

(٤٣) البقرة : ٢٥٧ .
(٤٤) الأنعام : ١٥٣ .
(٤٥) انظر : ص ١١ .
(٤٦) المائدة : ١٥ ، ١٦ .
(٤٧) العنكبوت : ٦٩ .

فهذه السبل - سبل الحق والهداية والسلام الواضحة المنيرة - كلها روافد تصب فى نهر واحد ، هو صراط الله المستقيم « **إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا** »(٤٨) ٠

أى : سبيلا من سبل الخير والفلاح التى هدى الله إليها المتقين من عباده ٠

كما وردت (السبيل) مفردة مرادا بها سبيل الغى والطاغوت والفساد والإجرام ، قال تعالى : « **وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا** »(٤٩) ، وقال عز وجل : « **وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين** »(٥٠) ، وقال جل وعلا : « **وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين** »(٥١) وقال عز قائلا : « **الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت** »(٥٢) ٠

وهذا الإفراد وراءه سر دقيق ومغزى جليل ، إنه ينبىء بوضوح هذه السبل ، سبل الغى والطاغوت ، والفساد والإجرام ، ويشير إلى جلائها واستبانتها ، وأنها لا تخفى على أحد ، وعلى الرغم من ذلك فإن الكفار يقاتلون فيها ، ويتبعونها ، ويتخذونها سبيلا ، فحق عليهم غضب الله وعقابه ، ووجب على المسلمين مناهضتهم والتصدى لهم «**فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا** »(٥٣) ٠

أما إفراد السماء وجمعها ، فإن الجمع قد ورد فى المقامات الدالة على سعة العظمة ، وكمال القدرة ، كما فى الآيات الكريمة : « **سبح لله ما فى السموات والأرض ٠٠٠ قل لا يعلم من فى السموات والأرض**

---

(٤٨) المزمل : ١٩ ٠
(٤٩) الأعراف : ١٤٦ ٠ (٥٠) الأعراف : ١٤٢ ٠
(٥١) الأنعام : ٥٥ ٠ (٥٢) النساء : ٧٦ ٠
(٥٣) النساء : ٧٦ ٠

الغيب إلا الله ... قل انظروا ماذا فى السموات والأرض »(٥٤) .

وجاء الإفراد حيث أريد الجهة أو السماء الدنيا ، كما فى الآيات : « **وفى السماء رزقكم ... أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ... تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا** »(٥٥) .

ونرى (الأرض) قد لازمت الإفراد فى النظم الكريم ، فلم تجمع كما جمعت السموات ، وعندما أريد الدلالة على العدد قال عز وجل : « **ومن الأرض مثلهن** »(٥٦) فلم يقل : وسبع أرضين ، كما قيل : (سبع سموات) ولعل ذلك يرجع إلى ثقل جمع الأرض وهو « أرضون »(٥٨) ..

ومما لازم الجمع لفظ « الألباب » فلم ترد فى النظم الكريم إلا جمعاً ، لثقل مفردها وهو لب ، ولذا لما أريد المفرد عبر بالقلب ، وبالفؤاد قال تعالى : « **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** »(٥٩) وقال تعالى : « **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** »(٦٠) .

ومما لازم الإفراد لفظ « النار » لأنها عذاب ، فناسب ذلك إفرادها ، على نحو ما رأينا فى التعبير بالريح مفردة ، أما الجنة فلكونها رحمة ، ولكونها متعددة الأنهار والثمار والنعيم ، مختلفة الأنواع ، فقد جاءت مفردة ومثناة وجمعا ، أفردت حيث أريد الدلالة على جنس الجنة ونوعها ، كما فى الآيات : « **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم**

---

(٥٤) الآيات بالترتيب : الحديد ١ ، النمل ٦٥ ، يونس ١٠١ .
(٥٥) الآيات بالترتيب : الذاريات ٢٢ ، الملك ١٦ ، الفرقان ٦١ .
(٥٦) الطلاق ١٢ .
(٥٨) انظر الإتقان ٢٩٩/٢
(٥٩) ق ٢٧
(٦٠) الإسراء ٣٦

وجنة ... مثل الجنة التى وعد المتقون ... تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا »(٦١) وجمعت حيث أريد الدلالة على كثرة النعيم المعد فيها للمتقين ، كما فى الآيات الكريمة : « إن المتقين فى جنات ونهر ... وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار .. إن المتقين فى جنات وعيون »(٦٢) .

كما جاءت مثناة فى قوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان(٦٣) لأن الخطاب فى سورة الرحمن للثقلين ، الإنس والجن ، فكأنه قيل لكل خائفين منكما جنتان ، جنة للخائف من الإنس ، وجنة للخائف من الجن ، ويجوز أن يقال : جنة لفعل الطاعات ، وأخرى لترك المعاصى ، أو جنة يثاب بها ، وأخرى تضاف إليها على وجه التفضل والزيادة ، كما جاء فى قوله تعالى : « للذين احسنوا الحسنى وزيادة »(٦٤) ..

ومن الألفاظ التى جاءت مفردة ومثناة وجمعا ، لفظ « المشرق » ولفظ « المغرب » فحيث أفردا أريد بهما الجهة ، جهة المشرق وجهة المغرب ، وحيث ثنيا أريد بهما مشرق الصيف والشتاء ومغربهما ، وحيث جمعا أريد بهما تعدد المطالع فى كل فصل من فصول السنة ، وفى كل جزء من أجزاء الأرض .

هذا وتثنية المشرق فى سورة الزخرف فى قوله تعالى : « حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين »(٦٥) فمن باب التغليب ،

---

(٦١) الآيات بالترتيب : آل عمران ١٣٣ ، محمد ١٥ ، مريم ٦٣

(٦٢) الآيات بالترتيب : القمر ٥٤ ، التوبة ٧٢ ، الذاريات ١٥ .

(٦٣) الرحمن ٤٦

(٦٤) يونس ٢٦ وانظر الكشاف ٤٩/٤ (٦٥) الزخرف ٣٨

كالقمرين للشمس والقمر ، إذ المراد بالمشرقين فى الآية : المشرق والمغرب، أما تثنيتهما فى سورة الرحمن ، فقد أريد بهما مشرق الصيف والشتاء ، ومغربهما - كما ذكرنا - وقد حسن تثنية المشرق والمغرب فى هذه السورة ، لأن سياقها سياق المزدوجين ، فإنه عز وجل قد ذكر الخلق والتعليم وهما نوعا الإيجاد ، والشمس والقمر وهما سراجا العالم ، والنجم والشجر وهما نوعا النبات ، والسماء والأرض ، والإنس والجن والمشرق والمغرب، والملح والعذب، فالسياق - كما قلت - سياق المزدوجين، ولذا حسن تثنية المشرق والمغرب فى هذه السورة الكريمة(٦٦) .

وجمع المشرق والمغرب فى سورة الأعراف « **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها** »(٦٧) وفى سورة الصافات « **رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق** »(٦٨) وفى سورة المعارج « **فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون** »(٦٩) هذا الجمع للمشرق وللمغرب يؤذن بسعة القدرة الإلهية ، ويشعر بكمال العظمة والسلطان .

ومن الألفاظ التى جاءت مفردة ومثناة لفظ (الكرة) جاءت مفردة فى مواضع كثيرة « فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ... وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ... قالوا تلك إذا كرة خاسرة »(٧٠) ولا يخفى عليك أن إفراد الكرة فى الآيات الكريمة يدل على المرة الواحدة ، فهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا رجعة واحدة ، كى يغيروا نهجهم ، ويستقيموا على الطريقة .

أما تثنيتها فقد جاءت فى موضع واحد من آيات الذكر الحكيم ، وذلك فى قوله تعالى : « **ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع**

---

(٦٦) انظر الإتقان ٢/٣٠٢ — (٦٧) الأعراف ١٣٧

(٦٨) الصافات ٥ — (٦٩) المعارج ٤٠

(٧٠) الآيات بالترتيب : الشعراء ١٠٢ ، البقرة ١٦٧ ، النازعات ١٢

البصر هل ترى من فطور ۰ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير »(٧١) والمراد بالتثنية فى الآية الكريمة التكرير والتكثير والتتابع ، كما قالوا فى « لبيك اللهم لبيك » إن المراد تلبية إثر تلبية ۰

فليس المراد بتثنية الكرة رجوع البصر كرتين اثنتين ، وإنما المراد التكثير وتكرير الرجوع مرات عديدة ، وقد أوثر التعبير بالمثنى « كرتين » للدلالة على التتابع ، والمعنى : ثم ارجع البصر رجعة بعد رجعة ، ارجعه رجعات كثيرة بعضها فى أثر بعض ، فلن ترى خللا بعد هذا الرجوع ، بل سينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ۰

* * *

التعريف والتنكير

قال تعالى :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » الحجر ٩

« ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت واخذوا من مكان قريب » سبأ : ٥١

« فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » الأعراف ٨٧

« قل هو الله أحد الله الصمد » الإخلاص ١ ، ٢

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » الفتح ٢٩

« تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب » المسد ١ ، ٢

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك » يوسف ٢٣

---

(٧١) الملك ٣ ، ٤

« فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى »
طه ٧٨ ، ٧٩

« آلم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » البقرة ١ ، ٢

« يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »

النور ٤٤

« أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون »
المؤمنون ١٠ ، ١١

«وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء»
البقرة ١٣

« فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها انثى والله اعلم بما وضعت
وليس الذكر كالأنثى » آل عمران ٣٧

« وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا » إبراهيم ٣٥

« ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق »
البقرة ٦١

« فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » طه ١٢٣

« وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » الجن ١٩

« لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده » البقرة ٢٣٣

« وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من
الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر » البقرة : ٢٣٣ .

« ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » البقرة ٩٦

« يا ابت إنى اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن ... » مريم ٤٥

« فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » البقرة ٢٧٩

« إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين » الجاثية ٣٢

« ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير
حق » آل عمران ١١٢

وراء كل من التعريف والتنكير أسرار ومزايا بلاغية ، تتجلى لمن أنعم النظر فى سياقات الكلام ، ووقف على مواقع أجزائه ، لأن النكرة لها دلالات وإيحاءات لا تكون للمعرفة ، وكذلك المعرفة لها دلالاتها وإيحاءاتها . ونحن نعلم أن أنواع المعارف ستة : الضمائر والعلم وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والمعرف بالألف واللام والمعرف بالإضافة ، وللتعريف بكل نوع من هذه الأنواع مزايا ولطائف ستتجلى لنا من خلال النظر فى الآيات الكريمة ، وتأمل سياقاتها ، والوقوف على قرائن أحوالها .

إن التعريف بضمير التكلم فى قوله تعالى : « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** »(١) فيه تاكيد لحفظ الذكر الحكيم وبث للطمانينة فى نفوس المؤمنين ، الذين تطلعوا إلى حفظ القرآن من التغيير والتبديل الذى لحق بالكتب الأخرى كالتوراة والإنجيل ، إذ امتدت إليها يد البشر بالتغيير والتحريف ، وهذا ما أقلق المؤمنين ، وأزعج نفوسهم ، وجعلهم يتطلعون إلى حفظ القرآن الكريم ، فكان التعريف بضمير التكلم ، وإسناد الحفظ إلى « نا » العظمة ليطمئن المؤمن ويقر عينا بحفظ الله تعالى للذكر الحكيم .

وخذ قوله تعالى : « **فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين** »(٢) تجد أن التعريف بضمير التكلم « إنى أنا الله » قد أفاد من التلطف والإيناس ما لا يفيده غيره ، خاصة وأن المقام يحتاج إلى هذا التلطف وذاك الإيناس ، كى يتبدد ما حل بموسى - عليه السلام - من قلق وخوف .

---

(١) الحجر ٩ (٢) القصص ٣٠

ويكثر التعريف بضمير التكلم فى مقامات الفخر والاعتداد بالنفس ، على نحو ما نرى فى قول المتنبى :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى

وأسمعت كلماتى من به صمم

وقول بشار :

أنا المرعث لا أخفى على أحد

ذرت بى الشمس للقاصى وللدانى

والأصل فى ضمير الخطاب أن يكون لمعين مشاهد ، كما فى قوله تعالى : « **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله** »(٧٤) وقد يخاطب غير المشاهد لمعنى لطيف ، كما فى قوله تعالى : « **اهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم ...** »(٧٥) فتوجه المؤمن إلى ربه عز وجل بالخطاب يشعر بمدى القرب ، وتعلق فؤاد المؤمن بربه وحضوره فى ذهنه ، ومن أجل ذلك كان الخطاب .

كما قد يخاطب غير المعين لداع بلاغى ، على نحو ما نرى فى قوله تعالى : « **ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون** »(٧٦) فالخطاب فى قوله تعالى : « **ترى** » قد أريد به كل من يتأتى خطابه ، وهذا يشعر بظهور حال المجرمين لكل راء .

وضمير الغائب لابد له من مرجع يرجع إليه لفظا كما فى قوله تعالى : « **فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** »(٧٧)

---

(٧٤) الأحزاب ٣٧ (٧٥) الفاتحة ٥ ، ٦

(٧٦) السجدة ١٢ (٧٧) الأعراف ٨٧

فضمير الغائب « هو » يرجع إلى لفظ الجلالة المتقدم ذكره فى الآية الكريمة ٠

أو معنى بأن يكون المرجع فى حكم الملفوظ به ، كما فى قوله تعالى : « **وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم** »(٧٨) فضمير الغائب « **هو** » يعود إلى الرجوع المفهوم من قوله تعالى « **ارجعوا** » ٠٠

وقد لا يوجد له مرجع لا لفظا ولا معنى ، وإنما يفهم مرجعه من السياق وقرائن الأحوال ، كما فى قوله تعالى : « **ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ٠ إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ٠ فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب** »(٧٩)

فالضمير المستتر فى قوله « توارت » تقديره « هى » ويرجع إلى الشمس التى لم يسبق لها ذكر ، وإنما دلت عليها قرائن الأحوال وسياق الآيات ، من فوات وقت الصلاة ، وذكر وقت العشى ، والتوارى بالحجاب ٠

وقد يكون الضمير للشأن أو القصة ، فيكون إيضاحه فى الجملة المذكورة بعده ، كما فى قوله تعالى : « **إنه لا يفلح الكافرون** »(٨٠) وقوله عز وجل : « **فإنها لا تعمى الأبصار** »(٨١) فالضمير فى الآية الأولى ضمير الشأن وقد فسر بما بعده ، والضمير فى الآية الثانية ضمير القصة وفسر أيضا بما بعده ، ولا يخفى علينا ما فى ذلك من الإيضاح بعد الإبهام ، وما له من أثر ووقع فى النفس ٠٠

ويأتى التعريف بالعلمية لأغراض شتى ، منها إحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم مختص به ، كما فى قوله تعالى : « **قل هو الله**

---

(٧٨) النور ٢٨ (٧٩) سورة ص ٣٠ - ٣٢
(٨٠) المؤمنون ١١٧ (٨١) الحج ٤٦

أحد . الله الصمد »(٨٢) فقد اقتضى المقام ، مقام الرد على الملحدين ، وإيضاح التوحيد ، أن يصرح بلفظ الجلالة ، منتسبة إليه الوحدانية والصمدية ، فلفظ الجلالة انسب بهذا المقام دون سائر المعارف .

ونحو ذلك أن يصرح بلفظ الجلالة عند ذكر الامور التى تختص به عز وجل ولا تنسب إلا إليه تبارك وتعالى ، كما فى قوله جل وعلا : « **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار** »(٨٣) وقوله تعالى : « **الله أعلم حيث يجعل رسالته** »(٨٤) .

ومن ذلك قوله تعالى : « **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** »(٨٥) فقد قصد إلى إحضاره - ﷺ بعينه ، وأن يصرح بانتساب الرسالة إلى ذاته زجرا للمعاندين ، وردعا للكافرين ، وإبطالا للمنكرين رسالته - ﷺ ..

وقد يكون التعريف بالعلمية للتعظيم ، أو للإهانة والتحقير كما فى قوله تعالى : « **أولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا ...** »(٨٦) وقوله عز وجل : « **تبت يدا أبى لهب وتب . ما اغنى عنه ماله وما كسب** »(٨٧) ففى الآية الأولى ذكر يعقوب - عليه السلام - بلقبه « إسرايل » ومعناه : عبد الله أو صفى الله من خلقه ، وقد ذكر يعقوب - عليه السلام - بلقبه : « إسرائيل » تعظيما له بكونه عبد الله وصفوته من خلقه ..

---

(٨٢) الإخلاص ١ ، ٢ (٨٣) الرعد ٨
(٨٤) الأنعام ١٢٤ (٨٥) الفتح ٢٩
(٨٦) مريم ٥٨ (٨٧) المسد ١ ، ٢

ولـم يخـاطب اليهود فى القـرآن إلا بقوله تعـالى : « **يا بنى إسرائيل** » دون : يابنى يعقوب ، لنكتة لطيفـة ، وهى أنهـم خوطبوا بعبادة الله ، وذكروا بدين أسلافهم ، موعظة لهم ، وتنبيها من غفلتهم ، حيث سموا بالاسم الذى فيه تذكرة بالله تعالى ، فإن « إسرائيل » اسم مضاف إلى الله تعالى فى التأويل(٨٨) ٠٠

وفى الآية الثانية ذكر « عبد العزى » بكنيته « أبى لهب » إهانة له وتحقيرا ، وإشارة إلى أنه من أهل جهنم ، ومن أصحاب السعير ، وقد غلبت عليه هذه الكنية ، فلم يكد يعرف إلا بها ، ومن ذا الذى يعرف أن اسمه عبد العزى إلا من أخبر بذلك ؟

وللتعريف بالأسماء الموصولة مزايا لطيفـة ، ومعـان دقيقـة ، مردها إلى جملة الصلة ، وما يكمن فى أبنيتها ممـا لا يوجد فى أنواع المعارف الأخرى ، فبتأمل جملة الصـلة ، والإحاطة بمعانيها ، يتجلى لنا العديد من المزايا واللطائف ٠

ولننظر فى قوله تعالى : « **والذى قال لوالديه أف لكمـا** »(٨٩) نجد أن جملة الصلة وما ذكـر بها من الوالدين ، وكلمـة « أف » التى قيلت لهما ، نجد فى ذلك تنفيرا من هذا القول ، وإهانة لقائله ، وسترا عليه إذ لم يصرح باسـمه ، وتلك المعانى لا تتأتى إلا بجملـة الصلة ، وما صرح به فيها ٠

وخذ قوله تعالى : « **وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك** »(٩٠) تجد أن جملة الصلة « هو فى بيتها »

---

(٨٨) انظر الإتقان ٧٧/٤ وكلمـة « إسرائيل » معناهـا : عبد الله ، فإسرا هـو العبد ، وإيل هـو الله بالعبرانيـة ٠ انظر تفسـير الطبرى ٥٥٣/١

(٨٩) الأحقاف ١٧

(٩٠) يوسف ٢٣

قد أكدت ثلاثة معان ، وزادتها تقريرا وتحقيقا ، وتلك المعانى هى :

١ - نزاهة يوسف - عليه السلام - وهى الغرض المسوق له الكلام ، إنه فى بيت المرأة ، وهى متمكنة منه ، وقد غلقت الأبواب وقالت هيت لك ، ومع ذلك أعرض ونأى ، وقال « معاذ الله » ففى هذا زيادة تقرير وتأكيد لنزاهته - عليه السلام .

٢ - المراودة « راودته » فإن وجوده فى بيتها ، وانفرادها به ، مما يدعو إلى تمكنها منه ، وإقبالها على مراودته ، والتفنن فى تلك المراودة .

٣ - تأكيد أن فاعل المراودة امرأة العزيز ، ودفع احتمال أن تكون المراودة امرأة أخرى شبيهة بها ، ولنتامل الآية « راودته التى هو فى بيتها » وننظر فى قولنا : راودته امرأة العزيز ، أو راودته زليخا ، إن الآية أكدت أنها هى المراودة ، ومرجع ذلك إلى جملة الصلة ، أما القول المذكور ففيه احتمال أن تكون المراودة امرأة عزيز آخر ، أو امرأة أخرى شابه اسمها اسم امرأة العزيز .

هذا ووراء التعبير بالاسم الموصول فى الآية الكريمة سر بلاغى آخر ، وهو استهجان التصريح باسمها أو بنسبتها إلى العزيز ، لأن من تقبل على فعل الفاحشة ، تنفر منها النفوس ، وتكره الألسن التفوه باسمها ، وتأبى الطباع نسبتها إلى زوجها وهو ذو الشأن ، إنه العزيز ، وهى بما فعلت صارت لا تستحق أن تنتسب إليه .

ومن أغراض التعريف بجملة الصلة تنبيه المخاطب إلى خطئه ، كما فى قوله تعالى : « **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم** »(٩١) فجملة الصلة « **تدعون من دون الله** » نبهت المشركين إلى خطئهم فى عبادتهم غير الله تعالى .

---

(٩١) الأعراف ١٩٤

ومنها الإيماء إلى وجه بناء الخبر كما فى قوله تعالى : « **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا** »(٩٢) وقوله عز وجل « **إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** »(٩٣) فقد أومأت جملة الصلة فى كل آية إلى الخبر المذكور فيها وأشارت إلى وجه بنائه ٠

ومنها إفادة معنى التفخيم والتهويل ، على نحو ما نرى فى قوله تعالى : « **فغشيهم من اليم ما غشيهم** »(٩٤) فالاسم الموصول « ما » فيه إبهام أدى إلى التهويل والتفخيم ، ولو قلنا : فغشيهم من اليم أمور عظيمة هائلة ، ما أفاد هذا القول التهويل الذى أفاده الاسم الموصول ٠

ويأتى التعريف بأسماء الإشارة لأغراض شتى ، يرجع تحقيقها إلى دلالات أسماء الإشارة ، وما بها من قرب وبعد وتميز وتجسيد ، فهذه المعانى الكامنة فى دلالة أسماء الإشارة ، تستخدم لتحقيق أغراض شتى ، ومزايا عديدة ٠٠

ففى قوله تعالى : « **خلق السموات بغير عمد ترونها والقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وانزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها من كل زوج كريم ٠ هذا خلق الله فارونى ماذا خلق الذين من دونه** »(٩٥) نجد أن اسم الإشارة « هذا » قد جسد المشار إليه ، وهو خلق السموات ، وإلقاء الرواسى فى الأرض ، وبث الدواب ، وإنزال الماء من السماء ، وإنبات الأزواج فى الأرض ، فهذه المعانى قد تجسدت باسم الإشارة ، وتميزت أكمل تمييز ، وأحضرت فى ذهن السامع محسة مشاهدة ٠٠

---

(٩٢) فصلت ٣٠ (٩٣) غافر ٦٠

(٩٤) طه ٧٨ (٩٥) لقمان ١٠ ، ١١

ومثل ذلك قوله تعالى : « **يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** »(٩٦) فالتعريف باسم الإشارة قد أبرز التقليب ، تقليب الليل والنهار ، فى صورة محسة مشاهدة ، وميزه أكمل تمييز ، وفى إيثار التعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد « ذلك » فى الآية الكريمة معنى لطيف ، هو الإشعار ببعد المنال ، إذ لا ينال العظة من هذا التقليب إلا النفوس المؤمنة القوية ، المهيأة للوعى والإدراك .

ويستخدم القرب والبعد الحسيان اللذان وضعت لهما أسماء الإشارة ، لإفادة معانى التعظيم والتحقير ، وذلك بتنزيل القرب أو البعد المعنوى منزلة القرب أو البعد الحسى الذى وضعت له أسماء الإشارة .

ويتجلى لنا ذلك فى هذه الآيات الكريمة : « **وإذا رأوك إن اتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا ... إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ... أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ... الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** »(٩٧) .

فقد أشير إلى النبى - ﷺ - باسم الإشارة الموضوع للقريب «هذا» تحقيرا له - فى اعتقادهم - وإعلانا عن رفضهم رسالته ، وأنه غير جدير بالرسالة ، لقربه وانحطاط منزلته .

وأشير إلى القرآن باسم الإشارة الموضوع للقريب « **إن هذا القرآن** » تعظيما له ، ودلالة على قرب نفعه لمن أراد أن ينتفع ، إذ المقام مقام حديث عن هدايته إلى أقوم طريق ، وكلما كان الهادى قريبا كان أنجح لهدايته ، وأقطع لعذر من ينصرف عن الانتفاع به والاسترشاد بهديه .

ودلت الإشارة بالبعيد « فذلك الذى يدع اليتيم » على تحقير

---

(٩٦) النور ٤٤

(٩٧) الآيات بالترتيب : الفرقان ٤١ ، الإسراء ٩ ، الماعون ١ ، ٢ ، البقرة ١ ، ٢

المكذب بالدين ، الذى يدع اليتيم ، وبعد منزلته فى الدنو والانحطاط ، وحرمانه من القرب وشرف الحضور .

ودلت الإشارة إلى القرآن بالبعيد « ذلك الكتاب » على بعد منزلته ، وعلو مكانته ، وبلوغه الغاية فى الكمال والهداية .

ارايت كيف نزل البعد المعنوى أو القرب المعنوى منزلة البعد أو القرب الحسى ؟ وكيف استغل هذا المعنى فى أسماء الإشارة للدلالة على التعظيم أو التحقير بمعونة السياق وقرائن الأحوال ؟

ومن الطف مواقع اسم الإشارة فى آيات الذكر الحكيم أن يذكر بعد عدة صفات للمشار إليه فيدل على أن المشار إليه قد استحق الجزاء المذكور بعد من أجل تلك الصفات المتقدمة ، وذلك كما فى قوله تعالى : **« أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون »**(٩٨) لقد افتتحت السورة الكريمة بذكر فلاح المؤمنين ، ثم تتابعت أوصافهم ، وجاء بعد هذا التتابع اسم الإشارة « أولئك » فدل على استحقاق المؤمنين إرث الفردوس من أجل تلك الصفات التى وصفوا بها .

ومن مزايا التعريف باسم الاشارة فى آيات الذكر الحكيم ، إغناؤه عن إعادة جمل عديدة ، كما فى قوله تعالى : **« ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر ... »**(٩٩) فقد أغنى اسم الإشارة عن إعادة آيات كثيرة تقدمت مشتملة على العديد من الأوامر والنواهى ، ولولا اسم الإشارة الذى أشير به إليها ، ما حسن طيها والاستغناء عنها .

ووراء التعريف « بال » مزايا بلاغية عديدة تتجلى لمن تأمل بوعى

---

(٩٨) المؤمنون ١٠ ، ١١ . (٩٩) الإسراء ٣٩

وأحاط بسياق الآيات الكريمة التى ورد بها التعريف ، ففى قوله تعالى : **« وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس »** نجـد أن « أل » فى « **الناس** » يصح أن تكون للعهد ، والمعنى : كما آمن النبى - ﷺ - ومن آمن معه ، ويصح أن تكون للجنس ، والمعنى : كما آمن جنس الناس ، والجنسـية هنا - كما يقول الزمخشرى - يتولد منها معنى لطيف ، لأنها تشير إلى أنهم هم الناس الكاملون فى الإنسانية ، فالذين آمنوا هم جنس الناس ، ومعدن الإنسانية ، ومن عداهم ليسوا منها فى شئ(١٠٠) .

وانظر فى قوله تعالى : **« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد »** إلى قوله تعالى فى ختـام الآية : **« ذلك بأنهـم كانوا يكفـرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق »**(١٠١) فقد جاءت كلمة **« الحق »** هنا معرفة ، بينما جاءت نكرة فى سورة آل عمران **« ويقتلون الأنبياء بغير حق »**(١٠٢) ويرجع ذلك إلى أن الآية من سورة البقرة تتحدث عن السـلف من بنى إسرائيل الذين قالوا لموسى - عليه السـلام - « لن نصبر على طعام واحد » وهؤلاء الحق واضح لديهم لقرب عهدهم به ، ولذلك عرف بالألف واللام ، وعلى الرغم من وضوح الحق لديهم ، فقد صنعوا ما صنعوا وارتكبوا ما ارتكبوا من قتل النبيين .

أما الآية من سورة آل عمران فتتحدث عن الخلف من بنى إسرائل الذين ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ، وهؤلاء مع طول العهد والزمن ما جدت لهم شبهة واحدة يتعلقون بها فى قتلهم أنبياء الله ، ولذا جـاء الحق هنا نكرة « بغير حق » أى : بغير وجه - يكون قد بدا لهم - من وجوه الحق .

وخـذ قوله تعالى : **« وإذ قال إبراهيـم رب اجعل هـذا بلـدا آمنـا »**(١٠٣) وقوله عز وجل **« وإذا قال إبراهيم رب أجعـل هـذا**

---

(١٠٠) الكشاف ١٨٢/١ (١٠١) البقرة ٦١

(١٠٢) آل عمران ١١٢ (١٠٣) البقرة ١٢٦

البلد آمنا »(١٠٤) فقد جاء فى البقرة « **بلداً** » بالتنكير ، وجاء فى سورة إبراهيم « **البلد** » بالتعريف ، وذلك لأن ما فى سورة البقرة دعا به قبل مصيره بلداً ، عندما ترك هاجر وإسماعيل به وهو واد غير ذى زرع ، فدعا بأن يصير بلداً آمنا .

وأما فى سورة إبراهيم فقد دعا به بعد مصيره بلداً وسكنى جرهم به ، ولذا جاء معرفا « **هذا البلد** »(١٠٥) .

وكما يكتسب الاسم النكرة التعريف بإضافته إلى إحدى المعارف المذكورة ، فإن الإضافة تلقى بظلالها على هذا التعريف ، فنجد العديد من المزايا واللطائف البلاغية ..

انظر إلى قوله تعالى : « **لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده** »(١٠٦) تجد أن الولد قد أضيف إلى أمه وإلى أبيه « **بولدها .. بولده** » استعطافا لهما وحثا على الإشفاق عليه، والكف عن مضرته، وعن المضارة بينهما ، فإن عاقبتها ترجع إليه ... يقول الزمخشرى : « فإن قلت : كيف قيل : بولدها وبولده ؟ قلت : لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافا لها عليه ، وأنه ليس بأجنبى منها ، فمن حقها أن تشفق عليه ، وكذلك الوالد »(١٠٧) .

وتأمل إضافة كلمة « عبد » إلى الله تعالى فى الآيات الكريمة : « **وإنه لما قام عبد الله يدعوه ... قال إنى عبد الله آتانى الكتاب**

---

(١٠٤) إبراهيم ٣٥ — (١٠٥) انظر الإتقان ٣٤٣/٣

(١٠٦) البقرة ٢٣٣ . — (١٠٧) الكشاف ٣٧١/١ .

وجعلنى نبيا... وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا »(١٠٨) وكيف أفادت تلك الإضافة تعظيم المضاف وتشريفه ، ولذا حق للقائل أن يقول :

ومما زادنى شرفا وتيها وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك « يا عباد » وأن جعلت أحمد لى نبيا

ومن ذلك قوله تعالى : « **فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** »(١٠٩) فقد أفادت إضافة كل من الهدى والذكر إلى الذات العلية « هداى .. ذكرى » التعظيم ، وإعلاء شأن الهدى والذكر ، ونبهت إلى وجوب القبول ، وضرورة الاتباع ، فإن هدى وذكرا ذاك شأنهما لحريان بوجوب التمسك بهما ، وحسن الانقياد لهما ، ففى هذا الفلاح كل الفلاح والفوز كل الفوز ، وفيما عداه البوار والخسران ..

ومما تفيده الإضافة الإغناء عن تفصيل يتعذر ، وهذا كثير فى آيات الذكر الحكيم ، نحو : قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وأصحاب الأيكة وأصحاب الفيل وأصحاب الأخدود ، فقد أغنت هذه الإضافة عن تفصيل يتعذر ، إذ يتعذر الإحاطة بالمضاف فى مثل هذه الإضافات ويستحيل ذكره وتفصيله .

ويقع الاسم نكرة للدلالة على أحد أمرين : النوعية ، أو أنه فرد غير معين من أفراد جنسه ، تقول : جاءنى رجل ، تريد بذلك الإفراد ، والمعنى : جاءنى رجل واحد لا رجلان ، أو تريد النوع ، أى : جاءنى رجل لا امرأة ، النكرة صالحة للدلالة على أحد هذين الأمرين .

---

(١٠٨) الآيات بالترتيب : الجن ١٩ ، مريم ٣٠ ، الفرقان ٦٣
(١٠٩) طه ١٢٣ ، ١٢٤ .

وقد تتمحض بالوصف للدلالة على العدد فقط ، أو النوع فقط ، كما فى قوله تعالى : « **وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد** »(١١٠) وقوله تعالى : « **وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم** »(١١١) تمحضت النكرة فى الآية الأولى بالوصف للدلالة على العدد ، وفى الثانية للدلالة على النوع .

هذا وقد يقصد بالنكرة الدلالة على معان كثيرة ، منها إرادة النوعية أى : الدلالة على نوع خاص غريب ، غير معهود ولا معروف ، كما فى قوله تعالى : « **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** »(١١٢) أفاد تنكير « غشاوة » الدلالة على أنها نوع غريب من الغشاوة ، متميز عن سائر الغشاوات ، لا يعرفه الناس ، ولا يعهدونه ، فهو يغطى ما لا يغطيه شىء من الغشاوات المعهودة .

ومثله قوله تعالى : « **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة** »(١١٣) أى : على نوع من أنواع الحياة يكون زائدا ومميزا عن حياة الناس .

ومنها الدلالة على التكثير ، كما فى قوله تعالى : « **وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين** »(١١٤) فقد دل تنكير الأجر على أنهم يريدون الكثرة ومضاعفة الأجر ، إن تحققت لهم الغلبة على موسى ـ عليه السلام ـ .

وأجابهم فرعون بأن لهم ما أرادوا وزيادة « **قال نعم وإنكم لمن المقربين** »(١١٥) .

ومنها الدلالة على التعظيم ، كما فى قوله تعالى : « **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب** »(١١٦) فقد دل تنكير الحياة على أن

---

(١١٠) النحل ٥١ . (١١١) الأنعام ٣٨ .
(١١٢) البقرة ٧ . (١١٣) البقرة ٩٦ .
(١١٤) الأعراف ١١٣ .
(١١٥) الأعراف ١١٤ . (١١٦) البقرة ١٧٩ .

الحياة التى يحققها القصاص حياة عظيمة ، ومما دل تنكيره على التكثير والتعظيم معا ، قوله تعالى : « **وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك** »(١١٧) إذ المقام مقام تسلية للرسول ﷺ وقد دل تنكير « رسل » على أنهم رسل عظام كثيرو العدد ، وهذا ما يلائم مقام التسلية .

ومما أفاد تنكيره التعظيم والتهويل قوله تعالى : « **فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله** »(١١٨) الآية فى سياق النهى عن الربا والكف عنه ، ومن لم ينته فليأذن بحرب من الله ورسوله ، دل تنكير « حرب » على التعظيم والتهويل ، ومن ذا الذى يطيق حربا من الله ورسوله ؟

ومنها الدلالة على التقليل كما فى قوله تعالى : « **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر** »(١١٩) دل تنكير « رضوان » على أن القليل من رضوانه تعالى أكبر من كل نعيم ، فالمعنى : وشىء ما من رضوان الله تعالى أكبر من ذلك كله ، لأن رضاه سبب كل فلاح وفوز .

ومن ذلك مجىء السلام على يحيى - عليه السلام - نكرة فى قوله تعالى : « **وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا** »(١٢٠) ومجيئه على عيسى عليه السلام معرفا فى قوله « **والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** »(١٢١) لأن السلام الملقى على عيسى من

---

(١١٧) فاطر ٤ .
(١١٨) البقرة ٢٧٩ .
(١١٩) التوبة ٧٢ .
(١٢٠) مريم ١٥ .
(١٢١) مريم ٣٣ .

قبـل نفسه والملقى على يحيى من قبل الله تعالى ، والقليل منه تعالى كثـير ، ولذا لم يرد السلام من جهة الله تعالى فى النظم القرآنى إلا نكـرة(١٢٢) ٠

ومنهـا الدلالة على التحقير ، كما فى قوله تعالى : « **إن نظـن إلا ظنـا وما نحن بمستيقنين** »(١٢٣) أى : إن نظن إلا ظنـا حقـيرا لا يعبـأ به ، ولذا لم يتبعوه ، ومثله قوله تعالى : « **قتل الإنسان مـا أكفـره ٠ مـن أى شىء خلقـه ٠ مـن نطفـة خلقـه فقـدره** »(١٢٤) أى : مـن شىء حقير مهين ، وقد بينه بقوله « **من نطفة خلقه** » ٠

وانظـر فى قوله تعالى : « **يا ابت إنى اخاف أن يمسك عـذاب مـن الرحمن فتكون للشيطان وليا** »(١٢٥) وتأمل ماذا يفيد تنكير كلمة « عـذاب » ؟ أيفيد التعظيم والتهويل أم يفيد التقليل والتحقير ؟

رأى البلاغيـون أن تنكير « عذاب » يدل على أنه عذاب عظيـم هائـل ، لا يحيط به الوصف ، وأن هذا لا يتعارض مع ذكر المس « أن يمسـك » ولا مع ذكر الرحمن فى الآية الكريمة ، لأن المس ذكر مـع العذاب العظيم ، قـال تعـالى : « **لمسكم فيما أفضـتم فيـه عـذاب عظيـم** »(١٢٦) ولأن عذاب الرحمن يكون أشد ، وغضبه أعظم ، ومـن أجل هذا أمر باتقاء شر الحليم ، واستعيذ من غضبته ٠

ويـرى الزمخشرى أن تنكير « عذاب » يـدل على التقليل ، إذ الكـلام لم يخل من حسن أدب الابن مع أبيه ، فهو لم يصرح بأن العذاب لاحـق به ومصيبه ، بل جعله خوفا منه « إنى أخاف » وذكر أنه مس ، والمس أقـل تمكنا من الإصـابة ، ثم نكـر العـذاب ، وذكـر الرحمن

---

(١٢٢) ارجع الى ص ١٢ ـ ١٤

(١٢٣) الجاثية ٣٢ ٠ (١٢٤) عبس ١٧ ـ ١٩ ٠

(١٢٥) مريم ٤٥ ٠ (١٢٦) النور ١٤ ٠

ولـذا فهو يرى أن تنكير « عذاب » للدلالة على التقليل والتحقـير ، وليس للدلالة على التعظيم والتهويل ، كما ذكر البلاغيون (١٢٧) ٠

* * *

التوابـع والقيـود

قـال تعـالى :

« الحمـد لله رب العالمين ٠ الرحمن الرحيم ٠ مالك يوم الدين ٠ إياك نعبد وإياك نسـتعين ٠ اهـدنا الصراط المستقيم ٠ صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » سورة الفاتحة ٠

« قـال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمـن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون » الأعراف ٧٥ ٠

« ومـن يفعل ذلك يلق أثاما ٠ يضاعف له العذاب يوم القيامـة ويخلد فيه مهانا » الفرقان ٦٨ ، ٦٩ ٠

« جعـل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس » المائدة ٩٧ ٠

« ولا تجعـل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسـطها كل البسـط » الإسراء ٢٩ ٠

« فسـجد الملائكة كلهم أجمعون ٠ إلا إبليس أبى أن يكـون مـع الساجدين » الحجر ٣٠ ، ٣١ ٠

« ولقـد جاء آل فرعون النذر ٠ كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » القمر ٤١ ، ٤٢ ٠

« حـتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسـلون » الأنبياء ٩٦ ٠

---

(١٢٧) انظر الكشاف ٢/٥١١ ٠

« إن الله لا يحب كل مختال فخور » لقمان ١٨ ٠

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة ٠٠ » الأنعام ٩٤ ٠

« حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين » الأنعام ٢٥ ٠

« وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا » الإسراء ٤ ٠

« ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » الأنعام ١٥١

« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » الإسراء ٣١ ٠

« وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا » الإسراء ٢٨ ٠

« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ٠ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » القصص ٨ ٠

« وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » سبأ ٢٤ ٠

« ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون » السجدة ٢٢ ٠

« ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فاعرض عنها ونسى ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ٠٠ » الكهف ٥٧ ٠

« وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون » الروم ٣٦ ٠

« قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا » الكهف ٧٥ ٠

« هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» الجاثية ٢٩ ٠

« قولـوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ٠٠ قل آمنا بالله وما أنزل علينا» البقرة ١٣٦ وآل عمران ٨٤ ٠

« واسـتفزز من استطعت منهـم بصوتك وأجلب عليهم بخيـلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم » الإسراء ٦٤ ٠

« ما جعـل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعـل أزواجكـم اللائى تظاهـرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم » الأحزاب ٤ ٠

تأتى التوابـع والقيود فى التراكيب لتحقيق أغراض ومقاصد ومزايا بلاغية يهدف إليها المتكلم ، فالجملـة عندما تقيـد بالحال أو بالصـفة أو بالجار والمجرور ، يتوجه الحكم المفاد بها إلى ذلك القيد ، ويكون وراء تقييد الجملة به مزية يرمى المتكلم إلى دلالة التركيب عليها ٠

وكـذا الشأن عندما يقع فى الجملة الإبدال أو عطف البيـان أو النسق أو التوكيد ، يكون وراء تلك التوابع مرام يرمى إليها ، ومقاصد يهدف إلى تحقيقها ودلالة الكلام عليها ٠

والتوابـع والقيود فى النظم القرآنى الكريم وراءها العديد مـن اللطائف والمزايا البلاغية التى تتجلى للناظر المتأمل ، والمتدبر الواعى، الذى أحسن النظر ، وأحكم التدبر ، وألقى السمع وهو شهيد ٠

ولنقـرأ سورة الفاتحة وننعم النظر فى نظمها الكريم ، فقد بدأت بالحمد والثناء « الحمد لله » ثم أجريت تلك الصفات « رب العالمين ٠ الرحمن الرحيم ٠ مالك يوم الدين » على الله تعالى ، للدلالة على أنـه الحقيق بالحمد ، لا أحد أحق به منـه ، بل لا يسـتحقه على الحقيقـة سواه ، وللإشعار باختصاصه تعالى بالعبادة ، فتلك الصـفات بمثابـة الدليل على ما أفصحت عنه الآيات الكريمة بعد من اختصـاصه تعـالى بالعبادة والاستعانة ٠

جـاء فى تفسير البيضاوى : « وإجراء هـذه الأوصـاف على الله تعالى ، من كونه موجدا للعالمين ، ربا لهم ، منعما عليهم بالنعم كلهـا ظاهرها وباطنها ، عاجلها وآجلها ، مالكا لأمورهم يوم الثواب والعقاب، للدلالة على أنه الحقيق بالحمد لا أحد أحق به منه ، بل لا يستحقه على الحقيقة سواه ، فإن ترتب الحكم على الوصف يشعر بعليته له ، وللإشعار من طريق المفهوم على أن من لم يتصف بتلك الصفات ، لا يستأهل لأن يحمد فضلا عن أن يعبد ، فيكون دليلا على ما بعده ، فالوصف الأول ـ رب العالمين ـ لبيان ما هو الموجب للحمد ، وهو الإيجاد والتربية ، والثانى والثالث ـ الرحمن الرحيم ـ للدلالة على أنه متفضل بذلك ، مختار فيه ، والرابع ـ مالك يوم الدين ـ لتحقيق الاختصاص فإنه مما لا يقبل الشركة فيه بوجه ما ، وتضـمين الوعـد للحامدين ، والوعيـد للمعرضين »(١٢٨) .

ونمـضى مع سياق السورة الكريمة ، فنجد الترقى من البرهـان إلى العيان ، والانتقال من الغيبة إلى الحضور فى قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » وكأن المعلوم صار عيانا ، والمعقـول مشـاهدا ، والغيبة حضورا ، ويرجع ذلك إلى تلك الصفات الجليلة التى وصف بها عز وجل ، والتى هيأت النفس لذلك الترقى ، فأقبلت إلى ربها عز وجل، تناجيه عن قرب : يا من هذه شئون ذاته وصـفاته ، نخصـك بالعبادة والاستعانة ، فإن ما سواك كائنا ما كان لا يستحق الوجود فضلا عن أن يستحق أن يعبد أو يستعان ، ولعل هذا هو السر فى اختصاص هـذه السورة الكريمة بوجوب القراءة فى كل ركعة من الصلاة التى هى مناجاة العبد لمولاه تبارك وتعالى(١٢٩) .

---

(١٢٨) أنوار التنزيل ١/٩ .

(١٢٩) انظر تفسير أبى السعود ١/١٦ .

ويأتى قوله تعالى : « **اهدنا الصراط المستقيم** » بيانا للمعونة المطلوبة ، وإفرادا لما هو المقصود الأعظم ، ووصف الصراط بالاستقامة يؤكد وصول العبد إلى غايته ومبتغاه من إرضاء ربه ، حيث سار على المنهج الحق ، فالطريق المستقيم لا يشتبه على سالكه فيضل ، والطريق المستقيم هو أقرب الطرق إلى مرضاة الله ، إذ الخط المستقيم أقصر خط يصل بين نقطتين ، والعبد بعجزه وضعفه يحتاج إلى سلوك هذا الطريق المستقيم ليصل إلى بر الأمان ، أرأيت كيف كان وصف الصراط بالاستقامة مؤكدا وصول سالكه إلى مرضاة ربه ؟

ثم يأتى قوله تعالى : « **صراط الذين أنعمت عليهم** » بدلا من الصراط المستقيم بدل الكل ، والبدل فى حكم تكرار العامل ، فكأنه قيل: اهدنا الصراط المستقيم ، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم ، ولذا فإن البدل فى الآية الكريمة يحقق الأغراض الآتية :

١ - الإيضاح لما خفى فى المبدل منه ، فإن قوله تعالى : « **صراط الذين أنعمت عليهم** » أوضح للمراد ، وأوفى بأداء الغرض ، وكأن المبدل منه وهو قوله تعالى : « **اهدنا الصراط المستقيم** » قد ذكر تمهيدا وتوطئة لذكر البدل .

٢ - التوكيد والتنصيص على أن طريق المسلمين المنعم عليهم هو المشهود له بالاستقامة ، لأنه جعل كالتفسير والبيان للمبدل منه ، فكأنه من البين الذى لا خفاء فيه أن الطريق المستقيم هو طريق المنعم عليهم بالإيمان .

٣ - والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضا ، وقد فسر المنعم عليهم، أصحاب الصراط المستقيم فى قوله تعالى من سورة النساء : « **وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما . ولهديناهم صراطا مستقيما . ومن يطع**

الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » (١٣٠) .

وكان طالب الصراط المستقيم يطلب رفقة يهتدى بهديهم ويستضيء بنورهم ، وقد جاء بيان تلك الرفقة الذين أنعم الله عليهم فى هذه الآية الكريمة ، إنهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ، وأنعم بهم من رفقة يهتدى بها ويستضاء بنورها .

وأما قوله تعالى : « **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » فإنه بدل من الاسم الموصول « الذين » على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال ، أو صفة مبينة للموصول ، أو مقيدة له ، والمعنى أنهم قد جمعوا بين النعمة المطلقة ، وهى نعمة الإيمان ، وبين السلامة من الغضب والضلال (١٣١) .

وفى قوله تعالى : « **قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم** .. » (١٣٢) وقع قوله تعالى : «**لمن آمن منهم**» بدلا من « الذين استضعفوا » بإعادة العامل ، وهو بدل الكل إذا جعل الضمير فى « منهم » عائدا على « قومه » وبدل البعض إن جعل عائدا على الموصول « للذين » على أن من المستضعفين من لم يؤمن .

والغرض البلاغى لهذا الإبدال التصريح بإيمان أولئك المستضعفين وإظهاره والتنصيص عليه ، فقد ترسخ الإيمان فى قلوبهم ، وتغلغل بداخلهم ، إلى حد جعلهم يواجهون به الطغاة ، ويصرحون به للملأ الذين استكبروا ، فقد سألوهم عن العلم بإرسال صالح ، سؤال سخرية واستهزاء ، وتكبر واستعلاء ، فجعل المستضعفون المؤمنون إرساله أمرا

---

(١٣٠) النساء ٦٧ - ٦٩ .
(١٣١) انظر تفسير أبى السعود ١/١٨ وأنوار التنزيل ١/١١ .
(١٣٢) الأعراف ٧٥ .

معلوما مكشوفا مسلما ، لا يدخله ريب ، كأنهم قالوا : العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ، ولا شبهة تدخله لوضوحه وظهوره ، وإنما الكلام فى وجوب الإيمان به ، فنخبركم أنا به مؤمنون ، ولذا كان جواب الكفرة « إنا بالذى آمنتم به كافرون » فوضعوا « آمنتم به » موضع : أرسل به ، ردا لما جعله المؤمنون معلوما ، وأخذوه مسلما (١٣٣) .

وانظر فى قوله تعالى : « **ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا** » (١٣٤) فقد وقع قوله « يضاعف له العذاب » بدلا من قوله : « يلق أثاما » وفى هذا البدل إيضاح وتجلية للمبدل منه ، لأن به نوع خفاء تتطلع النفس لمعرفته والوصول إليه ، وقوله « يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا » أوفى بالغرض وأكثر بيانا له من قوله تعالى « **يلق أثاما** » .

والشىء إذا خفى على النفس ثم جاء البيان والإيضاح وقع فى النفس موقعا حسنا ، لأنه جاءها وهى عنه تبحث ، وله تترقب ، وإليه تتطلع .

وخذ قوله تعالى : « **جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس** » (١٣٥) تجد أن « البيت الحرام » قد وقع عطف بيان للكعبة ، والغرض منه المدح والدلالة على عظم شأن الكعبة المكرمة ، وليس المراد به إيضاح المعطوف عليه ، لأن الكعبة أشهر من نار على علم .

فعطف البيان كما يأتى لبيان المعطوف عليه وإيضاحه وتجليته ، فإنه يأتى لأغراض أخرى ، كالمدح والتعظيم فى هذه الآية الكريمة ، ويرجع المدح والتعظيم إلى ما فى عطف البيان « البيت الحرام » من

---

(١٣٣) انظر الكشاف ٢/٩١ . (١٣٤) الفرقان ٦٨ ، ٦٩ .

(١٣٥) المائدة ٩٧ .

معنى الحرمة والاحترام ، والمنع من كل امتهان وانتهاك ، فقد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة ٠

ومنها التقبيح والتحقير ، كما فى قوله تعالى : « **واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ٠ من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ٠ يتجرعه ولا يكاد يسيغه** »(١٣٦) فقوله « صديد » عطف بيان لـ « ماء » على جهة التحقير والتنفير ، لأنه أبهم فى قوله تعالى : « **ويسقى من ماء** » ثم بين بقوله « صديد » وهو ما يسيل من أجساد أهل النار من دم وقيح ، وفى هذا من التقبيح والتحقير ما فيه ، ولذا فإن كل جبار عنيد يتجرعه ، أى : يتكلف جرعه مرة بعد أخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه ، ولا يسيغه ، بل لا يقارب إساغته ، **وإنما يغص به غصا**، إذ كيف تكون الإساغة وهو بهذا الشأن ٠

ومن التوابع التى ينبغى تدبرها فى النظم الكريم ، والوقوف أمامها لإدراك مغزاها ، والإحاطة بما وراءها ، التوكيد اللفظى ، والتوكيد المعنوى بالنفس والعين وبكلا وكلتا ، وبألفاظ العموم ككل وجميع وأجمع ٠

فالتوكيد اللفظى يكون بإعادة اللفظ ذاته ، اسما أو فعلا أو حرفا، كما فى الآيات الكريمة : « **هيهات هيهات لما توعدون ٠٠ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ٠٠ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا** »(١٣٧) فقد كرر اسم الفعل « هيهات » تأكيدا لاستبعادهم ما يوعدون ، وكرر فعل الأمر « أمهلهم » توكيدا للوعيد ، وكرر المصدر « دكا » تأكيدا لدك الأرض

---

(١٣٦) إبراهيم ١٥ - ١٧ ٠

(١٣٧) الآيات بالترتيب : المؤمنون ٣٦ ، الطارق ١٧ ، الفجر ٢١ ٠

وتسويتها ، فقد كرر عليها الدك حتى عادت هباء منبثا(١٣٨) .

وأمـا التوكيد المعنوى ، فيكون - كما قلنـا - بالنفس والعين ، وكلا وكلتا ، والفاظ العموم ككل وجميع وأجمع ، فمن ذلك قوله تعـالى « **فسجد الملائكة كلهـم أجمعـون** »(١٣٩) حيث أكـد سـجود الملائكـة بتوكيدين ، دل التوكيد الأول « كلهم » على دفع توهم عدم الشمول ، ودل التوكيد الثانى « أجمعون » على اجتماعهم على السجود ، وأنهم لم يسجدوا متفرقين ، بل سجدوا دفعة واحدة .

يقـول العلامة الجمل : « وسـئل المبرد عن هـذه الآيـة فقال : لو قال « فسجد الملائكة » احتمل أن يكون سجد بعضهم ، فلمـا قـال « كلهم » زال هذا الاحتمال ، فظهر أنهم بأسرهم سجدوا ، ثم عند هذا بقى احتمال ، وهو أنهم هل سجدوا دفعة واحدة ، أو سجد كل واحـد فى وقت ؟ فلمـا قـال « أجمعـون » ظهـر أن الـكل سـجدوا دفعـة واحدة »(١٤٠) وبهذين التوكيدين قد ازداد تقرير المعنى فى الذهن ، وتمكن فى النفس فضل تمكن .

ولننعـم النظر فى هذه الآيات الكريمـة : « قد كان لكم آيـة فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين .. لقد جاءكم رسول من أنفسكم .. إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما .. كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا .. ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها .. حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون »(١٤١) .

---

(١٣٨) انظر الكشاف ٢٥٣/٤ .   (١٣٩) الحجر ٣٠ .

(١٤٠) الفتوحات الإلهية ٥٤٤/٢ .

(١٤١) الآيات بالترتيب : آل عمران ١٣ ، التوبة ١٢٨ ، الإسراء ٢٣ ، الكهف ٣٣ ، القمر ٤١ ، ٤٢ ، الأنبياء ٩٦ .

الفئـة الكافرة ترى المؤمنة مثليها على ما هو الراجح فى تأويـل الآية الكريمة ، وقد أكدت هذه الرؤية بقوله تعالى : « **رأى العين** » أى: رؤية ظاهرة واضحة لا لبس فيها ، ووراء هذا التوكيد عناية الله وتاييده للمؤمنين بالنصر « **والله يؤيد بنصره من يشاء** » لقد أرى الكافرين المؤمنين مثليهم رأى العين ، تقوية للمؤمنين وتاييدا ، وتضعيفا للكفرة وخذلانا (*) .

وقـوله تعالى : « **من أنفسكم** » تاكيدا لمجىء الرسول ﷺ - من بينهم ، ووراءه معان كثيرة ، ومزايا عديدة ، ووراءه حرصه ﷺ علـى هدايتهم ، وخوفه عليهم عذاب يوم عظيم ، ووراءه الحث على الإقبال والمبادرة إلى الامتثال والخضوع ، ولذا قال عز وجل عقب ذلك « **فإن تولوا فقل حسبى الله ..** »(١٤٢) .

ووراء مجىء « كـلا » فى قولـه تعـالى : « **أو كلاهمـا** » **حث** المؤمن على بر والديه والإحسان إليهما ، والا يفزع ويتضجر لوجودهما معا عنده ، وقد بلغا من الكبر عتيا ، لأن الله - عز وجل - هو الذى قضى بالإحسان إليهما .

وفى قـوله تعالى : « **كلتا الجنتين آتت أكلهـا** » تاكيـد لإثمـار الجنتين معا غاية الإثمار ، وكان يجب على صـاحبهما أن يشـكر تلك

(*) وقيل : إن المعنى على أن الفئة المؤمنة هى التى ترى الكافرة مثليها ، وقد كان عدد المؤمنين ثلاثمائة وثلاثـة عشر مؤمنـا ، وعـدد المشركين تسعمائة وخمسين مشركا ، وقيل : ألفا ، ولكن المؤمنين رأوهم مثليهم ، أى : رأوهـم سـتمائة وسـتة وعشرين مشركا ، وذلك ليثبتوا ويطمئنوا بالنصر الموعود فى قوله تعالى : « **فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ..** » **الأنفال٦٦**، وانظر روح المعانى ٩٦/٣ .

(١٤٢) **التوبة ١٢٩** .

النعمة ، ولكنه نسى ربه وطغى وتكبر على صاحبه ، ولم تجد معه المحاورة ، فكان جزاؤه أن أحيط بثمره « **واحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم اشرك بربى أحدا** »(١٤٣) •

وقوم فرعون طغوا ، وأعرضوا عن آيات الله ، وكذبوا بها كلها، التوكيد هنا أفاد الشمول والعموم ، فهم لم ينظروا فى آية من آيات الله تعالى ، بل أعرضوا عنها جميعا ، وكذبوا بها كلها ، فماذا ينتظرون بعدئذ ؟ إنه الإهلاك وشدة الأخذ ، « **فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر** »(١٤٤) ويأجوج ومأجوج يصور القرآن كثرتهم حين يخرجون ، فتأتى « كل » هنا مضافة إلى النكرة لتؤسس الشمول « وهم من كل حدب ينسلون » إن شروعهم وانبعاثهم يشمل كل حدب ، وعليك عندئذ أن تتصور مدى كثرتهم •

هذا وكلمة « كل » تأتى تأكيدا وتأسيسا ، فهى تؤكد العموم والشمول عندما تكون مضافة إلى المعرفة ، كما فى الآيات : « **كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل •• فسجد الملائكة كلهم •• ولقد** أريناه **آياتنا كلها** »(١٤٥) فالشمول مفاد بدونها وهى قد جاءت لتأكيده ، ودفع توهم غيره •

وعندما تكون مضافة إلى نكرة فإنها هى التى تفيد الشمول وتؤسسه ، كما فى الآيات : « **كل حزب بما لديهم فرحون •• وكل شىء فصلناه تفصيلا •• وهم من كل حدب ينسلون** »(١٤٦) فالشمول لا يفاد

(١٤٣) الكهف ٤٢ •　　(١٤٤) القمر ٤٢ •

(١٤٥) الآيات بالترتيب : آل عمران ٩٣ ، الحجر ٣٠ ، طه ٥٦ •

(١٤٦) الآيات بالترتيب : المؤمنون ٥٣ ، الإسراء ١٢ ، الأنبياء ٩٦ •

أصلا عند الإضافة إلى النكرة إلا بها(١٤٧) ٠

وقـد غاب هذا عن العلامة سعد الدين التفتازانى ، فاستدرك على الإمام عبد القاهر قطعه بأن إعمال الفعل المنفى فى « كل » يفيد نـفى العموم ، كقولك : لم يأت كل القوم ، فالمعنى على أنه قد أتى بعضهم، أى أن الفعل المنفى الموجه إلى كل ، قد أفاد نفى العمـوم ، لا عمـوم النفى ، الذى يفاد بتقدم « كل » على النفى نحو : كل القوم لم يأتوا ٠

يسـتدرك سعد الدين بأن ذلك يتناقض مع ما تدل عليه الآيات الكريمة : « **إن الله لا يحب كل مختال فخور ٠٠ والله لا يحب كل كفـار أثيم ٠٠ ولا تطع كل حلاف مهـين** »(١٤٨) إذ لا يقـال : إن الله يحب بعض الكفرة والمختالين دون بعض ، وأن الرسول ﷺ منهى عن طاعة بعض الحلافين دون بعض(١٤٩) ٠

وغاب عن العلامة سعد الدين ـ كما قلت ـ التفريق بين «كل»التى تفيد توكيد العموم بإضافتها إلى المعرفة ، و « كل » التى تفيد تأسيسه بإضافتها إلى النكرة ، فكلام عبد القاهر عن « كل » المضافة إلى المعرفة الدالة على التوكيد لا على التأسيس ، فهى بمثابة قيد قيد به الكلام ، والنفى موجه إلى ذلك القيد فقط ٠

يقـول عبد القاهر : « وإذا كان هذا حكم النفى إذا دخل على كلام فيه تقييد ، فإن التأكيد ضرب من التقييد ، فمتى نفيت كلاما فيه تأكيد ، فإن نفيك ذلك يتوجه إلى التأكيد خصوصا ويقع له »(١٥٠) ٠

---

(١٤٧) انظر الإيضاح ١/١١٢ ٠

(١٤٨) الآيات بالترتيب : لقمان ١٨ ، البقرة ٢٧٦ ، القلم ١٠ ٠

(١٤٩) انظر المطـول ١٢٥ ٠ (١٥٠) دلائل الإعجاز ٣٧٥ ٠

ولمزيد من الإيضاح ننظر إلى توجه النهى إلى « كل » فى الآيتين : **«ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط»(١٥١)** وقوله تعالى : **« ولا تطع كل حلاف مهين »(١٥٢)** نجد أن « كل » فى الآية الأولى مؤكدة ، فهى مضافة إلى معرفة ، وقد تسلط النهى عليها ، فالمراد نفى العموم ، أو النهى عن العموم ، وهو ما يأمر به المولى عز وجل ، أن يتوسط المؤمن ، فلا يبذر ولا يقتر ، لا يجعل يده مغلولة إلى عنقه ، ولا يبسطها كل البسط .

أما « كل » فى الآية الثانية فهى مؤسسة للشمول ، إذ هى مضافة إلى نكرة « كل حلاف » فالنهى ليس موجها إلى قيد حتى يقال إن المراد دفعه ، أى النهى عن البعض وإثبات البعض ، وإنما هو موجه إلى مضمون الجملة ، فالمراد عموم النفى وشموله كل الأفراد .

وبهذا يتجلى لنا أنه لا وجه لاستدراك سعد الدين ، لأن كلام عبد القاهر فى « كل » المؤكدة لا المؤسسة ، و « كل » فى الشواهد التى استدرك بها سعد الدين مؤسسة للشمول ، وليست مؤكدة له ، لأنها مضافة إلى نكرة .

ووراء تقييد الجملة بالحال أو الصفة أو المفعول أغراض شتى ، ومعان جليلة ، وقد وقفنا على ما وراء الصفات ـ صفات الجلال ـ فى سورة الفاتحة من معان لطيفة ، وانظر فى قوله تعالى : **« وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا »(١٥٣)** تجد أن تقييد الفعل بالمصدر « علوا » قد دل على شدة طغيانهم وإفسادهم وتكبرهم ، وقد تضاعف هذا المعنى وازداد تقريرا بتلك الصفة « كبيرا » .

---

(١٥١) الإسراء : ٢٩

(١٥٢) القلم : ١٠ .

(١٥٣) الإسراء : ٤ .

وانظر إلى تقييد الجملة بالحال فى الآيات « **ولقد جئتمونا فرادى ... حتى إذا جاءوك يجادلونك ... وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ... فمن اضطر غير باغ ولا عاد** »(١٥٤) ، تجد أن الحال (فرادى) أشار إلى تجردهم مما حرصوا عليه وآثروه فى الدنيا من الأموال والأولاد والشركاء ، حيث تركوا ذلك كله وراء ظهورهم ، وصاروا اليوم فرادى ، لا يملكون شيئا ، وهذا يشعر بهول الموقف وعظم ذلك اليوم .

ويدل الحال (يجادلون) على ما طبع عليه أولئك المعاندون ، لقد طبعوا على العناد والجدال فى الباطل ، فهم يكثرون المجىء إلى النبى - ﷺ - وقد دل على ذلك التعبير بإذا (**إذا جاءوك**) وليت مجيئهم للعظة وإرادة الخير ، إن مجيئهم للعناد والجدال فى الباطل، وهذا ما دل عليه تقييد المجىء بالحال (يجادلونك) ثم جاء جواب إذا « **يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين** » فافصح عن نوع الجدال ، إنه جدال فى الباطل والضلال .

ويشعر الحال (على مكث) بما يجب عند قراءة القرآن من التثبيت والتؤدة والتأنى ، وعدم التعجل والتسرع ، ينبغى إقامة الحروف ، وتجويد العبارات وترتيله ترتيلا ، ينبغى التدبر والتأمل وحسن الفهم لمعانيه وأحكامه ، ويرجع ذلك إلى تقييد القراءة بتلك الحال (على مكث) .

وقد أباح الله تعالى للمضطر أمورا لا تجوز لغير المضطر ، منها أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، ولكن على المضطر أن يأخذ من

---

(١٥٤) الآيات بالترتيب : الأنعام ٩٤ ، الأنعام ٢٥ ، الإسراء ١٠٦ ، الأنعام ١٤٥ .

هذه المحرمات بقدر ، ولا يتجـاوز حد الضرورة ، دل على ذلك تقييد الأكل بالحال (غير باغ ولا عـاد) وحذف الفعـل (أكل) إذ التقدير : فمن اضطر فأكل غير باغ ولا عـاد ٠٠

وتأمـل تقييـد الجمـلة بالمفعـول لأجـله فى الآيات الكريمة : **« ولا تقتلوا أولادكم من إمـلاق ٠٠٠ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ٠٠ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها »(١٥٥) ٠**

لقد قيد النهى عن القتـل فى الآية الأولى بقوله (من إمـلاق) ولذا قدم رزقهم على رزق الأولاد ، (نحن نرزقكم وإياهم) ، وقيد فى الثانية بقوله (خشـية إمـلاق) ولذا قـدم رزق أولادهم على رزقهم (نحن نرزقهم وإياكم) فلما كان الباعث على القتـل فى سورة الأنعام الإملاق الناجز (من إمـلاق) قدم رزقهم على رزق أبنائهم ، ولمـا كان الباعث عليه فى سورة الإسراء الإملاق المتوقع (خشية إملاق) قدم رزق الأبنـاء فكأنه قيـل : نحن نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شىء فيعتريكم ما تخشـونه(١٥٦) ٠

وقيد الإعراض عن ذى القربى واليتامى والمساكين بقوله (**ابتغاء رحمـة من ربك ترجوها**) للإشعار بأن الإعراض عنهم لا يكون إلا لذلك، ابتغاء رحمة الله ، وفضلا عن أن الإعراض عنهـم لا يكون إلا ابتغـاء الرحمـة ، فينبغى عند الإعراض التحلى بالمعـاملة الحسنة ، والقول الطيب (**فقـل لهم قـولا ميسـورا**) ٠

ولا يتسع المقام هنا للإفاضة فى الحديث عما وراء عطف النسق من أغراض بلاغية ، ولكن نشير مجـرد إشارات يهتدى بها فى تجلية الأسرار

---

(١٥٥) الآيات بالترتيب : الأنعام ١٥١ ، الإسراء ٣١ ، الإسراء ٢٨ ٠

(١٥٦) **انظر تفسير أبى السعود ١٦٩/٥ ٠**

البلاغيـة الكامنة وراء حـروف العطف واستخداماتها فى آيات الذكـر الحكيم ، وينبغى أن يعـلم بأن هـذا هو صنيعنا مع مختلف القضـايا والمسـائل التى نتعرض لها ، فنحن نعطى أمثـلة ونماذج يهتدى بهـا فى الكشف عن أسرار ولطائف الكتاب العـزيز .

تأمل قوله تعالى : « **فالتقطهُ آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنـا إن فرعون وهامـان وجنودهما كانـوا خاطئين** »(١٥٧) وانظـر كيف أوثر ذكـر فرعون وهامان معطوفا أحدهما على الآخـر ، على جهـة التفصيل ، ثم عطف عليهما جنودهما إجمالا ، ولم يقـل : إنهم كانوا خاطئين ، إن ذلك يرجع إلى كون فرعون وهامان أسـاس الخطيئة ، وأصـل الفسـاد ، وأما الجنود فهم تبع لهما ومقتدون بهما .

وانظر إلى العطف بأو فى قوله تعـالى : « **وإنا أو إياكم لعـلى هـدى أو فى ضـلال مبـين** »(١٥٨) وكيف استخدمت (أو) فى الدلالة على الإيهام وعدم مواجهة الضـالين بضلالهم ، فمعلوم من الضـال ، ومن المهتدى ولكن فى عـدم التصريح بذلك ، وتركه مبهمـا استمالة للمخاطبين ، وترغيبا لهم فى الهداية وقبول الحق .

ثم انظر إلى الآيتين الكريمتين : « **ومن أظلم ممن ذكـر بآيات ربه ثم أعـرض عنهـا ... ومن أظلم ممن ذكـر بآيات ربه فاعـرض عنهـا** »(١٥٩) لقد عطف الإعـراض عن الآيات على التذكير بهـا ، وجاء هذا العطف بثم فى سـورة السجدة ، وبالفـاء فى سورة الكهف ، ما سبب ذلك ؟ وما السر فى تلك المخالفة ؟

إن السياق فى سـورة الكهف يبرز الكفرة معـاندين مكابرين ،

---

(١٥٧) القصص : ٨ . (١٥٨) سبأ : ٢٤ .

(١٥٩) الآيتان بالترتيب : السجدة ٢٢ ، **الكهف ٥٧** .

تعرض عليهم الآيات فلا يستجيبون « **وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً** »(١٦٠) الحديث عنهم فى الحيـاة الدنيا وهم ما زالوا أحياء ، يعارضون ويكابرون ، فهم إذا ذكـروا يكون منهم الإعراض فور التذكير دون نظـر فيما ذكـروا به ، ودون فهم له ، ولا وعى ، وهـذا يناسبه العطف بالفـاء التى تفيد التعقيب ·

أما السياق فى سـورة السجدة فيبرز المجرمين وقد وقفوا أمـام ربهم للحساب ناكسى رءوسهم ، نادمين على ما فرطوا فى جنب الله ، ويقال لهم يومئذ « **ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون** »(١٦١) · لقد قضوا حياتهم فى كفـر وعناد ، ثم ماتوا وهم كافرون ، امتد وطال تذكيرهم بآيات الله أزمنـة تلو أزمنة ، ولكنهم أصموا آذانهم وأبوا إلا الرفض والإعراض ، حتى ماتوا على الكفـر ، فهذا يناسبه العطف بثم التى تفيد التراخى ، وتشعر بامتداد التذكير طوال حياتهم الدنيا ·

أرأيت كيف كان عطف الإعراض على التذكير بالآيات منسجما مع السياق فى كل سـورة ، ومحققا للغرض ؟ ولو رمت وضع أحد الحرفين مكان الآخر لوجدت المعنى ينبو عنه ، والسياق يرفضـه ويأباه ، وذلك هو الإعجـاز ··

ومما ينبغى الالتفات إليه ، ودراسته فى آى الذكر الحكيم ، تقييد الفعـل بأداتى الشرط : (إن وإذا) فإن وراء التقييـد بهما معـانى لطيفة ترجع إلى دلالة كل منهما ، وما بينهما من اختلاف فى الدلالة .

فإذا تستخدم فى الشرط المقطـوع بوقوعه ، بأن يكون مجـزوما بوقوعه فى المستقبل نحو : إذا غربت الشمس حل الظلام ، أو يظن ظنا قـويا وقوعه فيه نحو : إذا جئتنى أكرمتك ، فى خطـاب من تعتقـد

---

(١٦٠) الكهف : ٥٧ ·   (١٦١) السجدة : ٢٠ ·

مجيئه ، وترجحه على عدم المجىء ، ولهذا غلب على الفعل معها أن يكون بلفظ الماضى للإشعار بتحقق الوقوع .

اما (إن) فتستعمل فى الشرط غير المقطوع بوقوعه ، وهو ما يتردد فى وقوعه فى المستقبل ، أو يظن عدم وقوعه ، أو يكون مما لا يقع إلا نادرا ، ولذا غلب على الفعل معها أن يكون مضارعا للإشعار بعدم تحقق الوقوع فإن كان الشرط مجزوما بعدم وقوعه فى المستقبل فلا تستعمل فيه (إن) ولا (إذا) إلا لغرض بلاغى .

تأمل قوله تعالى : « **وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون** »(١٦٢) تجد أن إذاقة الناس قدرا قليلا من الرحمة ـ مرجع القلة إلى تنكير (رحمة) ـ أمر مقطوع بوقوعه ، ولذا استعملت (إذا) فى التقييد وعبر بالماضى (أذقنا) .

وأما إصابة السيئة فغير مقطوع بحدوثها ، لأن الله عز وجل لا يؤاخذ الناس بما كسبوا ، بل يعفو عن كثير ، ولذا استخدمت (إن) فى الربط ، وعبر بالمضارع (تصبهم) .

وخذ قوله تعالى : « **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا** »(١٦٣) تجد أن قراءته ـ ﷺ ـ القرآن وذكره ربه فيه ، من الأمور المحققة الوقوع ، ولذا عبر معهما بإذا الدالة على هذا التحقق .

---

(١٦٢) الروم : ٣٦ .　　(١٦٣) الإسراء : ٤٥، ٤٦ .

وتأمل قوله تعـالى : « **وإن يروا آية يعـرضوا ويقولوا سحـر مستمـر** »(١٦٤) تجد أن التقييد بإن قد دل على مدى إعراض الكفرة عن آيات الله التى تملأ الكون ، فآيات الله كثيرة ، وهم عنها مبعدون ، لا يرونها ، وإن عنت لهم آية ، وبدت لهم ، دون نظر منهم ، أعرضوا عنهـــا .

التقييد بإن فى الآية الكـريمة دل على تعاميهم عن رؤية الآيات الواضحة الجليـة ، ورفضهم رؤيتها ، والنظـر فيها نظر متدبر يريد الهداية وقبول الحق .

وانظر إلى استعمال (إن) فى الأمـر المقطوع بوقوعه فى قوله تعـالى : « **يأيهـا النـاس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقنـاكم من تراب** ... »(١٦٥) فالكفرة فى ريب حقيقة ، وقد استعملت (إن) توبيخا لهم ، وإشارة إلى أن الأدلة على إمكان البعث واضحة جليـة ، فلا ينكر وقوعه إلا معـاند كافر ، ولا يرتاب فيـه إلا جاهل ، وحق هذا الريب الواقع منهم ألا يوجد إلا على سبيل الفرض ، كما يفـرض الأمر المحال ، لذا عبر بإن دون (إذا) .

هـذا وقد تستخدم (إن) أو (إذا) لمجـرد الربط بين الشـرط والجزاء كما فى قوله تعـالى : « **يأيهـا النبى حـرض المؤمنـين على القتـال إن يكن منكم عشرون صـابرون يغلبوا مائتـين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفـا من الذين كفـروا** »(١٦٦) ، وقوله تعـالى : « **إن يكن غنيـا أو فقيرا فالله أولى بهما** »(١٦٧) ، (فإن) فى الآيتين الكريمتين لمجـرد الربط بين الشرط وجـزائه ، ولذا نقـرر أن ما ذكره البلاغيون

---

(١٦٤) القمـر : ٢ .
(١٦٥) الحج : ٥ .
(١٦٦) الأنفـال : ٦٥ .
(١٦٧) النسـاء : ١٣٥ .

فى التقييد بإن وإذا والتعليق بهما مبنى على الأكثر والغالب ، لا على القطع والإطلاق .

ووراء التقييد بالجار والمجرور مزايا وأسرار بلاغية ترجع إلى معانى حروف الجر ، وإلى ما دخلت عليه تلك الحروف ، فالمزية البلاغية قد تكون راجعة إلى الجار والمجرور معا ، وهو القيد الذى تقيد به الجملة القرآنية ، ويتضح لنا ذلك عند النظر إلى هذه القيود : (على هدى .. على وجوههم .. فى رحمة الله .. فى ضلال مبين) فإنا نجد المغزى راجعا إلى الجار ومدخوله معا ، وهذا واضح ، فإن المعنى الناجم عن دخول حرف الجر (على) على لفظ (هدى) يختلف عن المعنى الناجم عن دخوله على (وجوههم) لقد دل فى الأول على التكريم والتعظيم ، ودل فى الثانى على الإهانة والتحقير ، حرف الجار واحد وهو (على) وقد اختلف المعنى باختلاف المجرور ، وهذا ما نعنيه برجوع المزية إلى الجار ومجروره معا ، وكذا القول فى دخول الحرف (فى) على الرحمة ثم على الضلال .

ولننظر فى الآيتين الكريمتين : « **ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ... وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين** »(١٦٨) .

نجد أن الجار والمجرور (على وجوههم) أبرز الكفرة وقد نكسوا على رءوسهم ، وعلوا وجوههم ، إذلالا لهم وإهانة وتحقيرا ، فلقد سئل - ﷺ - كيف يمشون على وجوههم فقال : « **إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم** »(١٦٩) .

---

(١٦٨) الآيتان بالترتيب : الإسراء : ٦٧ ، الصافات : ١١٣ .
(١٦٩) انظر تفسير أبى السعود ١٩٧/٥ .

ويزداد معنى الإهانة والتحقير بتلك الحال (عميا وبكما وصما) التى بينت أنهم لا يبصرون ما تقربه أعينهم ، ولا ينطقون ما يقبل منهم ، ولا يسمعون ما تلتذ به مسامعهم ، جزاء وفاقا ، فقد كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ، ولا ينطقون بالحق ، ولا يستمعون إليه .

أما الجار والمجرور (عليه وعلى إسحاق) فإنه يدل على استعلاء البركة وإحاطتها بهما تكريما وتعظيما ، إن الحرف (على) يدل على الاستعلاء، ولكنه استعلاء إذلال وإهانة فى آية الإسراء، واستعلاء تعظيم وتكريم فى آية الصافات .

وقد تكون المزية راجعة إلى حرف الجر نفسه ، وإيثار التعبير به دون غيره ، لأنه هو الذى يعطى المعنى المراد ، ولنقرأ الآيات الكريمة : « **لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ... إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ... ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ... حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ... وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** »(١٧٠) .

نجد أن (اللام) قد ذكرت عند سبق النفع وكسب الخير ، وأن (على) قد ذكرت عند سبق الضر واكتساب الشر ، وذلك لأنا نلحظ فى (اللام) معنى التملك والانتفاع ، ونلحظ فى (على) معنى القهر والاستعلاء ..

كما استخدمت (على) بدخولها على الهدى فى معنى العزة والرفعة ، واستخدمت (فى) بدخولها على الضلال فى معنى الذل

---

(١٧٠) الآيات بالترتيب : البقرة ٢٨٦ ، الأنبياء ١٠١ ، الصافات ١٧١، هود ٤٠ ، سبأ ٢٤ .

والانحطاط ، وكان المؤمن مستعل على جواد يركضه حيث شاء ، والكافر منغمس فى ظلام ، حائر فيه ، لا يدرى إلى أين يتجه .

وانظر فى قوله تعالى : « **هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** »(١٧٢) وقف متأملا هذا القيد (عليكم) ولماذا أوثر التعبير بعلى ؟ ولم اكتفى بها فلم يقل : ينطق لكم وعليكم ؟ ارى - والله أعلم - أن مرد ذلك إلى أن الكافر هو الذى يحتاج إلى نطق الكتاب عليه ، إذ المؤمن يقرأ كتابه فرحا به « **فمن أوتى كتابه بيمينه فاولئك يقراون كتابهم** »(١٧٣) ويظهره للملأ قائلا « **هاؤم اقراوا كتابيه** »(١٧٣) أما الكافر فإنه يخفى كتابه وراء ظهره ، ويقول : « **يا ليتنى لم أوت كتابيه** »(١٧٤) فالذى **يحتاج إلى نطق** الكتاب هو الكافر ، لأن المؤمن يقرأ كتابه فرحا مستبشرا ، **ولذا اكتفى** بالقيد (عليكم) وهو للكافر الذى اكتسب السيئات **فالكتاب ينطق** عليه بها .

وخذ قوله تعالى : « **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا** »(١٧٥) وتأمل القيد (إلينا) حيث عبر باللام ، ثم انظر لم عبر هنا باللام ، وعبر بعلى فى قوله تعالى : « **قل آمنا بالله وما أنزل علينا** »(١٧٦) ؟ إن ذلك يرجع إلى أن الآية الأولى خطاب للمسلمين (قولوا) والثانية خطاب للنبى - ﷺ - و (إلى) ينتهى بها من كل جهة ، و (على) لا ينتهى بها إلا من جهة واحدة ، وهى العلو ، **والقرآن يأتى المسلمين** من كل جهة يأتيهم مبلغهم به منها ، وإنما أتى النبى - ﷺ - من جهة

---

(١٧١) الجاثية : ٢٩ . (١٧٢) الإسراء : ٧١ .
(١٧٣) الحاقة : ١٩ . (١٧٤) الحاقة : ٢٥ .
(١٧٥) البقرة : ١٣٦ . (١٧٦) آل عمران : ٨٤ .

العلو خاصة ، فناسب قوله (علينا) ولهذا فإن أكثر ما جاء فى جهة النبى - ﷺ - بعلى ، وأكثر ما جاء فى جهة الأمة بإلى(١٧٧) .

وما جاء فى جهة النبى - ﷺ - بإلى ، كقوله تعالى : « **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون** »(١٧٨) فإن تعدية النزول فيه بإلى ، لانتهائه إليه - ﷺ .

وما جاء فى جهة الأمة بعلى ، كقوله تعالى : « **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره** »(١٧٩) فمعناه : آمنوا بما أنزل على نبيهم - ﷺ - وجاء إليهم به .

وفى قصة موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح ، وعندما طلب موسى منه أن يتبعه ليتعلم من علمه الذى علمه الله إياه ، قال له الخضر : « **إنك لن تستطيع معى صبرا** »(١٨٠) ، وبعد خرق السفينة وإنكار موسى هذا الخرق ، يذكره العبد الصالح « **ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا** »(١٨١) ويعتذر موسى له ، وينطلقان فيكون قتل الغلام ، وينكر موسى هذا القتل ، فيذكره العبد الصالح « **ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا** »(١٨٢) نلاحظ أن التذكير الثانى قد أكد بالقيد (لك) لأن العبد الصالح قد طلب من موسى ألا يسأله عن شىء حتى يحدث له منه ذكرا ، ولكن موسى لم يستطع صبرا ، فأنكر خرق السفينة ، ولامه العبد الصالح على عدم صبره ، ثم أنكر موسى قتل الغلام ، فاقتضى المقام بعد أن تكرر سؤال موسى واعتراضه أن يؤكد العبد الصالح اللوم بالجار والمجرور (لك) ففى

---

(١٧٧) انظر الإتقان ٣٤٣/٣ . (١٧٨) البقرة : ٢٨٥ .
(١٧٩) آل عمران : ٧٢ . (١٨٠) الكهف : ٦٧ .
(١٨١) الكهف : ٧٢ . (١٨٢) الكهف ٧٥ .

هذا القيد إبراز وإيضـاح للوم ، وزيادة تاكيد للعتاب ، أو كما يقـول الزمخشرى : فيه زيادة المكافحة بالعتـاب على رفض الوصية ، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية(١٨٣) ٠

وفى قوله تعـالى : « **ما جعـل الله لرجل من قلبين فى جـوفه وما جعـل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن امهاتكم وما جعـل أدعياءكم ابناءكم ذلكم قولكم بافواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل** »(١٨٤) نجد وراء هذه القيود (لرجـل ٠٠ فى جوفه ٠٠ بافواهكم) معـانى دقيقة ، إذ القلب لا يكون إلا فى الجوف ، والقول لا يكون إلا بالفم ، ولكن لمـا كان المقـام مقام إنكار وزجـر لمن يظاهر زوجه ، قائلا لها : أنت علىّ كظهر أمى ، وتقـرير عدم التسـوية بين الأدعياء والأبناء ، وقد كانوا يسوون بينهما ، فيجعلون الدعى ابنا ، له ما للابن وعليـه ما عليه من حقوق وواجبات النسب ٠

لمـا كان الأمـر كذلك ، فقد ذكـرت هذه القيود تاكيدا للإنكار والزجـر ، ومبالغـة فى التقرير والتحقيق ، ثم انظـر إلى هذا القيد (لرجـل) وتامل الفـرق بين الآية (**مـا جعـل الله لرجـل من قلبين فى جـوفه**) وبين قولنا : ما جعـل الله من قلبين فى جوف ، فستراه دقيقا لطيفا ، لأن ذكـر هـذا القيد (لرجـل) وتقييد الجعـل به ، أبلغ فى الإنكار والزجر ، وآكد فى التقـرير والتحقيق ، إذ المـرأة قد يتصور وجود قلبين فى جوفها ، قلبها وقلب جنينها ، وذلك فى اثناء الحمـل ، أما الرجل فلا يتصـور وجود قلبـين فى جـوفه بحـال من الأحـوال ٠

---

(١٨٣) الكشاف : ٤٩٤/٢ ٠ (١٨٤) الأحزاب : ٤ ٠

وكذا القول فى الآية الكريمة : « **إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم** »(١٨٥) التلقى لا يكون إلا بالألسنة ، والقول لا يكون إلا بالأفواه ، ولكن المقام اقتضى زيادة الإنكار ، والمبالغة فى الردع والزجر ، إذ الآية فى سياق الحديث عن أولئك الذين خاضوا فى حادثة الإفك ، فكان ذكر هذين القيدين (بالسنتكم ٠٠ بأفواهكم) ٠

وخذ قوله تعالى :« **واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا** »(١٨٦) وتأمل كثرة هذه القيود التى يتسلط بها الشيطان (بصوتك ٠٠ بخيلك ورجلك ٠٠ فى الأموال والأولاد ٠٠) إنه يستخف من استطاع من بنى آدم بصوته ، داعيا لهم إلى الفساد ، ويصيح عليهم بخيله ورجله ، أى بأعوانه وأنصاره من راكب وراجل ، ويشاركهم فى الأموال بحملهم على اكتسابها من الحرام وإنفاقها فى الحرام ، وفى الأولاد فيحثهم على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة ٠

ثم هو يعد ويمنى ، وليست وعوده وأمانيه إلا غرورا ، لأنه يتبرأ ممن اتبعه واستجاب لإغوائه « **وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ٠٠** »(١٨٧) ٠

وأمام كثرة هذه الوسائل التى يتسلط بها الشيطان على بنى آدم فيغويهم ، إنه يشبه فارسا مغوارا أوقع على قوم فصوت بهم صوتا يزعجهم من أماكنهم ، ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم

---

(١٨٥) النور : ١٥ ٠ (١٨٦) الإسراء : ٦٤ ٠
(١٨٧) إبراهيم : ٢٢ ٠

بجنده من خيالة ورجالة يريد استئصالهم (١٨٨) ٠

أقول : أمام كثرة هذه الوسائل ينبغى على الإنسان أن يأخذ حذره ، وأن يتسلح بما أمر الله تعالى ، لمقاومته ومحاربته ، والتصدى لجنده وأعوانه ، وعدم الاستجابة لنزعه ووساوسه ٠

وقد استثنى الله تعالى عباده المخلصين ، فبين أنه لا سلطان للشياطين عليهم ، واستثناهم الشيطان نفسه فقال : « **لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا** »(١٨٩) وقال : « **إلا عبادك منهم المخلصين** »(١٩٠) فنسأل الله السميع العليم أن يجعلنا من عباده المخلصين القليلين ، الذين لا سلطان للشيطان عليهم ٠

* * *

التقديم

قال تعالى :

« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » البقرة : ٤٨ ٠

« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » البقرة : ١٢٣ ٠

« لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين » المائدة : ٢٨ ٠

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض » الروم : ٢٧ ٠

« قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس » مريم ٢١

---

(١٨٨) فالآية تمثيل لتسلط الشيطان على من يغويه ٠ انظر تفسير أبى السعود ١٨٤/٥ ٠

(١٨٩) الإسراء : ٦٢ ٠ (١٩٠) سورة ص : ٨٣ ٠

« وقال رجـل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمـانه اتقتلـون رجـلا ان يقول ربى الله » غافـر : ٢٨ ٠

« والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهـم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء » النـور : ٤٥

« وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضـامر ٠٠٠ » الحـج : ٢٧

« إياك نعبد وإياك نستعين » الفاتحـة : ٥ ٠

« يا ايها الذين آمنوا كلـوا من طيبات ما رزقناكم واشـكروا لله إن كنتم إياه تعبـدون » البقـرة : ١٧٢ ٠

« لكم دينكم ولى دين » الكافرون : ٦ ٠

« والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق » القيامة ٢٩، ٣٠

« يطـاف عليهم بكاس من معين ٠ بيضـاء لذة للشاربين ٠ لا فيها غـول ولا هم عنهـا ينزفون » الصافات : ٤٥ ـ ٤٧ ٠

« ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » الأعراف : ٢٤

« وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنـات بغير عـلم » الأنعـام : ١٠٠ ٠

« اغير الله تدعـون إن كنتم صـادقين ٠ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون » الأنعام ٤٠، ٤١ ٠

« لو يعـلم الذين كفروا حـين لا يكفـون عن وجوههـم النـار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون ٠ بل تاتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظـرون » الأنبيـاء : ٣٩، ٤٠ ٠

« قالوا يا شعيب ما نفقـه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينـا ضعيفا ولولا رهطك لرجمنـاك وما أنت علينـا بعزيز ٠ قال يا قـوم أرهطى أعز عليكم من الله » هود : ٩١، ٩٢ ٠

« لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » يس : ٧ ٠

« الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » الزمر : ٢٣ ٠

« والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون » النحل : ٢٠

* * *

التقديم من شجاعة العربية - كما ذكر ابن جنى فى الخصائص(١٩١) - لأن تقديم اللفظ وتحويله من مكان إلى مكان آخر ، يغير المعنى ، وتغيير المعنى بتقديم اللفظ ، وتحويله عن مكانه ، لا يكون جزافا وعبثا ، وإنما يتم وفق أسس وضوابط ، وأغراض يقصد إليها المتكلم المتمرس ، الخبير بطرق الكلام ، البصير بالأساليب والصياغات ، فهو لهذا شجاع مغوار ، يتصرف فى التراكيب فيقدم ويؤخر عن خبرة وبصيرة ، ويعرف ما وراء تقديم هذا اللفظ من مغزى ، وما وراء تاخير ذاك من غرض ٠

وقد أشار ابن الأثير فى كتابه (المثل السائر) إلى أن التقديم ضربان ، ضرب يختص بدلالة الألفاظ على المعانى ، أى : بدلالة الجملة أو التركيب على معناه ، وضرب يختص بدرجة التقدم فى الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك(١٩٢) ٠

وقد اهتم معظم البلاغيين بالضرب الأول الذى يختص بدلالة الألفاظ على المعانى ، حيث يكون التقديم فى نطاق الجملة المنظومة ، فيحدث تغييرا فى نظمها ، ويتبع تغيير النظم تغيير المعنى ، للدلالة على غرض يقتضيه المقام ، ويتطلبه السياق ٠

---

(١٩١) انظر الخصائص : ٣٨٢/٢ ٠

(١٩٢) انظر المثل السائر : ٢١٠/٢ ٠

ونحن إذ ندرس التقديم فى النظم القرآنى لنعرف أسراره ، ونقف على مزاياه ، ونحيط بأعراضه ، فنحن ندرسه على هذا الأساس الذى أشار إليه ابن الأثير ، ندرسه فى نطاق الجملة القرآنية ، فنتعرف على تقديم ما قدم فيها - مما ليس حقه التقديم - لتحقيق غرض بلاغى ، كما فى الآية الكريمة : (**إياك نعبد**) حيث قدم المفعول لغرض دلالة الجملة على الاختصاص(١٩٣) .

كما ندرسه فى نطاق الآية الكريمة ، فنتعرف عندئذ على سبب تقديم هذه اللفظة أو هذه الجملة على تلك ، كتقديم الأنعام على الأناسى فى قوله تعالى : «**ونسقيه مما خلقنا انعاما واناسى كثيرا**»(١٩٤) وتقديم جملة (إياك نعبد) على جملة (إياك نستعين) وتقديم قوله تعالى : (**فمنهم من يمشى على بطنه**) على قوله عز وجل : (**ومنهم من يمشى على رجلين**) وتقديم هذه على قوله تعالى : (**ومنهم من يمشى على اربع**) فى سورة النور(١٩٥) .

وننظر إليه فى النظم القرآنى كله ، فنتعرف على سر مجىء الكلمة مقدمة فى الآية من الآيات الكريمة ومؤخرة فى الآية الأخرى ، كما فى تقديم الشفاعة على العدل فى الآية (٤٨) من سورة البقرة ، وتقديم العدل على الشفاعة فى الآية (١٢٣) من نفس السورة الكريمة ، وكما فى قوله تعالى : (**نحن نرزقكم وإياهم**) فى سورة الأنعام ، وقوله عز وجل : (**نحن نرزقهم وإياكم**) فى سورة الإسراء ، وسيتجلى لنا ذلك من خلال النظر فى الآيات الكريمة .

---

(١٩٣) المراد بما ليس حقه التقديم : ما ليست له الصدارة ، كاسماء الاستفهام ، وأدوات الشرط ، فتلك تقدم لأن لها حق صدارة الجملة ، وليس وراء تقديمها من غرض بلاغى .

(١٩٤) الفرقان : ٤٩ .   (١٩٥) النور : ٤٥ .

نقـرأ قوله تعـالى : « **واتقـوا يوما لا تجـزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة و لايؤخذ منها عدل ولا هم ينصـرون** »(١٩٦) فنجد الشفاعة قد قدمت على العدل ، ثم نقـرأ قوله عز وجل : « **واتقوا يوما لا تجـزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبـل منهـا عدل ولا تنفعهـا شفاعة** »(١٩٧) فنجد العدل مقدما على الشفاعة ، فما السر وراء ذلك ؟ وهل لهذا الاختلاف فى نظم الآيتين الكريمتين من مغـزى يقصـد إلى تحقيقـه ؟

يرى جلال الدين السيوطى أن الضمير فى (منهـا) راجـع فى الآية الأولى إلى النفس الأولى ، وفى الثانيـة إلى النفـس الثـانية ، فالمعنى فى الآية الأولى أن النفس الجازية عن غيرها لا يقبـل منهـا شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، وقد قدمت الشفاعة ، لأن الشافع يقدم الشفاعة ، والمعنى فى الآية الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبـل منها عدل عن نفسها ، ولا تنفعها شفاعة شـافع منهـا ، وقـدم العدل ، لأن الحـاجة إلى الشـفاعة إنما تكون عند رده ، ولذا قال فى الأولى (**ولا يقبـل منها شفاعة**) وفى الثانية (**ولا تنفعها شفاعة**) لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع ، وتنفع المشفوع له(١٩٨) .

وهذا الذى يراه السيوطى ليس بقول يقال عن سر التقديم والتأخير فى الآيتين الكريمتين ، إذ الضمير فى (منها) فى الآية الأولى يصـح رجوعه إلى النفس الثـانية المطلوبة بجـرمها ، والمعنى : **ولا يقبـل** من هـذه النفس المطـلوبة شفاعة شـافع طلبت منـه أن يشفع لهـا ، ولا يؤخذ منهـا عدل ، ويصـح رجـوعه فى قوله تعالى : (**ولا يقبـل**

---

(١٩٦) البقـرة : ٤٨ . (١٩٧) البقـرة : ١٢٣ .

(١٩٨) انظر الإتقان ٣٤٠/٣ .

منها شفاعة) إلى النفس الأولى الشافعة ، وفى قوله عز وجل : **(ولا يؤخذ منها عدل)** إلى النفس الثانية المطلوبة ، على طريقة اللف والنشر(١٩٩) .

ولذا فإنى أرى - والله تعالى أعلم - أن سر التقديم والتأخير فى الآيتين الكريمتين يرجع إلى أن الآية الأولى فى تجلية من يبخل ويمسك، فلا يتصدق ، ولا يبذل خيرا ، ولا يقدم برا ، لأن شأنه الإمساك والمنع والبخل ، فهؤلاء يطلبون الشفاعة ويقدمونها ، فإذا لم تقبل منهم بذلوا العدل ، لقد جبلوا على حب المال والحرص عليه ، ولذا كان تقديم الشفاعة على العدل ملائما لحالهم التى طبعوا عليها .

أما الآية الثانية فهى فى تجلية من يتعالى ويتكبر ، ويحرص على حياة خاصة ، تمتاز عن حياة الناس ، فهؤلاء لأنفتهم وكبريائهم يقدمون العدل ويبذلونه ، فإذا لم يقبل منهم طلبوا الشفاعة ، فالملائم لحالهم تقديم العدل على الشفاعة .

يقول الفخر الرازى : « إن من كان ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية ، ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة ، ففائدة تغيير الترتيب الإشارة إلى هذين الصنفين »(٢٠٠) .

والسياق القرآنى يوضح ذلك ، فإن الآية الأولى جاءت فى سياق قوله تعالى : **« أتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون »**(٢٠١) ومن يأمر بالبر ولا يفعله هو الشحيح

---

(١٩٩) انظر روح المعانى ٢٥٢/١

(٢٠٠) تفسير الفخر الرازى ٨/٣ .

(٢٠١) البقرة : ٤٤ .

الممسك الذى خالف قوله فعله ، فهو يأمر بالزكاة والصلاة ومختلف أنواع البر ، ولكنه لا يفعل ما يأمر به ، لبخله وإمساكه ومنعه ٠

أما الآية الثانية فقد جاءت فى سياق آيات تبرز الأنفة والتكبر والحرص على حياة خاصة ، ولنقرأ : « **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ٠٠٠ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ٠٠٠ وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء ٠٠٠ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** »(٢٠٢) وبهذا يتبين لنا أن ترتيب الألفاظ فى الآيتين الكريمتين ، قد جاء متسقا مع السياق الذى وردت به الآية ، ومحققا لغرض يرمى إليه ، إذ أشارت كل آية إلى صنف من الناس أظهره السياق وأبرزه ٠

وخذ قوله تعالى : « **بل قالوا مثل ما قال الأولون ٠ قالوا إإذا متنا وكنا ترابا وعظاما إإنا لمبعوثون ٠ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل** »(٢٠٣) ، وقوله عز وجل : « **وقال الذين كفروا إإذا كنا ترابا وآباؤنا إإنا لمخرجون ٠ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل** »(٢٠٤) ، تجد أن الضمير (نحن) وما عطف عليه (نحن وآباؤنا) قد قدما على اسم الإشارة (هذا) فى الآية الأولى ، وقدم اسم الإشار عليهما فى الآية الثانية (وعدنا هذا نحن وآباؤنا) ويرجع ذلك إلى أن سياق الآية الأولى قد أبرز تمسك الكفرة بعقائد الآباء ، وحرصهم على محاكاتها وتقليدهم فيها ، وترديدهم لمقالتهم : (بل قالوا مثل ما قال الأولون) فاقتضى ذلك تقديم الضمير وما عطف عليه (نحن وآباؤنا) على اسم الإشارة المشار به إلى البعث .

---

(٢٠٢) الآيات بالترتيب : البقرة ٩٦ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٢٠ ٠

(٢٠٣) المؤمنون ٨١ – ٨٣ ٠ (٢٠٤) النمل ٦٧، ٦٨ ٠

أما الآية الثانية فإن السياق يدل على أن موضع الإنكار وجهته المقصودة هى البعث ، وإخراجهم بعد مماتهم وصيرورتهم ترابا هم وآباؤهم ، وهذا يقتضى تقديم الاسم المشار به إلى البعث (هذا) على الضمير وما عطف عليه (نحن وآباؤنا) .

فلما كان الغرض المقصود والمساق له الكلام فى سورة (المؤمنون) المبعوثين ، قدم ما يدل عليهم (نحن وآباؤنا) ولما كان الغرض المقصود والمساق له الكلام فى سورة (النمل) هو البعث ، قدم اسم الإشارة الدال عليه (٢٠٥) .

وفى قوله تعالى : « **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم** »(٢٠٦) قدم ضمير المخاطبين على ضمير الأولاد ، وجاء العكس فى قوله تعالى : « **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم** »(٢٠٧) لأن المفعول لأجله فى الآية الأولى (من إملاق) دل على أنهم فى فقر وعدم ، وهذا يقتضى تقديم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم ، فجاء التعبير الكريم (نحن نرزقكم وإياهم) .

أما المفعول لأجله فى الآية الثانية (خشية إملاق) فقد دل على أنهم فى يسر ، لأن الخشية إنما تكون مما لم يقع ، وهذا قد اقتضى تقديم الوعد برزق الأولاد على الوعد برزقهم ، فكان التعبير القرآنى (نحن نرزقهم وإياكم) إذ رزقهم وقت الخطاب حاصل ، وهم إنما يخشون الفقر .

وقد يكون التقديم لدفع توهم غير المراد ، كما فى قوله تعالى : « **وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم**

---

(٢٠٥) انظر الكشاف ١٥٨/٣ .

(٢٠٦) الأنعام : ١٥١ . (٢٠٧) الإسراء : ٣١ .

فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم »(٢٠٨) حيث قدم الجار والمجرور (من قومه) على الموصول (الذين كفروا وكذبوا ...) لأنه لو أخر فقيل : وقال الملأ الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا من قومه ، لتوهم أن الجار والمجرور من صلة الدنيا ، وأن المعنى : وأترفناهم فى الحياة الدنيا من قومه ، أى : القريبة منهم ، وبذا يكون القائلون ليسوا من قومه ، فدفعا لهذا التوهم قدم الجار والمجرور .

وهذا التوهم قد نشأ من طول الصلة ، ولذا عندما قصرت الصلة فى قوله تعالى : « **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم** »(٢٠٩) تأخر الجار والمجرور « من قومه » إذ ليس فى الآية عندئذ ما يوهم خلاف المراد .

وكذا القول فى الآية الكريمة: « **وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ...** »(٢١٠) فقد وصف الرجل بثلاث صفات ، بالإيمان وبكتمانه وبكونه من آل فرعون ، وقدم « من آل فرعون » على « يكتم إيمانه » لأنه لو أخر فقيل : يكتم إيمانه من آل فرعون ، لتوهم أنه متعلق بالفعل « يكتم » وأن الرجل يكتم إيمانه خوفا من آل فرعون ، وأنه ليس منهم ، وهذا خلاف المراد ، لأن المراد إبراز عناية الله تعالى ، ورعايته لموسى - عليه السلام - وامتنانه عليه ، بأن جعل من آل فرعون من يدافع عنه ، ويجادلهم فيه ، ويناقشهم من أجله ، وقد آمن به .

وفى قوله تعالى : « **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال**

---

(٢٠٨) المؤمنون ٣٣
(٢٠٩) المؤمنون ٢٤
(٢١٠) غافر ٢٨

يا قوم اتبعوا المرسلين »(٢١١) قدم الجار والمجرور « من أقصى المدينة » إذ تقديمه فيه زيادة توبيخ لأصحاب القرية ، الذين استمعوا عن قرب وشاهدوا من الرسل ما لم يشاهده ذلك الرجل الذى كان فى أقصى المدينة ، ومع ذلك فقد نصح لهم بما لم ينصحوا به أنفسم .

وعندما لم يتعلق بتقديم الجار والمجرور على الفاعل غرض فى قوله تعالى : « **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك** »(٢١٢) لم يتقدم ، إذ ليس فى تقديمه ذاك الغرض الذى اقتضى التقديم فى سورة يس .

واقرأ قوله تعالى : « **لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين** »(٢١٣) تجد أن الجار والمجرور قد تقدم على المفعول به فى قوله « **بسطت إلى يدك** » وتأخر عنه فى قوله : « **بباسط يدى إليك** » فتقديمه يشعر بطغيان الباسط إذ يبسط يده إلى أخيه ، كما ينبهه إلى خطئه ، ويحثه على تأمل ما هو مقبل عليه ، لعله يرتدع ، إنه يبسط إلى الأخ يده ، تقديم « إلى » تذكير له بالأخوة التى تجمعهما ، وفى إيثار التعبير بإن دلالة على أن بسط اليد لقتل الأخ ينبغى أن يكون من الأمور المستبعدة .

وتأخيره فى قوله تعالى : « **ما أنا بباسط يدى إليك** » يدل على أنه ليس حريصا على قتل أخيه ، بل ليس ممن يصدر عنه القتل أصلا ، كما يشعر بذلك تقديم المسند إليه « أنا » وإيلاؤه أداة النفى « ما » فقد دل على نفى البسط عنه وإثباته لغيره ، وهو الأخ الذى هم بالقتل ، وعزم عليه .

ولنتأمل الآيات الكريمة : « **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا**

---

(٢١١) يس ٢٠ (٢١٢) القصص ٢٠
(٢١٣) المائدة ٢٨

من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ... وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ... ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ... يوم يات لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد »(٢١٤) .

نجد اختلافا فى ترتيب العباد فى الآيات الكريمة ، حيث قدم الظالم لنفسه فى سورة فاطر ، فالمقصد فالسابق بالخيرات، وفى الصافات قدم المحسن على الظالم لنفسه ، وفى الحديد قدم المهتدى على الفاسق ، وفى هود قدم الشقى على السعيد .

ويرجع هذا الترتيب إلى الغرض المسوق له الكلام فى كل سورة ففى سورة فاطر ، السياق فى بيان حال من أورثهم الله الكتاب ، وامتداح السابقين بالخيرات ، وقد اقتضى ذلك تقديم الظالم لنفسه ، وتأخير السابق بالخيرات لأمرين :

أولهما : الإيذان والإشعار بكثرة الفاسقين وغلبتهم وبأن المقتصدين بالنسبة إليهم قليل ، والسابقين بالخيرات أقل من القليل(٢١٥) .

ثانيهما : أن يقرن السابقون بما أعد لهم من النعيم « ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها » لأن السياق فى امتداحهم - كما قلت - بدليل أنه سكت عن بيان جزاء الفريقين الآخرين ، ويقتضى النظم أن يقرنوا بما أعد لهم ، ولو قدموا وما أجرى عليهم من أوصاف

---

(٢١٤) الآيات بالترتيب : فاطر ٣٢ ، الصافات ١١٣ ، الحديد ٢٦ ، هود ١٠٥

(٢١٥) انظر الكشاف ٣ /٣٠٩

لطال الفصل بينهم وبين الفريقين الآخرين ، وكذا لو قدموا دون ما أجرى عليهم ، لاختلت بلاغة النظم الكريم ، ولضاع الهدف من امتداحهم وبيان منزلتهم .

أما فى سورتى الصافات والحديد ، فالسياق فى بيان امتنان الله تعالى على من ذكر من الأنبياء - عليهم السلام - ومقام الامتنان يلائمه تقديم المحسن والمهتدى على الظالم لنفسه والفاسق .

ولم يعتد بالكثرة التى صرح بها فى سورة الحديد « **وكثير منهم فاسقون** » كما اعتد بها فى سورة فاطر لسببين :

أولهما : أن مقام الامتنان قد اقتضى تقديم المهتدى - كما قلت - ولا يختل النظم الكريم بالتقديم ، لعدم وجود صفات يقتصد إجراؤها على المهتدين ، كما هو الحال فى سورة فاطر .

ثانيهما : أن السياق فى سورة فاطر فى امتداح السابقين ، وبيان حال من أورثهم الله الكتاب وأكثرهم ظالم لنفسه ، فاقتضى المقام تقديم الظالم ، لأن فى تقديمه مبادرة بالعتاب على تفريط المؤمنين ، الذين ظلموا أنفسهم بهذا التفريط ، فتقديم الظالم لنفسه فى فاطر أعون على تحقيق الغرض وهو المبادرة بالعتاب ..

أما فى سورة الحديد وكذلك الصافات ، فالسياق فى بيان الامتنان على الأنبياء ، ولا يناسب مقام الامتنان تقديم الظالم أو الفاسق ولو كان كثيرا .

وفى سورة هود الكلام فى سياق التحذير من الظلم والتخويف من عذاب الآخرة وهذا يقتضى تقديم الشقى ، لأن تقديمه فى مثل هذا المقام أعون على الزجر ، وأبلغ فى التحذير والتخويف .

واقرأ قوله تعالى : « **قال كذلك قال ربك هو على هين** »(٢١٦)

---

(٢١٦) مريم ٩

تجد أن الجار والمجرور « على » قد قدم على الخبر ، للدلالة على الاختصاص ، حيث اقتضى المقام ذلك ، ولم يقدم فى قوله عز وجل : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه »(٢١٧) إذ لا حاجة تدعو للدلالة على اختصاصه تعالى بالإعادة ، فهى أهون عليه من البدء .

يقول العلامة الزمخشرى : « فإن قلت : لم أخرت الصلة فى قوله : « وهو أهون عليه » وقدمت فى قوله : « هو على هين » ؟ قلت : هناك قصد الاختصاص ، وهو محزه ، فقيل : هو على هين وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هرم وعاقر ، وأما ههنا فلا معنى للاختصاص ، كيف والأمر مبنى على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى »(٢١٨) .

ونقرأ الآيات الكريمة : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ... والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء ... وأنزلنا من السماء ماء طهورا . لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ... إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ... »(٢١٩) وننعم النظر فى ترتيب ألفاظها ، وما قدم منها وما أخر ، ونبحث عما وراء التقديم والتأخير من دواع وأسرار ، نجد « رجالا » قد قدم على « على كل ضامر » للدلالة على المشقة التى يقاسيها من يحج راجلا ، ولذا فضل كثير من العلماء الرجالة على

---

(٢١٧) الروم ٢٧ (٢١٨) الكشاف ٣/٢٢٠

(٢١٩) الآيات بالترتيب : الحج ٢٧ ، النور ٤٥ ، الفرقان ٤٨ ، ٤٩ ، يونس ٢٤

الركبان ، وقال عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما : « وددت لو حججت راجلا ، فإن الله تعالى قدم الرجالة على الركبان فى القرآن »(٢٢٠)

وقدم من يمشى على بطنه وهو الزاحف الذى يمشى بغير آلة مشى من ارجل أو قوائم ، لأنه أعرق فى الدلالة على القدرة ، وسياق الآية فى بيان قدرة الله تعالى ، فاقتضى السياق تقديم ما هو أعرق فى الدلالة على القدرة ، ثم جاء الماشى على رجلين ، ثم الماشى على أربع .

وفى سورة الفرقان ذكر أن أسباب إنزال الماء الطهور : إحياء الأرض ، وسقى الأنعام والأناسى ، وقدم الإحياء على سقى الأنعام ، وسقى الأنعام على سقى الأناسى ، وذلك للأسباب الآتية :

١ ـ أن حياة الناس بحياة أرضهم ، وحياة أنعامهم ، فقدم ما هو سبب حياتهم وعيشهم على سقيهم .

٢ ـ أنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أراضيهم ومواشيهم ، فلن يعدموا سقياهم .

٣ ـ أن سياق الآيات الكريمة فى بيان ما امتن الله تعالى به على الناس ، فقد أفاض عليهم بمقومات وجودهم ، متمثلة فى المياه والنبات والأنعام ، إذ منافعها تصير إليهم ، وهم الغاية من إرسال الرياح ، وإنزال الماء وإنبات النبات ، ووجود الأنعام ، ولهذا أخروا وقدم ما امتن الله تعالى به عليهم .

ولما اختلف السياق فى سورة يونس ، وصار المقام مقام تحذير من فتنة الدنيا ، ومتاعها وشهواتها ، قدم الناس على الأنعام « مما يأكل الناس والأنعام » لأن الناس هم المفتونون بزهرة الحياة الدنيا ،

---

(٢٢٠) انظر تفسير ابن كثير ٢١٦/٣ وروح المعاني ١٤٤/١٧

وهم المستمتعون بنبات الأرض أصالة ٠

وهكذا يتجلى لنا أن وراء التقديم والتاخير فى النظم القرآنى أسرارا وأغراضا ، وأن تقديم اللفظ فى موضع وتاخيره فى موضع آخر ، لا يكون إلا لغاية ، ولمعنى يقصد إليه ، وتلك الغايات والمعانى لا تظهر إلا لمن أنعم النظر فى النظم الكريم ، وتانى فى الفهم والتدبر ، وأحاط بالسياق ومقاماته ، ووقف على المراد منه ٠

وإذا كان هذا هو شان التقديم عند النظر إليه فى نطاق الآيات الكريمة ، وفى ميدان النظم القرآنى كله ، فإن التقديم فى نطاق الجملة القرآنية الواحدة يكمن وراءه من الأغراض والأسرار ما يستلزم من الدارس أن يصبر لفهمها ، وأن يقف طويلا للإحاطة بها وتجليتها ، فإن تغيير بناء الجملة بتقديم كلمة فيها ، وتحويلها عن مكانها ، لا يكون إلا لتحقيق غرض ، والدلالة على معنى ٠

انظر إلى قوله تعالى : « **إياك نعبد وإياك نستعين** »(٢٢١) فإن تقديم الضمير « إياك » فى الموضعين لتحقيق معان جليلة وأغراض عظيمة ، إنه يدل على الاختصاص وتعظيم المعبود جل شانه ، لأن تقديم ما هو مقدم فى الوجود تنبيه للعابد إلى أنه ينبغى أن يكون نظره إلى المعبود أولا وبالذات ، ومنه إلى العبادة لا من حيث إنها عبادة صدرت عنه ، بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه وصلة سنية بينه وبين ربه ، فإن العارف إنما يحق وصوله إذا استغرق فى ملاحظة جناب ربه ، وغاب عما عداه ، ومرجع ذلك إلى تقديم الضمير « إياك » والابتداء به ، ولهذا فضل ما حكى الله عن حبيبه - ﷺ - حين قال : « **لا تحزن إن الله معنا** »(٢٢٢) على ما حكاه عن كليمه - عليه السلام - حين قال :

---

(٢٢١) الفاتحة ٥ (٢٢٢) التوبة ٤٠

« **إن معى ربى سيهدين** »(٢٢٣) لابتدائه بلفظ الجلالة ، وتصديره المعية به(٢٢٤) .

ومما ينبغى ملاحظته فى الآية الكريمة الالتفات إلى الخطاب ، المشعر بالترقى من البرهان ، فى إجراء الصفات المتقدمة عليه تعالى ، إلى العيان والمناجاة عن قرب ، وكأن المعلوم صار عيانا ، والمعقول مشاهدا ، والغيبة حضورا ، حيث تأخذ هذه الصفات بلب القارىء وتدنيه من خالقه ، فيتعلق به وجدانه الذى ذاب فى صفات الجلال ، ويناجى عن قرب : إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة .

وفى إيثار صيغة الجمع ، أى : المتكلمين ، فى الفعلين « **نعبد ونستعين** » على صيغة الإفراد « **أعبد وأستعين** » إيذان بقصور العابد المستعين ، وعدم لياقته بالوقوف فى مواقف الكبرياء منفردا ، وإشعار باشتراك سائر الموجودين له فى حالة الخضوع لله رب العالمين ، بناء

---

(٢٢٣) الشعراء ٦٢

(٢٢٤) انظر أنوار التنزيل ١/١٠ ... ومما يلاحظ فى التفضيل أيضا بالإضافة إلى التقديم ، التعبير فيما حكاه الله عن حبيبه - ﷺ - بلفظ الجلالة « الله » فقد أتى بالاسم الجامع لصفات الجلال ، وأما ما حكاه عن كليمه - عليه السلام - فقد عبر فيه بلفظ « الرب » وهو اسم مشعر بصفة واحدة ، صفة التربية ، وأيضا : أن قوله تعالى : « **إن معى ربى سيهدين** » قيدت فيه المعية بصفة واحدة وزمن واحد ، صفة الهداية والزمن المستقبل ، وأما قوله تعالى : « **إن الله معنا** » فقد أطلقت فيه المعية ، فلم تقيد بصفة ولا بزمن ، فأفادت أن الله معهما فى كل زمان ، حافظا ومعينا وهاديا وناصرا ، إلى آخر ما يمتن الله به على عبده . انظر روح المعانى ١٩/٨٥

ولا يتوهم من هذا أن القرآن يفضل بعضه بعضا ، لأن المراد : المفاضلة بين قولين جريا على لسان نبيين من أنبياء الله - عليهم الصلاة والسلام - وسبحان من فضل بعض العالمين على بعض « **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض** » البقرة ٢٥٣

على تعاضد الأدلة الملجئة إلى ذلك ، ولذا شرعت الجماعة ، لعل اندماج العبادة والاستعانة يكون سببا فى القبول والإجابة ، فقد تقبل عبادة المتقاصر ببركة عبادة الواصل(٢٢٥) .

وقد قرنت الاستعانة بالعبادة ليجمع بين ما يتقرب به العبد إلى ربه ، وما يطلبه ويحتاج إليه من جهته ، وقدمت العبادة على الاستعانة ، لأن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة يكون أدعى للإجابة(٢٢٦) .

ومما جاء التقديم فيه للدلالة على الاختصاص قوله تعالى : **« واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ... لكم دينكم ولى دين ... إلى ربك يومئذ المساق »**(٢٢٧) فقد دل التقديم فى الآيات الكريمة على الاختصاص ، اختصاصه تعالى بالعبادة ، واختصاص المشركين بدينهم وهو الشرك ، وعبادة غير الله ، واختصاص النبى - ﷺ - بدينه الذى هو التوحيد ، واختصاص المولى عز وجل بالمساق إليه ، فالعباد يومئذ يساقون جميعا إليه - تعالى - وحده ، للحساب والجزاء .

وانظر فى قوله تعالى : **« يطاف عليهم بكاس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون »**(٢٢٨) تجد أن تقديم الجار والمجرور فى قوله:**«لا فيها غول»**دل على نفى الغول عن خمر الجنة وإثباته لخمور الدنيا ، فخمور الدنيا تغتال العقول أى : تفسدها ، وينزف عنها شاربوها أى : يسكرون وتذهب عقولهم ، أما خمر الجنة فمنزهة عن ذلك .

---

(٢٢٥) انظر تفسير أبى السعود ١٧/١ ، والبيضاوى ١٠/١

(٢٢٦) انظر الكشاف ٦٦/١

(١٢٧) الآيات بالترتيب : البقرة ١٢٧ ، الكافرون ٦ ، القيامة ٣٠

(١٢٨) الصافات ٤٥ - ٤٧.

المراد إذا تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا ، ولذا قدم الجار والمجرور فى قوله « **لا فيها غول** » وقوله « **عنها ينزفون** » للدلالة على الاختصاص ، أى : نفى الغول والنزف عنها وإثباتهما لغيرها من خمور الدنيا ..

ولهذا جاء قوله تعالى : «**آلم . ذلك الكتاب لا ريب فيه** »(٢٢٩) بإيلاء الريب حرف النفى وتأخير الجار والمجرور « فيه » لأن المراد : إثبات أنه حق وصدق ، دون تعرض لغيره من الكتب الأخرى ، ولو قيل : لا فيه ريب ، لكان المعنى على نفى الريب عنه ، وإثباته لغيره من كتب الله الأخرى ، وهو بعيد عن المراد .

يقول الزمخشرى : « فإن قلت : فهلا قدم الظرف على الريب كما قدم على الغول فى قوله تعالى : « **لا فيها غول** »؟ قلت : لأن القصد فى إيلاء الريب حرف النفى ، نفى الريب عنه وإثبات أنه حق وصدق ، لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدعونه ، ولو أولى الظرف لقصد إلى مايبعد عن المراد وهو أن كتابا آخر فيه الريب لا فيه ، كما قصد فى قوله : « **لا فيها غول** » تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هى ، كأنه قيل : ليس فيها ما فى غيرها من هذا العيب والنقيصة »(٢٣٠) .

وقد يأتى التقديم لغرض الدلالة والتنبيه من أول الأمر على أن المقدم خبر وليس نعتا ، ففى قوله تعالى : « **قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** »(٢٣١) دل تقديم الجار

---

(٢٢٩) البقرة ١ ، ٢

(٢٣٠) الكشاف ١/١١٤ (٢٣١) الأعراف ٢٤

والمجرور « لكم » على أنه خبر لقوله « مستقر » ولو تأخر فقيل : ومستقر لكم فى الأرض ، لتوهم متوهم أنه وصف لمستقر ، وأن الخبر قوله « فى الأرض » إذ تحتاج النكرة إلى الوصف حتى يكون مسوغا للابتداء بها ، ولذا جاء التقديم للدلالة والتنبيه من أول الأمر على أن المقدم خبر وليس نعتا .

وفى قوله تعالى : **« وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون »**(٢٣٢) تقدم الجار والمجرور « لله » على مفعولى « جعل » على القول بأن « الجن » مفعول أول ، و « شركاء » مفعول ثان ، وعلى القول بأن « الجن » مفعول فعل محذوف ، وأن المعنى : فمن جعلوا شركاء ؟ قيل : الجن ، على هذا القول يكون الجار والمجرور « لله » مفعولا ثانيا لجعل مقدما على المفعول الأول « شركاء » .

وهذا التقديم للدلالة على أن الإنكار متوجه إلى الجعل لله ، لا إلى مطلق جعل ، لأن الخاطر ملتفت إليه تعالى ، والهمة معقودة به ، كما يدل تقديم « شركاء » على « الجن » على أن الإنكار متوجه إلى جعلهم لله شركاء على الإطلاق ، فيدخل فيه مشركة غير الجن ، ولو أخر فقيل: وجعلوا الجن شركاء لله ، كانت الشركة مقيدة غير مطلقة(٢٣٣) .

إن هذا التقديم للجار والمجرور أولا ، ثم للفظ « شركاء » ثانيا ، قد جعل إنكار الشرك أقوى ، والتحذير منه أبلغ ، والزجر أشد .

هل يفيد تقديم المعمول والخبر والظرف والجار والمجرور ونحوها الاختصاص دائما ؟ ..

---

(٢٣٢) الأنعام ١٠٠ (٢٣٣) انظر البرهان ٣/٢٦٨

الذى عليه محققو البلاغيين أن ذلك أمر غالب لا لازم ، على نحو ما رأينا فى الآيات الكريمة ، وانظر فى قوله تعالى : « **كلا هدينا ونوحا هدينا من من قبل** »(٢٣٤) تجد أن تقديم « **نوحا** » لا يفيد اختصاصا ، لأن الهداية ليست مقصورة عليه ، بل تجاوزته بصريح الآية الكريمة إلى غيره من الأنبياء .

وخذ قوله تعالى : « **أغير الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ..** »(٢٣٥) تجد أن التقديم فى قوله : « **أغير الله تدعون** » لا يدل على الاختصاص ، وإنما المعنى على إنكار أن يعبد غير الله مع الله قال تعالى : « **أ إله مع الله** »(٢٣٦) .

أما التقديم فى قوله « **بل إياه تدعون** » فهو للدلالة على الاختصاص ، إذ المعنى على اختصاصه تعالى بالعبادة ، وعندئذ يستجاب لهم ، ويكشف عز وجل ما يدعون إليه إن شاء .

فتقديم الخبر والمعمولات المذكورة لا يفيد الاختصاص دائما ، بل هذا أمر مبنى على الغلبة والأكثر ، لا على اللزوم والقطع ، وهو ما عليه المحققون من البلاغين ، كما قلت(٢٣٧) .

هذا وكثيرا ما يقدم المسند إليه فى الجملة للدلالة على الاختصاص أو للدلالة على التوكيد ، ففى قوله تعالى : « **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ... الله يعلم ما تحمل كل أنثى ... والله خلق كل دابة من ماء** »(٢٣٨) دل تقديم لفظ الجلالة على اختصاصه بهذه

---

(٢٣٤) الأنعام ٨٤ (٢٣٥) الأنعام ٤٠ ، ٤١

(٢٣٦) النمل ٦٠ (٢٣٧) انظر البرهان ٢٣٧/٣ ، ٢٣٨

(٢٣٨) الآيات بالترتيب : الزمر ٢٣ ، الرعد ٨ ، النور ٤٥

الأفعــال ، ولا يقال إن الاختصــاص قائم ولو أخر المسـند إليه « **لفظ الجلالة** » إذ لا أحد يشـاركه فيما ذكر فى الآيات الكريمـة ، **فلو قيل** : نزل الله .. يعلم الله .. خلق الله ، فهو وحده الذى ينزل ويعلم ويخلق .

لا يقال هذا القول ، لأن تأخير المسـند إليه يجعـل المعنى على الإخبار ، ولا يكون الاختصاص مقصودا ولا مرادا ، فهو إنما قصد وأريد بالتقـديم .

وفى قوله تعالى : « **لو يعلـم الـذين كفروا حـين لا يكفـون عن وهـم يخلقون** »(٢٣٩) دل تقديم المسـند إليه « هم » على التوكيـد فحسب ، لا على الاختصاص ، لأن الله يخلقهم ويخلق غيرهم ، وليس الخلق موقوفا عليهم .

وفى قوله تعالى : « **لو يعلـم الـذين كفـروا حـين لا يكفـون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون . بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون** »(٢٤٠) دل التقديم فى قوله « ولا هم ينصرون » على الاختصاص ، فالنصر منفى عنهم آنئذ ، مثبت لغيرهم من عصاة المؤمنين الذين لا يخلـدون فى النار ، أما التقـديم فى قوله تعالى : « **ولا هم ينظرون** » فهو للدلالة على التوكيد فحسب ، إذ لا أحد ينظر عند مجىء الساعة وحلول العذاب .

وفى قوله تعالى : « **وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز** »(٢٤١) وقوله عز وجل : « **ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى** »(٢٤٢) دل التقديم فى الآية الأولى على الاختصاص ، والمعنى : ما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة ، فالعزة منفية عنه

---

(٢٣٩) النحل ٢٠ — (٢٤٠) الأنبياء ٣٩ ، ٤٠

(٢٤١) هود ٩١ — (٢٤٢) إبراهيم ٢٢

ـ عليه السلام ـ ، مثبتة لرهطه ، بدليل قوله تعالى : « **أرهطى أعز عليكم من الله** »(٢٤٣) ٠

أما التقديم فى الآية الثانية فللدلالة على التوكيد فقط ، إذ لا أحد يغيثهم يومئذ ، لا الشيطان ولا غيره ، ولا أحد يغيث الشيطان ، لا هم ولا غيرهم ٠

وبهذا يتجلى لنا أن تقديم المسند إليه يدل إما على الاختصاص ، وإما على التوكيد فحسب ، سواء أكان تقديمه فى النفى نحو « **ولا هم ينصرون** » أم فى الإثبات نحو : « **وهم يخلقون** » وسواء أكان خبره فعلا ، كما فى الآيتين ، أم غير فعل نحو « **ما أنا بمصرخكم** » **والذى** يحدد دلالته إنما هو السياق وقرائن الأحوال ٠

ما سر دلالة تقديم المسند إليه على التوكيد ؟

سر ذلك أن تقديم المسند إليه ، وتصديره الجملة ، فيه تنبيه للمخاطب يجعله يتطلع لما سيسند إليه فعند مجيئه يتأكد لدى النفس، لأنه جاءها وهى متطلعة إليه ، مهيأة لتلقيه ٠

يقول عبد الظاهر : « لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه ، وإذا كان كذلك فإذا قلت : عبد الله فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلا : قام ، أو قلت : خرج ، أو قلت : قدم ، فقد علم ما جئت به ، وقد وطأت له ، وقدمت الإعلام فيه ، فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقبله قبول المتهيىء له ، المطمئن إليه »(٢٤٤) ٠

هل هناك مقامات تقتضى تقديم المسند إليه للدلالة على التوكيد ؟

أجل ، وأهم هذه المقامات هى :

---

(٢٤٣) هود ٩٢ (٢٤٤) دلائل الإعجاز ١٥٩

١ ـ ما سبق فيه إنكـار ، كما قوله تعـالى : « **ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** »(٢٤٥) فالكاذب ولا سيما فى أمور الدين لا يقـر بانه كاذب ، بل يدفع ذلك وينكره ، ومن باب أولى ينكرون ويدفعـون علمهم بهذا الكذب ، ولذا جاء التوكيد « **وهم يعلمون** » .

ومثله قوله تعالى : « **وقالوا اساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا** »(٢٤٦) فالنبى - ﷺ - ينكر ما يزعمونه فى شـأن القرآن ، ويدفع وصفهم له بكونه أساطير الأولين تملى عليه ، ولذا كان التوكيد لمـا يزعمون « **فهى تملى عليه** » .

٢ ـ ما جرى فيه تكذيب المدعى ، وإبطال دعواه ، كما فى قوله تعالى : « **وإذا جاءوكـم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهـم قد خرجوا به** »(٢٤٧) فقولهم « **آمنا** » **دعـوى بانهم لم يخرجوا بالكفر ، وهـم** كاذبون فى هذه الدعوى ، لأنهم دخلوا بالكفر وخرجوا به ، ولذا جاء التوكيد « **وقد دخلوا بالكفر وهـم قد خرجوا به** » تكذيبا لهم وإبطالا لدعواهـم .

٣ ـ فيما القياس فى مثله ألا يكـون ، كقوله تعالى : « **واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون** »(٢٤٨) فقد عبد المشركون آلهة مخلوقة ، وهذا خلاف القياس ، لأن شان المعبود أن يكـون خالقا لا مخلوقا ، ولذا كان التوكيد « **وهم يخلقون** » ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من توبيخ للمشركين وتسفيه لعقولهم .

٤ ـ عند الأخبار الغريبة التى تثير الدهشـة والتعجب ، كما فى

---

(٢٤٥) آل عمران ٧٥
(٢٤٦) الفرقان ٥
(٢٤٧) المـائدة ٦١
(٢٤٨) الفرقان ٣

قوله تعالى : « **وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون** »(٢٤٩) فمعنى الإيزاع : أن يوقف أولهم ، ويحبس حتى يلحق به آخرهم ، وحشر الجن والإنس والطير على هذه الهيئة من الإيزاع والتداخل أمر غريب يثير التعجب والدهشة ، ولذا جاء التوكيد « **فهم يوزعون** » دفعا لهذه الغرابة ، وتقريرا للمعنى فى النفس ولو قيل : فحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فيوزعون ، لوجدنا أن اللفظ قد نبأ عن المعنى ، والمعنى قد زال عن صورته وعن الحال التى ينبغى أن يكون عليها .

ومثله قوله تعالى : « **قال هى راودتنى عن نفسى** »(٢٥٠) إذ مما يستغرب ويثير الدهشة أن تقع المراودة ممن تكون فى تلك المنزلة ، إنها امرأة العزيز ، والنفوس تستبعد وقوع المراودة منها لفتاها ، لذا جاء التوكيد « هى راودتنى » تقريرا للمعنى ، ودفعا لهذه الغرابة .

قلت إن تقديم المسند إليه يكون إما للدلالة على الاختصاص ، وإما للدلالة على التوكيد فحسب ، وأن السياق وقرائن الأحوال به هى التى تحدد دلالته ، وقد قطع الإمام عبدالظاهر وجمهور البلاغيين بدلالة تقديم المسند إليه على خبره الفعلى بعد أداة النفى ، فى نحو قولنا : ما أنا فعلت ، قطعوا بدلالته على الاختصاص ، وهذا القطع يتنافى مع ما رأيناه فى الآيات الكريمة ، إذ نرى هذا التقديم فى كثير من الآيات ، لا يفيد اختصاصا ، وإنما يكون لمجرد التوكيد ، كما رأينا فى قوله تعالى : « **بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون** »(٢٥١) فالتقديم فى قوله « **ولا هم ينظرون** » للتوكيد

---

(٢٤٩) النمل ١٧

(٢٥٠) يوسف ٢٦

(٢٥١) الأنبياء ٤٠

فحسب ، ولا يفيد اختصاصا ، إذ لا أحد ينظر عند قيام الساعة وحلول العـذاب .

وخـذ قوله تعالى : « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون »(٢٥٢) تجد أن تقديم المسند إليه « هم » وإيلاءه أداة النفى لم يفد اختصاصـا ، وإنما دل على التوكيد فحسب ، فالنزف عن خمر الجنة منفى عنهم ، ومنفى عن غيرهم، هى لا تسبب نزفا أى: سكرا لمن قدر الله له أن يشربها، وأنعم عليه بدخول الجنـة ، ولا يتأتى أن يقال : إن النزف عن خمـر الجنة منفى عن هـؤلاء ، مثبت لغيرهم .

ولذا نقرر أن القواعد والضوابط البلاغية ينبغى أن تكون مبنية على الأكثر والغـالب ، لا على القطـع والإطـلاق ، وأن على الدارس الواعى أن ينعم النظر فى النظم القرآنى ، وفى النصوص الجيدة التى نطق بها الخلص ، لا سيما الشـعر الجاهلى ، وأن يدرك مدلولات هذه النصوص ، ثم يقوم فى ضوء هذه المدلولات بتصحيح المفاهيم والضوابط البلاغية وتحريرها ، وخاصة عندما يبدو له تناقض بين هذه المفاهيم وما تدل عليه النصوص الجيدة ، فهذه المفاهيم وتلك الضوابط ، إنما استنبطها العلماء من تأملهـم لدلالات التراكيب فى هـذه النصوص ، ولا عجب إذاً أن تحرر تلك الضـوابط والمفاهيـم فى ضـوء ما يتجلى للناظر من دلالات النظـم القرآنى الكريـم ، ودلالات هذه النصـوص الجيـدة .

* * *

---

(٢٥٢) الصـافات ٤٧

الاســمية والفعليــة

قال تعـالى :

« وتحسبهم ايقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لواطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » الكهف ١٨

« أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن » الملك ١٩

« وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكـم سـواء عليكم أدعوتموهـم أم انتم صامتون » الأعراف ١٩٣

« وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين • اتبعوا من لا يسالكم أجرا وهم مهتدون » يس ٢٠ ، ٢١

« عفـا الله عنك لم اذنت لهـم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » التوبة ٤٣

« قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين » الأنبياء ٥٥

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون » البقرة ١٤

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فمـا لبث أن جاء بعجل حنيذ » هود ٦٩

« يا أيها الناس اذكروا نعمـة الله عليكم هـل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض » فاطـر ٣

« وجعلنا السـماء سـقفا محفوظا وهـم عن آياتها معرضـون » الأنبياء ٣٢

« قل من يكلؤكم بالليل والنهـار من الرحمن بل هم عن ذكـر ربهم معرضون » الأنبياء ٤٢

« وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » يوسف ١٠٥

يختلف الاسم عن الفعل فى الدلالة ، فالاسم يدل على الثبوت والدوام ، والفعل الماضى يدل على حدث قد وقع فى الزمن الماضى ، والفعل المضارع يدل على حدث يقع فى الحال ويستمر وقوعه فى الاستقبال ، فهو يدل على الحدوث والتجدد ، نقول : زيد انطلق ، فتفيد هذه الجملة أن انطلاقا قد وقع من زيد ، ونقول : زيد ينطلق ، فتدل الجملة على أن انطلاقا يقع من زيد ، ويتجدد وقوعه ، ونقول : زيد منطلق ، فتدل على انطلاق ثابت واقع من زيد ، وزيد مستمر فيه .

ومن أجل هذا الاختلاف فى دلالة كل من الاسم والفعل ، أوثر التعبير بالاسم عند إرادة الدلالة على الثبوت والدوام ، وعبر بالفعل عند إرادة الدلالة على وقوع الحدث ، أو الدلالة على الحدوث والتجدد ، ويكون وراء ذلك معان يقصد البلاغى إلى تحقيقها ، ودلالة التعبير عليها .

انظر إلى قوله تعالى : **« وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا »**(١) تجد أن التعبير بالأسماء فى قوله : **« أيقاظا .. هم رقود .. كلبهم باسط »** قد دل على دوام هذه الأفعال ، وثبوت تلك الهيئات ، واستمرارهم عليها ، فالكلب باسط ذراعيه ، ثابت ومستمر على تلك الهيئة ، وهم مستمرون فى رقودهم ، أيقاظا ، أى : دائمى اليقظة متنبهين ، لا تغمض أعينهم البتة .

---

(١) الكهف ١٨

إن إيثار التعبير بتلك الأسماء قد كشف عن هيئة أهـل الكهف ، جلى سكونهم الدائم ، وأفصـح عن ثباتهـم على الهيئات المذكـورة ، ولمـا كان التقليب يتجدد ، ويقع حينا بعد حين ، لئلا تأكل الأرض من أجسـادهم فقد عبر عنه بالفعل المضارع « نقلبهم » الدال على التجدد والحـدوث .

وفى قـوله تعـالى : « **أو لم يروا إلى الطيـر فوقهـم صـافات ويقبضن** »(٢) عبر عن صف الأجنحة بالاسم « **صافات** » وعن قبضـها بالفعل « **ويقبضن** » وذلك لأن الأصل فى الطيران صف الأجنحة ، أى : بسطها ، فعبر عنه بالاسـم الدال على الثبـوت والدوام ، وأما القبض فطارىء على البسط لكى يستعان به على الحركة ، ولذا عبر عنه بالفعل الدال على الحدوث والتجدد .

يقول الزمخشرى : « فإن قلت : لم قيل : ويقبضـن ، ولم يقل : قابضات ؟ قلت : لأن الأصـل فى الطيران هـو صـف الأجنحة ، لأن الطيران فى الهواء كالسـباحة فى المـاء ، والأصل فى السـباحة مـد الأطراف وبسطها ، وأما القبض فطارىء على البسط ، للاستظهار به على التحرك ، فجىء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل ، على معنى أنهن صـافات ويكـون منهـن القبض تـارة بعـد تـارة ، كمـا يكـون من السـابح »(٣) .

ومن ذلك قوله تعالى : « **وإن تدعوهم إلى الهـدى لا يتبعـوكم سـواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون** »(٤) إذ تكشـف هـذه الآية

---

(٢) الملك ١٩

(٣) الكشاف ١٣٨/٤ (٤) الأعراف ١٩٣

الكريمة عن عادة المشركين ، وعلاقتهم بالأصنام التى عبدوها من دون الله ، فقد كانوا إذا مسهم الضر ، أو نزلت بهم نازلة ، دعوا ربهم منيبين إليه ، وصمتوا عن دعاء أصنامهم ، تلك عادة متاصلة فيهم وثابتة ، ولـذا عبر عن صموتهم بالجملة الاسمية « **أنتم صامتون** » الدالة على الثبوت والدوام ، فهذا هو الأصل فيهم ، وأما الدعاء فغير معهود عنهم فى هذه الحال ، ولذا عبر عنه بالفعل « **أدعوتموهم** » والمعنى : سواء عليكم أحدثتم الدعاء على غير عادة ، أم بقيتم مستمرين على عادة صمتكم عن دعائهم(٥) .

وانظر فى قوله تعالى : « **وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسالكم اجرا وهم مهتدون** »(٦) تجده قد عبر فيه عن اهتداء الرسل بالجملة الاسمية « **وهم مهتدون** » الدالة على الثبوت والدوام ، فهم ثابتون على الهدى ، مستمرون فيه ، وهذا أدعى لاتباعهم والاقتداء بهم ، فإذا ما أضيف إلى ذلك أنهم لا يسألون على تبليغ الرسالة أجرا تأكد وجوب الاتباع والاقتداء .

والفعل المضارع فى قوله : « **من لا يسالكم** » يفيد التجدد الاستمرارى وهو منفى « بلا » - كما ترى - فعدم سؤالهم الأجر على تبليغ الرسالة متجدد بتجدد التبليغ ، وباق على الدوام ، ولو عبر بلم فقيل : من لم يسالكم اجراً ، لفتح مجالا أمام المعاندين أن يقول قائلهم : الرسل لا يسألون اليوم اجرا ، وغدا قد يسألون ، وذلك لأن « لا » النفى بها مستمر ، وأما « لم » فإنها حرف نفى وقلب ، فالنفى بها ليس مستمرا ، ولذا يقال : لم يكن ثم كان(٧) .

---

(٥) انظر الكشاف ١٣٨/٢ (٦) يس ٢٠ ، ٢١

(٧) انظر مغنى اللبيب ٢٧٩/١

أرأيت مدى دقة التعبير القرآنى ؟ إن استبدال حرف بحرف يغير المعنى ، ويؤدى إلى الدلالة على غير المراد ، وهذا دليل من دلائل إعجازه « **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** »(٨) .

وانظر فى قوله تعالى : « **عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** »(٩) لقد عبر عن المنافقين بالاسم « الكاذبين » الدال على الثبوت والدوام ، لينبىء بأن هذه عادتهم ، فالكذب خلق ثابت فيهم ، وصفة مستمرة دائمة ، لا تبارحهم ، وأما المؤمنون فقد عبر عنهم بالفعل الماضى « صدقوا » ليدل على أنهم قد حققوا الصدق ، وتحلوا به ، فلم يعدلوا عنه ، وتأمل الفعلين « يتبين لك .. وتعلم » وما يدلان عليه من جلاء الصدق ووضوحه ، وخفاء الكذب وكتمانه ، فصدق المؤمنين يتبين للنبى - ﷺ - وأما كذب المنافقين فيحتاج إلى علم حتى ينكشف ويظهر .

وفى قوله تعالى : « **قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين** »(١٠) عبر عن مجيئه بالحق ، بالجملة الفعلية « أجئتنا بالحق » وعن لعبه بالجملة الاسمية « أنت من اللاعبين » وهذا يكشف عما يريده الكفرة ، إنهم يريدون أن كون إبراهيم - عليه السلام - من اللاعبين أمر ثابت ، وهو الأصل فيه ، وأن مجيئه بالحق أمر طارىء عليه ، ولم يعهد عنه .

والمعنى : أحدث منك مجىء بالحق ، ولم تكن كذلك ، ولا هذه عادتك ، أم أنت مستمر فى لعبك الذى عهدناه فيك ، وعرفناك به ؟ ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من العناد والمكابرة ، ورفض الإذعان للحق ، والانصياع للهدى .

---

(٨) النساء ٨٢
(٩) التوبة ٤٣
(١٠) الأنبياء ٥٥

وكذا القول فى الآية الكريمة : « **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون** »(١١) حيث دل التعبير بالفعل « آمنا » على أن المنافقين قد أظهروا الإيمان خوفا ومداراة للمؤمنين ، وأن الإيمان لم يثبت فى وجدانهم ، ولم يترسخ بداخلهم ، ولم يقر فى نفوسهم ، وما كان كذلك يعبر عنه بالفعل .

ودل التعبير بالجملة الاسمية المؤكدة : « **إنا معكم إنما نحن مستهزءون** » على ثبوت النفاق ، وترسخه بوجدانهم ، وثباتهم ودوامهم عليه ، فهو متأصل فيهم ، قد تمكن فى الوجدان ، وتغلغل بداخلهم ، وامتلأت بهم نفوسهم ، وما هذا شأنه يعبر عنه بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام .

وفى قوله تعالى : « **هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض** »(١٢) دل التعبير بالفعل المضارع « **يرزقكم** » على أن رزق الله متجدد ، يتجدد بتجدد العباد ، ويستمر ببقائهم ، فلا ينقطع ولا يزول ، وفى هذا حث على شكر النعمة ، والخضوع والامتثال لله رب العالمين الخالق الرازق .

وتأمل قوله تعالى : « **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام** »(١٣) تجد أن سلام الملائكة قد جاء منصوبا « قالوا سلاما » وسلام إبراهيم جاء مرفوعا « قال سلام » وذلك لأن فى الكلام حذفا ، والأصل : قالوا : نسلم سلاما ، فقال : سلام عليكم .

فسلام الملائكة قد جاء جملة فعلية « نسلم سلاما » وسلام إبراهيم

---

(١١) البقرة ١٤ (١٢) فاطر ٣

(١٣) هود ٦٩

قد جاء جملة اسمية « سلام عليكم » وهذا يدل على أنه - عليه السلام - أراد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به ، آخذا بآداب التحية فى قوله تعالى : « **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها** »(١٤)٠

وانظر فى الآيات الكريمة : « **وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ٠٠٠ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ٠٠٠ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** »(١٥) تجد أن التعبير عن إعراضهم بالاسم « معرضون » قد دل على دوام الإعراض واتصاله ، وأنه لم يتخلله انقطاع يكون فيه نظر إلى الذكر ، وإلى آيات الله فى الكون والآفاق ، علهم أن يتعظوا ويتدبروا ، وهذا يدل على شدة العناد والمكابرة ٠

ولعلك تدرك أن التعبير بالفعل المضارع فى قوله: « **يمرون عليها** » قد دل على تجدد مرورهم على تلك الآيات ، حتى صارت واضحة أمامهم ، وعلى الرغم من هذا فإن الإعراض دائم ومتصل ، لقد التزموا به ، ووقفوا أنفسهم عليه ، عنادا ومكابرة ٠

وبهذا يكون قد تجلى لنا ما وراء التعبير بالاسمية والفعلية فى النظم الكريم من أغراض ومعان يقصد إلى تحقيقها ، وقد وضح لنا أن إفادة هذه الأغراض ، والدلالة على تلك المعانى ، مرجعها إلى دلالة الاسمية على الثبوت والدوام ، ودلالة الفعلية على وقوع الفعل ، أو على الحدوث والتجدد ٠

---

(١٤) النساء ٨٦

(١٥) الآيات بالترتيب : الأنبياء ٣٢ ، ٤٢ ، يوسف ١٠٥

الحــذف

قال تعالى :

« والفجر • وليال عشر • والشفع والوتر • والليل إذا يسر • »
الفجر ١ ـ ٤

« قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا » الكهف ٦٤

« قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشــدا »
الكهــف ٦٦

« قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا » الإسراء ٦٢

« ونادوا يا مال ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون » الزخرف ٧٧

« يوسف اعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين »
يوسف ٢٩

« قالوا تالله تفتأ تذكر يوسـف حتى تكون حرضـا أو تكون من الهالكين » يوسف ٨٥

« ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يسـتوفون • وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » المطففين ١ ـ ٣

« واسـأل القـرية التى كنا فيهـا والعير التى اقبلنـا فيهـا وإنا لصادقون » يوسف ٨٢

« فاقبلت امرأته فى صرة فصـكت وجهها وقالت عجـوز عقيم »
الذاريات ٢٩

« قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » يوسف ٤٤

« لقــد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » الأنعام ٩٤

« فغلبوا هنالك وانقلبوا صـاغرين • وألقى السحرة سـاجدين »
الأعراف ١١٩ ، ١٢٠

« قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لامسكتم خشية الإنفاق »
الإسراء ١٠٠

« وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم قالوا خيراً » النحل ٣٠

« وإذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ٠ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون أم يدسه فى التراب »
النحل ٥٨ ، ٥٩

« فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها » الشمس ١٣

« افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء »
الرعد ٣٣

« ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت واخذوا من مكان قريب » سبأ ٥١

« قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » يوسف ١٨

« سورة أنزلناها وفرضناها وانزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون »
النور ١

« ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ٠٠٠ » الانعام ٢٧

« وإذا ما انزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من احد »
التوبة ١٢٧

« ق والقرآن المجيد ٠ بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب » ق ١ ، ٢

« قال رب ارنى أنظر إليك » الأعراف ١٤٣

« ولو شاء لهداكم اجمعين » النحل ٩

« إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت » البقرة ٢٥٨

« إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا » الأعراف ١٥٢

« آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » يونس ٩١

« وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا » البقرة ٩٠

« وقال الذى نجا منهم وادكر بعد أمة أنبئكم بتأويله فارسلون • يوسف أيها الصديق أفتنــا ••• » يوسف : ٤٥ ، ٤٦ •

والحذف أيضا من شجاعة العربية ـ كما أشــار ابن جنى ـ لأن وراءه أسرارا ومزايا يدركها الخبير بأســاليب الكلام ، البصير بطـــرق القول ، فالمتكلم يطوى جزءا من أجزاء الكلام ، ولا يختل المعنى بهــذا الطى ، بل يزداد الكلام حسنا ، وتكثر فوائده ومزاياه ، والخبير بطرق القول هو الذى يستطيع ممارسـة هذا الفن من فنــون الكلام ، ويعلــم مواطنه ، ويعرف متى يستجاد ، ويدرك أسباب الإجادة •

لذا كان الحذف من شجاعة العربية ، وقال عنه الإمام عبدالقاهر : « هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكــر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لـم تبن »(١) •

وقد كثر الحذف فى اللغة وتنوع ، فنرى حذف الكلمة حرفا وفعلا واسما ، مضافا ومضافا إليــه ، فاعلا ومفعولا ، صفة وموصوفا ، خبرا ومبتدأ ، نرى حذف الجملة ، وحذف الجمل ، وحذف الأجوبة ، جواب الشرط ، وجواب القسم وجواب الاستفهام ، كما نرى حذف جزء من الكلمة وبقاء جزء ، ولابد فى كل حذف من دليل يدل على المحذوف ، ومن سر بلاغى يقتضى الحذف •

ودراسة الحذف فى النظــم القرآنى تتطلب أذنا واعية ، وعقــلا حاضرا ، ونظرا ثاقبا ، حتى يستطيع صــاحب تلك الحواس النشــطة المهيأة للإدراك ، أن يدرك من أسرار الحذف فى القرآن ما يشاء الله له أن يدرك •

---

(١) دلائل الإعجاز ١٧٠

ولنبدأ دراستنا للحذف فى النظم القرآنى بالنظر فى حذف جزء الكلمة ، ونجد ذلك فى آيات كثيرة من آيات الذكر الحكيم ، حيث يحذف جزء من الكلمة ويبقى جزء ، ولا يكون ذلك إلا لغرض بلاغى يقتضيه النظم الكريم .

ففى قوله تعالى : « **والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر . هل فى ذلك قسم لذى حجر** »(٢) نجد الياء قد أسقطت من كلمة « يسرى » لغرض ، وهو المحافظة ، على نسق الآيات الكريمة ، وبقاء النغم الصوتى للفواصل ، واستمرار وقعه ، ولو ذكرت الياء فقيل : والشفع والوتر والليل إذا يسرى هل فى ذلك قسم لذى حجر ، لضاع هذا النغم الصوتى ، وزال أثره .

جاء فى البرهان والإتقان أن الأخفش قد علل هذا الحذف بان عادة العرب إذا عدلت بالشىء عن معناه نقصت حروفه ، والليل لما كان لا يسرى ، وإنما يسرى فيه ، نقص منه حرف(٣) .

ولا يروقنا هذا التعليل ، لأنا لا نجد فى الكثير مما عدلت به العرب عن معناه مثل هذا الحذف ، وقد جاء ذلك فى القرآن بلا نقص فى حروفه ، جاء فى قوله تعالى : « **بل مكر الليل والنهار** »(٤) والليل والنهار لا يمكران ، بل يمكر فيهما ، وجاء فى قوله تعالى : « **فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا** »(٥) واليوم لا يجعل ، وإنما يجعل فيه .

كما نجد هذا الحذف فى كثير مما لم تعدل به العرب عن معناه

---

(٢) الفجر ١ ـ ٥

(٣) انظر البرهان ١٠٧/٣ والإتقان ١٧١/٣

(٤) سبأ ٣٣ (٥) المزمل ١٧

ـ على نحو ما سنرى ـ ولذا فإن ما ذكرناه فى تعليل هـذا الحـذف ، بالمحافظة على بقاء الأثر الصوتى لفواصل الآيات ، هو الأولى بالقبول ، ويتجلى لك ذلك عندما تقـرأ السورة من سـور القرآن ، وتقف على فاصلتها ، وتلتذ وتستمتع بالنغم الصوتى الذى تحدثه ، ثم تجد حذف جزء من الكلمة ليستمر هذا الأثر الصوتى للفواصل ، ولتقرأ من سـورة الرعد : « **الذين آمنـوا وعملوا الصالحات طوبى لهـم وحسـن مآب . كذلك أرسلناك فى أمة قد خلـت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب** »(٦) واستمر فى القراءة فستجد الفواصـل بعد ذلك : « **إن الله لا يخلف الميعاد ... ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ... ومن يضـلل الله فماله من هاد ... إليه أدعو وإليه مآب** »(٧) لقد حذفت الياء ، أى : الضمير المضاف إليه فى ثلاثة مواضع وهى : إليـه متاب ، فكيف كان عقاب ، إليه مآب ، والأصل . متابى ، عقابى ، مآبى ، وهذا الحذف لكى يظل الأثر الصوتى للفواصل باقيا كما ترى .

وفى الآيات الكريمة : « **قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا ... قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ... قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة ... ونادوا يا مال ليقض علينا ربك** »(٨) .

---

(٦) الرعد ٢٩ ، ٣٠

(٧) الآيات بالترتيب : الرعد ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦

(٨) الآيات بالترتيب : الكهف ٦٤ ، ٦٦ ، الإسراء ٦٢ ، الزخرف ٧٧ .

تجد أن الكلمات : نبغ .. تعلمن .. أخرتن .. يا مال ، قد حذف جزء من كل منها فى قراءة من قرأ « نبغ » بالحذف ، و « مال » بترخيم المنادى ، إذ الأصل فى كل منها : نبغى .. تعلمنى .. أخرتنى .. يا مالك ، ووراء هذا الحذف أغراض يقصد إلى تحقيقها .

فالسياق فى سورة الكهف أن موسى ـ عليه السلام ـ قد انطلق مع فتاه فى طلب العبد الصالح ليتعلم منه موسى مما علمه الله ، وقد جعل الله لهما علامة لوجوده ، وهى فقدان الحوت الذى أعداه لغدائهما ، فنسياه بجوار صخرة عند مجمع البحرين ، ولم يتذكراه إلا بعد إحساسهما بالجوع ، حينما طلب موسى الغداء من فتاه ، فأخبره بفقدان الحوت عند الصخرة « **قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت** »(٩) وعندئذ أسرع موسى بالعودة إلى ذلك المكان ، فقد خرج من أجل ذلك .

وهنا يصور النظم القرآنى سرعة ارتدادهما « قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا » انظر إلى تلك الفاء « فارتدا » التى تفيد التعقيب وسرعة الارتداد ، إن حذف جزء الكلمة هنا فى « نبغ » يصور سرعة موسى فى ارتداده ، وكأن الزمن يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف ، وإتمام الحديث مع فتاه ، لقد انتهت مرحلة البحث ، وبدأت مرحلة أخرى ، وهى مرحلة الإسراع للوصول إلى الأمل المنشود ، وكأن تلك الجملة « ذلك ما كنا نبغ » كانت فاصلا بين المرحلتين .

ولذا يقول صاحب الفتوحات الإلهية : « إنما حذفت ـ أى : الياء من « نبغ » تشبيها بالفواصل ، أو لأن الحذف يأنس بالحذف ، فإن «ما» موصولة حذف عائدها »(١٠) .

---

(٩) الكهف ٦٣ .   (١٠) الفتوحات الإلهية ٣٤/٣ .

إن الحذفين يصوران حالة موسى فى سرعة ارتداده كى يظفر بالعبد الصالح ويتعلم منه ، وتلك السرعة هى التى اقتضت حذف الياء من قوله « أن تعلمن » لأن موسى - عليه السلام - متلهف إلى أن يتعلم رشداً مما تعلمه العبد الصالح ، ففى حذف الياء سرعة فى الإفصاح عما يتطلع ويتلهف إليه ، وهو قوله تعالى : « **مما علمت رشدا** » .

وكذا القول فى آية الإسراء « **لئن أخرتن** » حذف الياء هنا يصور تلهف الشيطان إلى ذلك الأمد الذى يريده « **إلى يوم القيامة** » إنه لا يريد مجرد تأخير ، وإنما يريد أمدا طويلا ، وحياة ممتدة إلى يوم القيامة ، ففى حذف الياء سرعة فى الإفصاح عن تلك الرغبة ، وتصوير لتلهف الشيطان ، وتطلعه لذلك الأمد(١١) .

ولمزيد من الإيضاح ننظر فى قوله تعالى : « **قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ...** »(١٢) نجد الياء ثابتة فى قوله « نبغى » لأن المقام هنا مقام حث على النظر والتأمل ، والتفكر فيما يطلبون منه - عليه السلام - من إرسال أخيهم معهم ، وهذا يحتاج إلى ترو وتأن ، فلا مجال هنا للحذف ، لقد اختلف السياق - كما ترى - واختلف المقام ، السياق فى الكهف ، اقتضى الحذف ، لتصوير السرعة والعجلة ، والسياق هنا فى يوسف ، اقتضى الذكر ، لتصوير التأنى والتروى اللذين يحتاج إليهما فى مقام التفكر والتأمل .

وانظر فى قوله تعالى : « **وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب ...** »(١٣)

---

(١١) اعتبرنا الحذف فى « تعلمن وأخرتن » حذفا لجزء كلمة ، نظرا لرسمهما « تعلمنى وأخرتنى » ولا يخفى عليك أن الياء فى كل منهما ضمير متصل .

(١٢) يوسف ٦٥ .　　(١٣) المنافقون ١٠ .

تجد أيضا ثبوت الياء فى قوله « أخرتنى » لاختلاف المراد ، لأن الشيطان هناك يتطلع إلى الأمد البعيد ، فحذف لسرعة الإفصاح عن هذا الأمد ، أما الذى أتاه الموت هنا ، فيتمنى مجرد التأخير ، ولا يتطلع إلى أمد بعيد ، ولذا قال « إلى أجل قريب » فليس هنا ما يدعو إلى الحذف فى « أخرتنى » بل أقصى ما يتمنى هو التأخير لأجل قريب .

أما الحذف فى قوله تعالى : « **ونادوا يا مال ليقض علينا ربك** » فى قراءة من قرأ بالترخيم ، فإنه يصور شدة ما يعانيه أهل النار من العذاب ، وكأنهم لشدة ما لاقوا قد ضعفت قواهم وذلت أنفسهم فلا يستطيعون إتمام الكلمة ، ولقد أفصحوا عما يصوره الحذف فى قولهم « ليقض علينا ربك » فهذا الدعاء يدل على شدة ما لاقوه فى نار جهنم .

وقد جاء فى كتب التفسير أن عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنكر هذه القراءة قائلا : « ما أشغل أهل النار عن الترخيم » يريد أن الترخيم تصرف فى الكلام، وتفنن فيه، وهويدل على رفاهية المتكلم وظرفه، وعلى رقة الحديث والتدلل على المخاطب ، وليس هذا من شأن أهل النار ، الذين نادوا مالكا(١٤) .

والجواب أن الترخيم كما يأتى للتصرف والتفنن فى الكلام ، فإنه يأتى أيضا للدلالة على ضيق المجال ، وشدة الأهوال ، التى يعجز معها عن إتمام الكلمات ، كما فى هذه الآية الكريمة ، ومنه قول الحارث بن وعلة الجرمى :

قومى هم قتلوا أميم أخى

فإذا رميت يصيبنى سهمى

---

(١٤) انظر روح المعانى ١٠٢/٢٥

فقد رغم « أميمة » وهو حزين ، ضائق الصدر لقتل أخيه ، وعجزه عن الثأر له ، لأن القاتل قومه .

هذا ويسمى العلماء هذا اللون من الحذف - حذف جزء الكلمة - بالاقتطاع ، لأنك تقتطع من بينة الكلمة جزءا ، وقد وضح لك فيما ذكرناه من الآيات ، أن هذا الاقتطاع لا يكون إلا للدلالة على غرض .

ومما حذف فيه الحرف قوله تعالى : « **يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين** »(١٥) فقد حذف حرف النداء ، وتقديره : يا يوسف أعرض عن هذا ، ووراء حذف حرف النداء تكمن معان غزيرة ، يكمن تقريب يوسف وملاطفته ، فقد ثبتت براءته وحقت له تلك الملاطفة ، ثم إن الملاطفة وراءها مارب يشعر به الحذف أيضا ، وهو الإيماء بأن ما حدث يجب أن يضمر فى السرائر فلا يجرى به لسان .

كما ينبىء هذا الحذف بحال العزيز ، ويصور آلامه ، وضيق صدره ، عندما وقف على حقيقة الأمر ، وثبت أن امرأته هى التى أرادت السوء ، ولذا أجمل الحدث وأشار إليه بكلمة واحدة « هذا » رغبة فى إخفائه وأملا فى كتمانه وعدم إشاعته ، ولكن أنى له ذلك ؟ إن حدثا كهذا فى مثل هذه المجتمعات ، ليسرى كالبرق ، وينتشر كلمح البصر ، وكأن للجدران آذانا تسمع ، وألسنة تذيع ، وهذا ما قد كان ، لقد ذاع الحدث ، وعلمه الجميع ، ولذا جاء عقب هذه الآية مباشرة قوله تعالى : « **وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه** ... »(١٦) أما كيف انتشر الحدث ، وذاع بين الناس ، فقد سكت

---

(١٥) يوسف ٢٩ (١٦) يوسف ٣٠

النظم الكريم عن ذلك ليؤذن بسرعة انتشاره ، وليترك العقول تتخيل ما يكون فى مثل هذه المجتمعات ، وكيف تسرى فيها الشائعات وتنتقل الأحداث .

ومنه قوله تعالى : « **قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين** »(١٧) حيث حذف حرف النفى « لا » وتقديره : تالله لا تفتأ تذكر يوسف ، ودليل الحذف خلو جواب القسم من التوكيد ، لأن جواب القسم يؤكد إذا كان مثبتا نحو : تالله لأفعلن ، وقوله تعالى : « **وتالله لأكيدن أصنامكم** »(١٨) ويخلو من التوكيد إذا كان منفيا نحو : تالله لا أفعل ، فخلو جواب القسم من التأكيد فى الآية الكريمة دليل على اعتبار النفى(١٩) .

ويذكر ابن أبى الإصبع فى باب ائتلاف اللفظ مع المعنى ، أن الله عز وجل أتى فى هذه الآية بأغرب حروف القسم وهو التاء ، وبأغرب الأفعال الناسخة وهو « تفتأ » وبأغرب ألفاظ الهلاك وهو الحرض ، وهذا يتلاءم مع غرابة المطلب ، فليس هنالك أغرب ولا أعجب من أن يطلب من والد أن ينسى فلذة كبده(٢٠) .

وحذف الحرف هنا ، فى هذا السياق الغريب يشعر برغبة الأبناء ، وغرابة مطلبهم ، إنهم يطلبون من أب نسيان ابنه ، يطلبون من يعقوب أن ينسى يوسف – عليهما السلام – وأن يبعده من قلبه ، ويسقطه من وجدانه ، حتى لا يكون حرضا أو يكون من الهالكين .

وانظر إلى قوله تعالى : « **ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على**

---

(١٧) يوسف ٨٥

(١٨) الأنبياء ٥٧

(١٩) انظر الإتقان ١٧٦/٣

(٢٠) انظر تحرير التحبير ١٩٥

الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون »(٢١) فقد حذف حرف الجر « اللام » والتقدير : وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم ، وهذا الحذف يصور جشع وطغيان أولئك المطففين ، إنه يخيل أن تعديهم قد بلغ مبلغا كادوا معه أن يكيلوا الناس ويزنوهم ، بدل أن يكيلوا لهم أو يزنوا لهم ، وهذا غاية الجشع والطغيان .

ويؤيد ذلك إيثار التعبير « بعلى » مكان « من » فى قوله : « اكتالوا على الناس » فهم يكتالون منهم ، ولكنه اكتيال ضرر وطغيان واغتصاب ، ولذا عبر فيه « بعلى » دون « من » إن التعبير بعلى عند الاكتيال من الناس ، ثم إسقاط اللام عند الاكتيال أو الوزن لهم ، يشعر بالتعدى ، وإسقاط الحقوق واغتصابها ، وأكلها بالباطل ، وكأن تغيير الحرف وإسقاط الآخر من اللفظ دليل على انحراف الناس ، وانقلاب الأوضاع ، وتغيير المعايير ، والخروج عن المنهج المستقيم .

ومما حذف فيه المضاف قوله تعالى : « واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون »(٢٢) إذ الأصل : واسأل أهل القرية وأصحاب العير ، فحذف المضاف فى الموضعين ، ويشعر هذا الحذف بذيوع الأمر وشهرته ، وكأنهم يريدون أن أمر السرقة قد ذاع وفشا بين الناس ، وعلمه الجميع ، وصار حديث الكل ، وبلغ فى الشهرة حدا لو أنك سألت فيه الجمادات لأجابت ، ولو سألت الحيوانات التى لا تنطق لنطقت وأخبرت .

وتأمل قوله تعالى : « وآتنا ما وعدتنا على رسلك ... أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ... »(٢٣) تجد

---

(٢١) المطففين ١ - ٣ (٢٢) يوسف ٨٢

(٢٣) الآيتان بالترتيب : آل عمران ١٩٤ ، الأعراف ٦٣

أن اصل الكلام: على لسان رسلك،وعلى لسان رجل منكم، فحذف المضاف، وينبىء هذا الحذف بأن تبليغ الرسالة والذكر ، لا يقف عند حد البلاغ باللسان ، بل يتجاوز ذلك إلى كل حياة الرسل ، عملا ومنهجا وسلوكا ، فيشمل اللسان واليد والعقل والأذن وكل الخواطر والجوارح ، والزمان والمكان ، والحل والترحال ، فالرسول منهج يهتدى به ، وأسوة وقدوة ، يتأسى به ويقتدى ، وليست مهمته موقوفه على التبليغ باللسان فحسب ، وهذا ما يشعر به حذف المضاف فى الموضعين ، قال تعالى : « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** »(٢٤) .

وخذ قوله عز وجل : « **ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء** »(٢٥) فقد حذف المضاف ، وتقديره : مثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع ، والغرض من هذا الحذف صيانة الداعى وحفظه من أن يقرن فى اللفظ بذاك الناعق الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء .

ومما حذف فيه المسند إليه قوله تعالى : « **فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم** »(٢٦) حيث حذف المبتدأ وتقديره : وقالت : أنا عجوز عقيم ، ويرجع سر هذا الحذف إلى التعجب والاستبعاد ، فقد تعجبت سارة من بشارة الملائكة ، واستبعدت أن تلد وهى عجوز عقيم ، وقد صار بعلها شيخا كبيرا ، واقتضى مقام التعجب والاستبعاد طى المسند إليه .

ومنه قوله تعالى : « **قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين** »(٢٧) حيث حذف المبتدأ ، والمعنى : ما تقوله أضغاث أحلام ، والغرض من هذا الحذف ألا تسند أضغاث الأحلام إلى كلام الملك ، تنزيها له ، ورفعا من شانه .

---

(٢٤) الأحزاب ٢١
(٢٥) البقرة ١٧١
(٢٦) الذاريات ٢٩
(٢٧) يوسف ٤٤

وتأمل قوله تعالى : « **لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ... ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين** »(٢٨) لقد طوى الفاعل فى الآيتين ، والمعنى : تقطع الأمر بينكم ثم بدا لهم أمر وهو السجن وينبىء الحذف فى الموضعين بوهن هذا الأمر وضعته ، وعدم الاعتداد به ، إنها علاقات واهية ، وأمور واهمة لم تثبت عند الشدة ، بل تقطعت وتبددت ، وإنه لأمر ساقط جائر ، ذاك الذى بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ، وثبتت براءته ، فكيف يسجن عندئذ ؟ إن الحذف فى الآيتين يشير إلى عدم الاعتداد بالمسند إليه ، وكأن إسقاطه من العبارة ينبىء بأنه لا وجود له ولا اعتداد به عند ذوى العقول السليمة .

وقد يحذف المسند إليه لتعينه للمسند المذكور ، أو لظهوره ظهورا بينا لا يتأتى معه الذكر ، ففى قوله تعالى : « **عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** »(٢٩) تجد أن المسند المذكور « عالم الغيب والشهادة » متعين لله الواحد القهار ، لا ينصرف إلا إليه حقيقة ، وهذا سر حذف المسند إليه فى الآية الكريمة .

وفى قوله تعالى : « **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب** »(٣٠) أى : هو ساحر كذاب ، فحذف المسند إليه لتعينه ادعاء ، أى فى زعمهم ، للمسند المذكور .

وفى قوله تعالى : « **كلا إذا بلغت التراقى ... فلولا إذا بلغت الحلقوم** »(٣١) حذف المسند إليه لظهوره ظهورا بينا ، إذ لا يبلغ

---

(٢٨) الآيتان بالترتيب : الأنعام ٩٤ ، يوسف ٣٥
(٢٩) الرعد ٩ (٣٠) غافر ٢٣ ، ٢٤
(٣١) الآيتان بالترتيب : القيامة ٢١ ، الواقعة ٨٢

التراقى والحلقوم عند الموت إلا الروح ، ووراء الحذف فى الآيتين سر آخر ، وهو الإشعار بما صارت إليه الروح فقد أصبحت على وشك أن تفارق الجسد ، وكأن طيها من اللفظ دليل على وشك المفارقة ، وقرب صعودها إلى بارئها .

ومن ذلك قوله تعالى : « **إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب** »(٣٢) أى : حتى توارت الشمس ، فحذف المسند إليه لظهوره وتعينه للموارات ، وملاءمة الحذف لدلالة الكلام على اختفاء الشمس وتواريها بالحجاب .

ومن حذف المسند إليه عند بناء الفعل للمفعول :

قوله تعالى : « **فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين** »(٣٣) حيث حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول فى قوله « **غلبوا وألقى** » وهذا الحذف يشير إلى قدرة الله الخالق ، التى حققت الغلبة لموسى ، وألقت السحرة سجدا ، ويشعر بسرعة تحقيق النصر ، وسرعة امتثال السحرة وإيمانهم بالله رب العالمين .

وانظر إلى قوله تعالى : « **وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا** »(٣٤) تجد أن الفعل قد بنى للمفعول فى قوله : « **أشر أريد** » لأنه شر ، ولا يليق نسبته إلى الله تعالى فى اللفظ ، وبنى للفاعل فى قوله : « **أم أراد بهم ربهم رشدا** » لأنه خير ورشد ، ومقام الربوبية يقتضى أن ينسب إليه تعالى الرشد وكل ما هو خير ورحمة ، وألا ينسب إليه الشر فى اللفظ تأدبا .

---

(٣٢) سورة ص ٣٢
(٣٣) الأعراف ١١٩ ، ١٢٠
(٣٤) الجن ١٠

ومنه قوله تعالى : « **يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا • ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما** »(٣٥) فقد بنى الفعل للمفعول فى قوله « يضاعف » لأنه عذاب ، ولا يليق نسبته إلى الله تعالى فى اللفظ ، وبنى للفاعل فى قوله : « **نؤتها ••• واعتدنا** » لأنه رحمة ورزق كريم •

يقول الفخر الرازى : (قوله تعالى : « **ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا** » بيان لزيادة ثوابهن ، كما بين زيادة عقابهن ، و « **نؤتها أجرها مرتين** » فى مقابلة قوله تعالى « **يضاعف لها العذاب ضعفين** » مع لطيفة ، وهى أن : عند إيتاء الأجر ذكر المؤتى وهو الله ، وعند العذاب لم يصرح بالمعذب ، فقال « **يضاعف** » إشارة إلى كمال الرحمة والكرم ، كما أن الكريم الحى عند النفع يظهر نفسه وفعله ، وعند الضر لا يذكر نفسه) (٣٦) •

وبهذا علل العلماء إسناد الفعل للمولى عز وجل فى نحو قوله : « **كتب ربكم على نفسه الرحمة ••• كتب الله لأغلبن ••• أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان** »(٣٧) وبناءه للمفعول فى نحو قوله تعالى : « **كتب عليكم القتال ••• كتب عليكم القصاص ••• كتب عليكم الصيام** »(٣٨) إذ الأفعال فى الآيات الأولى من جنس الخير والرحمة ، وفى الثانية من جنس العذاب والمشقة •

أجل ، الأفعال كلها مسندة لله تعالى ، وهو فاعلها على الحقيقة ،

---

(٣٥) الأحزاب ٣٠ ، ٣١

(٣٦) تفسير الفخر الرازى ٢٠٩/٢٥

(٣٨) الآيات بالترتيب : البقرة ٢١٦ ، ١٨٧ ، ١٨٢

(٣٧) الآيات بالترتيب : الأنعام ٥٤ ، المجادلة ٢١ ، ٢٢

ولكن الأدب يقتضى أن يسند إليه الخير والرحمة والثواب ، وأن يومأ عند الحديث عن الشر والعذاب والمشقة ، وكل ما هو محنة ، فيبنى الفعل للمفعول ، أو يتصرف فى النظم ، حتى لا تنسب مثل هـذه الأفعال فى اللفظ إليه تعالى ، وهى له على الحقيقة .

ولذا رأينا فى قوله تعالى : « **الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين** »(٣٩) أن إبراهيم عليه السلام قد نسب المرض الذى هو نقمة إلى نفسه ، والشفاء الذى هو نعمة إلى الله تعالى ، مراعاة لحسن الأدب ، فالأفعال قبل وبعد مسندة إليه تعالى ، والمرض قد أسنده - عليه السلام - إلى نفسه .

كما وجدنا فى قصة موسى مع العبد الصالح أن ما هو خير ورحمة قد أسند إلى الله تعالى : « **فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ... فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك** »(٤٠) وأما ما هو عيب فقد أسند إلى الخضر « **فأردت أن أعيبها** »(٤١) .

وقد يبنى الفعل للمفعول مراعاة للنسق القرآنى ، وتلاؤما مع السياق ، كما فى قوله تعالى : « **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون** »(٤٢) فقد بنى الفعل « طبع » للمفعول ليتلاءم ويتسق مع بناء « أنزل » للمفعول فى الآية قبلها « **وإذا أنزلت**

---

(٣٩) الشعراء ٧٨ - ٨١ (٤٠) الكهف ٨١ ، ٨٢

(٤١) الكهف ٧٩ ، وارجع إلى تعليلنا لحذف الشر وذكر الخير فى قوله تعالى « بيدك الخير » فى ص ١٢٤

(٤٢) التوبة ٨٧

سورة »(٤٣) ولنفس السر بنى الفعل « **طبع** » للفاعل وأسند إلى لفظ الجلالة فى قوله تعالى : « **إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون** »(٤٤) ليتسق ويتلاءم مع ذكره عز وجل عدة مرات فى الآيات قبلها .

ومما حذف فيه الفعل قوله تعالى : « **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق** »(٤٥) فالضمير « **أنتم** » فاعل لفعل محذوف يفسره الفعل المذكور « تملكون » والتقدير : لو تملكون تملكون خزائن رحمة ربى ، فأضمر « تملك » الأول إضمارا على شريطة التفسير ، وعندما أضمر انفصل الضمير «أنتم» ، ودليل الحذف والإضمار « لو » لأنها لا تدخل إلا على الأفعال .

والسر البلاغى لهذا الحذف أن يبرز الكلام فى صورة المبتدأ والخبر ، فيكون فيه دلالة على أن الناس هم المختصون بالشح والإمساك .

يقول الزمخشرى « فأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن (أنتم تملكون) فيه دلالة على الاختصاص ، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ، وذلك لأن الفعل الأول لما أسقط لأجل المفسر برز الكلام فى صورة المبتدأ والخبر »(٤٦) ولا يخفى عليك أن الاختصاص الذى يشير إليه الزمخشرى اختصاص معلق بلو ، وهى حرف امتناع لامتناع ، فالمعنى على امتناع الإمساك لامتناع الاختصاص بالتملك .

ومنه قوله تعالى : « **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى**

---

(٤٣) التوبة ٨٦ (٤٤) التوبة ٩٣

(٤٥) الإسراء ١٠٠ (٤٦) الكشاف ٢/٤٦٨

يسمع كلام الله ثم أبلغه مامنه ذلك بانهم قوم لا يعلمون »(٤٧) ٠

والتقدير : وإن استجارك أحد من المشركين ، « فأحد » فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور ، ودليل الحذف « إن » الشرطية ، فهى لا تدخل إلا على الأفعال شانها فى ذلك شان « لو » ٠

والسر البلاغى لهذا الحذف هو الدلالة على سرعة الإجارة ، إذ لو قال : وإن استجارك أحد من المشركين فاجره ، لفصل بين الاستجارة والأمر بقبولها بفاصل ، وهو « أحد من المشركين » فيكون هنالك تباطؤ ، والمطلوب أن تكون الإجارة عقب الاستجارة « استجارك فاجره » بلا تباطؤ ، كما تنبىء هذه الفاء ٠

وشىء آخر وراء هذا الحذف وهو الإشعار بأن قبول الاستجارة هو المطلوب ، وإن خالف ما أوجب فى شأنهم ، من وجوب قتلهم بعد أن قامت الحجة عليهم ،كما خولف المعهود فى هذا التعبير ،فجاورت «إن» الاسم وكان يجب ألا تجاوره ، بل كان ينبغى أن يظل بعيدا عن جوارها ، وكان المخالفة فى التعبير دليل على تحقيق المعنى المراد ، وهو المبادرة بإجارة من استجار من المشركين ، وإن خالف ذلك ما تقرر فى شأنهم ٠

وتأمل قوله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا »(٤٨) تجده قد حذف فيه الفعل ، وتقديره : أنزل خيرا ، وهذا الحذف ينبىء بسرعة إجابة المتقين ، وامتثالهم لأمر الله رب العالمين ، ويتضح لنا ذلك عندما ننظر فى إجابة الكفرة على نفس التساؤل فى قوله تعالى : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين »(٤٩) والتقدير : قالوا ذلك أساطير الأولين ٠

---

(٤٧) التوبة ٦ (٤٨) النحل ٣٠

(٤٩) النحل ٢٤

يقول الزمخشرى : « فإن قلت : لم نصب هذا ـ أى : خيراً ـ ورفع الأول ـ أى : أساطير ـ ؟ قلت : فصلا بين جواب المقر وجواب الجاحد ، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا ، وأطبقوا الجواب على السؤال ، بينا مكشوفا ، مفعولا للإنزال ، فقالوا : خيرا ، أى : أنزل خيرا ، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو أساطير الأولين ، وليس من الإنزال فى شىء »(٥٠) .

وانظر إلى الحذف فى قوله تعالى : « **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ...** »(٥١) إذ التقدير : يتوارى يفكر أو مفكرا : أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ويشعر هذا الحذف بما كان عليه القوم ، ويجلى شعورهم تجاه إنجاب الإناث ، إن أحدهم إذا بشر بالأنثى اسود وجهه ، وظل مسودا ، وسيطرت عليه الهموم والأحزان ، وأخذ يتوارى من القوم خزيا ، من سوء ما بشر به ، ماذا يصنع ؟ يفكر فى نفسه ، أيمسك ما بشر به على هوان وذل ؟ أم يدسه فى التراب ؟ .

لقد حذف النظم القرآنى كلمة « يفكر » وهذا الحذف ينبىء بشدة الحيطة والحذر ، ويدل على المبالغة فى كتمان الأمر وإخفائه ، حتى لكأنه يخفى تفكيره ، كى لا يرى أحد من القوم على قسمات وجهه ما يثير أو يريب .

وخذ قوله تعالى : « **فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها** »(٥٢) لقد حذف الفعل تحذيرا وإغراء ، والتقدير : ذروا ناقة الله ، والزموا

---

(٥٠) الكشاف ٤٠٧/٢
(٥١) النحل ٥٨ ، ٥٩
(٥٢) الشمس ١٣

سقياها ، وسر هذا الحذف : التنبيه على أن الزمن يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف ، وأن الاشتغال به يفضى إلى تفويت المهم من التحذير والإغراء ، وهذا ينبىء بمدى حرص صالح ـ عليه السلام ـ على هداية قومه ، ونجاتهم من الهلاك والعذاب .

ومن أنواع الحذف ما يسمى بالاكتفاء ، وهو أن يقتضى المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط ، وغالبا ما يكون التلازم بالتضاد ، والارتباط بالعطف ، فيكتفى بذكر أحدهما ، ويحذف الآخر لنكتة بلاغية(٥٣) .

من ذلك قوله تعالى : « **والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم** »(٥٤) . فالمراد : سرابيل تقيكم الحر والبرد ، وقد حذف البرد ، واكتفى بذكر الحر ،والسر وراء ذلك أن البرد قد تقدم ذكر الامتنان بالوقاية منه فى هذه الآية الكريمة ، فى قوله: « **وجعل لكم من الجبال أكنانا** » وفى آيات أخرى كقوله تعالى : « **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع** »(٥٥) وقوله عز وجل « **ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين** »(٥٦) .

ومن هذا النوع قوله تعالى : « **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير** »(٥٧) فقد ذكر الخير وطوى الشر ، إذ التقدير بيدك الخير والشر ، وإنما خص الخير بالذكر دون الشر ، لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم ، وتأدبا مع المولى عز وجل ، لأن إضافة الشر إليه ليس من باب الأدب .

---

(٥٣) انظر الإتقان ١٨١/٣

(٥٤) النحل ٨١

(٥٥) النحل ٥

(٥٦) النحل ٨٠

(٥٧) آل عمران ٢٦

ومنه قوله تعالى : « **وله ما سكن فى الليل والنهار** »(٥٨) التقدير : وله ما سكن وما تحرك ، فخص السكون بالذكر ، لأنه أغلب حالى المخلوقات من الحيوان والجماد ، وإشعارا بأن كل متحرك مصيره إلى الانتهاء والسكون ٠

ومما جاء فيه حذف المسند قوله تعالى : « **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء** ٠٠٠ »(٥٩) والتقدير : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن ليس كذلك ، والقائم على كل نفس هو الله تعالى ، فهو متولى أمر الخلائق ، وحافظ كل نفس ، ومن ليس كذلك : ما يعبد بالباطل من دون الله ، والحذف هنا للدلالة على تعظيم الله الخالق ، وتحقير وازدراء هذه الأصنام ، وينبىء بأنه لا ينبغى أن تقرن تلك المعبودات لفظا بالله تعالى ، إذ لا وجه للمقارنة بين الخالق القادر ، القائم على كل نفس ، وبين تلك المعبودات ، وهذا ما أنكر بالاستفهام ٠

ومنه قوله تعالى : « **ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب** »(٦٠) أى : فلا فوت لهم ، فحذف المسند لتبقى تلك الكلمة كالطود الشامخ ، والحاجز المنيع الذى قضى على كل أمل لهم فى التفلت والتسرب ، (فلا فوت) ولك أن تتصور ما وراء حذف جواب الشرط ، وبناء الفعل (أخذوا) للمفعول من تفظيع وتهويل ٠

وكذا القول فى قوله تعالى : « **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ٠ قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون** »(٦١) أى : لا ضير علينا ، فحذف المسند لتبقى هذه الكلمة فى مواجهة توعد فرعون

---

(٥٨) الأنعام ١٣
(٥٩) الرعد ٣٣
(٦٠) سبأ ٥١
(٦١) الشعراء ٤٩ ، ٥٠

كالسهم النافذ الذى بدد كل وعيد ، وشتت كل تهديد ، وهذا يشعر بقوة الإيمان وصدق اليقين بالله « **إنا إلى ربنا منقلبون** » .

ومما جاء محتملا لكون المحذوف المسند أو المسند إليه ، قوله تعالى : « **فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** »(٦٢) وقوله تعالى : « **سورة انزلناها وفرضناها ..** »(٦٣) إذ التقدير : فشأنى أو فصبرى صبر جميل على أن المحذوف هو المبتدأ ،أو فصبر جميل أولى بى، على أن المحذوف هو الخبر ، والتقدير فى سورة النور : هذه سورة ، أو فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها ، فالأول على أن المحذوف المبتدأ ، والثانى على أنه الخبر .

والذى يقتضيه المعنى ويتلاءم مع السياق أن يكون المحذوف المبتدأ ، لأنه يدل على تحقق الصبر وحصوله ، تعظيما ليعقوب ـ عليه السلام ـ إذ التقدير : فصبرى صبر جميل ، أو فشأنى صبر جميل ، وهذا يتلاءم مع السياق ـ كما قلت ـ لأن الآية الكريمة مسوقة لمدح يعقوب ـ عليه السلام ـ والإشادة بصبره .

وكذا القول فى أول سورة النور ، فإن مقتضى المقام بيان شأن السورة الكريمة ، لا أن فى جملة ما أوحى إليه ـ ﷺ ـ سورة شانها كذا وكذا ، والذى يحقق ذلك أن يقدر المحذوف مبتدأ : هذه سورة أنزلناها وفرضناها(٦٤) .

هذا ولا يخفى عليك ، أن تقدير المحذوف إنما هو لبيان أصل المعنى ، وأن الغرض من الحذف يفتقد بهذا التقدير ، يقول

---

(٦٢) يوسف ١٨ (٦٣) النور ١

(٦٤) انظر المطول ١٤٢ ، وتفسير أبى السعود ١٥٥/٦

عبد القاهر : « ترى النفس كيف تتفادى من إظهار المحذوف ، وكيف تأنس إلى إضماره ، وترى الملاحة كيف تذهب إن أنت رمت التكلم به »(٦٥) .

فالحذف فى الآية الكريمة « **فصبر جميل** » يبرز حال يعقوب ، ويكشف عما أحاط به من أحزان لفقدان يوسف - عليهما السلام - ويشعر بشدة تماسكه وعظيم صبره ، كما أن الحذف فى الآية الكريمة « **سورة أنزلناها** » يبين عظم السورة ، ويبرز كمال شأنها ، وتقدير المحذوف مبتدأ فى الموضعين ، يلائم المعنى البلاغى الكامن وراء الحذف فيهما ، ولكن هذا المعنى يفتقد ويذهب ، لو اعتبر هذا التقدير ، ونظر إليه ، واثبت فى الكلام .

ومن أنواع الحذف ما يسمى بالاحتباك ، وهو مأخوذ من الحبك بمعنى الشد والإحكام ، وهو أن يحذف من الأول ، ما أثبت نظيره فى الثانى ، ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول ، وقد سمى حبكا ، لأن الناقد البصير ، الخبير بطرق القول ، قد أحكم التعبير ، بمعرفة مواطن الحذف ، وما أضفاه المحذوف على الكلام من حسن ورونق ، فلم يطل ويترهل بذكر ما يمكن الاستغناء عنه(٦٦) .

ومن ذلك قوله تعالى : « **فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله** »(٦٧) فالمعنى:حتى يطهرن ويتطهرن ، فإذا طهرن وتطهرن فأتوهن ، فحذف من كل نظيره حتى لايطول الكلام بما يمكن الاستغناء عنه ... ويعول على فطنة السامع فى إدراك المحذوف ، وإحكام العبارة بتقديره فى موطنه .

ومثله قوله تعالى : « **ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم** »(*)

---

(٦٥) دلائل الإعجاز ١٧٥

(٦٦) انظر الاتقان ١٨٢/٣ ، ١٨٣

(٦٧) البقرة ٢٢٢

فالمعنى : ويعذب المنافقين إن شاء فلا يتوب عليهم ، أو يتوب عليهم فلا يعذبهم ، فحذف من كل نظيره .

ومما حذفت فيه الأجوبة قوله تعالى : « **ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد** »(*) وقوله عز وجل : « **ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت** »(٦٧) وقوله جل وعلا : « **ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم** »(٦٨) فقد حذف جواب الشرط فى الآيات الكريمة ، وتقديره : لرأيت أمرا عظيما ، والغرض من هذا الحذف الدلالة على التهويل والتفخيم ، لأن النفس تذهب كل مذهب فى تقدير الجواب المحذوف ، وهذا يدل على أنه شىء لا يحيط به الوصف ، ولا تتسع له العبارة ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان(٦٩) .

ومنه قوله تعالى : « **وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين** »(٧٠) فقد حذف جواب « إذا » وتقديره : أعرضوا . بدليل ما بعده ، ويشعر هذا الحذف بما كان ينبغى على أولئك المعرضين ، من قبول النصح وتحقيق التقوى ، وكأن طيه من اللفظ ينبىء بضرورة ترك العناد ، والمسارعة إلى قبول الهدى ، والإذعان للحق .

ومنه قوله تعالى : « **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** »(٧١) حيث حذف جواب « **إذا** » وتقديره : رأوا مالا عين رأت ، وفازوا بالنعيم المقيم الذى لا يحيط به الوصف ، فالغرض من

(*) الأنعام ٢٧

(٦٧) سبأ ٥١ — (٦٨) السجدة ١٢

(٦٩) انظر النكت للرمانى ضمن ثلاث رسائل ٧٧

(٧٠) يس ٤٥ ، ٤٦ — (٧١) الزمر ٧٣

الحذف الدلالة على التفخيم والتعظيم ، والإشعار بأن نعيم الجنة لا يتناهى ، ولا يمكن وصفه ولا الإحاطة به ، فعلى النفس أن تتخيل ما تشاء وتقدر ، ومهما تخيلت وقدرت فلن تبلغ كنه ما هنالك .

وانظر إلى ذكر الواو فى هذه الآية الكريمة ، فى قوله « **وفتحت** » وإلى حذفها فى قوله تعالى : « وسيق **الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها** »(٧٢) تجد وراء ذكرها دلالة على تكريم المتقين ، وإعظام شأنهم ، فقد أعدت الجنة ، وجهزت لهم ، وفتحت أبوابها لاستقبالهم بالحفاوة والترحيب « **جنات عدن مفتحة لهم الأبواب** »(٧٣) وتجد وراء حذفها الدلالة على شدة مواجهة الكفرة بالعذاب ، حيث غلقت أبواب جهنم ، فهى لا تفتح إلا عند وصول الكفرة إليها ، فإذا ما جاءوها فتحت أبوابها لتواجههم بصنوف العذاب وألوان الآلم .

وفى قوله تعالى : « **ق والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب** »(٧٤) حذف جواب القسم ، وفى حذفه حث على النظر وتدبر القرآن ، للوصول إلى الجواب الذى أقسم الله تعالى عليه ، فإن النفس تذهب كل مذهب فى تقديره ، فقد قالوا : إن المعنى : والقرآن المجيد إنا أنزلناه لتنذر به الناس ، وقيل إن المراد : والقرآن المجيد إنك لمنذر ، وقيل تقديره : ما ردوا رسالتك بحجة ، وقيل تقديره : لتبعثن(٧٥) ولذا كان الغرض من طى جواب القسم فى مثل هذه الآية الكريمة حث النفس - كما قلنا - على تأمل القرآن ، وتدبر آياته للوقوف على ما يريده الله تعالى ، والإحاطة بما وراء القسم من معان جليلة .

---

(٧٢) الزمر ٧١ — (٧٣) ص ٥٠

(٧٤) ق ١ - ٢ — (٧٥) انظر روح المعانى ١٧٢/٢٦

وخذ قوله تعالى : « **وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا** »(٧٦) تجد فيه حذف جواب الاستفهام، وحذف القول ، والتقدير : نظر بعضهم إلى بعض قائلين : هل يراكم من أحد من المؤمنين ؟ فأجاب بعضهم بعضا : لا يرانا أحد : ثم انصرفوا .

وهذا الحذف يدل على شدة الحيطة ، والمبالغة فى الحذر ، وكتمان النفاق ، وكان قولهم كان إيماء وإشارة وإجابتهم كانت همسا فى الآذان ، ولم تكن أصواتا مسموعة .

ومما حذف فيه المفعول قوله تعالى : « **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا** »(٧٧) فقد حذف المفعول الثانى وتقديره : إن الذين اتخذوا العجل إلها ، وهذا الحذف يشعر بشناعة الاتخاذ وقبحه ، وينبه العقول السليمة إلى فظاعة هذه الصورة ، صورة اتخاذ العجل إلها ، وإلى وجوب عدم تصورها فى الذهن فضلا عن اعتقادها والإيمان بها ، فلفظ « إله » ينبغى أن يحفظ ويصان ، فلا يذكر فى صحبة المفعول الأول « العجل » .

يقول الدكتور دراز : « فلم يقل : اتخذتم العجل إلها ، بل طوى هذا المفعول الثانى ، استبشاعا للتصريح به فى صحبة الأول ، وبيانا لما بينهما من مفارقة ، وكم فى هذا الحذف من تعيير وتهويل ، فرب صمت هو أنطق بالحكم ، وأنكى فى الخصم »(٧٨) .

ومنه قوله تعالى : « **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك** »(٧٩) أى : أرنى ذاتك ، فحذف المفعول للدلالة على عظم الذات الإلهية ، واستحالة رؤيتها بهذه الأبصار القاصرة ، وموسى

---

(٧٦) التوبة ١٢٧ — (٧٧) الأعراف ١٥٢

(٧٨) النبأ العظيم ١١٩ — (٧٩) الأعراف ١٤٣

- عليه السلام - يدرك هذه الاستحالة ، ويعلم أن **الذات العلية لا تقع** عليها الرؤية المحيطة كما تقع على الأشياء ، وإنما هى تجليات ، ولذا قال « رب أرنى » وأمسك ليفيد قصده بدون لفظ ينص عليه صراحة ، إجلالا وتعظيما للذات العلية .

وقد يحذف المفعول لغرض الدلالة على إثبات المعنى فى نفسه للفاعل دون نظر إلى مفعول معين ، وهذا كثير فى النظم القرآنى ، كما فى الآيات الكريمة : « **إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت ... قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ... وأنه هو أضحك وأبكى ... ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ... وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان ...** »(٨٠) .

حذف المفعول فى هذه الآيات الكريمة للدلالة على أن المراد إثبات معنى الفعل للفاعل دون التفات إلى مفعول معين يقع عليه الفعل ، إذ المراد : هو الذى يكون منه الإحياء والإماتة دون نظر إلى من أحيا ولا إلى من أمات ، وهو الذى يكون منه الإضحاك والإبكاء ، ولا يستوى من له علم ومن لا علم له ، وتركهم فى ظلمات لا يتأتى فيها الإبصار ، ووجد أمة يقع منهم سقى ، وامرأتين يقع منهما ذود ..

فالمعنى - كما ترى - على نية طرح المفعول وعدم الاعتداد به ، إذ لم يتعلق به غرض الكلام ، وإنما تعلق الغرض من الكلام بإثبات الفعل فى نفسه للفاعل .

وقد كثر فى النظم القرآنى أيضا حذف مفعول المشيئة بعد لو

---

(٨٠) الآيات بالترتيب : البقرة ٢٥٨ ، الزمر ٩ ، النجم ٤٣ ، البقرة ١٧ ، القصص ٢٣

وإن ، ونحوهما من أدوات الشرط ، لدلالـة الجواب عليـه ، كمـا فى الآيات الكريمة : « **ولو شاء لهداكم أجمعين ••• ولو شاء الله لجمعهـم على الهدى ••• إن يشـا يسكن الريح ••• ولو شـئنا لآتينا كل نفس هداها** »(٨١) والغرض من هذا الحذف القصد إلى البيان بعد الإبهام ، لمـا له من وقع فى النفس ، فعند حذف مفعول المشيئة تتطلـع النفس إلى معرفته ، فإذا ما ذكر الجواب الدال عليه ، وقع فى النفس موقعه ، لأنها قد تعلقت بشىء أبهم ، ثم استبان بالجواب ، فيكون لهذه الاستبانة أثر فى النفس أى أثر .

ولم يذكر مفعول المشـيئة أو الإرادة بعد الشرط إلا إذا كان من الأمـور الغريبة أو البعيـدة ، كما فى قوله تعـالى : « **لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشـاء** »(٨٢) فإن اتخاذ الولـد من الأمـور الغريبة البعيـدة ، ولذا ذكر لعدم دلالة جـواب الشرط عليـه لو حذف ، لكونه من الأمور الغريبة المستبعدة .

ومما حذفت فيه الجملة قوله تعالى : « **آلآن وقد عصـيت قبـل وكنت من المفسدين** »(٨٣) أى : آلآن تؤمن وقد عصيت قبل ؟ فحذفت جملة (تؤمن) وحذفها يؤذن بعدم نفع الإيمان آنئذ ، إذ وقع عندما أدركه الغرق ، وأيقن أنه هالك .

ومثله قوله تعالى : « **أثم إذا ما وقع آمنتـم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون** »(٨٤) أى : أكفرتم ثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن تؤمنون

---

(٨١) الآيات بالترتيب : النحـل ٩ ، الأنعـام ٣٥ ، الشـورى ٣٣ ، السجدة ١٣

(٨٢) الزمـر ٤

(٨٣) يونس ٩١

(٨٤) يونس ٥١

وقد كنتم به تستعجلون ؟ فحذفت الجملتان : (كفـرتم ، تؤمنـون) وحذف الأولى يشير إلى انه ما كان ينبغى أن يستمر هذا الكفر ، ويمتد إلى وقت وقوع العـذاب ، بل كان ينبغى أن يطـوى ، وأن يحل محلـه الإيمان ، ويشعر حذف الثانية بعدم نفع الإيمان ، لوقوعـه فى غيـر وقته ، إذ وقع منهم عند وقوع العذاب بهم ، ولات حين إيمان .

ومن ذلك قوله تعالى : **« وإذ استسقى موسى لقومـه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا »**(٨٥) أى: فضرب فانفجرت، ويشعر هذا الحذف بامتثال موسى ـ عليه السلام ـ ومبادرته إلى تنفيذ أمر الله تعالى وتحقيقه ، كما ينبىء بسرعة إجابة الله تعالى له ، وانفجار العيون بامره تعالى إثر الضرب ، حتى كإن الانفجار مسبب عن الأمـر بالضرب .

وقد يقع الحذف فى أكثر من جملة ، كما فى قوله تعالى : **« وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة انا انبئكم بتاويله فارسلون . يوسف ايها الصديق افتنا »**(٨٦) حيث حذفت عدة جمـل ، إذ المعنى : فارسـلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا ، فارسـلوه إليه ، فاتاه وقال له : يوسـف أيها الصديق .

ومثله قوله تعالى : **« اذهب بكتابى هذا فالقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا ايها الملأ إنى القى إلى كتاب كريم »(٨٧)** والتقدير فاخذ الكتاب وذهب به ، فالقاه إليهم ، فتلقته بلقيس وقراته ثم قالت يا أيها المـلأ افتونى فى أمرى .

وقد كثر هذا الحذف فى ميدان القصص القرآنى ، حيث يستغنى

---

(٨٥) البقرة ٦٠
(٨٦) يوسف ٤٥ ، ٤٦
(٨٧) النمل ٢٨ ، ٢٩

فيه عن التفصيلات الجزئية ، التى يمكن أن تدرك من السياق ، وتفهم من قرائن أحوالــه ، فتحذف هذه التفصـيلات الجزئية لعـدة أغراض منهــا :

١ - أنه يمكن إدراكها من السـياق ، وما يمكن إدراكه يعـد ذكره عبثــا .

٢ - فى حذفهــا ما يمكن من إبراز وتجليـة العناصر والمشــاهد الأساسية فى القصة .

٣ - فى حذفها تنبيه للمخاطب وتحريك لذهنه وإثارة لوجدانه ، فيتابع أحداث القصص القرآنى بوعى ، ويقف على مواطن العبرة فيه .

* * *

التجــوز فى الإســـناد

قال تعــالى :

« إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شـيعا يستضـعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم » القصص ٤

« فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشـقى »طــه ١١٧

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار »

إبراهيــم ٢٨

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون » الأنفال ٢

« فاتقــوا الله وأطيعون . ولا تطيعـوا أمر المسرفين »

الشعراء ١٥٠ ، ١٥١

« والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر . »

الفجـر ١ - ٤

« فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا »
المزمل ١٧

« هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » يونس ٦٧

« وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار »
التوبة ٧٢

« وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا » القصص ٥٧

« قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا » مريم ٤

« إذا زلزلت الأرض زلزالها • وأخرجت الأرض أثقالها »
الزلزلة ١ ، ٢

« وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا » سبأ ٣٣

« وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها »
النساء ٣٥

« ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر • وفجرنا الأرض عيونا »
القمر ١١ ، ١٢

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » البقرة ١٦

« فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية » القارعة ٧

« فلينظر الإنسان مم خلق • خلق من ماء دافق » الطارق ٥ ، ٦

« قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » هود ٤٣

« وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا » الإسراء ٤٥

« فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم » الأعراف ٧٧

« ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » البقرة ٢٨٣

« إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين » الحجر ٦٠

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر » البقرة ١٧٧

* * *

الإسناد هو ضم كلمة إلى كلمة لإفادة معنى ، وهذا الضم يكـون إما على وجه الحقيقة ، وإما على وجه المجاز ، فمن الأبنية الحقيقية قولك : صام المسلم ، سار الرجال ، خلق الله ، مرض زيد ، برد المـاء ، فالإسناد فى هذه الجمل إسـناد حقيقى ، حيث أسـند الخلق إلى الله تعالى ، وهو عز وجل فاعله على الحقيقة وموجده ، وأسند الصـيام والسير إلى من فعلهما حكما ، أى : إلى من له كسـب واختيار فيهما ، وأسـند المرض والبرد إلى من اتصـف بهما .

هذا هو شـأن الإسناد الحقيقى ، أن يسـند الفعل إلى الموجـد المؤثر ، وهو الله تعالى ، أو إلى من له فيه كسب واختيار ، أو إلى من اتصف به ، فعندئذ يكون الإسناد حقيقيا ، حيث أسند الفعل إلى فاعله الحقيقى ، وهو الذى فعله حقيقة أو حكما أو اتصف به ، كما فى الأمثلة المذكـورة .

ولذا عرف الإسـناد الحقيقى بأنه « كل جملة وضـعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه »(١) .

ومن الأبنية المجازية قولك : صام النهار ، وسار الطريق ، وجـد الجد ، حيث أسند الصيام إلى النهار ، والنهار زمان يقع فيه ، وأسند

---

(١) أسرار البلاغة ٢/٢٥٦

السير الى الطريق ، والطريق مكان يقع عليه السير ، وأسند الجد إلى الجد ، والجد مصدر الفعل ، فالفعل فى هذه الجمل لم يسند إلى فاعله الحقيقى ، وإنما أسند إلى ملابس له .

فالإسناد المجازى : « كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول »(٢) .

وواضح فى الأمثلة المذكورة أن التجوز واقع فى الإسناد ، ولهذا سمى بالمجاز الإسنادى ، أو المجاز الحكمى ، أو المجاز النسبى ، أو المجاز التركيبى ، أو المجاز العقلى ، وذلك لوقوعه فى الإسناد ـ كما قلنا ـ ولرجوعه إلى حكم العقل وتصرفه .

والفرق بينه وبين المجاز اللغوى ، أن هذا واقع فى الإسناد ، أما اللغوى فواقع فى المفردات ، حيث تنقل من معناها اللغوى إلى المعنى المجازى المراد ، فالتصرف فيها قد تم فى نطاق ما دلت عليه اللغة ، ولذا سمى التجوز فى المفردات بالمجاز اللغوى .

فى ضوء هذا الفهم ننظر إلى المجاز العقلى فى النظم القرآنى لنتعرف على ملابساته ، ولنقف على أسراره ومزاياه البلاغية .

ففى قوله تعالى : « **إن فرعون علا فى الأرض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين** »(٣) .

---

(٢) نفس المصدر ٢٥٧/٢ هذا وقد عرف الخطيب الإسناد الحقيقى بأنه « إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ما هو له عند المتكلم فى الظاهر » وعرف الإسناد المجازى بأنه : « إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول » الإيضاح ٥٤/١ ، ٥٦ وتلاحظ أنه قد وقف الإسناد على الفعل وما فى معناه ، والإسناد أعم من ذلك ـ كما سنرى ـ ولذا آثرنا تعريف عبد القاهر ، فهو يتسع لكل إسناد وكل ملابسة .

(٣) القصص ٤

أسند التذبيح والاستحياء إلى فرعون ، وفرعون لم يباشر الفعلين بنفسه ، وإنما أمر بهما ، فهو السبب الآمر بتذبيح الأبناء واستحياء النساء ، ففى الإسناد تجوز حيث أسند الفعل فى الموضعين الى سببه .

وهذا التجوز يصور طغيان فرعون وعتوه، واستكباره فى الأرض، فهو يبرزه مباشرا للفعلين بنفسه ، وهذا يدل على شدة بطشه وقوة فتكه ببنى إسرائيل ، وإذلاله لهم ، ولهذا أوثر التعبير بالتذبيح دون القتل ، لأن القتل ينبىء بقوة المقتول ونديته للقاتل ، أما الذبح فيدل على ضعف المذبوح ، وتمكن الذابح منه ، ولذا يعبر بالقتل فى جانب الإنسان ، فالإنسان ند للإنسان ، ويعبر بالذبح والنحر عند تذكية الأنعام والطيور ، فإيثار التعبير عن القتل بالتذبيح يصور تمكن فرعون وملئه من بنى إسرائيل ، كما يتمكن الإنسان مما يذبحه من الأنعام والطير ، وفى هذا من الإذلال والهوان ما ترى ، ومما يشعر بقوة البطش وشدة الفتك التعبير « بالتذبيح » دون الذبح .

كما أوثر التعبير بالنساء دون البنات ، فى قوله : « **ويستحيى نساءهم** » إذ ما يستبقى هن البنات ، فهن المقابلات للأبناء الذين يذبحون ، ولكن التعبير عنهن بلفظ « **النساء** » يشعر بالغرض من الإبقاء عليهن ، إنه غرض خبيث ، وهو أن يصرن نساء مشتهيات فيفترشن ويمتهن ، وينتهك عرضهن ، وفى هذا من الهوان والإذلال لبنى إسرائيل ما لا يخفى عليك .

ومما أسند فيه الفعل إلى السبب قوله تعالى : « **فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى** »(٤) حيث أسند الإخراج إلى إبليس وهو سببه ، ويشعر الإسناد إلى السبب هنا بمدى

---

(٤) طـه ١١٧

نزغ الشيطان ووسوسته ، وتربصه ببنى آدم ، وقعوده لهم ، كما يشعر أيضا بما ينبغى على بنى آدم تجاه نزغ الشيطان وهمزة ولمزه « **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون** »(٥) فالواجب على المؤمن أن يستعيذ بالله دائما من الشيطان الرجيم ، وأن يحذر إغواءه ووساوسه ، وإلا يغتر بتزيينه ، فإنه عدو مبين ، ولذا جاء فى أول هذه الآية الكريمة : « **إن هذا عدو لك ولزوجك** » .. وقال تعالى فى سورة يوسف : « **إن الشيطان للإنسان عدو مبين** »(٦)

وكذا القول فى الآيات الكريمة : « **وأحلوا قومهم دار البوار ... وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ... ولا تطيعوا أمر المسرفين** »(٧) فقد أسند الإحلال إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وهم سبب هذا الإحلال، لأن الذى يحل صاحبة دار البوار إنما هو عمله الذى قدمه ، وينبىء الإسناد إلى السبب هنا بقوة الإغواء ، وتفانى الذين بدلوا نعمة الله كفرا فى صد قومهم عن الهدى ، ولذا يقول القوم لهم عند رجع بعضهم إلى بعض القول ، وقد وقفوا على ربهم : « **لولا أنتم لكنا مؤمنين** »(٨) ثم يفصحون عن الإغواء وشدة مكرهم بهم : « **بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا** »(٩) فقد كانوا يمكرون بهم ليل نهار ، لا يكفون عن الحيلة والإغواء .

وأسندت الزيادة فى سورة الأنفال إلى الآيات التى تتلى على المؤمنين ، والآيات سبب فى زيادة الإيمان ، فالإسناد إليها يدل على عظمة هذه الآيات ، ويشعر بكمال الخضوع ، وحسن تلقى أولئك

---

(٥) المؤمنون ٩٧ ، ٩٨ (٦) يوسف ٥

(٧) الآيات بالترتيب : إبراهيم ٢٨ ، الأنفال ٢ ، الشعراء ١٥١

(٨) سبأ ٣١ (٩) سبأ ٣٣

المؤمنين للآيات ، واستجابتهم لها ، والتزامهم بمضمونها ، ومن أجل وعـدم الاسـتجابة لهم فيما يأمرون ٠

وفى آية الشعراء وقعت الطاعة المنهى عنها على أمـر المسرفين ، والأمر لا يطاع ، وإنما الذى يطاع هم المسرفون بسبب أمرهم ، فالطاعة تقع على صاحب الأمر ، لا على الأمر ، ووقوعها على الأمر الذى هو سببها ، يشعر بوجوب الانتهاء ، والمبادرة إلى التخلى عن المسرفين ، وعـدم الاسـتجابة لهم فيـما يأمرون ٠

هذا والتجـوز فى الآية الكريمة إنمـا هو فى إيقـاع الفعـل على مفعوله ، وليس فى إسناد الفعل أو ما فى معناه ـ كما ذكـر الخطيب القزوينى ـ ولذا آثرنا تعريف الإمام عبد القاهر على تعريف الخطيب ، لاتساع تعريف عبد القاهر للنسب الإيقاعية ، كما فى هذه الآية الكريمة ، وكما فى قوله تعالى : « **ففتحنا أبواب السـماء بماء منهمـر ٠ وفجرنا الأرض عيونـا** »(١٠) ففى إيقـاع التفجيـر على الأرض مجـاز ، إذ التفجير للعيون ، والأصل : وفجرنا عيون الأرض ، وفى هذا التجـوز دلالة على كثرة العيون ، وكثرة الميـاه المتدفقة منهـا ، وكأن الأرض جميعها قد صارت عيونا متفجرة ٠

ويتسع تعريف عبد القاهر أيضـا للنسب الإضـافية وللنسـبة بين المبتدأ والخبر ، كما فى الآيات الكريمة : « **بل مكر الليل والنهار ... وإن خفتم شقاق بينهما ... ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر** »(١١) فقد أضيف المكر إلى الليل والنهار ، وهما زمان يقع فيه المكر ، ففى هذه الإضافة مجـاز عقلى ، والإضافة الحقيقية أن يقال : بل مكركـم بالليل والنهار ٠

---

(١٠) القمر ١١ ، ١٢

(١١) الآيات بالترتيب : سبأ ٣٣ ، النساء ٣٥ ، البقرة ١٧٧

وترجع بلاغة المجاز فى الآية الكريمة إلى دلالته على المبالغة فى المكر والإغواء ، فالإضافة فى الآية تصور المكر واقعا من الليل والنهار ، وكأن الزمن ـ لشدة مكرهم ، وتناهيهم فى الإغواء ـ صار يشاركهم فيما يصنعون ، بل صار هو الماكر ، ومما يدل على ذلك عطف (النهار) على (الليل) فهو يدل على أنهم يواصلون المكر ليلا ونهارا ، لا يكفون عنه ولا يهنون .

وكذا القول فى آية النساء « **وإن خفتم شقاق بينهما** » ففى إضافة الشقاق إلى البين مجاز ، إذ الأصل : شقاق الزوجين فى الحالة التى بينهما ، ويدل هذا التجوز على أن الخلاف والشقاق بين الزوجين قد بلغ مداه ، وصار لا يجدى فيه إلا بعث الحكمين .

وفى آية البقرة أسند (من آمن) إلى البر إسنادا مجازيا بقصد الدلالة على المبالغة فى جعل (من آمن) هو البر عينه ، والإسناد ـ كما ترى ـ إسناد ذات إلى ذات .

تعريف الإمام عبد القاهر يتسع لكل هذه النسب ولغيرها ، لأنه لم يقف الإسناد على الفعل وما فى معناه ، بل جعله عاما « كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول »(١٢) أما تعريف الخطيب فقد وقفه على إسناد الفعل أو ما فى معناه « إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول »(١٣) ولذا ضاق فلم يتسع للتجوز فى النسب المذكورة ، واتسع لها تعريف عبد القاهر ، فكان جديرا بالإيثار .

---

(١٢) أسرار البلاغة ٢/٢٥٧ (١٣) الإيضاح ١/٥٦

ومما أسند فيه الفعل إلى زمانه ، قوله تعالى : « **فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا** »(١٤) حيث أسند الجعل إلى اليوم ، واليوم زمان يجعل فيه ، والإسناد إليه ينبىء بالشدائد والأهوال التى تقع فى ذلك اليوم ، يقال فى اليوم الشديد ، يوم يشيب نواصى الأطفال ، والأصل فيه أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب ٠

يقول أبو الطيب :

والهم يخترم الجسيم نحافة

ويشيب ناصية الصبى ويهرم(١٥)

وكذا القول فى الآيات الكريمة : « **هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ٠٠٠ والفجر وليال عشر ٠ والشفع والوتر ٠ والليل إذا يسر ٠** »(١٦) فقد أسند الإبصار إلى النهار ، والنهار زمان يبصر فيه المبصرون ، وإسناد الإبصار إليه يجعله قائدا يقود الناس فيتحركون ، ويبصرهم فيبصرون ، ويصور شدة الضياء الذى عم الكون ، فأبصرت الخلائق جميعا بإبصار النهار ، وفى الآية احتباك قد مر بك فى دراسة الحذف ، حيث حذف من الأول ما دل عليه الثانى ، ومن الثانى ما دل عليه الأول ، والأصل : هو الذى جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه ، والنهار مبصرا لتتحركوا فيه ولتبتغوا من فضله ، فحذف من كل نظيره(١٧) ٠

وأسند السرى إلى الليل ، والليل زمان لوقوعه ، إذ السرى هو

---

(١٤) المزمل ١٧ (١٥) انظر الكشاف ١٧٨/٤

(١٦) الآيات بالترتيب : يونس ٦٧ ، الفجر ١ ـ ٤

(١٧) انظر الفتوحات الإلهية ٣٦٢/٢

السير ليلا ، والسائر هـم الناس ، والإسناد إلى الليل يشعر باللطف والإيناس ، فالليل يسرى مع السائرين أنسا ولطفا ، وهذا ينسجم مع السياق ، فقد أقسم عز وجل بالفجر يشع بنوره ، فيبدد ظلام الليل ويؤنس بنوره وضوئه ، وبليال عشر لها عنده شأن ، وبالشفع والوتر حيث يأنس المؤمن بعبادة ربه ، ثم يأتى القسم بالليل يسرى وكأنه كائن حى يمضى بالسائرين مؤنسا ومتلطفا ، أرأيت كيف ينسجم النظم القرآنى ؟ وكيف يتلاءم السياق فى روعة وبراعة ؟ إنه الإعجاز .

ومما أسند فيه الفعل إلى مكانه قوله تعالى : « **أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا** »(١٨) حيث أسند الأمن إلى الحرم « حرما آمنا » والحرم مكان يأمن فيه الناس ، وإسناد الأمن إليه ينبىء بكمال النعمة ، نعمة الأمن التى امتن الله بها على من دخل الحرم « **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا** »(١٩) .

إن إسناد الأمن إلى الحرم دل على كمال المبالغة فى تحقق الأمن لساكنيه ، وهذا أبلغ رد لدعواهم التى ادعوها « **إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا** » كيف وهم آمنون فى حرم الله الذى مكنه لهم ؟

يقول الزمخشرى : فألقمهم الله الحجر بأنه مكن لهم فى الحرم الذى آمنه بحرمة البيت ، وآمن قطانه بحرمته ، وكانت العرب فى الجاهلية حولهم يتغاورون ويتناحرون ، وهم آمنون فى حرمهم لا يخافون ، وبحرمة البيت هم قارون بواد غير ذى زرع ، والثمرات والأرزاق تجبى إليهم من كل أوب ، فإذا خولهم الله ما خولهم ، من الأمن والرزق ، بحرمة البيت وحدها وهم كفرة ، عبدة أصنام ، فكيف

---

(١٨) القصص ٥٧ (١٩) آل عمران ٩٦ ، ٩٧

يستقيم أن يعرضهم للتخوف والتخطف ، ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام ؟ »(٢٠) ٠

وانظر إلى قوله تعالى : « **إذا زلزلت الأرض زلزالها ٠ وأخرجت الأرض أثقالها** »(٢١) تجد أن الإخراج قد أسند إلى الأرض ، وهى مكان ، والذى يخرج منها أثقالها هو الله تعالى : « وفى هذا الإسناد تخييل محرك ومثير ، فأنت ترى الأرض فاعلة جاهدة تخرج أثقالها ، وهذه الإضافة فى قوله « أثقالها » تشعر بأنها أثقال هائلة جسام ، من حيث كانت أثقال هذا الكوكب الهائل الضخم ، الذى حمل الجبال والبحار وثقلاء الناس ، والمقام مقام ذكر الساعة وما فيها من ذهول وفزع ، وتصور الأرض وهى جاهدة تخرج الأثقال فى هذا الوقت الفزع واقع أحسن موقع ، ثم فيه إشارة إلى أنها لا تبقى فى باطنها شيئا ، لأنها تقذف بنفسها كل ما انطوى فى طياتها »(٢٢) ٠

ومن ذلك قوله تعالى : « **قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا** »(٢٣) حيث أسند الاشتعال إلى الرأس ، والرأس مكان الشعر ومنبته ، والذى يشتعل شيبا إنما هو الشعر ، وقد دل إسناد الاشتعال إلى مكانه على إحاطة الشيب وشموله جميع شعر الرأس ، ولو قيل : اشتعل الشيب فى الرأس ، أو اشتعل شيب الرأس ، لذهب هذا المعنى ٠

يقال : اشتعل البيت نارا ، فيدل ذلك على استيلاء النار عليه ، ووقوعها فيه وقوع شمول وإحاطة ، فلو قيل : اشتعلت النار فى البيت ،

---

(٢٠) الكشاف ١٨٥/٣ — (٢١) الزلزلة ١ ، ٢

(٢٢) خصائص التراكيب ٩٠

(٢٣) مريم ٤

فإن ذلك لا يدل على أكثر من وقوع النار فيه ، وإصابتها جانبا من جوانبه .

ومن دقائق التعبير القرآنى فى هذه الآية الكريمة تعريف الرأس بالألف واللام ، والدلالة على الإضافة من غير إضافة - كما يقول عبد القاهر(٢٤) - إذ يدرك المخاطب من السياق أن المراد بالرأس رأس زكريا - عليه السلام - والتعريف بالألف واللام يؤذن برضا زكريا ، ويوحى بتقبله للشيب بالفرح والابتهاج ، لأنه يقربه من نعيم ربه .

ولو أضيفت الرأس إليه فقيل : واشتعل رأسى شيبا ، لأشعرت تلك الإضافة بشىء من الحزن والأسى يعترى زكريا - عليه السلام - بسبب الشيب ، فإذا ما علمنا أن هذا هو الموضع الفريد الذى عرفت فيه « الرأس » بالألف واللام فى القرآن الكريم ، بدا لنا ما وراء استخدام الألفاظ فى النظم القرآنى من إعجاز .

ولا يخفى عليك أن الاشتعال فى الآية الكريمة مستعار لانتشار الشيب فى الشعر ، وفشوه فيه ، وأخذه منه كل مأخذ ، وهذه استعارة تبعية فى الفعل ، وهنالك استعارة أخرى مكنية فى كلمة « شيبا » حيث شبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وإنارته ، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وهو « اشتعل » وانفكاك الاستعارة المكنية عن الاستعارة التخييلية مما عليه المحققون من أهل البيان(٢٥) .

وبهذا يكون فى الآية الكريمة ثلاثة مجازات ، مجاز عقلى فى إسناد الاشتعال إلى الرأس وهى مكانه ، ومجازان لغويان ، أولهما :

---

(٢٤) انظر دلائل الإعجاز ١٣٤

(٢٥) انظر الكشاف ٥٠٢/٢ وروح المعانى ٦٠/١٦

استعارة تبعية فى الفعل « اشتعل » وثانيهما : استعارة مكنية فى كلمة « شيبا » .

وقد كثر فى النظم الكريم ، عند الحديث عن نعيم الجنات ، إسناد الجريان إلى الأنهار ، اقرأ قوله تعالى: « **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ..** »(٢٦) تجد أن الجريان قد أسند إلى الأنهار وهى مكانه ، لأن الأنهار اسم للأمكنة والوديان التى تجرى فيها المياه ، وإسناد الجريان إلى المكان الذى يجرى فيه الماء ، يدل على كثرة المياه وإفاضتها واستمرار جريانها ، وكان محلها هو الذى يجرى ، وهذا ينبىء بدوام النعيم ، واستمراره .

ومما أسند فيه الفعل المبنى للفاعل إلى مفعوله قوله تعالى : « **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** »(٢٧) حيث أسند الربح منفيا إلى التجارة ، وهو إنما يقع عليها ، والذى يفعل الربح على الحقيقة أصحاب التجارة ، فالأصل : فما ربحوا فى تجارتهم ، ويدل التجوز فى الإسناد هنا على المبالغة فى الخسران والبوار ، فالذى خسر ولم يربح التجارة ذاتها ، وإنها لتجارة غريبة،الثمن المدفوع فيها الهدى،والسلعة المشتراة الضلالة،ولايرتاب عاقل فى خمران مثل هذه التجارة ، إن بوارها محقق ، ولذا بولغ فى تأكيد الخسران والبوار بإسناد عدم الربح إلى ذات التجارة .

وكذا القول فى الآيات الكريمة : « **فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ... خلق من ماء دافق ... قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ...** »(٢٨) حيث أسند اسم الفاعل « راضية » إلى

---

(٢٦) التوبة ٧٢ (٢٧) البقرة ١٦

(٢٨) الآيات بالترتيب : القارعة ٧ ، الطارق ٦ ، هود ٤٣

ضمير العيشة ، والعيشة مرضية لا راضية ، فالأصل : رضى بها صاحبها ، وقد أسند الرضا إلى العيشة لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها ، ويدل هذا التجوز على عظم النعيم الذى أعده الله للمؤمنين فى الجنة ، كما يشعر بكمال الرضا والألفة ، وبدوام السعادة وبقائها ، فالمؤمن يألف عيشته ، وهى تألفه ، ويحبها وتحبه ، وما بنى على الألفة والمحبة والرضا يدوم ويبقى .

وأسند اسم الفاعل « دافق » إلى ضمير الماء ، والماء مدفوق وليس دافقا ، إذ الدافق صاحبه ، ووراء هذا التجوز دلالة على سرعة اندفاع الماء وشدة تدفقه ، وكأن صاحبه لم يعد فى وسعه التحكم فيه ، والسيطرة عليه ، بعد ما أخذ فى التدفق ، وهذا ينبىء برجوع الخلق لله وحده ، ويؤذن بعجز الإنسان وضعفه ، وبعده عن أن يكون له دخل فى أمر الخلق ، قال تعالى : « **أفرأيتم ما تمنون • أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون** »(٢٩) فالله وحده هو الخالق ، هو وحده خالق المنى ، ومخرجه من الإنسان ، ولا شأن للإنسان فى شىء ، حتى ذاك المنى الحقير ، المتدفق منه لا يملك السيطرة عليه ، ولا التحكم فيه ، فهل بقى له شىء من أمر الخلق ؟ إن الله هو الخالق الوهاب .

وأسند اسم الفاعل « عاصم » إلى ضمير المفعول ، إذ المعنى : لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه ، ويشعر التجوز فى الإسناد هنا بإبعاد الكافر الذى أعرض وتولى ، ويلفت إلى شدة أخذه وإهلاكه ، إذ لا ينجيه أحد ، ولا يعصمه عاصم من أمر الله ، عند حلول العذاب .

ومما أسند فيه الفعل المبنى للمفعول إلى فاعله قوله تعالى : « **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا**

---

(٢٩) الواقعة ٥٨ ، ٥٩

مستورا »(٣٠) فقد أسند اسم المفعول « مستورا » إلى ضمير الحجاب ، والحجاب ساتر وليس مستورا ، ويشعر هذا التجوز بشدة جحودهم ، وقسوة قلوبهم ، فالمعنى : إذا قرأت القرآن الناطق بالبراهين الدالة على الحق ، جعلنا بمقتضى حكمتنا فى الهداية والإضلال بينك وبين الكفرة حجابا يمنعهم عن الحق ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، وجعلنا فى آذانهم وقرا وعلى أبصارهم غشاوة .

إسناد اسم الفاعل « مستورا » إلى الحجاب يشعر - كما قلنا - بشدة جحودهم وطغيانهم ، لقد بلغ جحودهم حدا طغى فيه على الحجاب فصار مستورا بالجحود والطغيان ، بدل أن يكون ساترا ، وصلوا فى العناد والإعراض إلى حد انقلبت فيه الموازين ، وتغيرت المعايير ، وتبدلت السنن ، فلم تعد تمضى وفق المعهود ، بل اختل نظامها.

ومن التجوز فى الإسناد أن يسند الفعل إلى الجنس وهو لأحد أفراده ، كما فى قوله تعالى : « **فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم** »(٣١) حيث أسند العقر إلى جميع القوم ، قوم صالح « فعقروا » والعاقر أحدهم بدليل قوله تعالى : « **فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر** »(٣٢) والإسناد إلى الجميع ينبىء بأن العقر قد تم بعلمهم ، ووقع برضاهم .

ومنه أن يسند الفعل إلى الجارحة التى هى آلته ، كما فى قوله تعالى : « **ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه** »(٣٣) فالآثم هو صاحب القلب ، وقد أسند الإثم إلى القلب ، لأن كتمان الشهادة أن يضمرها الشخص ويخفيها ، فلا يتكلم بها ولا ينطق ، فلما كان الكتمان إثما مقترفا بالقلب أسند إليه ، إذ إسناد الفعل إلى آلته يكون أبلغ فى الزجر وأقوى فى النهى .

---

(٣٠) الإسراء ٤٥ — (٣١) الأعراف ٧٧

(٣٢) القمر ٢٩ — (٣٣) البقرة ٢٨٣

ومنه أن يسند إلى ماله مزيد اختصاص وقربى بالفاعل الحقيقى ، كما فى قوله تعالى : « إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين »(٣٤) حيث أسند التقدير إلى الملائكة والمقدر هو الله وحده ، وذلك لأن لهم مزيد اختصاص وقربى من الله عز وجل .

يقول الزمخشرى : « فإن قلت : فلم أسندت الملائكة فعل التقدير وهو لله وحده إلى أنفسهم ، ولم يقولوا : قدر الله ؟ قلت : لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذى ليس لأحد غيرهم ، كما يقول خاصة الملك : دبرنا كذا ، وأمرنا بكذا ، والمدبر والآمر هو الملك لاهم ، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم »(٣٥) .

مما تقدم يتضح لنا أن الفعل قد أسند إلى سببه ، وإلى زمانه ومكانه وأسند المبنى للفاعل إلى المفعول ، والمبنى للمفعول إلى الفاعل ، وأسند إلى الجنس وهو لأحد أفراده ، وأسند إلى آلته ، وإلى ماله قرب واختصاص بالفاعل الحقيقى ، ووقع الفعل على سببه ، وعلى مكانه ، وأضيف المصدر إلى الزمان وإلى المكان ، وتلك ملابسات للإسناد ، فالفعل أو ما فى معناه ، عندما يسند إلى غير ما هو له ، أو يقع عليه ، والكلمة عندما تضاف إلى غير ما هى له ، لابد أن تكون هنالك ملابسة مصححة للإسناد ، أو الإيقاع أو الإضافة ، بمعنى أن يكون هناك تعلق وارتباط بين الفعل وما أسند إليه تجوزا ، أو بين الفاعل الحقيقى والفاعل المجازى ، حيث يرتبط الفعل بكل منهما ، ويتعلق بـه .

ولابد فى كل تجوز من تأول ، أى : قرينة تدل على وقوع المجاز ،

---

(٣٤) الحجر ٦٠ (٣٥) الكشاف ٢/٣٩٤

ففى قولك : ليله قائم ونهاره صائم ، يستحيل عقلا قيام الليل ، وصيام النهار لأنهما زمان ، فلابد من التأول فى هــذا الإســناد ٠

والجاهل عندما يقول : شفى الطبيب المريض ، معتقدا أن الطبيب فاعل للشفاء يكون الإسناد حقيقيا فى اعتقاده ، وذات الجملة لو قالها المؤمن الذى يرجع الشفاء إلى الله ، ويؤمن بأن الطبيب سبب أجرى الله الشفاء على يديه ، يكون الإسناد مجازيا فى اعتقاده ، لأنه متأول ٠

وخلاصة القول أن التجوز فى الإسناد لايكون إلا لتحقيق غرض يقتضيه المعنى - كمـا رأيت فى الآيات الكريمـة - وأن له ملابسـات تصـحح الإسناد ، وقد وقفت على معظمها ، ولابد فيه من التأول ، وإلا كان الإسناد حقيقيا ٠

* * *

خـــروج الكــلام عن مقتضى الظاهــر

قال تعالى :

« إنا أعطيناك الكوثر ٠ فصل لربك وانحر ٠ إن شانئك هو الأبتر » الكوثــر

« إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ٠ وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون » الأنبياء ٩٢ ، ٩٣

« والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها » فاطر ٩

« قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » الأنعــام ١٤

« واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود » هــود ٩٠

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا » مريم ٨٨ ، ٨٩

« قل هو الله أحــد ٠ الله الصمد ٠ » الإخلاص ١ ، ٢

« وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » الإسراء ١٠٥

« فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فانزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » البقرة ٥٨

« ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون » المؤمنون ١١٧

« يسالونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » البقرة ١٨٩

« يسالونك ماذا ينفقون قل ما انفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » البقرة ٢١٥

« فانجيناه وأهلـه إلا امرأته كانت من الغابرين » الاعراف ٨٣

« وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » التحريم ١٢

« ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين » فصلت ١١

« والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ... » النور ٤٥

« إن نشا ننزل عليهم من الساء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين »
الشعراء ٤

« اتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون »
النحل ١

« وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين • ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين » الأنبياء ٧٨ ، ٧٩

« إن مثل عيسى عنـد الله كمثل آدم خلقـه من تراب ثم قال له كن فيكون » آل عمران ٥٩

« قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركـون » هود ٥٤

« قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسـجد وادعوه مخلصين له الدين » الأعراف ٢٩

« أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » البقرة ٨٧

* * *

عرفنا أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وأن لكل مقــام مقالا ، ولكل حال كلاما يناسبها ويلائمها ، ومجىء الكلام مطابقا لمقتضى الحال هو الأصل ، وقد يخالف هذا الأصل فيأتى الكلام خارجا ومخالفا لمـا يقتضيه ظاهر الحال ، وتلك المخالفة لا تكون إلا لأسرار ومقاصد يقصـد إليها البلاغى .

وينبغى أن نعلم أن هذه المخالفة إنما هى لظاهر الحال ، فالكلام وإن خالف مايقتضيه الظاهر ، فإنه قد وافق ما يقتضيه المعنى ويتطلبه ؛ ولا يظهر ذلك إلا لمن سبر أغـوار المعانى ، وتغلغل بفكره فى أعمـاق التراكيب ، فهـو الذى يتجلى لـه ما وراء مخالفـة الظـاهر من أسرار ومزايا ، وأهداف يقصد إلى تحقيقها .

وصور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر كثيرة ، منها الالتفات ، وأسلوب الحكيم ، ووضع المضمر موضع المظهر ، ووضع المظهر موضع المضمر ، والتغليب ، والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضى ، وعن المـاضى بلفظ المضارع ، إلى غير ذلك من صور المخالفـة ، التى نأمـل أن يقف عليها الدارس ، وأن يتجلى لـه ما وراءها من أسرار ومقاصـد ، من خلال التأمل والنظر فى آيات الذكر الحكيم التى سنتناولها .

الالتفــات

الالتفات مأخوذ من قولهم : التفت الإنسان ، إذا تحرك بعنقه من اليمين إلى الشمال ، أو من الشمال إلى اليمين ، وقد عرفه جمهور البلاغيين بأنه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة ، وهى التكلم أو الخطاب أو الغيبة ، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها(١) .

وقالوا : إن فائدته التفنن والانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر ، تطرية واستدرارا للسامع ، وتجديدا لنشاطه ، وحفظا لخاطره من الملل والضجر ، إذا استمر الأسلوب الواحد على سمعه ، فقد قيل :

لا يصلح النفس إن كانت مصرفة

إلا التنقل من حال إلى حال(٢)

وهذه فائدة عامة لكل التفات ، ثم هنالك أسرار ومزايا عديدة للالتفاتات ، إذ يتجلى لنا فى كل التفات غرض من الأغراض ، ومزية من المزايا ، بالإضافة إلى تلك الفائدة العامة التى نراها فى كل التفات .

---

(١) الإيضاح ١٥٢/١ ويرى السكاكى أنه التعبير بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره ، أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره ، فهو يلتقى مع الجمهور فى الجزء الأول من التعريف ، ويخالفهم فى الجزء الثانى منه ، إذ يرى فى نحو قول ربيعة بن مقروم :

بانت سعاد فأمسى القلب معمودا

وأخلفتك ابنة الحر المواعيدا

التفاتا ، حيث كان مقتضى الظاهر أن يقول : وأخلفتني ، فالتفت إلى الخطاب ، ويعد الجمهور مثل هذا تجريدا .

(٢) انظر البرهان ٣١٤/٣

انظـر فى قـوله تعـالى : « **إنا أعطينـاك الكـوثر • فصـل لـربك وانحر** »(٣) تجد التفاتا من التكلم فى قوله « **إنا أعطيناك** » إلى الغيبة فى قوله : « **فصل لربك** » إذ الأصل : فصل لنـا ، والغرض من هــذا الالتفات إبراز معنى التربية ، والتصريح بلفظ « **الرب** » ففى التصريح به حث على تحقيق الفعل المـأمور به ، لأن من تكفل بالتربية والرعاية فهو جدير بالعبادة ، مستحق للصلاة المـأمور بها •

ومن ذلك قوله تعالى : « **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكـم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسـوله النبى الأمى الـذى يؤمن بالله وكلمـاته واتبعـوه لعلكـم تهتدون** »(٤) حيث التفت من التكلم فى قوله : « **إنى رسول الله** » إلى الغيبة فى قوله : « **فآمنوا بالله ورسوله** » وكان مقتضى الظاهر أن يقال : فآمنوا بالله وبى ، وترجع بلاغة الالتفات فى الآية الكريمة إلى أمرين :

١ ـ أن الاسم الظاهر « ورسوله » قد مكن من إجراء الأوصاف المذكورة فى الآية وهى : « **النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته •••** » عليه ـ ﷺ ـ ووصفه بها •

٢ ـ التنبيه إلى أن الإيمان والتصديق ليس بذات النبى ـ ﷺ ـ وإنما برسالته ، بكونه رسولا نبيا أميا يؤمن بالله وكلماته ، فهذه الصفات بمثابة البرهان على صدق رسالته ـ ﷺ ـ ولذا كان الالتفات من أجـل إبراز وتجلية تلك الصـفات •

ومما جاء فيه الالتفات من التكلم إلى الخطاب قوله تعالى : « **قل إنى أمرت أن أكون أول من أسـلم ولا تكونن من المشركين** »(٥) فقـد التفت من التكلم فى قوله : « **إنى أمرت أن أكون أول من أسـلم** » إلى

---

(٣) الكوثر ١ ، ٢ (٤) الأعراف ١٥٨

(٥) الأنعام ١٤

الخطاب فى قوله : « **ولا تكونن من المشركين** » ووراء هـذا الالتفـات التحذير من الشرك ، والوعيد الشديد لمن أشرك بالله ، وتأمل : كيف جاء الحديث عن الإسلام خبرا أمر - ﷺ - أن يخبر به « **قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم** » ثم جاء الحديث عن الشرك نهيا مباشرا من الله لرسوله « **ولا تكـونن من المشركين** » ففى هـذا من الوعيد الشـديد ، والتحذير من الشرك ، ما لا يخفى على ذى لب ، وقد أخبر عز وجل أنه لا يغفـر أن يشرك به « **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفـر ما دون ذلك لمن يشاء** »(٦) .

ومن ذلك قوله تعـالى : « **ومالى لا أعبـد الذى فطـرنى وإليـه ترجعون** »(٧) حيث التفت من التكلم فى قوله : « **ومالى لا أعبد الذى فطرنى** » إلى الخطاب فى قوله : « **وإليه ترجعون** » والغرض من هـذا الالتفات التلطف فى نصيحة قومه ترغيبا لهم فى الحق ، واستمالة لهم نحو الهدى ، فقد أجـرى التعجب من عدم العبادة على نفسه « مالى لا أعبد » ثم التفت إليهم محذرا « وإليه ترجعون » .

ويتجلى لك هذا المعنى ، معنى الترغيب والاستمالة ، عندما تنعم النظر فى سياق الآية الكريمة ، ولنقرأ : « **يا قـوم اتبعوا المرسـلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون** »(٨) فقد خاطبهم ناصحا لهم باتباع الرسل ، وبين لهم أن هؤلاء الرسل مهتدون ، وأنهم لا يسـألون أجرا على تبليغ الرسـالة وهذا أدعى للإيمان بهـم ، ثم هـو قد بدأ بإضافتهم إليه « ياقوم » تلطيفا لهم ، فلمـا أراد أن يتعجب من عـدم

---

(٦) النساء ٤٨ .   (٧) يس ٢٢

(٨) يس ٢٠ ، ٢١

إيمانهم التفت إلى نفسه حتى لا ينفرهم ، ثم التفت إليهم مرة أخرى محذرا ومنبها لهم بالمصير المحتوم « **وإليه ترجعون** » .

ومما جاء فيه الالتفات من الخطاب إلى التكلم قوله تعالى : « **واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود** »(٩) فقد التفت من الخطاب فى قوله : « **استغفروا ربكم ثم توبوا إليه** » إلى التكلم فى قوله : « **إن ربى** » ومثله قوله تعالى : « **فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب** »(١٠) ولعل الغرض من الالتفات فى الآيتين الكريمتين القصد إلى تنزيه الله تعالى ، ودفع توهم انصراف صفات الجلال المذكورة إلى آلهتهم فيما لو قيل : إن ربكم رحيم ودود ... وإن ربكم قريب مجيب(*) .

---

(٩) هود ٩٠ (١٠) هود ٦١

* الالتفات فى الآيتين ليس موضع اتفاق ، لأن الضمير الذى التفت عنه جمع « استغفروا ربكم .. توبوا » والذى التفت إليه مفرد « ربى » فبعضهم يعد مثل هذا التفاتا ، وبعضهم يشترط أن يظل الضمير الملتفت عنه والملتفت إليه على حالة واحدة من حيث الإفراد والتثنية والجمع ، ولذا لا يعد ما فى الآيتين التفاتا . انظر البرهان ٣/٣١٥

ونحن نرجح الرأى الأول ، لوضوح الانتقال والمخالفة فى التعبير ، سواء اتحدت الضمائر أى : ظلت على حالة واحدة من حيث الإفراد والتثنية والجمع ، أم اختلفت فى ذلك والمخالفة فى التعبير واضحة فى الآيتين الكريمتين ، والهدف منها تحقيق الغرض المشار إليه ، ومن ذلك قوله تعالى : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون » يس ٢٢ ، حيث التفت من التكلم فى « مالى ... فطرنى » إلى الخطاب فى « ترجعون » والضمير الملتفت عنه مفرد ، والملتفت إليه جمع - كما ترى - وقد سبق بيان الغرض من الالتفات فى الآية الكريمة ، فعد إليه .

وجاء الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فى قوله تعالى : « **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون • وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون** »(١١) حيث التفت من الخطاب فى قوله : « **امتكم ••• أنا ربكم فاعبدون** » إلى الغيبة فى قوله : « **وتقطعوا أمرهم بينهم** » ويؤذن هذا الالتفات بابتعادهم عن الجادة ، وغيابهم عن النهج القويم ، فقد كانوا على أمة واحدة يمضون على منهج الله ، وعندما كانوا كذلك خوطبوا ، فهم أهل للخطاب « **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** » فلما تركوا الملة الواحدة ، وتفرقوا شيعا وأحزابا ، وحادوا عن المنهج القويم ، التفت عنهم ، إذ لم يعودوا أهلا للخطاب ، بل تخلفوا عن الهدى ، وانحدروا فى غيابات الضلال ، « **وتقطعوا أمرهم بينهم** » ولذا ختمت الآية بهذا الوعيد « **كل إلينا راجعون** » •

ومن ذلك قوله تعالى : « **حتى إذ كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة** » (١٢) فقد التفت من الخطاب فى قوله « كنتم » إلى الغيبة فى قوله « بهم » وترجع بلاغة الالتفات فى الآية إلى عدة أمور :

١ ـ أنهم لما كانوا فى الفلك ، وهى راسية بهم خوطبوا ، فلما جرت بهم وابتعدوا إلى داخل البحر، لاءم ذلك أن يلتفت من خطابهم إلى الغيبة •

٢ ـ أنهم وقت الركوب استحضروا الخشوع ، وذكروا الله ، لأنهم خافوا الهلاك وتقلب الرياح ، فخوطبوا عندئذ ، ونودوا نداء الحاضرين فلما جرت بهم بما تشتهى أنفسهم « بريح طيبة » وأمنوا الهلاك ، لم يبق حضورهم ، وتلك عادة الإنسان إنه إذا أمن غاب ،

---

(١١) الأنبياء ٩٢ ، ٩٣

(١٢) يونس ٢٢

ونسى خالقه ، فلما غابوا عند جرى الفلك بهم بريح طيبة ، التفت عنهم ، إذ لم يعودوا أهلا لأن يخاطبوا .

٣ - أن الالتفات ينبىء بحال هؤلاء ، فهم إذا أصابهم ضر دعوا ربهم ، فإذا نجاهم بغوا فى الأرض بغير الحق ، فالملاءم أن يلتفت عن خطابهم ، وأن تحكى قصتهم تشهيرا بهم ، وتعجيبا من شأنهم ، وعظة واعتبارا لمن أراد أن يعتبر ويتعظ ، ولو استمر على الخطاب لفاتت تلك الفائدة .

ومنه قوله تعالى : « **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لو جدوا الله توابا رحيما** »(١٣) حيث التفت من الخطاب فى قوله « جاءوك » إلى الغيبة فى قوله « الرسول » ، والأصل أن يقال : واستغفرت لهم ، وفى هذا الالتفات تفخيم لشأن الرسول - ﷺ - وتعظيم استغفاره ، والتنويه بأن شفاعة واستغفار من اسمه « الرسول » من الله تعالى بمكان(١٤) .

ومما جاء الالتفات فيه من الغيبة إلى التكلم قوله تعالى : « **والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها** »(١٥) فقد التفت من الغيبة فى قوله « **والله الذى أرسل الرياح** » إلى التكلم فى قوله : « **فسقناه ... فأحيينا** » ويؤذن هذا الالتفات بالقدرة الباهرة التى تتجلى فى سوق السحاب ، وإحياء الأرض الموات ، فلما كانت هذه الأفعال دالة على القدرة الإلهية ، التفت من الغيبة فى إرسال الرياح إلى التكلم فى سوق السحاب ، وإحياء الأرض الميتة بإنزال الماء ، وشىء آخر وراء هذا الالتفات ، وهو الإشعار بأن

---

(١٣) النساء ٦٤ (١٤) انظر الكشاف ٥٣٨/١

(١٥) فاطر ٩

منافع العباد إنما هى فى سوق السحاب وإنزال مائه ، فلما كانت فيهما منفعة العباد ، التفت إلى التكلم فيهما « **فسقناه ... فاحيينا به** » لينبه إلى موطن المنفعة .

وكذا القول فى الآيات فى الكريمة : « **الم تر ان الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ... أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ... فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم** »(١٦) فإن الالتفات إلى التكلم فى هذه الآيات الكريمة يدل على قدرة الله تعالى فى إخراج الثمرات ، وإنبات الحدائق ذات البهجة ، وتزيين السماء الدنيا .

ووراء الالتفات فى آية فصلت دلالة على أن السماء الدنيا هى موطن العظة والعبرة ، فكأن الالتفات فيها يلفت المؤمن وينبهه إلى موطن العظة ، وفيه أيضا دلالة على أنه ليس المقصود الإخبار عن مدة خلق النجوم ، كما أخبرت الآيات عن مدة خلق الأرض والسموات ، وإنما المقصود الإخبار بالتزيين ، وبيان فائدته(١٧) .

ومنه قوله تعالى : « **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير** »(١٨) حيث التفت من الغيبة فى قوله « **الذى أسرى** » إلى التكلم فى قوله : « **باركنا حوله لنريه** » ثم عاد إلى الغيبة فى قوله « **إنه هو السميع البصير** » وينبىء هذا الالتفات بما للمسجد الأقصى من مكانة ، ويشير إلى حلول البركة حوله ، كما يدل على الغاية من

---

(١٦) الآيات بالترتيب : فاطر ٢٧ ، النمل ٦٠ ، فصلت ١٢

(١٧) انظر البرهان ٣٢٢/٣ (١٨) الإسراء ١

الإسراء ، وهى أن يرى النبى - ﷺ - من آيات ربه الكبرى ، إن الالتفات إلى التكلم فى الفعلين « باركنا ... لنريه » ينبه إلى مكانة المسجد الأقصى وإلى حلول البركة حوله ، كما ينبه إلى الغاية من إسراء الله تعالى بعبده - ﷺ - ولذا عاد فالتفت إلى الغيبة فى قوله « **إنه هو السميع البصير** » ليزداد التنبيه بتكرار المخالفة فى التعبير .

وخذ قوله تعالى : « **خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين . ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله ...** »(١٩) .

وتأمل فستجد عدة التفاتات ، حيث التفت من الغيبة فى قوله : « **خلق وألقى وبث** » إلى التكلم فى قوله « **أنزلنا فأنبتنا** » ثم عاد إلى الغيبة فى قوله : « **هذا خلق الله** » ثم عاد إلى التكلم فى قوله « **فأرونى** » ثم إلى الغيبة فى قوله « **من دونه** » ثم إلى التكلم فى « **آتينا لقمان الحكمة** » ثم إلى الغيبة فى قوله « **أن اشكر لله** » ولا يخفى عليك ما وراء هذه الالتفاتات من تحريك للمخاطب ، وإثارة وجدانه ليدرك هده المعانى الجليلة ، انظر إلى ما حققه الالتفات من التصريح باسم الله الأعظم فى « **هذا خلق الله ، أن اشكر لله** » وما وراء ذلك من تربية المهابة واستحضار العظمة ، انظر إلى نبرة الوعيد والتهديد فى « أرونى ماذا خلق الذين من دونه » انظر إلى عظمة الإنزال والإنباب والإيتاء فى « أنزلنا فأنبتنا وآتينا » وما وراء الالتفات فى هذه الأفعال من الدلالة على القدرة ، والامتنان بالعطاء .

---

(١٩) لقمان ١٠ - ١٢

وفى الآيات التفات آخر من الخطاب فى قوله : « **ترونها** ٠٠ **بكم ٠٠ فارونى** » إلى الغيبة فى قوله : « **بل الظالمون فى ضلال مبين** » وكان مقتضى الظاهر أن يقال : بل أنتم فى ضلال مبين ، وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى أمرين :

١ ـ أن الخطاب فى الآيات الكريمة عام ، وليس كل المخاطبين فى ضلال مبين ، بل الظالمون منهم ، فالالتفات قد مكن من التصريح بالظالمين ، وخصهم بالضلال ، فاخرج المؤمنين المهتدين ٠

٢ ـ أن الالتفات قد مكن من التصريح بصفة الظلم ـ كما قلنا ـ وادى إلى وسمهم بها ، فتبين بهذا واتضح ، أن الظلم هو الذى صيرهم فى ضلال مبين ، وعما قليل سيجعلهم فى عذاب أليم ٠

ومما التفت فيه من الغيبة إلى الخطاب قوله تعالى : « **وسقاهم ربهم شرابا طهورا ٠ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا** »(٢٠) فقد التفت من الغيبة فى قوله « **وسقاهم ربهم** » إلى الخطاب فى قوله : « **لكم جزاء** » وينبىء هذا الالتفات بالتكريم والتعظيم لأصحاب الجنة ٠

ومنه قوله تعالى : « **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا** »(٢١) حيث التفت من الغيبة فى قوله : « **قالوا** » إلى الخطاب فى قوله « **جئتم** » ولا يخفى عليك أن الغرض من الالتفات فى هذه الآية الكريمة عكس الغرض منه فى الآية السابقة ، إنه التفات الغاضب المتوعد ، ففيه توبيخ لهم ، وتنبيه إلى عظم الافتراء على الرحمن ، وإشعار بالوعيد والعقاب الشديد ، لمن تجرأ على الله تعالى ، وافترى هذا الافتراء ٠

---

(٢٠) الإنسان ٢١ ، ٢٢ (٢١) مريم ٨٨ ، ٨٩

واقرأ سورة الفاتحة « **الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين • إياك نعبد وإياك نستعين • إهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** »(٢٢) تجد أن السورة الكريمة قد بدأت بأسلوب الغائب ، ثم التفت إلى الخطاب فى قوله « **إياك نعبد** » وفى هذا الالتفات توجيه للعبد ، وحث له على أن يكون حاضر القلب عند قراءته ، فإن بدء السورة الكريمة بحمد الله تعالى ، ثم إجراء هذه الصفات ، صفات الجلال ، عليه جل شأنه ، تحرك حاضر القلب وتأخذ منه كل مأخذ ، فهو عندما يقرأ « **الحمد لله** » يدرك أن لهذا الكون إلهاً يستحق الحمد والثناء ، فإذا ما قرأ « **رب العالمين** » أدرك ربوبيته وملكه للخلق أجمعين ، فيخضع له ويخشع ، ثم يزداد خضوعه وخشوعه ، وقربه من الله تعالى ، عندما يقرأ « **الرحمن الرحيم** » إذ يدرك أنه المنعم على الخلق بجلائل النعم ودقائقها ، ثم يقرأ « **مالك يوم الدين** » فيدرك أن الملك فى ذلك اليوم لله الواحد القهار ، وعندئذ يكون قد ارتقى فى القرب من الله تعالى مرتقى ينقله من الغيبة إلى الحضور ، ومن المعقول والمعلوم إلى العيان والمشاهدة ، فيلتفت إلى مخاطبته تعالى « **إياك نعبد وإياك نستعين** » لقد حركته صفات الجلال ، وهيأته وارتقت به خضوعا وخشوعا ، حتى أقبل يناجى ربه عن قرب ، مخصصا إياه بغاية الخضوع والاستعانة .

وانظر كيف صرح النظم الكريم بذكر المنعم ، وإسناد الإنعام إليه - تعالى - لفظا فى قوله « **الذين أنعمت عليهم** » وكيف تحاشى نسبة الغضب إليه - تعالى - فى اللفظ ، فبنيت العبارة للمفعول فى قوله : « **غير المغضوب عليهم** » وذلك تأدبا وتعظيما لشأنه تبارك وتعالى .

* * *

---

(٢٢) سورة الفاتحة .

أسـلوب الحكيـم

عـرف البلاغيون أسـلوب الحكيـم بأنه : تلقى المخـاطب بغير ما يترقب بحمـل كلامه على خـلاف مـراده ، تنبيهـا على أنه الأولى بالقصـد ، أو تلقى السـائل بغير ما يتطلب سـؤاله بتنزيل هـذا السؤال منزلة غيره ، تنبيها على أنه الأولى بحاله والمهم له(٢٣) ٠

وقد سماه عبد القاهر أسلوب المغالطـة ، وهى مغالطـة أدبية ، حكيمة لطيفـة ، لأنها لم تقم على المكاشـفة والمواجهـة الصريحة بغير ما يترقب المخاطب ، بل قامت على الإخفاء واللطف والطرافة ، مراعاة للأدب ، وتقديرا للمشاعر ٠

انظر إلى قول ابن القبعثرى الشيبانى، وكان ممن خرجوا على الحجاج ابن يوسف الثقفى ، فأمسك به الحجاج ، وقال له مهـددا : « لأحملنك على الأدهم » فقال ابن القبعثرى : « مثل الأمير يحمل على الأدهـم والأشهب » فقال الحجاج : « إنه الحديد » فأجاب ابن القبعثرى : « لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا » ٠

إن الحجاج يتوعده بالقيـد ، وهـذا ما يريده بلفظ « الأدهـم » وبالحمل عليه ، ولكن الشيبانى يصرف كلام الحجـاج إلى غير ما يريد منه ، يصرفه إلى الوعد ، حيث حمل « الأدهم » على الفرس ، وهـو الذى يغلب سواده على بياضه ، ثم عطف عليه « الأشهب » وهو ما غلب بياضه على سواده ، وهو بهذا ينبه إلى ما ينبغى أن يكـون منه ، إنه الأمير ، ومثله يكـرم ويعد ، لا يهدد ويتوعد ، مثله يحمل على الخيل تكريما ، لا على القيد إهانة ٠

---

(٢٣) انظر الإيضاح ١٦٠/١

ولذا لما قال الحجاج : « إنه الحديد » وأصر على تهديده ، أصر الشيبانى على حمل كلامه على الوعد حيث قال : « لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا » أى : لأن يكون جوادا ذا حدة وقوة ونشاط خير من أن يكون بليدا فاترا ، وفى هذا مزيد من التنبيه إلى مكانة الأمير ، والتلويح إلى أن مثله يعفو ويكرم ويعد .

واقرأ قوله تعالى : « **يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج** »(٢٤) فقد سئل - ﷺ - ما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يمتلىء ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ، السؤال عن العلة فى تغيير منازل القمر ، وجاء الجواب مبينا الحكمة والفائدة من ذلك التغيير « قل هى مواقيت للناس والحج » فأخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بصرف السائل إلى غير ما يتطلب سؤاله ، تنبيها على أن ما صرف إليه هو المهم له ، والأولى بحاله .

يقول صاحب التحرير والتنوير : « كان المهم لهم أن يسألوه عما ينفعهم فى صلاح دنياهم وأخراهم ، وهو معرفة كون الأهلة ترتبت عليها آجال المعاملات والعبادات كالحج والصيام والعدة ، ولذلك صرفهم عن بيان مسئولهم إلى بيان فائدة أخرى ، لا سيما والرسول - ﷺ - لم يجىء مبينا لعلل اختلاف أحوال الأجرام السماوية ، والسائلون ليس لهم من أصول معرفة الهيئة ما يهيئهم إلى فهم ما أرادوا علمه ، بمجرد البيان اللفظى ، بل ذلك يستدعى تعليمهم مقدمات لذلك العلم »(٢٥) .

ومن ذلك قوله تعالى : « **يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل** »(٢٦)

---

(٢٤) البقرة ١٨٩ (٢٥) التحرير والتنوير ١٩٥/٢

(٢٦) البقرة ٢١٥

فقد سالوه - ﷺ - عن بيان ما ينفقون ، فجاء الجواب مبينا المصارف التى ينفق فيها ، وذلك للتنبيه على أنها هى المهمة ، وهى الجديرة بأن تتجه إليها هممهم وعنايتهم ، إذ ليس المهم أن يكون المنفق قليلا أو كثيرا ، ذهبا أو فضة ، بل الأولى والمهم أن يصرف فيما ينبغى أن يصرف فيه ، وأن يقع فى موقعه ، وأن يصل إلى أهله ومستحقيه .

* * *

وضع المضمر موضع المظهر

الأصل فى ضمير الغائب أن يذكر فى الكلام مرجعه الذى يرجع إليه ، وأن يكون هذا المرجع متقدما لفظا ورتبة أو فى اللفظ دون الرتبة ، أو فى الرتبة دون اللفظ ، فلا يعود ضمير الغائب على متأخر فى اللفظ والرتبة معا .

ولذا عد البلاغيون قول زهير :

إن تلق يوما على علاته هرما

تلق السماحة منه والندى خلقا

وقول حسان :

فلو أن مجدا أخلد الدهر واحدا

من الناس أبقى مجده الدهر مطعما

غير فصيح ، إذ عاد الضمير فى « علاته » على « هرما » وفى « مجده » على « مطعما » وهما مفعولان ، فهما متأخران لفظا ورتبة ، وهذا ضعف تأليف يخل بفصاحة الكلام .

وقد يخرج الكلام على خلاف هذا الأصل ، فيذكر ضمير الغائب ثم يفسر بمتأخر عنه لغرض بلاغى ، ويكون ذلك وضعا للضمير فى موضع الاسم الظاهر .

انظر إلى قول زهير يمدح هرما :

نعم امرأ هرم لم تعد نائبة ... إلا وكان لمرتاع بها وزرا

فالمخصوص بالمدح « هرم » عند إعرابه خبرا لمبتدأ محذوف ، أو مبتدأ لخبر محذوف ، يكون فاعل « نعم » فى هذا التعبير « نعم امرأ هرم » ضميرا مستترا تقديره « هو » يعود إلى المخصوص بالمدح « هرم » وهذا خروج عن مقتضى الظاهر ، بوضع الضمير موضع المظهر ، إذ الأصل أن يقال : نعم هرم امرأ .

أما إذا أعرب المخصوص بالمدح « هرم » مبتدأ والجملة قبله خبرا مقدما ، فعندئذ يكون الضمير عائدا على متقدم فى الرتبة ، ولا يكون من خروج الكلام عن مقتضى الظاهر .

والسر البلاغى وراء وضع المضمر موضع المظهر ، هو الإيضاح بعد الإبهام ، أو التفصيل بعد الإجمال ، فعندما يأتى الإيضاح بعد إبهام ، أو التفصيل بعد إجمال ، يتمكن المعنى فى نفس السامع ، ويستقر فى وجدانه .

انظر إلى الآيات الكريمة : « **قل هو الله أحد ... أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ... ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون** »(١) تجد أن الضمائر فى « هو .. إنها .. إنه » لم يتقدم لها مرجع ، وإنما فسرت بالجمل التى بعدها ، فهى من وضع الضمير موضع الاسم الظاهر ، وتسمى هذه الضمائر بضمائر الشأن أو القصة .

(١) الآيات بالترتيب : الإخلاص ١ ، الحج ٤٦ ، المؤمنون ١١٧

ولا يخفى عليك الإبهام فى هذه الضمائر ، وأنه قد وضح بالجمل المذكورة بعده ، والغاية من ذلك أن تستقر هـذه المعانى فى الأنفس ، وأن تترسخ فى الوجدان ، لأنها معان مهمـة ، إنها قضية التوحـيد « الله أحد » والحث على النظر والتدبر « لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » والتنبيه إلى خسران الكفرة وعدم فلاحهـم « لا يفلح الكافرون » .

مثل هذه المعانى هى التى يستعمل فيها ضمير الشأن أو ضـمير القصة ، لكى يحرك النفس ، ويثيـر انتباهها ، فتتطلع إلى إيضـاح الإبهام ، وتترقب مجىء التفصـيل الذى أجمـل فى تلك الضـمائر ، وعندما يأتى الإيضاح والتفصيل تستقر به هـذه المعانى فى الأنفس ، وتقع فيها الطف موقع ، لأنها جاءت والنفس مهيـأة لها ، ومتطلعـة ومترقبة .

وبهذا يتجلى لك أن الإضمار فى موضع الإظهار لا يكـون إلا فى الأمور المهمة ، والمعانى الجليلة ، التى يقصد إلى تمكينها فى النفس ، واستقرارها فى الوجدان .

* * *

وضـع المظهـر موضـع المضـمر

من صور خروج الكلام على خـلاف مقتضى الظاهر وضع الاسـم المظهر موضع الضمير ، وذلك عندما يذكر الاسم الظاهر ثم يراد إعادته فى الكلام ، فتلك الإعادة ينبغى أن تكون بالضمير ، حيث ذكر الاسـم أولا ، وهذا الذكر يقتضى أن يعبر عنه بعد ذلك بضميره عائدا عليه ، فإذا ما عبر عنه عند الإعادة بالاسم الظاهر : أى : أعيد اسما ظاهرا

لا ضميرا ، يكون الكلام قد خرج عن الاصل ، وخالف ما يقتضيه الظاهر لسر من الاسرار * .

انظر إلى قوله تعالى : « **فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فانزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون** »(١) تجد أنه قد أعيد ذكر « الذين ظلموا » وكان مقتضى الظاهر أن يقال : فانزلنا عليهم ، لتقدم ذكر « الذين ظلموا » فى أول الآية الكريمة .

والغرض البلاغى من وضع الظاهر موضع الضمير فى الآية الكريمة ، الدلالة على أنهم قد استحقوا العذاب النازل عليهم بسبب هذا الظلم ، ففيه زيادة فى تقبيح أمرهم ، وتسجيل للظلم الواقع منهم ، وإيذان بأن إنزال الرجز عليهم كان بسبب ظلمهم « **وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون** »(٢) .

ومن ذلك قوله تعالى : « **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما**

---

* وقد يكون المقام مقتضيا لأن يبدأ بالضمير ، فيعدل عنه إلى الاسم الظاهر ، كما فى قول الخليفة : أمير المؤمنين يأمر بكذا ، فالأصل أن يقال : نحن نأمر ، ولكنه خالف هذا الأصل ، فوضع الظاهر « أمير المؤمنين » مكان الضمير « نحن » تنويها بشأن الأمير وحثا على الامتثال والطاعة .

وقد يبدأ بالضمير ثم يعدل عنه إلى الظاهر ، كما فى قول المرءوس لرئيسه متظلما : أنت أهنتنى والرئيس يفعل ما يشاء ، فقد بدأ بالضمير « أنت » ثم عدل عنه إلى الاسم الظاهر « الرئيس » تنويها بشأنه ومكانته ، وطلبا لعدله .

(١) البقرة ٥٨ (٢) آل عمران ١١٧

رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين »(٣) فقد عدل إلى الاسم الظاهر فى قوله : « **وعلى المؤمنين** » إذ الأصل : على رسوله وعليكم ، وفى هذا العدول إبراز لصفة الإيمان ، وإشعار بأن إنزال السكينة لا يكون إلا على الرسول وعلى من آمن معه ، واطمأن قلبه بالإيمان ، وإشادة بالمؤمنين الذين ثبتوا مع رسول الله - ﷺ - وحث للجميع على الإيمان بالله والتوكل عليه ، وعدم الركون إلى كثرة العدد والعتاد فإن النصر من الله « **إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده** »(٤) .

وفى الآية أيضا عدول إلى الاسم الظاهر فى قوله « **وذلك جزاء** الكافرين » إذ الأصل : وعذب الذين كفروا وهو جزاؤهم ، فعدل عن الضمير إلى اسم الإشارة إبرازا للعذاب ، ودلالة على تميزه أكمل تمييز ، كما عدل عنه أيضا إلى الاسم الظاهر « الكافرين » تسجيلا للكفر الذى استحقوا به العذاب ، وزيادة فى تقبيح أمر الكفرة وتحقير شأنهم .

وخذ قوله تعالى : « **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته** »(٥) تجده قد أعيد فيه اسم الرسول - ﷺ - فى قوله « فآمنوا بالله ورسوله » وكان الأصل : فآمنوا بالله وبى ، فعدل عن هذا الأصل إلى ما عليه النظم الكريم ، إبرازا لمعنى الرسالة ، وإشعارا بأن الإيمان المأمور به ، ليس بذات

---

(٣) التوبة ٢٥ ، ٢٦

(٤) آل عمران ١٦٠

(٥) الأعراف ١٥٨

النبى - ﷺ - ولكن برسالته ، فنحن لم نؤمر بالإيمان بذات محمد - عليه الصلاة والسلام - ولكننا مأمورون بأن نؤمن به رسولا نبيا أميا يؤمن بالله وكلماته ، فوضع الاسم الظاهر موضع الضمير فى الآية الكريمة ، قد أشعر بهذا ، ومكن من إجراء الصفات المذكورة على الرسول - ﷺ - « **ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته** » .

ومنه قوله تعالى : « **قل هو الله أحد . الله الصمد** »(٦) إذ كان مقتضى الظاهر أن يعبر بالضمير فى قوله « **الله الصمد** » فيقال : هو الصمد ، ولكنه عدل إلى الاسم الظاهر « الله » لتقرير المعنى ، وزيادة تمكينه فى النفس ، لأنه معنى من المعانى الجليلة التى تحتاج إلى زيادة تقرير وتمكين ، ليقلع الكفرة عن كفرهم ، ويقبلوا على الإيمان والتوحيد .

وانظر فى قوله تعالى « **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين** »(٧) تجده قد عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر فى قوله : « **فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين** » إذ الأصل : فتوكل على إنى أحب المتوكلين ، ولكنه عدل إلى التصريح بلفظ الجلالة ، لما فى التصريح به من تربية المهابة ، وتقوية الداعى إلى الامتثال والإجابة .

* * *

---

(٦) الإخلاص ١ ، ٢

(٧) آل عمران ١٥٩

التغليـب

التغليب هو إعطاء أحد المتصاحبين أو المتشابهين حكم الآخـر بجعله موافقا له ، إجراء للمختلفين مجرى المتفقين ، فهو من خـروج الكلام عن مقتضى الظاهر ، لأن الشيء يعطى حكم غيره ، ويجعـل موافقا له فى الهيئة أو فى المـادة(١) .

انظر إلى قوله تعالى : « **فأنجيناه وأهلـه إلا امـرأته كانت من الغابرين** »(٢) وإلى قوله عز وجل : « **وصـدقت بكلمات ربهـا وكتبه وكانت من القانتين** »(٣) تجد أن الأصل : كانت من الغابرات ، وكانت من القانتات ، فعدل عن ذلك إلى ما عليه النظم الكريم ، حيث عدت الأنثى من الذكور بحكم التغليب .

والغرض من ذلك الدلالة على أنها قد بلغت الغاية فى هذا الفعل ، فقد بلغت امرأة لوط الغاية فى الكفر والضلال ، وبلغت مريم ابنة عمران الغاية فى العبادة والقنوت ، والخضوع لله رب العالمين ، ولذا الحقت كل منهما بالرجال فيما تفوقت فيه بحكم التغليب ، تغليب الذكور على الإناث ، وهذا مما جعل فيه الشيء موافقا لغيره فى الهيئة ، إذ تغيرت هيئة الكلمة من القانتات إلى القانتين .

ومن تغليب أحد المتشابهين على الآخـر قوله تعالى : « **حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين** »(٤) إذ المراد : بعد المشرق والمغـرب ، فغلب المشرق لأنه أشرف الجهتين ، ولأن الشرق دال على الوجود والابتداء ، والغرب دال على العدم والانتهاء ، والنفس متعلقة

---

(١) انظر البرهان ٣٠٢/٣
(٢) الأعراف ٨٣
(٣) التحريم ١٢
(٤) الزخرف ٣٨

بالوجود ، راغبة فيه ، وكارهة للعدم والانتهاء ، ولذا غلب المشرق على المغرب فى الآية الكريمة ، وواضح أن هذا مما جعل فيه الشىء موافقا لغيره فى مادته ، إذ جعل المغرب مشرقا ، وأعطيت له مادته ، إجراء لهما مجرى المتفقين تغليبا .

وقد تغلب صفة العقلاء للدلالة على معنى ، كما فى قوله تعالى : **« إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين »(٥)** والأصل : فظلت أعناقهم لها خاضعة ، فعدل إلى وصف العقلاء « خاضعين » للدلالة على عظم الآية ، وللإشعار بشدة الخضوع وغاية الاستسلام ، ولذا عبر بالماضى « فظلت » فى موضع المضارع ، إذ الأصل فتظل أعناقهم ، ولكن عدل إلى الماضى للدلالة على تحقق الوقوع ، وهذا يؤذن ـ كما قلنا ـ بعظم الآية ، التى لو شاء الله لأنزلها عليهم ، فيكون لها ذاك الشأن .

وانظر فى قوله تعالى : **« ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين »(٦)** تجد أن الأصل : أتينا طائعين بالتثنية ، فعدل عن ذلك إلى « طائعين » جمعا سالما ، لأنه أراد : ائتيا بمن فيكما من الخلائق ، فخرجت الحال على لفظ الجمع ، وغلب من يعقل من الذكور « طائعين » للدلالة على هذا المعنى ، وهو إتيان الأرض والسماء فيهما (٧) .

وقد يغلب غير العاقل كما فى قوله تعالى : **« لله ملك السموات والأرض وما فيهن »(٨)** فقد عبر بما ، لأنها تتناول الأجناس كلها تناولا

---

(٥) الشعراء ٤
(٦) فصلت ١١
(٧) انظر البرهان ٣/٣٠٦
(٨) المائدة ١٢٠

عاما بأصل الوضع ، وأما « من » فإنها لا تتناول غير العقلاء ، ولذا أوثر التعبير بما فى الآية الكريمة ، لأنها أوفى بالدلالة على الغرض ٠

وقد يغلب العاقل كما فى قوله تعالى : « **والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع** »(٩) فقد غلب العاقل فى قوله « **فمنهم من يمشى** » لشرفه ، ولأن خلقه أدل على قدرة الله تعالى ، حيث سواه وعدله ، وكرمه بالعقل ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا (١٠) ٠

وفى قوله تعالى : « **قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا** »(١١) أعيد الضمير فى قوله « جزاؤكم » بلفظ الخطاب وإن كان قوله : « **فمن تبعك منهم** » يقتضى الغيبة ، وذلك تغليبا للمخاطب ، وجعل الغائب وهم أتباع الشيطان ، تبعا له فى العقوبة ، كما كانوا تبعا له فى المعصية ٠

وقد يغلب الأكثر على الأقل ، كما فى قوله تعالى : « **لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا** »(١٢) إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال : أو ليعودن فى ملتنا ، فعدل عن هذا الظاهر ، وأدخل شعيب ـ عليه السلام ـ فى قوله : « أو لتعودن » بحكم التغليب ، لأنه ـ عليه السلام ـ لم يكن فى ملتهم أصلا حتى يعود إليها ٠

ومنه قوله تعالى : « **فسجد الملائكة كلهم أجمعون ٠ إلا إبليس** »(١٣) حيث عد إبليس من الملائكة ، وهو من الجن ، تغليبا

---

(٩) النور ٤٥ (١٠) انظر تفسير الفخر الرازى ١٧/٢٤

(١١) الإسراء ٦٣

(١٢) الأعراف ٨٨ (١٣) ص ٧٣ ، ٧٤

لكونه جنيا واحدا فيما بينهم ، هذا على جعل الاستثناء متصلا ، وحمل الاستثناء على الاتصال هو الأصل ، أما على جعله منقطعا ، فلا تغليب فى الآية .

وفى قوله تعالى : « **ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون** »(١٤) غلب جانب الإسلام على جانب الكفر ، لأن الدرجات للعلو ، والدركات للسفل ، فاستعملت الدرجات فى القسمين تغليبا .

يقول الزمخشرى : « فإن قلت : كيف قيل : درجات وقد جاء أن الجنة درجات ، والنار دركات ؟ قلت : يجوز أن يقال ذلك على وجه التغليب ، لاشتمال « كل » على الفريقين »(١٥) .

وقد يغلب الجمع على الإفراد ، كما فى قوله تعالى : « **يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن** »(١٦) حيث غلب الجمع على الواحد ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : إذا طلقت النساء فطلقهن ، فعدل عنه إلى الجمع تغليبا ، للدلالة على أن هذا ليس خاصا بالنبى - ﷺ - بل هو حكم عام ، وتشريع للأمة .

وفى قوله تعالى : « **جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه** »(١٧) غلب العقلاء المخاطبون على الأنعام الغائبة ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : يذرؤكم ويذرؤها فيه ، فعدل إلى تغليب العقلاء المخاطبين ، لأن الغرض إظهار القدرة ، وبيان لطفه تعالى بالناس ، والمعنى : يبثكم ويكثركم فى هذا التدبير ، وهو أن جعل

---

(١٤) الأحقاف ١٩ (١٥) الكشاف ٥٢٢/٣
(١٦) الطلاق ١ (١٧) الشورى ١١

للناس أزواجا ، وللأنعام أزواجا ، حتى كان بين الذكور والإناث التوالد والتناسل .

وتأمل التعبير بالحرف « فى » فى قوله (يذرؤكم فيه) وإيثار التعبير به دون الباء ، فلم يقل : يذرؤكم به ، لأن الغرض هو جعل هذا التدبير كالمنبع والأصل للبث والتكثير ، ونظيره قوله تعالى : « **ولكم فى القصاص حياة** »(١٨) حيث دل التعبير « **بفى** » فى قوله « **فى القصاص** » على جعل القصاص كالمنبع والمصدر للحياة .

* * *

المخالفة فى صيغ الأفعال

الفعل يدل على حدث وزمن ، فالماضى يدل على وقوع الحدث فى الزمن الماضى ، والمضارع يدل على وقوعه فى الحال والاستقبال ، فهو يفيد التجدد والحدوث ، والأمر يقصد به : إنشاء الفعل وإيجاده فى المستقبل ، هذا هو الأصل ، فإن جاءت الأفعال عليه ، كان هذا المجىء على وفق ما يقتضيه الظاهر ، وإن خرجت عنه كانت خارجة على خلاف ما يقتضيه الظاهر .

وخروجها على خلاف المقتضى يكون بأن يعبر عن المضارع بلفظ الماضى، أو عن الماضى بلفظ المضارع، أو عن المصدر أو المضارع بلفظ الأمر ، أو عن المضارع باسم الفاعل أو المفعول ، إلى غير ذلك مما سيتضح لنا فى الآيات الكريمة ، ولا يكون هذا الخروج إلا لغرض يقتضيه المقام ويقصد إلى تحقيقه .

---

(١٨) البقرة ١٧٩

انظر إلى قوله تعالى : « **ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شـــاء الله ثم نفخ فيـه أخـرى فإذا هـم قيام ينظرون** »(١) تجـد أن النفخ فى الصـور لمـا يقـع ، وأنه سـيقع فى المستقبل ، ولكن النظم الكريم آثر التعبير عنه بلفظ المـاضى « نفـخ » للدلالة على تحقق وقوعه ، فهو واقع لا محالة .

وكذا القول فى الآيات الكريمة « **ويوم ينفخ فى الصـور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخـرين ... أتى أمر الله فلا تستعجلوه ... ونادى أصـحاب الأعراف رجـالا ... وأزلفت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين** »(٢) حيث عبـر عن الأفعـال التى لـم تقع بعـد ، ولكن وقوعهـا محقق ، وهى « فزع .. أتوه .. أتى .. نادى أصحاب الأعـراف .. أزلفت الجنـة .. برزت الجحيم » عبر عنها بالمـاضى ـ كما ترى ـ للدلالة على تحقق وقوعها .

ومما عبر فيه عن المـاضى بلفظ المضارع قوله تعالى : « **والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعـد موتها** »(٣) إذ الأصل : أرسل الرياح فأثارت سـحابا ، فعدل عن ذلك إلى لفظ المضارع « تثير » ليصور لك هذا الحدث واقعا مشاهدا ، لأنه من الأفعال العجيبة الدالة على القدرة الإلهية .

يقول الزمخشرى : « فإن قلت : لم جاء (فتثير) على المضارعة

---

(١) الزمر ٦٨

(٢) الآيات بالترتيب : النمل ٨٧ ، النحل ١ ، الأعراف ٤٨ ، الشعراء ٩٠ ، ٩١

(٣) فاطر ٩

دون ما قبله وما بعـده ؟ قلت : ليحكى الحـال التى تقـع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصورة البديعة ، الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب ، أو غير ذلك »(٤) .

وكذا القول فى الآيات الكريمة : « ومن يشرك بالله فكأنما خـر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سـحيق ... إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ... وداود وسليمـان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القـوم ... وسخـرنا مع داود الجبـال يسبحـن والطيـر وكنــا فاعلـين »(٥) إذ الأصل أن يعبر عن هذه الأحداث بالمـاضى فيقال : خر من السماء فخطفته الطير أو هوت به الريح ، ثم قال له كن فكان ، وداود وسليمان إذ حكما فى الحـرث ، وباسـم الفاعـل فى قـوله « يسـبحن » أى : مسـبحات .

فعدل عن هذا الأصـل إلى ما عليه النظـم الكـريم ، حيث عبر بالمضارع ليبرز هذه الأحداث العجيبة الغريبة واقعة مشـاهدة ، وكأن المخاطب يراهــا ويبصرها وهى تقع وتحدث ، لقـد استحضرها الذهن عندما عبر عنها بالمضارع ، وتمثلها واقعة أمامه ، وذلك شأن الأفعـال العجيبة البديعة ، يعبر عنها بالمضـارع لتستحضر فى الأذهان صورتها الغريبة العجيبة .

ومما عبر فيه عن اسم الفاعل بالمضارع قوله تعالى : « إنا سخرنا

---

(٤) الكشاف ٣٠١/٣

(٥) الآيات بالترتيب : الحج ٣١ ، آل عمران ٥٩ ، الأنبياء ٧٨ ، ٧٩

الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق »(٦) فإن الأصل ـ كما رأينا فى آية الأنبياء ـ إنا سخرنا الجبال معه مسبحات ، لأن التسبيح قد وقع فى زمن داود ـ عليه السلام ـ ولكن لما كان تسبيح الجبال والطير ، وتأويبهما معه من الأمور الغريبة العجيبة ، فقد آثر النظم الكريم التعبيرعن ذلك بالفعل المضارع (يسبحن) ليستحضرالذهن تسبيح الجبال والطير ، وتأويبهما مع داود ـ عليه السلام ـ فإن هذا من الأحداث العجيبة الدالة على القدرة الإلهية ..

ومثله التعبير عن جريان الريح بأمر سليمان ـ عليه السلام ـ فى قوله تعالى : « **فسخرنا له الريح عاصفة تجرى بأمره رخاء حيث أصاب** »(٧) وقوله عز وجل : « **ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين** »(٨) فإن الأصل : عاصفة جارية بأمره ، فعبر عن اسم الفاعل « جارية » بالمضارع « تجرى بأمره » وذلك لأن تحرك الريح وجريانها بأمره ، من الأمور الغريبة العجيبة الدالة على قدرة الله تعالى فى تسخيرها له ، فالتعبير عن هذا الحدث بالمضارع لكى يستحضر الذهن صورته العجيبة ، ويتمثلها واقعة حادثة مشاهدة .

وتأمل قوله تعالى : « **قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين** »(٩) تجده قد عبر عن المصدر بفعل الأمر فى قوله (**أقيموا .. وادعوه**) إذ الأصل : أمربالقسط وبإقامة وجوهكم وبدعائه مخلصين ، فخولف هذا الأصل ، وعدل إلى التعبير عنه بالأمر .

---

(٦) سورة ص : ١٨ .
(٧) سورة ص : ٣٦ .
(٨) الأنبياء ٨١
(٩) الأعراف ٢٩

والغرض من تلك المخالفة ، التنويه بشأن المأمور به لأن فيها تحريكا للذهن ، وإثارة للوجدان ، حيث لم يمض النظم الكريم على نسق واحد ، بل خالف وغاير « أمر ربى بالقسط وأقيموا » وكأنه بهذه المخالفة يلفت المخاطب ، ويحرك وجدانه ، وينبه إلى عظم هذه الأمور وأهميتها ، ووجوب تحقيقها .

ومن ذلك قوله تعالى : **«قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون »(١٠)** إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال : إنى أشهد الله وأشهدكم ، فعدل عن هذا الظاهر إلى ما عليه النظم الكريم ، ويرجع السر البلاغى فى هذا العدول إلى ما يلى :

١ - أن فى أمرهم بأن يشهدوا ببراءته من دينهم « واشهدوا أنى برىء مما تشركون » ضربا من التحدى الذى ينبىء بحقارة ما يعبدون من دون الله .

٢ - الدلالة على أن إشهاد الله تعالى على براءة هود - عليه السلام - من شركهم إشهاد صحيح ثابت ، حيث جاء خبرا محققا « إنى أشهد الله » وأما إشهادهم فليس إلا تهاونا بدينهم ، ودلالة على عدم المبالاة ، حيث جاء أمرا « واشهدوا أنى برىء مما تشركون » .

٣ - الدلالة على تعظيم شهادة الله ، وتنزيهه تعالى عن أن يقرن إشهاده عز وجل بإشهادهم ، فيما لو جرى الكلام على الأصل ، فقيل : إنى أشهد الله وأشهدكم .

---

(١٠) هود ٥٣ ، ٥٤

يقول الزمخشري : « فإن قلت : هلا قيل إنى أشهد الله وأشهدكم ؟ قلت : لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك ، إشهاد صحيح ثابت ، فى معنى تثبيت التوحيد ، وشد معاقده ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه : اشهد على أنى لا أحبك ، تهكما به واستهانة بحاله »(١١) .

وخذ قوله تعالى : « **وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون**»(١٢) تجد التعبيربالمضارع فى قوله (**أم تقولون**) وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالماضى فيقال : قل أتخذتم عند الله عهدا أم قلتم على الله ما لا تعلمون ، ولكنه عدل إلى المضارع ليكشف عن حقيقة هؤلاء اليهود ، ويبين أن افتراءهم على الله الكذب ، وقولهم عليه ما لا يعلمون ، لم ينته بعد ، بل باق يتجدد بتجددهم ، فهم مستمرون على هذه الحال الغريبة المنكرة .

وتأمل التعبير بلفظ الجلالة ، ووضعه موضع الضمير فى قوله : « **فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون** » إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال : قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف عهده أم قلتم عليه ما لا تعلمون ، ولكنه عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر لما فى التعبير بلفظ الجلالة من تربية للمهابة ، وفيه حث للمخاطبين وهم اليهود ، للإقلاع عن الكذب ، والمبادرة إلى امتثال أمر الله تعالى.

ومن ذلك قوله تعالى : « **أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم**

---

(١١) الكشاف ٢/٢٧٦ (١٢) البقرة ٨٠

استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون »(١٣) حيث عبر بالمضارع فى فى قوله « وفريقا تقتلون » وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالماضى فيقال : ففريقا كذبتم وفريقا قتلتم ، ولكنه خالف هذا الظاهر ، وخرج عما يقتضيه فعبر بالمضارع « تقتلون » .

وترجع بلاغة هذه المخالفة إلى ما يلى :

١ - الدلالة على استمرار المخاطبين وهم اليهود فى غدرهم واعتدائهم على انبياء الله بغير حق ، ولقد كانوا يحومون حول قتل محمد - ﷺ - ولكن الله عصمه ونجاه من غدرهم .

٢ - الدلالة على فظاعة هذا الأمر وهو القتل ، قتل أنبياء الله بغير حق ، فعبر عنه بالمضارع لتصويره فى القلوب ، واستحضاره فى النفوس ، وإبرازه فى الأذهان ، وكانه واقع يشاهد ، ولا يخفى علينا ما فى ذلك من التشنيع والمبالغة فى الزجر .

* * *

القصر

قال تعالى :

(إياك نعبد وإياك نستعين) **الفاتحة ٥**

(لله ملك السموات والأرض وما فيهن) **المائدة ١٢٠**

(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) **الأنعام ٥٩**

(آلم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) . البقرة ١، ٢

---

(١٣) البقرة ٨٧

(من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها)

الإسراء ١٥

(وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ٠
الا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) ٠ البقرة ١١ ، ١٢

(لا يستوى اصحاب النار واصحاب الجنة أصحاب الجنة هم
الفائزون) ٠ الحشر ٢٠

(ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت
عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت انت الرقيب عليهم وانت
على كل شيء شهيد) ٠ المائدة ١١٧

(ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه إنما انت منذر
ولكل قوم هاد) ٠ الرعد ٧

(ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك إنما يخشى الله
من عباده العلماء) ٠ فاطر ٢٨

(وإما نرينك بعض الذى نعدهم او نتوفينك فإنما عليك البلاغ
وعلينا الحساب) ٠ الرعد ٤٠

(قالوا اجئتنا لتافكنا عن آلهتنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من
الصادقين ٠ قال إنما العلم عند الله وابلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم
قوما تجهلون) الأحقاف : ٢٢ ، ٢٣ ٠

(حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا
أساطير الأولين ٠ وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم
وما يشعرون) ٠ الأنعام ٢٥ ، ٢٦

(قل لاأقول لكم عندي خزائن الله ولاأعلم الغيب ولاأقول لكم إنى

ملك إن اتبع إلا ما يوحى إلى قل هل يستوى الأعمى والبصير افلا تتفكرون) الأنعام ٥٠

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل افإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) . آل عمران ١٤٤

(ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا ياكلان الطعام ..) . المائدة ٧٥

(وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما انت بمسمع من فى القبور . إن انت إلا نذير) . فاطر ٢٢ ، ٢٣

(وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات ان لا إله إلا انت سبحانك إنى كنت من الظالمين) .

الأنبياء ٨٧

(ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

الأحزاب ٤٠

(افمن يعلم انما انزل إليك من ربك الحق كمن هو اعمى إنما يتذكر اولو الألباب) . الرعد ١٩

(ولا تزر وازرة وزر اخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب واقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى المصير) . فاطر ١٨

***

القصر - كما عرفه البلاغيون - تخصيص شىء بشىء بطريق مخصوص ، فالجملة الدالة على القصر تفيد الإثبات والنفى معا ، تفيد إثبات لشىء شىء ونفيه عن غيره ، وغالبا ما يكون الإثبات صريحا منصوصا عليه ، والنفي متضمنا ، كقولك : إنما نجح محمد ، فقد

أثبت النجاح لمحمد نصا ، ونفى عن غيره ضمنا ، وقد يكون الأمر على عكس ذلك ، فيصرح بالنفى ، ويكون الإثبات متضمنا ، كما فى قولنا : ما أنا فعلت هذا ، حيث نفى الفعل عن المسند إليه المقدم نصا ، وأثبت لغيره ضمنا ، وقد يصرح بالمثبت له والمنفى عنه معا ، كما فى القصر بطريق العطف نحو : ما قتل زيد بل عمرو .

وهذا الشىء الذى أثبت ونفى يسمى مقصورا ، وهو إما أن يكون صفة ، وإما أن يكون موصوفا ، والذى أثبت له يسمى مقصورا عليه ، وهو أيضا إما أن يكون صفة أو موصوفا ، ومن البداهة انه إذا كان المقصور صفة كان المقصور عليه موصوفا ، وإن كان المقصور موصوفا كان المقصور عليه صفة ، فالقصر باعتبار طرفيه : المقصور والمقصور عليه ، إما قصر صفة على موصوف ، أو قصر موصوف على صفة .

والشىء الذى نفى عنه المقصور قد يكون عاما ، كما فى قولنا : لا إله إلا الله ، حيث قصرت صفة الألوهية على الله تعالى ، ونفيت عن جميع ما عداه ، ويعرف هذا القصر بالقصر الحقيقى ، وقد يكون المنفى عنه خاصا ، كما فى قولنا : زهير شاعر لا زياد ، فقد أثبتت صفة الشعر لزهير ، ونفيت عن زياد ، ويعرف هذا بالقصر الإضافى .

والمنفى العام إذا كان مطابقا للواقع الخارجى كان القصر قصرا تحقيقيا ، وإذا كان مخالفا للواقع ، قائما على ادعاء المتكلم ، وعدم اعتداده بالمذكور ، كان قصرا حقيقيا ادعائيا ، أو مجازيا أو غير تحقيقى ، لبنائه على الادعاء والمبالغة .

والقصر الإضافى وهو ما كان المنفى فيه خاصا ، أى : محددا معينا ، يحتمل احتمالات ثلاثة ، لأن قولك : خالد شجاع لا عمرو ، إن وجهته الى من يعتقد أن عمرا هو الشجاع لا خالدا ، كان القصر قصر

قلب ، لأنك قلبت الحكم الذى كان يعتقده المخاطب ، وإن وجهته إلى من يعتقد أن الشجاعة مثبتة لهما معا ، كان القصر قصر إفراد ، لأنك أفردت أحدهما بالشجاعة ونفيتها عن الآخر ، وان وجهته الى من هو متردد وليس جازما بإثبات الشجاعة لأحدهما ، كان القصر قصر تعيين .

وللقصر طرق اصطلح عليها البلاغيون ، وهى : النفى والاستثناء، وانما والتقديم والعطف بلا وبل ولكن ، هذه أشهر الطرق التى اصطلح جمهور البلاغيين على دلالتها على القصر ، وأضاف بعضهم طريقين آخرين ، هما : ضمير الفصل ، وتعريف ركنى الجملة ، بحيث يكون أحدهما معرفا (بأل) التى للجنس ، وصرح السيوطى بأن طرق القصر كثيرة ، وقد بلغ جملة ما ذكره منها أربعة عشر طريقا (١) .

ولكن البلاغيين لم يلتفتوا إلا الى تلك الطرق المشار اليها ، لأنها هى الغنية بالملاحظات والاعتبارات ، التى تحتاج من الدارس الى مزيد من العناية ، كى يقف عليها ، ويكشف عما وراء التعبير بهذه الطرق فى التراكيب الجيدة من معان وأسرار .

ومما تجدر الإشارة إليه ، والتنبيه له ، تحديد موطن المقصور والمقصور عليه ، فى كل طريق من طرق القصر المشهورة ، ففى (النفى والاستثناء) المقصور عليه هو الواقع بعد أداة الاستثناء ، وفى (إنما) المقصور عليه هو المؤخر ، وفى (التقديم) المقصور عليه هو المقدم، وفى العطف (ببل ولكن) المقصور عليه هو الواقع بعد كل منهما ، وفى العطف (بلا) المقصور عليه هو المقابل لما بعدها ، وفى (ضمير

---

(١) انظر الإتقان ١٥٠/٣ .

الفصل) المقصور عليه هو المسند اليه ، وفى التعريف المقصور هو المقترن (بال) والمقصور عليه هو الخالى منها .

هذه أسس وضوابط وضعها البلاغيون ، أردت أن أشير اليها لتكون فى ذهن الدارس وهو يدرس القصر فى النظم القرآنى ، ويريد أن يقف على ما وراءه من معان جليلة وغايات يقصد الى تحقيقها ، وقد يقتضى سياق النظم الكريم مخالفة هذه الضوابط وتلك الأسس - على نحو ما سنرى - لأنها مبنية على الغالب والأكثر لا على القطع والإطلاق .

لقد كثر القصر فى النظم القرآنى ، وتنوعت طرقه ، وبين هذه الطرق فروق دقيقة ، فدلالة التقديم على القصر تختلف عن دلالة النفى والاستثناء ، ودلالة النفى والاستثناء تختلف عن دلالة إنما وهكذا ، إن وراء التعبير بكل طريق منها معانى وأغراضا يؤثر التعبير به للدلالة عليها ، وما عبر فيه بهذا الطريق لا يصلح أن يعبر فيه بذاك ، ولكى يقف الدارس على تلك الفروق ، ويتجلى له ما وراء القصر فى النظم القرآنى من معان وأغراض ، يجب عليه أن يستحضر فكره ، وأن يهيىء حواسه ويتدبر بوعى ، ليحيط بالسياق الذى ورد فيه القصر ، فعندئذ يتجلى له ما وراءه .

انظر الى التقديم فى آية الفاتحة (إياك نعبد وإياك نستعين) لقد دل على القصر ، قصر العبادة والاستعانة على الله تعالى قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا ، فى قوله (إياك نعبد) وقصرا حقيقيا غير تحقيقى فى قوله (وإياك نستعين) لأنه قد يستعان بغير الله تعالى ، وقد أقر الإسلام بعض صور الاستعانة بغير الله بين المسلمين وحث عليها ، كاستعانة الجار بجاره ، والمسلم بأخيه المسلم ، ولكن لم

يعتد بتلك الاستعانات فى الآية الكريمة ، لأن المؤمن لا يستعين فى عظائم الأمور إلا بالله تعالى ، والاستعانة بغير الله كلا استعانة .

أما العبادة فهى مقصورة على الله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا ، ومن أجل ذلك أعيد الضمير (إياك) مع طلب الاستعانة ، فلم يقل : إياك نعبد ونستعين ، للإشعار بهذا الفرق الذى بين القصرين .

وإيثار التقديم فى الآية الكريمة للدلالة على القصر ، دون غيره من الطرق الأخرى ، له مغزى ، ووراءه معنى ، يتجلى لنا عندما نتأمل السياق الكريم الذى وردت به الآية ، ونحيط به .

لقد بدأت السورة الكريمة بالحمد والثناء على الله تعالى : (الحمد لله) ثم أجريت عليه تعالى صفات الجلال تلك : (رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين) وهذه الصفات قد أخذت من المؤمن كل مأخذ ، ورقت به قربا الى الله تعالى ، وجعلته يذوب وينصهر فى بوتقة الخضوع والخشوع ، لقد غاب فى جناب ربه ، واستشعر القرب منه تعالى ، فالتفت اليه مخصا إياه بالعبادة والاستعانة ، مبتدئا بضمير الاسم الكريم (إياك) ففى الابتداء به إشعار بأنه تعالى مقدم فى الوجود ، ودلالة على أن المؤمن الذى وقف على صفات الجلال فى السورة ، وأدرك ما وراءها ، لا يملك إلا أن يبادر الى الاسم الكريم (إياك) معلنا أن تعلقه وتوجهه أولا وبالذات الى المعبود ، ومنه الى العبادة التى هى صلة سنية بينه وبين ربه عز وجل(٢) .

من أجل هذا كان إيثار التعبير بالتقديم للدلالة على القصر ، ولا

---

(٢) ارجع الى ص ٨٧ .

يتأتى فى هذا السياق التعبير بغيره من طرق القصر ، لأنه لو عبر مثلا بالنفى والاستثناء فقيل : ما نعبد إلا إياك ، لذهبت تلك المعانى التى اقتضى السياق الكريم تقديم ضمير الاسم الجليل للدلالة عليها ٠

وكذا القول فى الآية الكريمة :(**لله ملك السموات والأرض ومافيهن**)(٣) حيث قصر ملك السموات والأرض وما فيهن على كونه لله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا ، وجاء القصر بطريق التقديم ، تقديم الجار والمجرور (لله) على المسند إليه (ملك السموات والأرض وما فيهن) لأن السياق الكريم قد تناول إبطال مزاعم النصارى ، وقولهم إن المسيح ابن الله ، واتخاذهم له إلها من دون الله ، ولنقرأ : « **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ٠ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ٠٠** »(٤) ٠

فقد اقتضى هذا السياق إيثار الدلالة على القصر بطريق التقديم، ليتصدر لفظ الجلالة (لله) الجملة إيذانا بأنه الإله الحق ، الذى لا إله غيره ، فهو الأول المقدم فى الوجود ، المستحق للألوهية ، الجدير بالعبادة ، وكل ما فى السموات والأرض ملك له تبارك وتعالى ، وفى هذا دحض لمزاعم النصارى ، وإبطال لافترائهم على الله الكذب ٠

ومن ذلك قوله تعالى : « **قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ٠ بل إياه تدعون فيكشف**

---

(٣) سورة المائدة : ١٢٠ ٠

(٤) سورة المائدة : ١١٦ ، ١١٧ ٠

ما تدعون إليـه إن شـاء وتنسون ما تشـركون »(٥) ، حيث قدم ضمير الاسم الجليل فى قوله (بل إياه تدعـون) للدلالة على قصـر دعواهم عندئذ عليـه تعـالى ، فهم إذا أتاهم العذاب أو مسهم الضـر لجـأوا إليـه تعـالى بالدعاء ، ولا يدعون غيره ، فهو الذى يكشف ما يدعون إليـه إن شـاء .

الملائم فى هذا السياق أن يتقدم ضمير الاسم الجليل ، وأن تتصدر به الجمـلة ، إبرازا له ، وإشعارا بتعلق القلوب به ، وتطلعها إليه ، فى هذا المقـام مقام مس الضر ، لذا أوثر طـريق التقديم للدلالة على القصـر فى الآية الكريمة .

وخذ قوله تعالى : « **وعنده مفـاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** »(٦) تجد طريقين للقصـر ، التقديم فى قوله : (وعنده مفـاتح الغيب) والنفى والاستثناء (لا يعلمها إلا هو) والقصـر الثـانى تأكيد للأول ، وقد اقتضى السياق ذلك ، لأنه أبرز تكذيبهم النبى - ﷺ واستعجالهم العذاب الذى ينذرهم به ، وأمـر - ﷺ - أن يخبرهم بأن الحكم لله وحده ، وأنه - عليه الصـلاة والسلام - ليس عنده ما يستعجلون به ، ولو كان عنده ما يستعجلون به لقضى الأمـر بينـه وبينهم ، ولنقرأ : « **قـل إنى على بينـة من ربى وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به إن الحـكم إلا لله يقص الحـق وهو خـير الفاصلين . قـل لو أن عنـدى ما تستعجلون به لقضى الأمـر بينى وبينكم ..** »(٧) .

---

(٥) سـورة الأنعـام : ٤٠ ، ٤١ .

(٦) سـورة الأنعـام : ٥٩ .

(٧) سـورة الأنعـام : ٥٧ ، ٥٨ .

العندية هنا قد أبرزت ، فاقتضى السياق تقديمها فى قوله : (وعنده مفـاتح الغيب) للدلالة على قصـر (مفـاتح الغيب) على كونها عنده تعـالى ، أوثر طريق التقديم إبرازا للعندية التى أبرزها السياق ، ولما كان القـوم ينكرون ويجحدون ما جـاءهم - ﷺ - به ، اقتضى المقـام أن يؤكد هذا القصـر بقصـر آخـر يعبر فيـه بطريق النفى والاستثناء ، الذى يستخدم فيما ينكره المخاطب ويجحده ، فجـاء قـوله تعـالى : (لا يعلمهـا إلا هو) مؤكدا للقصـر الأول ، حيث دل على قصـر علم الغيب على الله تعـالى قصرا حقيقيا تحقيقيا .

وبهذا يتجلى لنـا أن القصـر فى النظم القـرآنى خاضع للسياق الذى يكون فيـه ، فالسياق هو الذى يقتضى استخدام هذا الطريق أو ذاك ، وهو الذى يحدد الاكتفاء فى الدلالة على القصـر بطريق واحد أو إتباعه بطريق آخـر تأكيدا وتقريرا للدلالة على القصـر .

ففى الآية الكريمة أبرز السياق وأكد ، أن العذاب الذى يستعجلون به ، تكذيبا وإنكارا وجحودا ، ليس عند النبى - ﷺ - ، بل هو عند الله تعـالى ، إذ الحكم مقصور عليـه وحده (**إن الحـكم إلا لله**) ، واقتضى ذلك أن يقصـر علم الغيب على الله تعـالى ، فأى الطرق يعبر بها للدلالة على هذا القصر ؟

لقد أكد السياق نفى أن يكون عند النبى - ﷺ - ما يستعجلون به ، فأنسب الطـرق للدلالة على قصـر علم الغيب على الله تعـالى فى هذا السيـاق هو التقديم ، أن يقدم الظـرف (عند) وهو ما جاء عليـه النظم الكريم ، حيث قال عز وجل : (وعنده مفـاتح الغيب) ثم اقتضى تكذيب الكفـار ، وجحودهم الرسـالة ، وإنكارهم ما جـاء به النبى - ﷺ - أن يؤكد هذا القصر بقصر آخـر يعبر فيه بالنفى والاستثناء ، فجاء قوله تعالى : (لايعلمها إلا هو) وأوثر فيه التعبيربالنفى والاستثناء ،

لأنه هوالطريق الذى يستخدم فى الدلالة على القصرفى مقامات التكذيب والإنكار والجحـود .

فمن الفـروق الدقيقـة بين طـرق القصـــر أن طـريق (النفى والاستثناء) يعبر به فيما ينكره المخاطب ويجحده ، أو فيما ينزل هذه المنـزلة لاعتبارات مناسبة ، وطـريق (إنمـا) يعبر به فى المعـانى الواضحة التى يعلمها المخاطب ، وليست موضـع إنكار أو جحود ، أو فيما ينزل تلك المنزلة لاعتبـار بلاغى مناسب .

ويتجلى لنـا ذلك فى هذه الآيات الكريمة : « **قـل لا أقول لكم عنـدى خـزائن الله ولا أعـلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى .. حتى إذا جـاءوك يجادلونك يقول الذين كفـروا إن هذا إلا أسـاطير الأولين وهم ينهون عنـه وينأون عنـه وإن يهلكون إلا أنفسهم ... من اهتدى فإنما يهتدى لنفسـه ومن ضـل فإنمـا يضـل عليهـا ... إنما أنت منذر ولكل قـوم هاد** »(٨) ، حيث عبر بالنفى والاستثناء فى المعانى التى ينكرها المخاطب ويجحدها ، فالكفار ينكرون اتبـاعه - ﷺ - وحيا يوحى إليـه ، ويزعمون أن ما جاء به أساطير الأولين « **وقالوا أسـاطير الأولـين اكتتبهـا فهى تمـلى عليـه بكـرة وأصيلا** »(٩) ، ولذا أوثر التعبير بالنفى والاستثناء فى قوله : (**إن أتبـع إلا ما يوحى إلى**) للدلالة على قصـر اتباعه - ﷺ - على الذى يوحى إليه من ربه ، ردعا لهم ، ودفعا لإنكارهم .

والرسول - ﷺ - ينكر أن يكون ما جاءه من عند الله تعالى أساطير الأولين ، ولذا جاء قوله : (**إن هـذا إلا أسـاطير الأولـين**) بالنفى

---

(٨) الآيات بالترتيب : الأنعام ٥٠،٢٥،٢٦، الإسراء ١٥ ، الرعد ٧ .

(٩) سـورة الفـرقان : ٥ .

والاستثناء ، دالا على قصرهم ما جاء به - ﷺ - على كونه أساطير الأولين ، ردا لإنكاره - ﷺ - ذلك ودفعا له ، قاتلهم الله أنى يؤفكون .

والكفرة المعاندون ، الذين أعرضوا عن الحق ، وانغمسوا فى الكفر والضلال يعتقدون أنهم بهذا الصنيع يهلكون الرسالة وصاحبها ، وينكرون أنهم يهلكون أنفسهم ، فجاء القصر (وإن يهلكون إلا أنفسهم) بالنفى والاستثناء ، للدلالة على قصر الإهلاك على أنفسهم ، دفعا لإنكارهم وإبطالا لما يعتقدون .

ولما كان من الواضح البين أن من اهتدى ينال ثواب هدايته ، وأن من ضل يرجع إليه إثم ضلاله ، لا أحد ينكر ذلك ولا يرتاب فيه ، فقد جاء القصر بإنما فى قوله : (**من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها**) لأن هذا من المعانى الواضحة الجلية التى لا يتأتى فيها الإنكار .

وكذا قوله تعالى : (**إنما أنت منذر**) فالنبى - ﷺ - يعلم أنه منذر ، لا ينكر ذلك ، ولا يعتقد غيره ، ولذا جاء قصره (بإنما) على صفة الإنذار .

ومن المعانى التنزيلية التى جاء فيها القصر قوله تعالى : « **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** »(١٠) ، فقد جاء النفى والاستثناء فى الآية الكريمة للدلالة على قصر محمد - ﷺ - على كونه رسولا يخلو كما خلت الرسل من قبله ، فهو لا يجمع بين الرسالة والتبرى من الهلاك ، والمخاطبون وهم الصحابة - رضوان الله عليهم - لا ينكرون ذلك ، ولكن

---

(١٠) سورة آل عمران : ١٤٤ .

لشدة حبهم للنبى - ﷺ - وتعلقهم به ، واستعظامهم موته ، نزلوا منزلة من يعتقد أنه رسول مخلد ، لا يخلو كما خلت الرسل من قبله ، وينكر أنه رسول يخلو ، هم نزلوا - لشدة حبهم له - منزلة من يعتقد أنه يجمع بين الرسالة والتبرى من الهلاك ، فجاء القصر بالنفى والاستثناء دالا على قصره - ﷺ - على صفة الرسالة ، لا يتجاوزها إلى التبرى من الهلاك ، فهو قصر إفراد ، إذ اعتقد الصحابة تنزيلا أنه يجمع بين الصفتين ، فقصر - ﷺ - على إحداهما .

ووراء الدلالة على القصر بالنفى والاستثناء فى الآية الكريمة معان جليلة ، حيث تلفت وتنبه إلى بشرية محمد - ﷺ - وكأنهم عندما استعظموا موته قد جهلوا فى دينهم أمرا جللا ، إن محمدا رسول يجرى عليه ما جرى على الرسل من قبله ، وينبغى عليهم أن يظلوا بعد مماته على المنهج الذى أقامه لهم ، وأن يتمسكوا به ، وأن يجتهدوا فى نشر دعوته وتبليغ رسالته ، فلا ينقلبوا بعد موته على الأعقاب ، ولذا جاء عقب القصر هذا الاستفهام الإنكارى (**أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**) ؟

لقد زلزلوا زلزالا شديدا ، ودب الضعف فى قلوب كثير منهم عندما صاح ابن قميئة الحارثى قائلا : قد قتلت محمدا - ﷺ - ورعبت قلوبهم ، فولوا مدبرين ، وثبت بعضهم كانس بن النضر الذى قال : يا قوم إن كان قتل محمد ، فإن رب محمد حى لا يموت ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله - ﷺ فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا كراما على ما مات عليه(١١) .

(١١) انظر تفسير أبى السعود ٢/٩٣ .

نزلت هذه الآية الكريمة تعنف المسلمين لما كان منهم ، وتلفتهم إلى بشرية الرسول - ﷺ - وتنبههم إلى وجوب المضى على نهجه ، وإقامة شرعه فى حياته ومن بعد مماته ، وعلى الرغم مما جاء فى هذه الآية الكريمة من تنبيه وتعنيف ، فقد غفل عنه الناس عندما مات رسول الله - ﷺ - فزلزلوا وضجوا ، ولم ينتبهوا لما جاء فى الآية ، ولم تخطر ببالهم .

يقول عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - : « فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها » ...

ويقول عمر - رضى الله عنه - : « والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعرفت حتى ما تقلنى رجلاى ، وحتى هويت إلى الأرض »(١٢)

وهذا يدل - كما قلنا - على شدة حبهم للرسول - ﷺ - وتعلقهم به ، واستعظامهم موته ، والذى من أجله نزلوا منزلة من ينكر موته ، ويعتقد أنه - ﷺ - يجمع بين الرسالة والتبرى من الهلاك ، فكان القصر بالنفى والاستثناء وهو قصر إفراد كما أوضحنا ، يدل على قصره - ﷺ - على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى التبرى من الهلاك .

ونقرأ قوله تعالى : **« ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل »**(١٣) ، فنجد السياق يقضى بأن القصر فى الآية قصر قلب ، لأن المخاطبين وهم النصارى قد أنكروا أن يكون عيسى - عليه السلام - رسولا ، وجعلوه إلها ، فقالوا : إن الله ثالث ثلاثة ،

---

(١٢) انظر تفسير ابن كثير ١/٤٠٩ .

(١٣) سورة المائدة : ٧٥ .

ولننظـر فى سياق الآية الكريمة : « **لقد كفـر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسون الذين كفروا منهم عذاب اليم • أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفـور رحيم • ما المسيح ابن مـريم إلا رسول قد خلت من قبـله الرسـل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعـام** »(١٤) ، إنهم اعتقدوا أن عيسى ـ عليـه السلام ـ إله ، وهم بهذا قد كفـروا ، وقد توعدهم الله ـ عـز وجل ، بالعذاب الأليم ـ إن لم ينتهوا عما يقولون ، ويتوبوا إلى الله تعـالى ويستغفـروه •

ثم يأتى بعـد ذلك القصـر بالنفى والاستثناء ، فيـدل على أنه ـ عليه السـلام ـ مقصـور على كونه رسولا ، يخلو كما خلت الرسـل من قبـله ، لا يتجاوز تلك الصفة إلى كونه إلهـا ، كما اعتقدوا ، فالقصر قصـر قلب ، وينبـه النظم الكريم على بشـريته ـ عليه السـلام ـ بتلك الكناية الموحية (كانا يأكلان الطعـام) •

وبإنعام النظـر فى سياق القصرين ، قصـر محـمـد ـ ﷺ ـ على كونه رسـولا يخلو كما خلت الرسـل من قبـله ، وقصر عيسى ـ عليـه السلام ـ على كونه كذلك ، يتجلى لنـا أن سياق القصـر الأول حث للمؤمنين على المضى على المنهج ، وتحذيرهم من الارتداد بعد حيـاة الرسول ـ ﷺ ـ ولذا نرى المولى ـ عـز وجل ـ مقبلا عليهم بالخطاب : **(أم حسبتم أن تدخلوا الجنـة ولمـا يعلم الله الذين جـاهدوا منكم •• كنتم تمنـون المـوت من قبـل أن تلقوه •• أفإن مات أو قتـل انقلبتم على أعقـابكم ••)** ، وأما سـياق القصـر الثـانى فهو وعيد شـديد

---

(١٤) سـورة المـائدة : ٧٣ ـ ٧٥ •

للنصارى الذين جعلوا عيسى - عليه السلام - إلها ، لقد صرح النظم الكريم بكفرهم (**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ..**) وتوعدهم بالعذاب الأليم ، والتفت عنهم فكانوا غائبين ، لأنهم بما صنعوا لم يعودوا أهلا للخطاب .

ونعود إلى المعانى التنزيلية فننظر فى قوله تعالى : (**وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور . إن أنت إلا نذير**)(١٥) حيث قصر - ﷺ - على صفة الإنذار لا يتجاوزها إلى صفة الهداية ، فهو قصر إفراد ، وقد جاء بطريق النفى والاستثناء والرسول - ﷺ - يعلم ذلك ، لا ينكره ولا يجهله ، تنزيلا له منزلة من يعتقد أنه يجمع بين صفتى الإنذار والهداية ، وذلك لشدة حرصه - ﷺ - على هداية قومه ، وإلحاحه فى دعوتهم ، وتفانيه فى تبليغ رسالة ربه .

وفى هذا القصر تصوير لحرص النبى - ﷺ - على هداية القوم، حيث تفانى فى دعوتهم ، وألح إلحاحا فى توجيههم وإنذارهم ، كما أن فيه تسلية له وتسرية عنه ، حيث قوبل هذا الحرص الشديد منه على هدايتهم ، بالإعراض عنه ، والرفض لدعوته ، فهم كالأموات فى قبورهم ، وأنى لميت أن يسمع ويستجيب « **إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور**) ، فالقصر قد دل على أنه - ﷺ - لا يملك إلا الإنذار والتبليغ ، فتلك مهمته التى كلف بها ، أن يبلغ وينذر ، أما الهداية فليست له ، لأنها من الله « **إنك لا تهدى من أحببت**

---

(١٥) سورة فاطر : ٢٢ ، ٢٣ .

ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين »(١٦) فإن أعرضوا عنك وكذبوك فلا تحزن ، لأنك لا تملك تحويل قلوبهم .

وانظر فى قوله تعالى : **« قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده »**(١٧) تجد فى هذا الحوار الذى دار بين الرسل والكفرة قصرين : (إن أنتم إلا بشر مثلنا .. إن نحن إلا بشر مثلكم) وقد أوثر التعبير بالنفى والاستثناء للدلالة على القصر فى الموضعين ، مع أن المعنى واضح وليس منكرا ، فالرسل يعلمون أنهم بشر ، لا ينكرون ذلك ولا يدفعونه ، وكذلك الكفار يعلمون بشرية الرسل ، وقد أنكروا رسالتهم وجحدوها من أجل ذلك .

إن الأمر يرجع إلى اعتقاد الكفرة الفاسد ، حيث اعتقدوا أن الرسول لا يكون بشرا ، وأن أولئك الرسل بادعائهم الرسالة وهم بشر قد أنكروا بشريتهم ، واعتقدوا أنهم رسل ، فجاء القصر بالنفى والاستثناء من أجل هذا ، وهو قصر قلب ، حيث قلب ما اعتقده الرسل ، فقد اعتقدوا أنهم رسل والرسالة لا تجتمع والبشرية - فى زعم الكفرة - ولذا جاء القصر قلبا لاعتقاد الرسل ، ودالا على قصرهم على البشرية لا يتجاوزونها إلى الرسالة التى اعتقدوها ..

أما قول الرسل لهم : **(إن نحن إلا بشر مثلكم)** فمن باب

---

(١٦) سورة القصص : ٥٦ .

(١٧) سورة إبراهيم : ١٠ ، ١١ .

مجاراة الخصم ، لاستمالته وإلزامه الحجة ، لأن من عادة من ادعى عليه خصمه خلافا فى أمر لا يخالف فيه ، أن يعيد كلامه على وجهه بلفظه ومعناه استمالة للخصم ودلالة على أن ما ذكره غير ملزم ، فكأن الرسل - عليهم السلام - قالوا : إن ما قلتم نقره ولا ننكره ، فنحن بشر مثلكم ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون الله قد من علينا بالرسالة ، فالله يمن على من يشاء من عباده .

سلم الرسل بتلك المقدمة (**إن نحن إلا بشر مثلكم**) بألفاظها ومعناها ، وفى هذا ما يؤنس الكفرة ، ويستميل نفوسهم نحو الهدى ، ولكنه لا يستلزم مقصودهم ، وهو أن الإنسان لا يرقى إلى أهلية الرسالة ، إذ لا منافاة عند العقول السليمة ، والاعتقادات الصحيحة ، بين الرسالة والبشرية ، فليس هنالك مايمنع من أن يرقى الإنسان ويسمو ، فيصير أهلا للرسالة وتلقى الوحى .

وخذ قوله تعالى : « **قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون** »(١٨) تجد أن القوم يكفرون بالله ، ومصرون على عبادة الأصنام ، ويستعجلون العذاب الذى أنذرهم به هود - عليه السلام - ولكن النظم الكريم آثر التعبير (بإنما) للدلالة على قصر العلم بمجىء العذاب على كونه عند الله تعالى ، وذلك للإشعار بأن هذا من الأمور المعلومة الواضحة ، التى لا ينكرها منكر ، ولا يرتاب فيها أحد ، فقد نزل الكفرة المنكرون منزلة من يعلم ولا ينكر ،

---

(١٨) سورة الأحقاف : ٢٢ ، ٢٣ .

لوضوح الأمر وجلائه ، وفى هذا من التوبيخ والتبكيت لهم ما لا يخفى، إذ انكروا أمـرا بينـا لا يجهل ولا ينكر .

ومن ذلك قوله تعـالى : « **وإذا قيـل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . الا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون**»(١٩) حيث قصـر المنافقون أنفسهم على صفة الإصـلاح المحض الذى لا يشوبه شيء من وجـوه الفساد ، فهو قصـر إفـراد ، لأنهم لمـا نهوا عن الإفساد فى الأرض وتوهموا أنهم قد حكم عليهم بخلطهم الإصلاح بالإفسـاد ، أجابوا بأنهم مقصورون على محض الإصلاح الذي لا يشوبه شيء من وجـوه الإفسـاد .

وقد أوثر التعبير (بإنما) للدلالة على القصـر ، تنزيلا لهـذا الخبر المنـكر منزلة الأمـر المعـلوم الظـاهر ، فهم يدعون أن كونهم مصلحين أمر ظاهر بين ، ينبغى الا يجهله أحد ، والا ينكره منكـر ، لأنه من الوضوح بمكان .

ولذا جاء الرد عليهم (**الا إنهم هم المفسـدون ولكن لا يشعـرون**) مبطلا دعواهم بأبلغ وجـه وآكده ، حيث بدأ (بألا) الاستفتاحية التى تفيد التنبيـه وتهيئة الأذهان لمـا يلقى بعدها ، فهى لا تستخدم إلا فى الأمـور المهمة ، التى تحتاج إلى تهيئـة وتنبيـه ، ثم جيء بالقصـر (إنهم هم المفسدون) الذى دل على قصـرهم على صفة الإفسـاد قصر قلب لمـا ادعـوه من اختصاصهم بالإصـلاح دون الإفسـاد ، وقد اكد هذا القصـر (بإن) ثم جاء الاستدراك (ولكن لا يشعرون) فدل على

---

(١٩) سـورة البقـرة : ١١ ، ١٢ .

أن خفـاء تلك الحقيقة عليهم ، مـرده إلى فقدانهم الشعور ، فهم قوم لا يشعرون ، ولو كان عندهم قدر من شعور لأدركوا حقيقـة ما هم فيه من إفسـاد ، ولأقلعوا عنـه .

والقصـر فى قوله (إنهم هم المفسدون) طريقه تعريف الطرفين، وأحدهما معـرف (بأل) التى للجنس ، وضمير الفصـل (هم) مؤكد للدلالة على القصـر ، وقد اقتضى السياق أن يكون هذا القصـر قصـرا للموصوف وهم المنافقون ، على صفة الإفساد ، وما قـرره البلاغيون عند الدلالة على القصـر بهذا الطـريق ، أن المقصـور عليه هو الخالى من (أل) والمقصور هو المعـرف بها .

ففى قوله تعـالى : « **الـم . ذلك الكتـاب لا ريب فيـه هـدى للمتقين** »(٢٠) قصـر الكتاب على اسم الإشـارة (ذلك) المشـار به إلى القـرآن قصـرا حقيقيا تحقيقيا ، والمعنى : ذلك هو الكتاب الكامل، فصفة الكمال مقصـورة على القـرآن لا تتعداه إلى غيره ، وهذا لا يقدح فى كتب الله الأخرى ، فيقال : إنها لم تبلغ الكمال .. لأن عدم بلوغها إياه إنما هو بالنسبة للقـرآن ، فما عداه من كتب الله فى مقـابلته لم يبلـغ ما بلغـه .

يقول الزمخشرى : « ومعناه أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل ، كان ما عداه من الكتب فى مقابلته ناقص ، وأنه الذى يستأهل أن يسمى كتابا ، كما تقول هو الرجـل ، أى : الكامل فى الرجولية ، الجامع لمـا يكون فى الرجال من مرضيات الخصال »(٢١) .

وطـريق القصـر ـ كا هو واضح ـ تعريف الطرفين ، واحدهما

---

(٢٠) سـورة البقـرة : الآيتان الأولى والثانية .

(٢١) الكشاف ١/١١١ ، ١١٢ .

وهو المسند (الكتاب) معرف (بأل) التى للجنس ، وهو المقصور ، والمسند إليه الخالى من (أل) هو المقصور عليه .

والدلالة على القصر بهذا الطريق تتولد من شىء خفى لطيف ، وليست دلالة لغوية ، وذلك أن التعريف باللام يفيد الجنسية ، فقولنا : الشجاع يفيد جنس الشجاع ، ولذا اتسعت الكلمة (بأل) فاستغرقت الأفراد فردا فردا ، ولما كانت هذه الأداة (أل) تحمل هذا المعنى ، وتفرغ على الكلمة هذا العموم الواسع ، كان إسناد ما عرف بها فى نحو : زيد الشجاع دالا على أن زيدا هو كل شجاع ، وأن من عداه ليس من الشجاعة فى شىء ، وذاك هو معنى القصر (٢٢) .

وتأمل الآيات الكريمة : « **لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون .. فلما توفيتنى كنت أنا الرقيب عليهم .. إن الله هو الرزاق ..** »(٢٣) تجد الدلالة على القصر فى كل آية منها ، حيث عرف المسند (بأل) التى للجنس ، فدل ذلك على قصر الفوز على أصحاب الجنة ونفيه عن أصحاب النار ، وهذا بيان لنفى الاستواء المصرح به فى أول الآية الكريمة .

والله عز وجل كان ولم يزل رقيبا عليهم فى جميع الأحوال والأزمان ، ولكن بتوفيته عيسى ـ عليه السلام ـ وقد كان شهيدا عليهم ، يراقبهم ويأمرهم بعبادة الله تعالى ، لم يبق لهم رقيب إلا الله تعالى ، ولذا حسن القصر فى قوله : (**فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم**) .

كما قصر جنس الرزق على الله تعالى فى قوله : (**إن الله هو**

---

(٢٢) انظر دلالات التراكيب ٨٥ ، ٨٦ .

(٢٣) الآيات بالترتيب : الحشر :٢٠ ، المائدة : ١١٧ ، الذاريات : ٥٨

الرزاق) وواضح أن طريق القصر فى الآيات الكريمة تعريف المسند (بال) التى للجنس وأن ضمير الفصل مؤكد للدلالة على القصر ، وان المقصور عليه هو الخالى من (ال) والمقصور هو المقترن بها ، حيث دل الإسناد على قصر الجنس الذى تحمله (ال) وتفرغه فى الكلمة المقترنة بها على الطرف الآخر الخالى من (ال) هذا هو الأصل فى دلالة هذا الطريق على القصر .

وقد يخالف هذا الأصل فيكون المقصور عليه هو المقترن (بال) إذا ما اقتضى السياق ذلك ، على نحو ما رأينا فى الآية الكريمة : (الا إنهم هم المفسدون) إذ اقتضى ما جاء فى سياق الآية قبل ذلك من قصرهم انفسهم على صفة الإصلاح قصر إفراد (إنما نحن مصلحون) ان يرد هذا الحكم ويقلب ، وأن يثبت لهم عكس ما زعموه، فكان قوله تعالى : (الا إنهم هم المفسدون) دالا على قصرهم على صفة الإفساد قصر قلب .

وكذا القول فى الآية الكريمة : **« وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا انؤمن كما آمن السفهاء الا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون »**(٢٤) حيث ادعوا أن المؤمنين سفهاء ، فرد ذلك عليهم ، وجاء قوله تعالى : (الا إنهم هم السفهاء) دالا على قصرهم على السفاهة .

يقول السيد الشريف مبينا وجه المبالغة فى قوله تعالى : (الا إنهم هم المفسدون) : (وأما وجه المبالغة فى تعريف الخبر وتوسيط الفصل فقد قيل : الأول يفيد حصرالمسند إليه على المسند، والثانى يفيد تأكيد هذا الحصر، وهذا وإن كان مناسبا لرد دعواهم الكاذبة، فإنهم لما قصروا انفسهم علىالإصلاح قصرإفراد، ناسب فىردهم أن يقصروا علىالإفسادقصر

---

(٢٤) سورة البقرة آية : ١٣

قلب ، أى : هم مقصورون على الإفساد لاحظ لهم فى الإصلاح ، لكن يرد عليه أن تعريف الخبر بلام الجنس يفيد حصره فى المبتدأ ، كما هو المذكور فى المفتاح والمشهور فى الاستعمال ، وأن ضمير الفصل يفيد هذا الحصر أيضا أو يؤكده)(٢٥) .

إن السيد الشريف الجرجانى يثير هنا قضية تعارض الضوابط البلاغية مع دلالات التراكيب فى النصوص الجيدة ، فيشير إلى أن المناسب لرد دعواهم الكاذبة فى الآية الكريمة ، أن يقصروا على صفة الإفساد ، هذا ما يقتضيه السياق ، ولكنه يتعارض مع المذكور فى مفتاح العلوم للسكاكى ، ومع المشهور فى الاستعمال ، إن التناسب بين معانى السياق فى النظم الكريم يتناقض مع ماذكر فى المفتاح واشتهر فى الاستعمال ، فماذا نصنع ؟

الرأى عندى : أن ما يعتد به هو السياق ، ومراعاة التناسب بين معانيه ، وإن أدى ذلك إلى انخرام الضوابط البلاغية ومخالفة ما ذكر فى المفتاح واشتهر فى الاستعمال ، لأن هذه الضوابط مبنية على الأكثر والغالب لا على القطع والإطلاق .

فنحن نعلم أن طريق (النفى والاستثناء) يعبر به فى المعانى التى يجهلها المخاطب وينكرها ، أو فيما ينزل تلك المنزلة ، وقد تجلى لنا ذلك فى آيات كثيرة ، ولكنا نجد هذا الطريق قد يعبر به للدلالة على القصر فيما لا يتصور فيه إنكار مخاطب أو تنزيله منزلة المنكر .

من ذلك قوله تعالى : (**ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم**)(٢٦) حيث قصر الذى قاله لهم على ما أمره الله تعالى به ، وطريق القصر النفى والاستثناء ، ولا يتأتى هنا تصور حال

---

(٢٥) حاشية السيد على الكشاف ١/١٨١

(٢٦) سورة المائدة آية : ١١٧

للمخاطب ، لأن عيسى - عليه السلام - يخاطب رب العزة ، وقد ألقى الخبر مؤكدا لأنه بصدد الإجابة على أمر عجيب ، ودعوى غريبة ، وهى اتخاذه وأمه إلهين من دون الله وهل قال ذلك للناس ؟ إنها دعوى غريبة تقتضى التوكيد دفعا لتلك الغرابة ، ومن أجل ذلك جاء القصر بالنفى والاستثناء ، ولا يمكن - كما قلت - تصور إنكار مخاطب ، أو تنزيل منزلة الإنكار .

وكذا نقول فى الآية الكريمة : (**وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين**)(٢٧) حيث قصرت صفة الألوهية على الله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا بالنفى والاستثناء ، ولا يتأتى تصور مخاطب منكر أو منزل منزلة المنكر ، كيف ويونس - عليه السلام - يضرع إلى الله بهذا التهليل ، إن مرجع التوكيد إلى أن يونس - عليه السلام - قد امتلأت نفسه بالخبر ، واستقر فى وجدانه ، ففاض به مؤكدا كما استقر بداخله .

وعندما يلتقى طريقان من طرق القصر ، فإن اتحدت دلالتهما كان أحدهما مؤكدا للآخر ، كما رأينا فى الآيات الكريمة التى اجتمع فيها ضمير الفصل وتعريف المسند (بأل) التى للجنس ، وإن اختلفت دلالتهما وجب إلغاء أحدهما وبقاء الآخر ، والذى يبقى دالا على القصر هو ما يقضى به السياق .

انظر إلى قوله تعالى : (**وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب**)(٢٨) فقد اجتمعت (إنما) والتقديم فى جملة واحدة (إنما عليك البلاغ) وتناقضت دلالتهما على القصر ، لأن المقصور عليه (بإنما) هو المؤخر ، والمقصور عليه فى

---

(٢٧) سورة الأنبياء آية : ٨٧

(٢٨) سورة الرعد آية : ٤٠

التقديم هو المقدم ، عندئذ ننظر فى السياق فنجده يقتضى أن يكون المقصور (عليك) والمقصور عليه (البلاغ) إذ المراد قصر مهمته - ﷺ - على البلاغ لا تتجاوزه إلى غيره ، وهذا معناه أن الدال على القصر (إنما) وأن التقديم لمجرد التوكيد وتقوية الحكم .

وقد تلغى (إنما) كما فى قول المتنبى يمدح عضد الدولة ، وقد عدد أسماء آبائه :

أساميا لم تزده معرفة
وإنما لذة ذكرناها

لقد أدرك المتنبى أن تعداد أسماء الآباء عند المدح لا يكون إلا عند إرادة التعريف بشخص قاصر الذكر ، قليل الشهرة ، فتدارك بهذا البيت معللا أنه ما ذكر آباء عضد الدولة إلا تلذذا بذكر أسمائهم ، فالذكر مقصور على اللذة ، و (إنما) ملغاة .

وفى قوله - ﷺ - : (إنما ياكل آل محمد من هذا المال ، ليس لهم فيه إلا المآكل) تتناقض دلالتا (إنما) و (النفى والاستثناء) إذ تدل (إنما) على قصر أكل آل محمد على كونه من هذا المال ، ويدل (النفى والاستثناء) على قصر ما لآل محمد فى هذا المال على المآكل ، وواضح أن المعنى يرفض دلالة (إنما) ويوجب دلالة (النفى والاستثناء) .

وبهذا يتجلى لنا أن السياق هو الذى يعتد به ويعول عليه ، وأنه لا ينظر إلى الضوابط البلاغية ، ولا يلتفت إليها عند تعارضها مع ما يقتضيه السياق ، لأنها مبنية على الأكثر والغالب ، لا على القطع والإطلاق .

عرفنا أن القصر الحقيقى التحقيقى هو ما كان المنفى العام فيه مطابقا للواقع الخارجى ، وقد مرت بنا شواهد كثيرة له ، فعد إليها ،

وعرفنا أيضا أن القصر الحقيقى غير التحقيقى هو ما كان المنفى العام فيه غير مطابق للواقع الخارجى ، فهو قائم على المبالغة والادعاء .

انظر إلى قوله تعالى : **(ومن الناس والدواب والأنعام مختلف الوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء)** (٢٩) حيث قصرت خشية الله تعالى على العلماء قصرا حقيقا غير تحقيقى ، لأن غير العالم يخشى الله ، بل قد يوجد غير عالم يكون أشد خشية لله من العالم ، ولكن السياق فى النظم القرآنى قد نوه بشأن العلماء ، وأشاد بمنزلتهم، وحث على النظر والتأمل، ولنقرأ سياق الآية الكريمة : **(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء)** (٣٠) فخشية غير العالم لا يعتد بها فى مثل هذا السياق الذى يحث على النظر ، وتدبر آيات الله ، وعظيم صنعه ، وبديع خلقه ، ولذا قصرت الخشية على العلماء قصرا حقيقيا غير تحقيقى .

ومثله قوله تعالى : (قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى) (٣١) حيث قصرت الملكية على نفسه وأخيه ، ونفيت عن كل من عداهما قصرا حقيقيا غير تحقيقى ، لأن السياق يدل على أنه كان هناك رجلان أنعم الله عليهما ، ولكن موسى ـ عليه السلام ـ لم يعتد بهما نظرا لتقلب قومه ، وتغير أحوالهم .

وفى قوله تعالى : (وأن إلى ربك المنتهى . وانه هو أضحك

---

(٢٩) سورة فاطر آية : ٢٨
(٣٠) سورة فاطر : الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .
(٣١) سورة المائدة آية : ٢٥

وابكى • وانه هو أمات واحيا • وانه خلق الزوجين الذكر والأنثى • من نطفة إذا تمنى • وان عليه النشاة الأخرى • وانه هو اغنى واقنى وانه هو رب الشعرى • وانه أهلك عادا الأولى • وثمود فما ابقى)(٣٢) •

جاء القصر فى المعانى التى أنكرها المشركون وجحدوها ، وفى الأفعال التى ادعوا نسبتها إلى غير الله تعالى ، وقد جاء بالتقديم فى قوله : (**وان إلى ربك المنتهى ••• وان عليه النشاة الأخرى**) حيث قصرت النشاة الأخرى عليه تعالى ، وقصر الانتهاء على كونه إلى ربك ، والمشركون قد انكروا ذلك ، أنكروا البعث ، وأنكروا الرجوع إليه تبارك وتعالى •

وجاء بضمير الفصل فى قوله : (**وانه هو اضحك وابكى وانه هو أمات واحيا ••• وانه هو اغنى واقنى وانه هو رب الشعرى**) وتلك الأفعال قد ادعى المشركون نسبتها إلى غير الله ، وعبد بعضهم الشعرى من دون الله ، فجاء قصرها بضمير الفصل عليه تعالى ، والقصر فى جميع تلك المواطن قصر حقيقى تحقيقى •

أما الأفعال التى لم يدع نسبتها إلى غير الله تعالى ، وهى (خلق الزوجين ••• أهلك عادا الأولى وثمود) فقد جاءت مثبتة له تعالى بلا قصر ، لأنه ليس هنالك ما يقتضى قصرها عليه - عز وجل - حيث لم ينكر إثباتها له أحد ، ولم يدع نسبتها إلى غيره - تعالى - مدع(٣٣)

ومن طرق القصر العطف (بلا وبل ولكن) وقد جاء منه فى النظم الكريم قوله تعالى : (**ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن**

---

(٣٢) النجم ٤٢ - ٥١

(٣٣) انظر الإتقان ١٥٣/٣

رسـول الله وخـاتم النبيين) (٣٤) حيث قصـر محمد - ﷺ - على كونه رسـول الله وخاتـم النبيين ، لا يتجـاوز ذلك إلى أبوة أحـد من الرجال ، وقد جـاء القصر بطريق العطف ، لأنه أقوى طرق القصر ، إذ يصرح فيـه بالطرفين المثبت والمنفى معا ، والأمر يحتاج إلى هـذا التوكيد ، لأنه يتعلق بقضية التبنى ، وكانت عـادة العـرب معـاملة الابن المتبنى معـاملة الابن من الصلب ، فحرم الإسـلام ذلك ، وأمـر أن يدعى المتبنى لأبيه ، قال تعالى : (**ادعوهم لآبائهم هو أقسط عنـد الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم)** (٣٥) .

وقد جاء التحريم ممثلا فى زواج النبى - ﷺ - من زينب بنت جحش ، بعد أن قضى زيد منها وطـرا ، وزيد هو زيد بن حارثة مولى النبى - ﷺ - وكان هـذا الزواج تشريعا للأمة .

لقد كان - ﷺ - يدرك مدى تأصل تلك العادة فى نفوس الناس ، فكان يقـول لزيد (أمسـك عليك زوجك واتق الله) وقد عاتبـه ربه عز وجل حيث قال : « **وإذ تقـول للذى أنعم الله عليـه وأنعمت عليـه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسـك ما الله مبديه وتخشى النـاس والله أحـق أن تخشـاه »** (٣٦) .

لمـا كان الأمـر على هـذه الدرجـة من الأهميـة فقد جاء تقرير هـذه الحقيقة بطريق العطف الذى هو أقوى طـرق القصر ليؤكـد فى النفوس أن محمدا - ﷺ - رسـول الله وخاتم النبيين ، لا يتجاوز ذلك إلى أبوة أحـد من الرجـال على جهة الحقيقة ، حتى يثبت بينه وبينه

---

(٣٤) الأحزاب ٤٠
(٣٥) الأحزاب ٥
(٣٦) الأحزاب ٣٧

ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ، ولكنه - ﷺ - أبو أمته جميعا فيما يجب له من التعظيم والتوقير ، وأزواجه أمهاتهم ، فيما يجب لهن من التقدير والتعظيم ، وتحريم نكاحهن من بعده ، وهو - ﷺ - أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وحكم زيد بن حارثة حكم الواحد من الأمة فى ذلك ، فليس هنالك ما يثير العجب ، ويدعو للغرابة ، عندما يتزوج - ﷺ - من زينب بنت جحش مطلقة زيد(٣٧).

ومنه قوله عز وجل : (**فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**)(٣٨) حيث قصر العذاب النازل بهم (ليظلمهم) على ما ارتكبوا ، ونفى عن الله عز وجل ، فالعذاب الذى أخذهم به الله تعالى ، سببه ما ارتكبوا من الذنوب والمعاصى والبغى والطغيان ، هم الذين ظلموا أنفسهم ، وأوردوها موارد الهلاك ، وما ربك بظلام للعبيد .

وقد جاء القصر بطريق العطف تأكيدا لهذه الحقيقة ، وكشفا لعاقبة البغى والطغيان ، والانغماس فى الكفر والضلال ، وحثا على امتثال أمر الله واتباع الصراط المستقيم ، والبعد عن سبل الضلال والغواية ، ففى ذلك الفوز والنجاة .

ولما كانت (إنما) تستعمل فى المعانى الواضحة الجلية التى لا يجهلها أحد ، ولا ينكرها منكر ، فقد حسن مجيئها فى التعريض والتلويح(٣٩) .

---

(٣٧) انظر الكشاف ٣/٢٦٤

(٣٨) العنكبوت ٤٠

(٣٩) التعريض : معنى يفهم من عرض الكلام وجانبه ، ويستشف من أطراف المعانى المباشرة ، بمعرفة السياق وقرائن أحواله ، وليس =

انظر فى قوله تعالى : (**افمن يعلم انما انزل إليك من ربك الحق كمن هو اعمى إنما يتذكر اولو الالباب**)(٤٠) فالمعنى الظاهر الذى دلت عليه (إنما) هو قصر التذكر على أولى الألباب ونفيه عما عداهم ، وليس المراد أن يعلم المخاطب هذا المعنى الواضح ، بل القصد من وراء ذلك إلى التعريض بذم الكفار ، والإشارة إلى أنهم من فرط العناد وغلبة الأهواء عليهم ، قد صاروا فى حكم من ليس بذى عقل ، فالذى يطمع فى تذكرهم وتدبرهم كمن يطمع فى تدبر وتذكر غير أولى الألباب .

وقد جاء هذا التعريض بعد تلك المقارنة بين المؤمن الذى يعلم أن ما أنزله الله هو الحق ، والأعمى وهو الكافر الذى أعرض عن الحق رغم وضوحه وظهوره ، فاستحق بذلك التوبيخ والذم الذى أفاده التعريض .

ومن ذلك قوله تعالى : (**إنما انت منذر من يخشاها ... إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب واقاموا الصلاة**)(٤١) فقد دلت (إنما) على قصر الإنذار على من يخشى وأقام الصلاة ، ونفيه عما عداه ، وفى هذا إيماء إلى أن من لم تكن له هذه الخشية فكأنه ليس له أذن تسمع ، ولا قلب يعقل ، فالإنذار معه كلا إنذار ، ووراء

= هنالك ما يحدد أى الأساليب يكون للتعريض ، فالمعول عليه فى معرفة ذلك هو السياق وقرائن الأحوال ، وما يفيض به التركيب من معان جانبية ، وإشارات وتلويحات .

(٤٠) الرعد ١٩

(٤١) الآيتان بالترتيب : النازعات ٤٥ ، وفاطر ١٨

ذلك التعريض بذم الكفار الذين أعرضوا عن رسـول الله - ﷺ - فاصموا آذانهم ، وأعموا أبصارهم ، عن سـماع الذكر ورؤية الحق .

وقد حسن التعريض (بإنما) لدلالتهـا على القصر ، أى : على الإثبات والنفى معا ، واستعمالها فى المعانى المعلومة الواضحة - كمـا بينا - ففى الآية الكريمـة (إنما يتذكر أولو الألبـاب) دلت (إنما) على ثبوت التذكر لأولى الألباب ، ونفيه عن غير أولى الألباب ، ولـو أسقطت (إنما) فقيل : يتذكر أولو الألباب ، لم يكن فى الكلام تعريض لأنه عندئذ لا يكـون فيه نفى للتذكر عن غير أولى الألباب ، بل يكون مجرد وصف لأولى الألباب بالتذكر والتدبر ، ولا يتأتى أن يقع تعريض بشىء ليس فى الكلام ذكـر له ، ولا دليل عليه .

* * *

الإنشـــــاء

قال تعـالى :

(يا أيهـا الذين آمنـوا إذا تداينتـم بدين إلى أجـل مسمـى فاكتبوه وليكتب بينكـم كاتب بالعـدل ولا يأب كـاتب أن يكتب كمـا علمـه الله فليكتب وليملل الذى عليـه الحـق وليتق الله ربه ولا يبخس منـه شـيئا ...) . البقرة ٢٨٢

(وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسـورة من مثله وادعـوا شـهداءكم من دون الله إن كنتم صـادقين) . البقرة ٢٣

(وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النـار) . إبراهيم ٣٠

(اصـلوها فاصبروا أو لا تصـبروا سـواء عليـكم إنمـا تجزون ما كنتـم تعملـون) . الطـور ١٦

(ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون • قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين • ربنا اخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون • قال اخسأوا فيها ولا تكلمون) •

المؤمنون : ١٠٥ ـ ١٠٨

(يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون • ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون • لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) التوبة ٦٤ ـ ٦٦

(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون) • آل عمران ١٣٠

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) • البقرة ٢١٤

(وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين)

النمل ٢٠

(قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم) • الأنبياء ٥٢

(ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا • يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا • لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى) • الفرقان ٢٧ ـ ٢٩

(فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) • مريم ٢٣

(قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) • يوسف ٨٥

(والسماء ذات الحبك • إنكم لفى قول مختلف • يؤفك عنه من افك • قتل الخراصون) • الذاريات ٧ ـ ١٠

(والسماء بنيناها بايد وإنا لموسعون • والأرض فرشناها فنعم الماهدون • ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون • ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين • ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إنى لكم منه نذير مبين) • الذاريات ٤٧ ـ ٥١

(والليل إذا يغشى • والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى • إن سعيكم لشتى) • الليل ١ ـ ٤

* * *

ما جرى به اللسان العربى من كلام لا يخرج عن كونه خبرا أو إنشاء ، فالخبر ـ كما عرفه البلاغيون • (قول يحتمل الصدق والكذب لذاته) لأن الكلام له نسبتان ، نسبة كلامية يفيدها النطق بالخبر ، ونسبة خارجية وهى ما عليه الواقع ، فإن تطابقت النسبتان كان الخبر صادقا ، وإن اختلفتا كان الخبر كاذبا •

وهذا القيد (لذاته) يخرج الأخبار التى لا تحتمل إلا الصدق نظرا لقائلها ، كأخبار القرآن الكريم ، وأخبار الحديث الشريف ، ويخرج الحقائق الثابتة نحو قولنا : الواحد نصف الاثنين ، والسماء فوقنا ، ويخرج كذلك الأخبار التى لا تحتمل إلا الكذب ، كأقوال مسيلمة الكذاب ، وأقوال المنافقين ، فتلك الأخبار لم ينظر فيها إلى ذات القول ، وإنما نظر إلى قائلها أو إلى كونها حقيقة ثابتة ، فاحتملت شيئا واحدا ، الصدق أو الكذب •

وعرفوا الإنشاء بانه (قول لا يحتمل الصدق والكذب) لأن القصد منه إلى ابتداء المعنى وإنشائه ، فالإنشاء أيضا له نسبتان ، نسبة كلامية وهى إنشاء المعنى وابتداؤه ، ونسبة خارجية وهى قيام

المعنى الإنشائى من أمر أو نهى أو استفهام .. فى نفس المتكلم ، ولكن ليس المقصود من الجملة الإنشائية الإخبار حتى ينظر إلى مطابقة النسبتين أو عدم مطابقتهما ، وإنما المقصود هو إنشاء المعنى وابتداؤه(١) .

وبهذا نستطيع القول بأن المقصود بالخبر فى النظم القرآنى ، وفى الحديث النبوى الشريف وفى التراكيب الجيدة ، حكاية الحدث ، والدلالة على تحققه ووقوعه إثباتا أو نفيا ، وأن المقصود بالإنشاء : ابتداء المعنى وإنشاؤه وطلب حدوثه ، وليس المراد به حكاية حدث ، والدلالة على ثبوته أو على انتفائه ..

والإنشاء نوعان :

١ ـ إنشاء طلبى : وهو ما يستدعى مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ، ويشمل الأمر والنهى والتمنى والاستفهام والنداء .

٢ ـ إنشاء غير طلبى : هو ما لا يستدعى مطلوبا ، وله صيغ كثيرة منها : القسم والمدح والذم والترجى والتعجب وألفاظ العقود .

وقد اهتم البلاغيون بدراسة الإنشاء الطلبى مهملين الإنشاء غير الطلبى وذلك للأسباب الآتية :

١ ـ أن الإنشاء الطلبى غنى بالاعتبارات والملاحظات البلاغية ، وأنواعه وهى الأمر والنهى والتمنى والاستفهام والنداء ، يتولد منها بحسب القرائن والسياق معان بلاغية كثيرة .

٢ ـ أن الإنشاء غير الطلبى أكثر أنواعه أخبار نقلت إلى الإنشاء .

---

(١) انظر شروح التلخيص ١٦٦/١

٣ ـ أن تلك الأنواع غير الطلبية لا تدل إلا على معانيها التى وضعت لها ، فالقسم لا يدل إلا على القسم ، والتعجب لا يرد لغير التعجب ، والمدح لا يراد به غير المدح ٠٠٠ وهكذا ٠

وأرى أن تلك الأسباب لا تقعد عن دراسة أنواع الإنشاء غير الطلبى ، لأننا عند التأمل والنظر فى التراكيب ، نجد أن هذه الأنواع ليست فقيرة فى الملاحظات والاعتبارات البلاغية ، بل نرى وراءها كثيرا من المزايا والدقائق التى يتوهج فيها الإحساس بالمعانى والأشياء ، على نحو ما سنرى عند دراسة بعض هذه الأنواع فى النظم الكريم ٠

* * *

الأمر والنهى

للأمر أربع صيغ وهى : فعل الأمر ، والمضارع المقرون بلام الأمر ، واسم فعل الأمر ، والمصدر النائب عن فعل الأمر ، وأما النهى فله صيغة واحدة ، وهى المضارع المقرون (بلا) الناهية ٠

انظر فى قوله تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا**)(١) ، تجد أن أسلوب الأمر قد تكرر فى الآية الكريمة بفعل الأمر وبالمضارع المقرون بلام الأمر : (**فاكتبوه وليكتب ٠٠٠ فليكتب وليملل** ٠٠٠ وليتق الله) كما تكرر النهى : (**ولا يأب كاتب** ٠٠٠٠٠

---

(١) البقرة ٢٨٢

ولا يبخس منه شيئا) ووراء هذا التكرار الحث على الالتزام والإجابة، وتنفيذ ما يريده الله عز وجل تجاه الدين ، من وجوب كتابته وتسجيله، وعـدم التهاون فى ذلك ٠

وفى قوله تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**)(٢) جاء الأمر باسم الفعل (عليكم) والمعنى : الزموا أمر أنفسكم وإصلاحها ، ووراء نداء الجماعة ، ومجىء الضمير جمعا (عليكم أنفسكم لا يضركم) معنى لطيف ، وهو الإشعار بأن أنفس المؤمنين نفس واحدة ، والتنبيه إلى ما يجب على الأمة من قيامها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى تنصلح الأنفس ، أنفس المسلمين جميعا ، فقد نزلت هذه الآية لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ، ويتمنون إيمانهم ، فالمعنى : عليكم أيها المؤمنون أنفسكم لا يضركم من ضل من الكفار ٠

وقد توهم البعض أن فى الآية رخصة فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى قال الصديق ـ رضى الله عنه ـ (أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها فى غير موضعها ، ولا تدرون ما هى)(٣) ٠

فهؤلاء الواهمون لم يلتفتوا إلى خطاب الجمع فى الآية ، ولو أريد الترخيص كما توهموا لوجه الخطاب إلى المفرد فقيل : يا أيها الإنسان عليك نفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت ، ولكن الخطاب فى الآية للجماعة ، فهو حث لها على القيام بما جعلها خير أمة أخرجت للناس ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله ٠

---

(٢) المائدة ١٠٥

(٣) انظر تفسير أبي السعود ٣/٨٨

ومما جاء الأمر فيه بالمصدر النائب عن فعل الأمر قوله تعالى : **(فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق)**(٤) أصله : فاضربوا الرقاب ضربا ، فحذف فعل الأمر ، وقدم المصدر وأنيب منابه مضافا إلى المفعول ، وفى هذا حث للمؤمنين على سرعة الضرب ، والمبادرة عند لقاء الذين كفروا بضرب رقابهم ، دون توان ولا إمهال ، وفى إيثار التعبير بالضرب عن القتل تصوير له بأشنع صورة ، وتهويل لأمره ، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه ، حثا لهم على سرعة المبادرة(٥) .

وتأمل هذه الفاءات : (فضرب الرقاب ... فشدوا الوثاق فإما منا ..) فهى تدل على التعقيب وتلاحق الأحداث ، وهو ما يجب على المسلمين فى مثل هذا المقام .

وانظر إلى التعبير عن الأسر ، وشد وثاق الكفرة بفعل الأمر (فشدوا الوثاق) دون مصدره ، فلم يقل : فشد الوثاق ، كما قيل : (فضرب الرقاب) ويرجع ذلك إلى أنه لم يعد هنالك ما يدعو إلى السرعة والمبادرة ، فقد أثخنوهم ضربا ، أى : أثقلوهم بالقتل والجراح ، حتى صاروا لا يستطيعون النهوض ، إن السرعة كانت مطلوبة عند لقاء الكفرة ، ولذا قال عز وجل : (فضرب الرقاب) أما الآن فلم تبق لهم مقاومة ، لقد أثخنوا ، أى : أثقلوا بالقتل والجراح فلا يستطيعون نهوضا ، فليوثقوا إذا على مهل وتؤدة ، ولذا قال عز وجل : (فشدوا الوثاق) ذاك هو الفرق بين التعبير بفعل الأمر وبالمصدر النائب عنه فى الموضعين .

---

(٤) سورة محمد آية : ٤

(٥) انظر : تفسير أبى السعود ٩٢/٨

هـذا والمتبـادر إلى الذهن أن صـيغ الأمـر تسـتعمل فى طلب حصول الفعل على جهـة التكليف والإلـزام ، وتكـون من الأعلى إلى الأدنى ، وأن صيغة النهى تسـتعمل فى طلـب الكف عن الفعـل على جهة التكليف والإلزام كذلك ، وتكون أيضا من الأعلى إلى الأدنى ، على نحو ما رأينا فى الآيات الكريمة (٦) .

وقد يسـتعمل الأمر والنهى فى غير التكليف والإلزام ، فيدل كل منهما على معان كثيرة بمعونة السـياق وقرائن الأحوال .

انظر فى قوله تعالى : (**يحـذر المنافقون أن تنزل عليهم سـورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخـرج ما تحذرون . ولئن سـألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتـم**

---

(٦) اختلف البلاغيون فيما تستعمل فيه صـيغ الأمـر ، فقيل تستعمل فى الوجوب ، والمراد بها الإلزام والتكليف ، وقيل تسـتعمل فى الندب ، وقيـل فى معنى يشـمل الوجوب والنـدب على جهـة الاسـتعلاء ، ويرى آخـرون أن الأمـر من الألفاظ المشـتركة بين الوجـوب والندب فقط ، أو بين الوجـوب والنـدب والإباحـة ، كاشتراك الشمس والظبى فى لفظ الغزالة ، ولذا احتاط القزوينى فى تحديد مفهوم الأمر فقال : والأظهر أنه موضوع لطلب الفعـل استعلاء لتبادر الفهم عند سماعه إلى ذلك ، وتوقف ما سواه على القرينة . انظر شروح التلخيص ٣١٠/٢ والإيضاح ٥٣/٢ واختلفوا كذلك فيما تستعمل فيه صيغة النهى ، فيرى الجمهور أنها موضوعة لطلب الترك الجازم وهو الحرمة ، وقيل إنهـا موضـوعة لطلب الترك غير الجازم وهو الكراهة ، وقيـل : هى للقـدر المشـترك بينهما ، وهو الترك استعلاء فيشمل التحريم والكراهة . انظـر شروح التلخيص ٣٢٥/٢

تستهزءون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم)(٧). فقد أمر المنافقون بالاستهزاء ، ونهوا عن الاعتذار (قل استهزءوا ... لا تعتذروا) لا ليمتثلوا الأمر والنهى ، وإنما تهديدا ووعيدا ، فقد كثر استهزاؤهم ، وبمن يستهزءون ؟ بالله وآياته ورسوله ، ولم تجد فيهم نصيحة ، ولا إرشاد ، فلم يبق إلا الوعيد الشديد الذى حمله الأمر والنهى (استهزءوا ... لا تعتذروا) وذلك الالتفات من الغيبة فى أول كل آية ، إلى الخطاب فى الأمر والنهى والاستفهام ، وكأن هذا الالتفات التفات الغاضب المتوعد .

وكذا القول فى الآيات الكريمة : **(وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ... إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ... وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار)**(٨) فالأمر فى هذه الآيات قد أريد به التهديد والوعيد لأولئك الذين جعلوا لله أندادا ، وألحدوا فى آياته ، وظلوا فى الكفر والضلال معرضين عن نور الله ، وفى كل آية من الآيات الكريمة يلتفت من الغيبة إلى الخطاب عند توجيه ذلك الأمر (تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ... اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ... تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) فهذا الالتفات ينبىء بالوعيد والتهديد ، ثم انظر إلى ما ختمت به الآيات الكريمة من بيان مصيرهم ، والإخبار بأن الله مطلع عليهم ، بصير بما يعملون ، والغاية من وراء ذلك كله أن يرتدع

---

(٧) سورة التوبة آية : ٦٤ ـ ٦٦

(٨) الآيات بالترتيب : إبراهيم : ٣٠ ، فصلت : ٤٠ ، الزمر : ٨

أولئك المعاندون وينزجروا ، فيقلعوا عن الكفر والعناد ، ويقبلوا على الإيمان والهدى ، وعندئذ يفوزون بالأمن والنجاة يوم القيامة .

وقد يرد الأمر لإظهار العجز كما فى قوله تعالى : **(وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله)**(٩) فليس المراد بالأمر فى الآية التكليف والإلزام ، وإنما المراد إظهار عجزهم عن الإتيان، فهم إن حاولوا الإتيان بعد سماع صيغة الأمر ولم يمكنهم بدا عجزهم وظهر ، فلعل ظهور عجزهم يكون رادعا لهم وزاجرا .

وقد يرد الأمر والنهى للدلالة على التسوية فى عدم النفع ، كما فى قوله تعالى : **(اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون)**(١٠) فقد دل الأمر والنهى (فاصبروا أو لا تصبروا) على التسوية بين الصبر وعدمه فى نفى النفع ، وذلك دفعا لما قد يتوهم من أن الصبر ينفع الكفار فى العذاب يوم القيامة فيخفف عنهم من عذاب جهنم ، كلا إنهم **(لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها)**(١١) .

وقد أكدت دلالة الأمر والنهى بقوله (سواء عليكم) حيث صرح باستواء الصبر وعدمه فى عدم النفع ، ولا يخفى عليك ما يفيده الأمر فى أول الآية الكريمة (اصلوها) من الإذلال والإهانة .

وكثر مجىء الأمر والنهى للدلالة على الدعاء والتضرع إلى الله تعالى ، كما فى الآيات الكريمة : **(ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ... ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا**

---

(٩) البقرة : ٢٣
(١٠) الطور : ١٦
(١١) فاطر ٣٦

من لدنك رحمــة ··· ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطانا ···)(١٢) فالمؤمنون يضرعون إلى الله تعالى بهـذاء الدعــاء ، وقد جـاء بصيغة الأمـر والنهى لإظهار كمال تضرعهم وخضوعهم ، ولبيان صدق رغبتهم فى أن يتجلى الله تعالى عليهم بالرحمة والغفران ·

ولا يخفى عليك أن التعبير بالأمـر أو النهى فى الدعــاء يكـون صــادرا من الأدنى إلى الأعلى ، فإن وجــه إلى المســاوى فى الرتبــة والمنزلة كان التماســا كما فى قوله تعــالى : (**قال يا ابن أم لا تأخـذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشــيت أن تقــول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى)(١٣)** ·

وانظر فى قوله تعالى : (**ألم تكن آياتى تتلى عليكـم فكنتم بهــا تكذبون · قالوا ربنــا غلبت علينــا شــقوتنا وكنا قوما ضــالين · ربنــا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون · قال اخسأوا فيها ولا تكلمون)(١٤)** تجد أن الأمر فى قوله : (أخرجنــا منهــا) يدل على التمنى ، فهـم يتمنون الخروج من جهنم والعودة للدنيا ليستقيموا على الطريقة ، ولات حين خروج ، ولذا كانت إجابتهم (اخسأوا فيها ولا تكلمون) فالأمــر والنهى المجــاب بهما يحملان معنى الإهانة والإذلال والتحقير ، يقال : خســأت انكلب فخســأ ، أى : زجــرته فانزجــر ، فالمعنى : اسكتوا فى النار سكوت هوان ، وذلوا وانزجروا انزجار الكلاب إذا زجرت(١٥) ·

---

(١٢) الآيات بالترتيب : آل عمران ١٩٤ ، ٨ ، البقرة ٢٨٦

(١٣) طــــه ٩٤

(١٤) المؤمنون : ١٠٥ ـ ١٠٨

(١٥) انظر : تفسـير أبى السـعود ١٥٢/٦

وتأمل قوله تعالى : **(يا أيها الذين آمنـوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة)**(١٦) لقد نهى عن أكل الربا مقيـدا بهـذا القيد (أضـعافا مضاعفة) والمراد النهى عن أكل الربا مضاعفا وغير مضـاعف ، ولكن جىء بهـذا القيـد تبشـيعا للصـورة ، وتنفيرا للنفوس ، وانظر إلى التعبير بالأكل فى النهى عن التعامل بالربـا (لا تأكلـوا) إن المـراد هو النهى عن التعامل الربوى بأى وجـه من وجـوه التعامـل ، ولكن لمـا كان العربى يتذمم بمـلء البطـن وكثرة الأكل ، ويعـد ذلك من البهيمية ، فقد أوثر التعبير بالأكل تفظيعا وتنفيرا ، وكذا القـول فى النهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، وأكل أموال اليتامى .

* * *

التمنـــى

قالوا فى تعريفه : إنه طلب الأمر المحبـوب الذى ترغب فيه النفس وتميل إليـه ، لكنه لا مطمع فى حصوله ، لكونه محالا أو بعيد المنال ، وبعد المنال أمر يرجع إلى شـعور النفس وإحساسها بالشىء المطلوب ، فهذا الشىء قد لا يكـون بعيـدا بالنسبة للواقع أو العرف أو العقـل ، ولكن النفس تحسه بعيدا ، بل إن شـعور النفس وإحساسها ببعد الشىء يختلف من شخص لآخـر ، فما يراه هـذا بعيدا ، قد يراه ذاك قريب المنال ، فمثلا (طلب المـال) قد يرى شخص أن حصـوله بعيد غيـر متوقع ، ويشعر بأنه لا مطمع له فى نيله ، فيقـول متمنيا : ليت لى مالا فأحج منه ، وقد يراه آخر قريب المنـال متوقعا ، ويشـعر بالطمع فى وجـوده وإمكان نيله ، فيقـول مترجيا : لعل لى مالا فأحـج منه ، فالشىء المطلـوب واحد وقد اختلف الإحساس به ، فرآه الأول بعيدا ، ورآه الثانى قريبا .

---

(١٦) سـورة آل عمران آية : ١٣٠

والأداة الموضوعة للتمنى (ليت) يقال فى تمنى الأمر المحبوب الذى لا مطمع فيه لكونه محالا : ليت الشباب يعود يوما .. ليت الكواكب تدنو لى فانظمها عقود مدح .. ولنقرأ الآيات الكريمة : (**ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ... فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ... ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا**)(١) فالمتمنى فى الآيات أمر محال لا مطمع فى حصوله ، الكفار عند معاينة العذاب يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليستقيموا ويؤمنوا ، ومريم تتمنى أن تكون قد ماتت قبل هذا ، والظالم يعض على يديه ندما ويتمنى أن يكون قد اتخذ مع الرسول سبيلا ، وابتعد عن قرناء السوء ، وتلك الأمور المتمناة أمور محالة لا مطمع فى حصولها .

وتأمل دخول حرف النداء (يا) على أداة التمنى (ليت) وعلى كلمة (ويلتى) فى : (يا ليتنا ... يا ليتنى ... يا ويلتى ليتنى) تجده ينبىء بالأسى ، ويشعر بالحزن والألم ، والندم والتحسر ، وكأن الكافر والظالم يخرجان ما بداخلهما من آلام وأحزان ، ويجدان فى امتداد النطق بحرف النداء (يا) متنفسا يتنفسان من خلاله أحزانهما وآلامهما ، وكذا القول بالنسبة لمريم ، فهى فى حيرة وأسى ، كيف تواجه قومها بعد أن ولدت عيسى - عليه السلام - إن فى امتداد النطق بالحرف (يا) فى قولها : (يا ليتنى) تفريجا لأحزان قد امتلأت بها نفسها .

---

(١) الآيات بالترتيب : الأنعام ٢٧ ، مريم ٢٣ ، الفرقان ٢٧ ، ٢٨

وفى قوله تعالى : (**فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم**)(٢) تمنى الذين يريدون الحياة الدنيا ، عندما رأوا قارون فى زينته ، أن يكون لهم مثل تلك الكنوز التى تنوء مفاتحها بالعصبة أولى القـوة ، وهـذا الذى تمنـوه ليس محالا ، بل ممكنا ، ولكنه بعيد المنـال ، فهم لا يطمعون فيه لبعد مناله .

وقد يأتى التمنى بغير الأداة الموضوعية له (ليت) لداع بلاغى يقتضيه المقام ، فقد يأتى (بلو) و (بلعل) وبأداة استفهام (كهل) وغيرها ، انظر فى قوله تعالى : (**فما لنا من شـافعين . ولا صـديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين**)(٣) تجد التمنى (بلو) حيث نصب المضارع بعد الفاء المسبوقة بها ، بأن مضـمرة فى قوله (فنكون) وقـد عـدل عن التمنى (بليت) إلى التمنى (بلو) فى الآية الكريمة إشعارا بزيادة المتمنى بعدا واستحالة ، فإن (لو) فى الأصل حرف امتناع لامتناع ، ولذا فإن التمنى بها يجعل المتمنى أكثر بعدا ، وأشد امتناعا وإباء .

وفى قوله تعالى : (**وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا**)(٤) جاء التمنى (بلعل) فنصب المضارع بعد الفاء المسبوقة بها (فأطلع)

---

(٢) القصص ٧٩ .

(٣) سورة الشعراء آية ١٠٠ ـ ١٠٢ .

(٤) سورة غافر آية ٣٦ ، ٣٧ .

والشىء المتمنى فى الآية الكريمة بلوغ أسباب السموات ، وهو من الأمور المحالة التى لا مطمع فى وقوعها ، ولكن مجىء التمنى (بلعل) أبرزه فى صورة الممكن القريب الحصول .

وهذا يصور طغيان فرعون ، وينبىء بمدى عتوه واستكباره فى الأرض ، ويشعر بكمال عنايته وشدة حرصه على تحقق المحال ، وبلوغه أسباب السموات ، لقد بلغ طغيانه مبلغا راى فيه المحال ممكنا قريب الحصول ، سهل المنال .

وفى قوله تعالى : **(قالوا ربنا أمتنا اثنتين واحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل)(٥)** وقع التمنى (بهل) ومجىء التمنى بالاستفهام يبرز المتمنى فى صورة الممكن ، الذى يسأل عنه ، ويمكن وقوعه ، إن ما تمناه الكفرة ، وهو خروجهم من جهنم ، ورجوعهم إلى الحياة الدنيا أمر محال لا يمكن وقوعه ، ولكنهم لشدة حيرتهم وتخبطهم ، ظنوا أن هذا المحال ممكن ، فاستفهموا عنه (فهل إلى خروج من سبيل) ؟ وهم يتمنون وقوعه ، وأن يخرجوا من جهنم ، ويرجعوا إلى الدنيا فيؤمنوا ، ويستقيموا على الطريقة ، ولات حين رجوع .

* * *

الاستفهام

قالوا فى تعريفه : هو طلب العلم بشىء لم يكن معلوما من قبل بأدوات خاصة ، وهى : الهمزة وهل ومن وما وكيف وكم وأين وأيان ومتى وأنى وأى .

وكل أداة من هذه الأدوات يسأل بها عن شىء معين ، وهى أسماء

---

(٥) سورة غافر آية ١١ .

ما عدا الهمزة وهل ، فهما حرفان ، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الأدوات لها حق صدارة الجملة المستفهم عنها .

والاستفهام إما عن النسبة ، أى : عن الحكم المفاد من الجملة ، ويسمى (تصديقا) وإما عن أحد أجزاء الجملة ، ويسمى (تصورا) فالتصديق هو إدراك النسبة بين الشيئين ثبوتا أو نفيا ، والتصور هو إدراك أحد أجزاء الجملة : المسند أو المسند إليه أو أحد المتعلقات ، ولذا فعند طلب التصديق يأتى الجواب بنعم أو أجل أو لا أو بلى أو إى ، تلك هى حروف الجواب التى تحدد النسبة إثباتا أو نفيا ، حسب نظام الجملة المستفهم عنها ، وعند طلب التصور يأتى الجواب محددا الجزء المستفهم عنه ، ومعينا له .

وأدوات الاستفهام بحسب المستفهم عنه ثلاثة أنواع :

١ ـ ما هو صالح لطلب التصور والتصديق معا،فيطلب به التصور تارة والتصديق تارة أخرى ، وهو الهمزة فقط ، فهى أم باب الاستفهام.

٢ ـ ما يطلب به التصديق فقط ، وهو (هل) .

٣ ـ ما يطلب به التصور فقط ، وهو بقية الأدوات .

ولبناء جملة الاستفهام مع الهمزة و (هل) ضوابط واعتبارات دقيقة ، فهمزة التصور يجب أن يليها المستفهم عنه ، وقد يليها غيره لغرض بلاغى ، ويذكر معها غالبا معادل (بأم) المتصلة ، وهمزة التصديق لا يذكر معها معادل ، فإن وجدت بعدها (أم) فهى المنقطعة، وكذلك (هل) إن وجدت بعدها (أم) فهى (أم) المنقطعة ، ويجب أن يلى (هل) الفعل إن وجد فى الجملة المستفهم عنها ، وقال

البلاغيون : إنها تخلص المضارع للاستقبال ، ولم يسلم لهم ذلك(١) •

وعلينا الآن أن ننظر فى النظم القرآنى لنعرف بعضا من دقائق الاستفهام فيه ، ونقف على جملة من مزاياه ومعانيه البلاغية •

قال تعالى : (**قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين • قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم • قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون • قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم • قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون**)(٢) فى الآيات الكريمة استفهامان ، أولهما : (من فعل هذا بآلهتنا) ؟ وهو لطلب الفهم ، فقد عادوا فوجدوا الأصنام جذاذا إلا كبيرا لهم ، فسألوا عن فاعل ذلك ، وجاء جوابهم مشيرا إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث سمعوه يذكرهم ، فأحضروه على أعين الناس ، ووجهوا إليه ثانى الاستفهامين (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم) ؟ والسؤال هنا للتقرير بالفاعل ، فقد أشارت أصابع الاتهام ، ودلت الهواجس على أنه الفاعل ، فأرادوا تقريره على أعين الناس لعلهم يشهدون ، وقد جاء جوابه معينا لهم الفاعل على سبيل التهكم والسخرية ، لعلهم ينتبهون إلى حقارة ما يعبدون من دون الله (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) •

وفى الآيات الكريمة : (**قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ••• قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ••• قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء**)(٣)

---

(١) أرجع إلى تفصيل ذلك فى رسالتنا (أساليب الاستفهام فى القرآن الكريم) وفى كتابنا : علم المعانى الجزء الثانى •

(٢) سورة الأنبياء آية ٥٩ ـ ٦٣ •

(٣) الآيات بالترتيب الأنعام ١٤ ، ٤٠ ، ١٦٤ •

أفاد الاستفهام إنكار أن يكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ، أو يدعى عند الباساء ، أو يبغى ربا ، وقد ولى المفعول الهمزة لأن الإنكار موجه إليه ، ووليها الفاعل فى سورة الأنبياء ، لأن التقرير به .

وفى قوله تعالى : (**أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا . أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا**)(٤) أفاد الاستفهام فالمنكر هو الفعل ، ولذا ولى الهمزة وعطف على ما وليها (بأم) إنكار اطلاع ذلك الكافر على الغيب أو اتخاذه عند الرحمن عهدا ، المتصلة ما توجه إليه الإنكار .

هذا وقد يكون المعنى على إنكار الفعل ويلى الهمزة ويعطف على ما وليها (بأم) المتصلة غيره ، وذلك مبالغة فى الإنكار والزجر ، كما فى قوله تعالى : (**قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون**)(٥) فالمعنى على إنكار الإذن وقد ولى الهمزة وعطف على ما وليها غيره مبالغة فى الإنكار .

ومنه قوله تعالى : (**قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين**)(٦) كان المشركون يحرمون ذكور الأنعام تارة ، وإناثها تارة أخرى ، وما فى بطونها تارة ثالثة ، فأنكر الله ـ عز وجل ـ هذا التحريم فى الآية الكريمة ، وقد أخرج النظم الكريم مخرج ما إذا كان قد ثبت تحريم ، والمطلوب معرفة جنس المحرم ، فولى الهمزة وعطف على ما وليها غير الفعل مبالغة فى الإنكار .

---

(٤) سورة مريم آية ٧٧ ، ٧٨ .

(٥) سورة يونس آية ٥٩ .

(٦) سورة الأنعام آية ١٤٣ .

وترجع المبالغة فى هذه الصورة إلى انتفاء الفعل بوجه برهانى، لأنه إذا انتفى الفاعل أو المفعول أو الظرف الذى ليس للفعل غيره ، كان ذلك ابلغ فى انتفاء الفعل ، واشد ردعا ، واقوى زجرا لمن ادعى وجوده وثبوته .

وفى قوله تعالى : **(ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله)**(٧) دل الاستفهام فى الآية الكريمة على استبطاء النصر ، واستطالة مدة البأساء والضراء ، فالخطاب فى الآية للصحابة رضوان الله عليهم ، والمعنى : أحسبتم ان تدخلوا الجنة بلا ابتلاء وتمحيص ، وقد جرت سنة الله أن يبتلى عباده ، فقد ابتلى الأمم قبلكم ابتلاء شديدا ، ومستهم البأساء والضراء ، حتى قال الرسول وهو أعلم الناس بالله ، وأوثقهم بنصره ، وقال الذين آمنوا معه وهم صفوة الناس ، قالوا لشدة ما نزل بهم : متى نصر الله ؟ لقد استطالوا مدة البأساء والضراء ، واستبطاوا مجىء النصر ، وهم الصفوة الأبرار، فما بالكم بغيرهم ؟

والسر البلاغى وراء التعبير عن هذا المعنى (معنى الأستبطاء) بأسلوب الاستفهام ، إبراز المعاناة وإظهار الشدة التى نزلت بأولئك السائلين ، ولا يخفى عليك ما بالسياق من تصوير لحالهم (مستهم البأساء والضراء وزلزلوا) فهذا الذى أصابهم جعلهم يتطلعون إلى نصر الله الذى طال انتظاره .

وفى قوله تعالى : **(وتفقد الطير فقال : مالى لا ارى الهدهد أم كان من الغائبين)**(٨) دل الاستفهام على التعجب من عدم رؤية الهدهد،

---

(٧) سورة البقرة آية ٢١٤ . (٨) سورة النمل آية ٢٠ .

إنه لا يغيب إلا بإذن سليمان ، فكيف يتفقد الطير ولا يجده بينها ؟ لذا توعده بالعذاب الشديد إذا لم يكن غيابه لسبب قوى وأمر خطير **(لأعذبنه عذابا شديدا او لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين)(٩)**

ومنه قوله تعالى : **؟ قالت ياويلتى أألد وانا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب • قالوا اتعجبين من أمر الله •••)(١٠)** حيث دل الاستفهام على تعجب سارة من بشارة الملائكة لإبراهيم بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ـ عليهم السلام ـ لقد تعجبت كيف تلد وهى عجوز ، وقد عاشت حياتها عقيما لا تلد ، وذا بعلها قد صار شيخا كبيرا ، كيف تلد إذا والحال هو هذا ! ••

وقد جاء قوله تعالى : (**إن هذا لشىء عجيب**) مؤكدا التعجب الذى دل عليه الاستفهام ، إن سارة قد قاست الأمر بمقاييس البشر ، ونسيت قدرة الله تعالى ، ولذا قال الملائكة منكرين تعجبها : (**اتعجبين من أمر الله**) ؟

وفى قوله تعالى : (**فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين**)(١١) أفاد الاستفهام تنبيه الكفرة إلى خطأ ما يقولون فى شأن رسول الله ﷺ وإلى ضلال ما يعتقدون ، وباطل ما يعبدون من دون الله تعالى •

وتتضح دلالة الاستفهام على هذا التنبيه عند النظر فى سياقه الذى ورد به ، ولنقرأ : (**فلا اقسم بالخنس الجوارى الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش**

---

(٩) سورة النمل آية ٢١ •   (١٠) سورة هود آية ٧٢ ، ٧٣•

(١١) سورة التكوير آية ٢٦ ، ٢٧ •

مكين مطاع ثم امين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم فاين تذهبون)(١٢) ؟

لقد اقسم جل وعلا بالنجوم الدالة على قدرته ، فى أحوال ظهورها واختفائها (الخنس الجوارى الكنس) ثم أقسم بالليل يقبل بظلامه ، وبالصبح يبدد ذاك الظلام ، والمقسم عليه بذلك أن القرآن من عند الله، نزل به الروح الأمين ، على صاحبكم محمد ﷺ وآثر التعبير بالصاحب لينبه إلى أنه ﷺ صاحبهم الذى يعرفون صدقه وأمانته ، فهو صادق فيما يبلغهم عن ربه ، أمين عليه ، وقد رأى وابصر من آيات ربه الكبرى، رأى جبريل بالأفق المبين ، ثم هو ﷺ حريص على إبلاغ رسالة ربه ، لا يضن بها عليكم .

أبعد هذا البيان والوضوح يكون إعراض عن الحق ، وتول عن رسول الله ﷺ ؟ إن الذى يعرض ويتولى بعد هذا البيان ، يكون ذاهبا إلى متاهات ، منغمسا فى ضلال مبين ، ولذا جاء الاستفهام (فاين تذهبون) عقب هذا البيان لينبه إلى الضلال الكبير ، الذى يهوى إليه وينغمس فيه من يعرض عن الحق والهدى بعد مجىء البينات .

وفى قوله تعالى : (**قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا**)(١٣) يدل الاستفهام فى الآية الكريمة على النفى ، إذ المعنى : لا أحد يملك لكم من الله شيئا ، ولكن الدلالة على معنى النفى بالاستفهام وراءها ما يلى :

---

(١٢) سورة التكوير آية ١٥ ـ ٢٦ .

(١٣) سورة الفتح آية ١١ .

١ ـ تنبيه المخاطب ، وتحريك مشاعره ، وإثارة فكره ، ليقف على معنى النفى ، ويدرك ما يرمى إليه .

٢ ـ عدم مواجهة المخاطب بصريح النفى يكون أدعى له للنظر وتدبر ما يراد نفيه ، والمبادرة إلى الإجابة ، وتحقيق ما يرمى إليه النفى .

وتأمل دلالة الاستفهام على النفى فى الآيات الكريمة : (**ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا .. ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها .. فهل يهلك إلا القوم الفاسقون**)(١٤) فستضح لك ما قلناه ، ويتبين لك ما أفاده الاستفهام من تنبيه وتحريك ، وما أدى إليه من حث المخاطب على الإجابة والامتثال ، حيث لم يواجه بصريح النفى ، الذى قد يكون مثبطا ومقعدا له عن الإجابة ، وتحقيق ما يرمى إليه النفى .

هذا والمعانى البلاغية التى يفيدها الاستفهام كثيرة ، ولا يمكن الإحاطة بها ، ومنها بالإضافة لما ذكرناه : الدلالة على السخرية والتهكم كما فى قوله تعالى : (**أصلاتك تامرك أن نترك ما يعبد آباؤنا**) هود ٨٧ . والدلالة على الاستبعاد كما فى قوله تعالى : (**أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد**) ق ٣ . والدلالة على الأمر كما فى قوله تعالى : (**فهل أنتم مسلمون**) هود ١٤ . والدلالة على التحسر والندم كما فى قوله تعالى : (**يقول الإنسان يومئذ أين المفر**) القيامة ١٠ . والدلالة على التحقير كما فى قوله تعالى : (**أهذا الذى بعث الله رسولا**) الفرقان ٤١ . إلى غير ذلك من المعانى البلاغية التى يفيدها

(١٤) الآيات بالترتيب : العنكبوت ٦٨ ، البقرة ١١٤ ، الأحقاف ٢٥ .

الاستفهام (١٥) ٠ والذى نود أن ننبه إليه ، أن الاستفهام قد أفاد هذه المعانى ، ودل عليها بمعونة السياق ، وقرائن أحواله - كما رأينا فى الآيات الكريمة - وأن معنى الاستفهام لا يتولى عند الدلالة على هذه المعانى ، بل يظل باقيا ، وقد نبه إلى ذلك كثير من العلماء كالفراء وعبد القاهر وغيرهما(١٦) ٠

ولذا يخطىء من يجعل هذه المعانى التى يفيدها الاستفهام معانى مجازية ، ويجتهد فى أن يلتمس علاقات بين طلب الفهم الذى هو معنى الاستفهام ، وبين تلك المعانى ، إن الصواب ما أثبتناه ، وهو أنها معان بلاغية دل عليها الاستفهام بمعونة السياق وقرائن أحواله ٠

* * *

النـــــداء

النداء هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب (أدعو) ليصغى المدعو إلى أمر ذى بال ، وله حروف تعرف بحروف النداء ، وهى الهمزة وأى لنداء القريب،و (يا ٠٠ آ ٠٠ آى ٠٠ أيا ٠٠ هيا ٠٠ وا ٠٠) لنداء البعيد ، ومما يلاحظ أن الأدوات الموضوعة لنداء البعيد يمتد بها الصوت ، ويطول النطق ، وذلك حتى يصل إلى المنادى البعيد صوت المنادى ، فيسمع ويقبل ، أما الحرفان الموضوعان لنداء القريب ، فليس فيهما هذا الامتداد ، لأن المنادى قريب ، لا يحتاج إسماعه إلى طول النطق وامتداد الصوت ٠

---

(١٥) ارجع إلى علم المعانى ١٢٩/٢ ٠

(١٦) انظر معاني القرآن ٢٣/١ ، ودلائل الإعجاز ١٥١ ٠

ولم يقف النداء فى اللغة عند نداء الحى العاقل ، بل تجاوزه ، فنوديت الطيور والحيوانات والجمادات ومشاهد الطبيعة وأحوال النفس ، نوديت الناقة والثور والأرض والجبال والسماء والفيافى والقبور والأطلال والديار والشمس والسحاب والبرق ، ونوديت الحسرة والويل واللذة والبشرى والتمنى والحب والبغض ، وغير ذلك من أحوال النفس ، ووراء تلك النداءات التى توجه لغير العاقل الحى اغراض ومقاصد بلاغية ، لأنه لا يراد بها طلب الإقبال الذى هو معنى النداء .

ولم يرد من حروف النداء فى النظم القرآنى سوى (يا) خاصة ، والغاية من النداء القرآنى أن ينتبه المنادى فيصغى إلى ما يلقى إليه ، لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامر ونواه ، وعظات وزواجر ، ووعد ووعيد ، ونحو ذلك مما أنطق به كتابه ، أمور عظام ، ومعان ينبغى أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها (١) .

انظر إلى الآيات الكريمة : (**ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود .. ياأيها الناس اتقوا ربكم .. ياأيها المدثر قم فانذر .. ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك .. ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة .. ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام .. ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ..**)(٢) تجد أن الذى ولى النداء فى الآيات الكريمة إما أمر أو نهى أو استفهام أو حكم شرعى ، وتلك أمور ذات بال ، ينبغى أن ينتبه لها المخاطب ، ولذا سبقت بالنداء تهيئة وإيقاظا

---

(١) انظر الكشاف ٢٢٦/١ .

(٢) الآيات بالترتيب : المائدة ١ ، الحج ١ ، المدثر ١ ، الفجر ٢٧ ، ٢٨ ، الصف ١٠ ، البقرة ١٨٣ ، المائدة ٨٧ .

للمخاطب ، لكى يصغى إلى تلك الأمور المهمة ، فيقف عليها ويدرك المراد منها .

لم عبر فى تلك النداءات بـ (يا) الموضوعة لنداء البعيد ، والله عز وجل أقرب إلى عباده من حبل الوريد ؟

لعل ذلك يرجع إلى عظم هذه الأمور وأهميتها ، فعدل عن نداء القريب إلى نداء البعيد ، تنبيها للمخاطب ، ولفتا له إلى تلك الأمور المهمة ، ليبادر إلى الإجابة والامتثال ، فكثيرا ما ينادى القريب نداء البعيد للإشعار بعظام الأمر المنادى له ، اقرأ قوله تعالى : **(يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم .. يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ..)**(٣) فلقمان ينادى ابنه ، وهو قريب منه ، ولكنه عدل إلى نداء البعيد للدلالة على عظم الشرك ، والإشعار بمنزلة الصلاة ،وأهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر ، وهى الأمور المنادى لها ، فهى أمور ذات شان ، ينبغى أن يلتفت إليها المخاطب ، ليدرك أهميتها ، فيبادر إلى الإجابة والامتثال ، ومن أجل ذلك عدل عن نداء القريب إلى نداء البعيد .

وقد يكون العدول للدلالة على علو مكانة المنادى ، والإشعار ببعد منزلته ، تنزيلا للبعد المعنوى منزلة البعد المكانى ، كما فى قوله تعالى: **(يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا)**(٤) حيث نادى إبراهيم ـ عليه السلام ـ أباه ، وهو منه قريب ، ولكنه آثر التعبير بـ (يا) الموضوعة لنداء البعيد ، لينبىء بعظم منزلة الأب وسمو مكانته ، وذا أدب الابن تجاه أبيه ، ولو كان على غير دينه ،

---

(٣) سورة لقمان آية ١٣ ، ١٧ . (٤) سورة مريم آية ٤٤ .

هذا فضلا عن الإشعار بعظم الأمور المنادى لها : **(قد جاءنى من العلم ما لم يأتك .. إنى أخاف أن يمسك عذاب .. لا تعبد الشيطان)** والتى ينبغى أن يهيأ لها المنادى لينتبه ويصغى فيقف على كنه هذه الأمور ويبادر بالامتثال .

وانظر إلى هذه (التاء) فى قوله (يا أبت) إنها عوض عن (الياء) إذ الأصل : ياأبى ، وقد عدل عن هذا الأصل إلى ما عليه النظم الكريم للمبالغة ، والإشادة بمعنى الأبوة ، والإشعار بما يجب لها من تقدير وتعظيم .

وقد يكون العدول للدلالة على انحطاط المنادى والإشارة إلى الرغبة فى إبعاده بغضا له وتحقيرا لشأنه ، كما فى قوله تعالى : **(فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا . قال لقد علمت ما انزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا)**(٥) فالمنادى فى الموضعين قريب وقد استخدمت فى النداء (يا) الموضوعة لنداء البعيد لتشعر بالبغض والتحقير ، وكأن الداعى لا يطيق النظر إلى المدعو ، ويريد إبعاده وعدم مواجهته بالنداء .

وعند نداء الرب فى النظم القرآنى نجد أن حرف النداء قد طوى، ولنقرأ : **(ربنا لا تزغ قلوبنا .. ربنا افرغ علينا صبرا .. قال رب احكم بالحق .. رب أرنى كيف تحيى الموتى ..)**(٦) وهذا الطى ينبىء بخضوع الداعى ، ويشعر بشدة قربه من الله عز وجل .

---

(٥) سورة الإسراء آية ١٠١ ، ١٠٢ .

(٦) الآيات بالترتيب : آل عمران ٨ ، البقرة ٢٥٠ ، الأنبياء ١١٢ ، البقرة ٢٦٠ .

ولم يرد ذكر حرف النداء (يا) عند دعاء الرب - عز وجل - فى النظم الكريم إلا فى قوله تعالى : **(وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا)**(٧) وقوله عز وجل : **(وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون)**(٨) ومجىء حرف النداء (يا) فى الموضعين يشعر بشدة أسى الرسول ﷺ لإعراض قومه عن القرآن وفيه ذكرهم ، وتخليهم عن الإيمان وفيه نجاتهم ، لقد جد ﷺ فى إنذارهم وتبليغهم رسالة ربه ، وكلما جد فى التبليغ والإنذار لجوا فى طغيانهم يعمهون ، وهذا ما يحزنه ، وهجرهم للقرآن يضاعف أحزانه وآلامه ، وكأنه ﷺ قد وجد فى امتداد الصوت عند النطق بهـذا الحرف (يا) متنفسـا لتلك الأحزان والآلام .

ولهذا جاء عقب النداءين قوله تعالى : **(وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا)**(٩) **وقوله عز وجل : (فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون)**(١٠) تسلية له ﷺ وتسرية عنه .

وقد نودى غير العاقل الحى فى النظم الكريم ، فمن ذلك نـداء الجبال والطير ، والأرض والسماء ، فى قوله تعالى : **(ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير)**(١١) **وقوله عـز وجل : (وقيـل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء)**(١٢) وهذا النـداء يؤذن بقدرة الله عز وجل ، الذى سخر الأشياء ، والذى يقول للشىء كن فيكون ، فالأرض والسماء ، والطير والجبال ، والريح والسحاب ، وكل

---

(٧) سورة الفرقان آية ٣٠

(٨) سورة الزخرف آية ٨٨ .

(٩) سورة الفرقان آية ٣١ .

(١٠) سورة الزخرف آية ٨٩ .

(١١) سورة سبأ آية ١٠ .

(١٢) سورة هود آية ٤٤ .

ما فى الكون جنود مسخرة بأمر الله ، هو - وحده - خالقها ، وهو القادر جل شأنه على تصريفها وتسخيرها ، وندائها وأمرها .

وانظر فى قوله تعالى:(**ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى**)(١٣) وقوله عز وجل : (**أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين**)(١٤) إن الظالم يوم القيامة يعض على يديه ندما وتحسرا على تفريطه فى جنب الله ، لا تكفيه يد واحدة يعض عليها ، بل يعض على كلتا يديه ، يداول بين هذه وتلك ، وينادى الويل والحسرة ، (يا ويلتى .. يا حسرتى) وهذا النداء يشعر بشدة الأسى والندم ، وكأنه يقول : ياويلتى وياحسرتى ، أقبلا فهذا أوانكما ، فهو لفرط ما هو فيه ، صار يتخيل أن الويل والحسرة يسمعان ويجيبان فناداهما، وهذا ينبىء بالحيرة والتخبط ، ويشعر بالتحسر والندم .

وتأمل قوله تعالى : (**وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام**)(١٥) حيث نوديت البشرى للدلالة على الفرح والسرور ، وكأنه يريد : يابشرى أقبلى فهذا أوان حضورك ، إن نداء البشرى فى الآية الكريمة يدل على فرط السرور وغاية الاستبشار بالغلام الذى عثر عليه .

وفى قوله تعالى : (**قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء**

---

(١٣) سورة الفرقان آية ٢٧، ٢٩ .
(١٤) سورة الزمر آية ٥٦ .
(١٥) سورة يوسف آية ١٩ .

وتنزع الملك ممن تشاء ..)(١٦) نجد فى الآية الكريمة نداءين :

أولهما : فى قوله (اللهـم) إذ الأصـل : يا الله ، فحذف حرف النداء (يا) وعوض عنه الميم المشددة .

ثانيهما : فى قوله (مالك الملك) فهو نداء ، وليس وصفا ، لأن الميم تمنع جعله وصفا .. وقد حذف منه حرف النداء أيضا(١٧) .

ووراء حـذف الحرف (يا) فى الموضـعين ، والتعويض بالميم المشددة معنى لطيف ، وهو أن يتصل لفظ الجلالة (اللهـم) بكلمـة (مالك) دون أن يحول بينهما حائل فى اللفظ .

ولننعم النظر عند النطق بالآية الكريمة (قل اللهم مالك المـلك) نجد أن الميم المشددة فى (اللهم) قد تلتهـا الميم المفتوحـة من لفظ (مالك) وعند النطـق الشـفتان تطبقـان عند الميم الساكنة من لفظ (اللهم) وتفتحان عند الميم المتحركة منه ، فتصل هذه الميم المتحركة المفتوحة بميم (مالك) وهى أيضا محركة بالفتـح ، حرفـان مثلان وحركتهما واحدة ، كيف يكون النطق بهما ؟ سـهولة ويسر ، وسرعة بالغـة .

هذا ما أفاده الحذف والتعويض بالميم المشددة ، لقد أفاد شـدة اتصال (مالك الملك) والتصاقه بالله عـز وجـل ، ووراء هـذا الاتصال والالتصاق الشديد بين اللفظين (اللهم ومالك) الـدلالة على انفراده تعالى بالملك ، وخضوعه التام له ، بلا منازع ولا شريك ، يؤتيه عز وجل من يشاء ، وينزعه ممن يشاء .

---

(١٦) سورة آل عمران آية ٢٦ .

(١٧) انظر تفسير أبى السعود ٢/٢١ .

القســـــم

القسم من الإنشاء غير الطلبى ، لأنــه لا يطلب به مطلوب غــير حاصل وقت الطلب ، وإنما يأتى لتوكيد الأخبار ، وللدلالة على تعظيم المقسم به والمقسم عليــه ، ونحو ذلك من الأغراض التى يأتى القســم للدلالة عليها ٠

وهو فى الأصل خبر نقل إلى الإنشاء ، انظر إلى الآيات الكريمة: **(واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ٠٠ ويحلفون بالله إنهم لمنكم ٠٠ يحلفون بالله ما قالوا ٠٠ وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن أمرتهم ليخرجن)**(١) فهذه أخبــار دلت على القســم ، ولما كان القسم مما يكثر فى الكلام ، اختصر بحذف فعل القسم ، واكتفى بالباء، فقيل : بالله لأفعلن كذا ، والأصل : أقسم بالله ، ثم عوض عن الباء الواو فى الأسماء الظاهرة ، والتاء فى اسم الله تعالى(٢) ٠

فحروف القسم هى : الباء كما رأينا فى الآيات الكريمة ، والواو كما فى قوله تعالى : **(والنجم إذا هوى ٠ ما ضل صاحبكم وما غوى)**(٣) والتاء كما فى قوله عز وجل : **(وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولــوا مدبرين ٠٠ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا)**(٤) ٠

وقد كثر القسم فى النظم القرآنى،حيث أقسم عز وجل بنفسه،قال تعالى : **(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهــم ثم**

---

(١) الآيات بالترتيب : الأنعام ١٠٩ ، والتوبة ٥٦ ، ٧٤ ، والنور ٥٣.
(٢) انظر الإتقان ٤٩/٤ ٠ (٣) سورة النجم آية ١ ، ٢
(٤) الآيتان بالترتيب الأنبياء ٥٧ ، ويوسف ٩١ ٠

لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)(٥) فهو عز وجل يقسم بنفسه و (لا) زائدة لتأكيد معنى القسم ، وقيل لتظاهر النفى فى جواب القسم (لا يؤمنون) .

وأقسم بالنبى ﷺ فى قوله تعالى : **(لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون)** وفى هذا القسم تعظيم للنبى ﷺ وإظهار لمكانته عند ربه ، قال ابن عباس : (ما خلق الله ولا ذرأ ولا برأ نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره) ثم قرأ - رضى الله عنه - هذه الآية الكريمة(٦) .

وأقسم عز وجل بكثير مما خلق ، أقسم بالقرآن وبالسماء والأرض، وبالنجوم ومواقعها ، وبالشمس والقمر والليل والفجر والصبح والضحى والعصر ، وأقسم بالمرسلات والصافات والعاديات والنازعات والذاريات ، وأقسم بالبلد الأمين ، وبالتين والزيتون وطور سينين ، وبيوم القيامة ، وبما نبصر وما لا نبصر من عجائب خلقه ، وبدائع صنعه ، وقسمه عز وجل بهذه المخلوقات يدل على أنها من عظائم آياته ، ودلائل قدرته.

وجاء القسم على لسان الخلائق فى النظم الكريم ، جاء على لسان الأنبياء ، قال تعالى : **(وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين)**(٧) وجاء على لسان إخوة يوسف - عليه السلام - فى قوله : **(تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ... تالله لقد آثرك**

---

(٥) سورة النساء آية ٦٥ .

(٦) انظر الإتقان ٤٨/٤ .

(٧) سورة الأنبياء آية ٥٧ .

الله علينا)(٨) وجاء على لسان إبليس : (**قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين**) ص ٨٢ ، وعلى لسان المنافقين : (**واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن) النور ٥٣ (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) التوبة٦٢،** وعلى لسان الكفار يوم القيامة (**ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**)(*) ٠

ومما يلاحظ أن ما جاء فى النظم الكريم من قسم على لسان الخلائق ، لم يكن إلا بالله تعالى وصفاته وأفعاله ، وهذا يدل على أنه لا يجوز لأحد من الخلق أن يقسم إلا بالله ، وقد صرحت السنة بذلك ، حيث يقول ﷺ : (من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) أما قسمه عز وجل ، فقد جاء بنفسه وبغيره مما خلق ـ كما رأينا ـ فهو تبارك وتعالى يقسم بما يشاء من خلقه ، وينادى من يشاء ، ويامر من يشاء(٩)

ما الذى أقسم عليه القرآن ؟ :

وقفنا إجمالا على ما أقسم به عز وجل ، وعرفنا أن هذه الأمور التى أقسم بها تبارك وتعالى ، تدل على عظائم قدرته ، وعجائب صنعه، فى خلقه ، فما الذى أقسم عليه عز وجل بنفسه وبتلك الأمور ؟

لقد أقسم تبارك وتعالى على أصول الإيمان التى يجب الوقوف عليها ، والإيمان بها ، أقسم على أنه إله واحد ، ليرتدع الكفار ، وينزجر المشركون ، قال تعالى : (**والصافات صفا ٠ فالزاجرات زجرا ٠ فالتاليات ذكرا ٠ إن إلهكم لواحد ٠ رب السموات والأرض وما بينهما ورب**

---

٨) سورة يوسف آية ٨٥ ، ٩١ ٠

٩) ارجع إلى ص ٢٣٧ ٠

(*) سورة الأنعام : آية ٣٠ ٠

المشارق)(١٠) واكد عز وجل ما اقسم عليه فى الآية بربوبيته للسموات والارض وما بينهما ، وللمشارق والمغارب ، حثا على النظر والتأمل ، وزجرا للمعاندين المعرضين ٠

واقسم على أن محمدا رسول الله ، منزه عما اتهم به ، ما ضل وما غوى ، ولا ضن بما أرسل به إليه : (**يس ٠ والقرآن الحكيم ٠ إنك لمن المرسلين ٠٠ والنجم إذا هوى ٠ ما ضل صاحبكم وما غوى ٠٠٠ فلا اقسم بالخنس الجوارى الكنس ٠ والليل إذا عسعس ٠ والصبح إذا تنفس ٠ إنه لقول رسول كريم ٠ ذى قوة عند ذى العرش مكين ٠ مطاع ثم أمين ٠ وما صاحبكم بمجنون ٠ ولقد رآه بالأفق المبين ٠ وما هو على الغيب بضنين ٠ وما هو بقول شيطان رجيم**)(١١) ٠

وأقسم على أن القرآن حق ، وانه منزل من رب العالمين ، قام بتبليغه رسول كريم : (**فلاأقسم بمواقع النجوم ٠ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ٠ إنه لقرآن كريم ٠ فى كتاب مكنون ٠ لا يمسه إلا المطهرون ٠ تنزيل من رب العالمين ٠٠ فلا أقسم بما تبصرون ٠ وما لا تبصرون ٠ إنه لقول رسول كريم ٠ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ٠ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ٠ تنزيل من رب العالمين**)(١٢) ٠

وأقسم على تأكيد الوعد والوعيد : (**إنما توعدون لصادق ٠ وإن الدين لواقع**)(١٣) وعلى تأكيد أحوال الإنسان التى فطر عليها :

---

(١٠) سورة الصافات آية ١ ـ ٥ ٠

(١١) الآيات بالترتيب يس ١ ـ ٣ ، النجم ١ ، ٢ ، التكوير ١٥ ـ ٢٥٠

(١٢) الآيات بالترتيب : الواقعة ٧٥ ـ ٨٠ ، الحاقة ٣٨ ـ ٤٣ ٠

(١٣) سورة الذاريات آية ٥ ، ٦ ٠

(إن الإنسان لربه لكنود ٠٠ إن الإنسان لفى خسر ٠٠ إن سعيكم لشتى ٠٠ إنكم لفى قول مختلف ٠٠ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ٠٠ لقد خلقنا الإنسان فى كبد) (١٤) ٠

وأما القسم الذى جرى على لسان الخلائق ، فيختلف باختلاف المقسم ، فإبراهيم ـ عليه السلام ـ يقسم بالله على أنه سيكيد الأصنام ، ويجعلها جذاذا ، وإبليس ـ لعنه الله ـ يقسم بعزة الله على إغوائه الخلق أجمعين إلا عباد الله المخلصين ، وعلى أنه سيقعد لهم الصراط المستقيم ، وإخوة يوسف يقسمون بالله على أن أباهم ـ عليه السلام ـ لفى ضلاله القديم ، أى : خطئه وإفراطه فى حب يوسف ـ عليهما السلام ـ وأنه سيظل يذكره حتى يكون حرضا أو يكون من الهالكين ، ولما تبين لهم أن العزيز هو يوسف ، أقسموا على أن الله قد آثره عليهم ، وأنهم كانوا خاطئين ، والكفار يوم القيامة يقسمون بربهم ، وهم يتحسرون على ما فرطوا فى جنب الله ، يقسمون على أن ما جاءهم حق ، وما يصلونه من العذاب حق ٠

وفى مواقع كثيرة من مواقع القسم فى النظم القرآنى ، نجد حذف جواب القسم ، أو حذف القسم وبقاء جوابه ، وهذا الحذف لا يكون إلا لداع بلاغى يقتضيه المقام ٠

انظر إلى قوله تعالى : (**لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن**

---

(١٤) الآيات بالترتيب : العاديات ٦ ، العصر ٢ ، الليل ٤ ، الذاريات٨، التين ٤ ، البلد ٤ ٠

من الذين أوتوا الكتـاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا »(١٥) فقد حذف القسم لوضوحه وظهـوره ، ودلالة اللام عليـه ، والتقدير : والله لتبلون ، ولا يخفى عليـك أن القسم فى الآية الكريمة قد أكد هذه المعـانى : الابتـلاء فى الأمـوال والأنفس ، وسماع الأذى من أهـل الكتاب والمشركين ، وفى هذا حث على الصـبر الذى صـرح به فى ختام الآية الكريمة « **وإن تصـبروا وتتقـوا فإن ذلك من عزم الأمور** » .

ومنـه قوله تعـالى : « **لئن أشـركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخـاسرين** »(١٦) . إذ المعنى : والله لئن أشركت ، فحذف القسـم لظهوره ودلالة اللام عليه ، وفى توجيه هذا الوعيد إلى النبى - ﷺ - ما يشعر بعظم الشـرك ، فإذا كان محمد - ﷺ - وهو من الله بمكان ، يقال له هذا فما بالنـا بغيره من المتقاصرين .

وشىء آخـر وراء هذا الوعيد ، وهو الإشـارة إلى أن محمـدا - ﷺ - بشـر ، يؤمـر وينهى ويتوعد ، شـأنه فى ذلك شـأن البشر ، ويجـرى عليـه ما يجرى عليهم ، إن له منزلة عاليـة ، وهى منزلة النبـوة ، واصطفاء الله تعـالى له ، لكن لا يتجـاوز ذلك إلى مرتبـة الألوهية ، فهو بشـر رسول « **قـل سبحـان ربى هـل كنت إلا بشـرا رسـولا** »(١٧) .

ومما حذف فيـه جواب القسم قوله تعـالى : « **ق والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جـاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب** »(١٨)

---

(١٥) آل عمـران : ١٨٦ .　　(١٦) الزمـر : ٦٥ .
(١٧) الإسـراء : ٩٣ .　　(١٨) ق : ١ ، ٢ .

فقد حذف جواب القسم فى الآية الكريمة ، وفى حذفه حث على النظر وتدبر القرآن ، للوصول إلى الجواب الذى أقسم الله عليه ، إنه يقسم بالقرآن المجيد هنا ، وفى سورة (ص) يقسم بالقرآن ذى الذكر **« ص والقرآن ذى الذكر • بل الذين كفروا فى عزة وشقاق »**(١٩) وفى الموضعين طوى الجواب لتذهب النفس كل مذهب فى تقديره ، فقد قالوا إن المعنى : والقرآن المجيد إنك لمنذر ، وقيل إن المراد : والقرآن ذى الذكر إنا أنزلناه بالحق لتنذر به الناس ، وقيل تقديره : لتبعثن ، فالغرض من طى الجواب حث النفس على تأمل القرآن ، وتدبر آياته ، للوقوف على ما يريده الله تعالى ، والإحاطة بما وراء القسم من معان جليلة •

وما من ريب فى أن جواب القسم لا يحذف إلا إذا كان فى القسم دلالة عليه ، وإشعار به ، ولذا يكون حذفه أبلغ وأوجز ، فالقسم فى الآيتين الكريمتين بالقرآن المجيد ذى الذكر ، وهذا يدل على أن القرآن وما نطق به حق ، وتذهب النفس فى تقدير الجواب المحذوف كل مذهب فى ضوء ما أشعر به القسم •

وانظر فى قوله تعالى : **« ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا •• »**(٢٠) فقد طوى جواب القسم فى الآية لدلالة القسم والتقرير بالاستفهام عليه ، والمعنى : قالوا : بلى وربنا إنه لحق ، ويشعر طيه بما ينتاب أولئك الكفرة ويعتريهم من أحزان وآلام ، وندم وتحسر ، وكان الكلمات ـ لشدة ما هم

---

(١٩) سورة ص : الآيتان ١ ، ٢ •

(٢٠) سورة الأنعام : آية ٣٠ •

فيــه - لا تسعفهم لإتمام الجواب .

هذا وبإنعام النظر فى القسم القرآنى يتجلى لنا التناسب التام بين القسم وجوابه ، انظر إلى قوله تعـالى : « **قالوا تالله تفتـأ تذكـر يوسف حتى تكون حرضـا** »(٢١) تجد التلاؤم واضحـا بين القسم (تالله) وجوابه (تفتـأ تذكـر يوسف حتى تكون حرضـا) فلمـا كان القسم بأغرب حـروفه وهو التـاء ، فقد جاء الجواب بأغرب الأفعال الناسخة وهو (تفتـأ) وبأغرب ألفـاظ الهـلاك وهو (الحـرض) وهـذه الغـرابة فى القسم وجوابه تتلاءم مع غـرابة المطلب ، فليس هنـالك أغرب ولا أعجب من أن يطلب من والد أن ينسى فلذة كبده .

وقد حذف الحرف (لا) من جواب القسم ، إذ التقدير : تالله لاتفتأ وهـذا الحذف يشعر أيضـا بغـرابة المطلب ، ورغبة الأبنـاء فى طى يوسف ونسيانه ، وإبعاده عن خيـال أبيهم(٢٢) .

وفى قوله تعـالى : « **والضحى . والليـل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قـلى** »(٢٣) أقسم عز وجـل بآيتين عظيمتين من آياته وهما (الضحى والليـل إذا سجى) . يقول السيوطى مجليـا التلاؤم بين هذا القسـم وجوابه : « وتأمـل مطابقة هذا القسم ، وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنـه ، حتى قال أعداؤه : ودع محمـد ربه ، فأقسم بضـوء النهـار بعد ظلمـة الليـل ، على ضـوء الوحى ونوره بعد ظلمـة احتباسه واحتجابه »(٢٤) .

وتأمل قوله تعـالى : « **والليـل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى .**

---

(٢٢) ارجع إلى ص ١١٤ . (٢٣) الضحى : ١ - ٣ .
(٢٤) الإتقـان ٥١/٤ .

وما خلق الذكر والأنثى • إن سعيكم لشتى »(٢٥) حيث تجلى التقابل فى القسم بين الليل وغشيانه والنهار وتجليه ، وبين الذكر والأنثى ، ولما تجلى هذا التقابل وبرز فى القسم ، جاء الجواب (إن سعيكم لشتى) مبينا التفاوت فى السعى ، ثم استمر هذا التقابل فى السورة الكريمة بين (الإعطاء والتقوى والتصديق) و (البخل والاستغناء والتكذيب) وبين التيسير لليسرى والتيسير للعسرى ، وبين الأشقى الذى كذب وتولى ، والأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى •

وخذ قوله تعالى : « **والسماء ذات الحبك • إنكم لفى قول مختلف »**(٢٦) تجد تلاؤم جواب القسم (إنكم لفى قول مختلف) مع هذا الوصف الذى وصفت به السماء (ذات الحبك) فالحبك هى الطرائق ، ولما كان هذا الوصف مشعرا بالتشعب والاختلاف ، جاء الجواب (إنكم لفى قول مختلف) مبرزا اختلافهم وتناقضهم فى وصف النبى – ﷺ – ووصف القرآن ، بالسحر والشعر والجنون والكهانة ، وكونه أساطير الأولين ، وقول الكفرة لا يكون مستويا إنما هو متناقض مختلف(٢٧) •

وبهذا يتبين لنا وضوح التناسب بين القسم وجوابه ، أى : بين المقسم به والمقسم عليه فى النظم الكريم ، وقد يدق هذا التناسب ويخفى عند النظرة العاجلة ، ولكنه يتضح ويتجلى بالتأنى وإنعام النظر فى سياق الآيات الكريمة •

---

(٢٥) سورة الليل : ١ – ٤ •

(٢٦) سورة الذاريات : ٧ ، ٨ •

(٢٧) انظر الكشاف ١٤/٤ •

وضع الخبر موضع الإنشاء والإنشاء موضع الخبر

قد يقتضى ظاهر السياق والمقام استعمال (الإنشاء) ولكن المتكلم يعدل عنه إلى الخبر لداع بلاغى ، وقد يقتضى التعبير بالخبر فيعدل عنه إلى الإنشاء لغرض يقصد إلى تحقيقه .

فمما عدل فيه عن الإنشاء إلى الخبر قوله تعالى : « **قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** »(١) إذ جملة (يغفر الله لكم) جملة دعائية ، فهى خبرية لفظا ، إنشائية معنى ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : اللهم اغفر لهم ، ولكنه عدل إلى الخبر إظهارا لرغبته - عليه السلام - فى تحقق المغفرة ووقوعها(٢) .

ومنه قوله تعالى : « **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين** »(٣) فالمراد بقوله : (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) الأمر بحفظ المساجد ، والتصدى لأولئك المفسدين الذين يسعون فى تخريبها ، وتخويفهم ومنعهم من دخولها ، والمعنى : احفظوا مساجد الله ، وخوفوا أولئك المفسدين ، ولا تمكنوهم من دخولها .

وقد عدل عن الأمر إلى الخبر لحث المسلمين على حفظ المساجد،

---

(١) يوسف : ٩٢ . (٢) انظر الكشاف ٣٤٢/٢ .

(٣) البقرة : ١١٤ .

والتصدى للكفار الذين يريدون تخريبها ، والإسراع إلى امتثال أمر الله وتنفيذه حتى يصبح خبرا واقعا وأمرا محققا .

ولذا لا يعترض معترض بأن الخبر فى الآية يتناقض مع الواقع حيث يدخل الكفار بيوت الله ولا يخافون ، لأن المعنى - كما بينا - على الإنشاء ، وحث المسلمين على تحقيق ذلك .

ونحوه قول المصطفى - ﷺ - : « لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب » إذ المراد النهى عن الاجتماع ، أى : لا تجمعوا فى جزيرة العرب دينين ، وقد جاء هذا النهى خبرا ، لحمل المسلمين على تحقيق ذلك وتحصيله ، ولحثهم على الجهاد فى سبيل الله ، ورفع راية الإسلام حتى لا تعلوها راية .

ومنه قوله تعالى : « **قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون** »(*) حيث وضع الخبر (تزرعون سبع سنين دأبا) موضع الإنشاء ، لأن المراد الأمر بالزراعة بدليل قوله تعالى (فما حصدتم فذروه فى سنبله) والغرض من وضع الخبر موضع الإنشاء فى الآية الكريمة : الحث على تحقق الفعل ووقوعه ، ورغبة يوسف - عليه السلام - فى أن يوجد ، حتى وكأنه قد وجد وتحقق ، وصار خبرا يخبر بوقوعه ويحكى وجوده .

ومثله قوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ..** »(٤) فالمعنى على الأمر بالإيمان

(*) يوسف : ٤٧ .

(٤) الصف : ١٠ ، ١١ .

والجهاد ، وقد عبر بالخبر (تؤمنون ·· وتجاهدون) ووضع موضع الإنشاء للحث على تحقق الإيمان والجهاد فى سبيل الله ، وكأنهما قد تحققا ، وصارا خبرين يخبر عن وجودهما ووقوعهما ·

يقول الزمخشرى : « وهو خبر فى معنى الأمر ، ولهذا أجيب بقوله (يغفر لكم) وتدل عليه قراءة ابن مسعود – رضى الله عنه – : آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا ، فإن قلت : لم جئ به على لفظ الخبر ؟ قلت : للإيذان بوجوب الامتثال ، وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين ، ونظيره قول الداعى : غفر الله لك ، ويغفر الله لك ، جعلت المغفرة لقوة الرجاء كأنها كانت ووجدت »(٥) ·

وتأمل الآيات الكريمة : « **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ·· والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ·· إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون** »(٦) تجد أن المراد بهذه الأخبار (يتربصن ·· يرضعن ·· لا يمسه) الإنشاء أى : الأمر بالتربص والإرضاع ، والنهى عن مس المصحف إلا على طهارة ، وقد عدل عن التعبير بالإنشاء إلى الخبر فى الآيات للحث على تحقق هذه الأفعال ، والالتزام بها ، وكأنها قد تحققت ، وأصبح من الممكن الإخبار عنها ·

وكذا القول فى قوله تعالى : « **وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا** »(٧) فقد عدل عن الإنشاء إلى

---

(٥) الكشاف ٩٩/٤ ، ١٠٠ ·

(٦) الآيات بالترتيب ، البقرة ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، الواقعة ٧٧ – ٧٩ ·

(٧) البقرة : ٨٣ ·

الخبر فى قـوله : (لا تعبدون إلا الله) الحث على تحقيـق العبـادة ووقوعها والإشعار بأن هذا الأمـر ينبغى أن يمتثل ، وأن يبـادر إلى تحقيقه حتى يصبح خبرا من الممكن أن يخبر عنه ويحكى •

ومما عدل فيـه عن الخبر إلى الإنشـاء قوله تعـالى : « **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حـذر المـوت فقـال لهم الله مـوتوا ثم أحيـاهم** »(٨) فظاهر السياق يقتضى أن يعبر بالخبر فيقال : أماتهم الله ثم أحياهم ، ولكنه عد إلى التعبير بالأمـر للدلالة على أنهم قد ماتوا جميعـا دفعـة واحدة ، لم يتخلف منهم أحد ، وتلك ميتـة خارجة عن العـادة لا تقع إلا بأمـر الله ، الذى إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون •

يقول الزمخشرى : « فإن قلت : ما معنى قـوله (فقال لهم الله موتوا) قلت : معنـاه فأماتهم ، وإنما جىء به على هذه العبـارة ، للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد ، بأمـر الله ومشيئته ، وتلك ميتـة خارجة عن العـادة كأنهم أمـروا بشىء فامتثلوه امتثالا من غير إباء ولا توقف »(٩) •

ومن ذلك قوله تعـالى : « **قـل أمـر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد** »(١٠) وقوله عز وجـل : « **قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون • من دونه** »(١١) فالمعنى : أمـر ربى بالقسط وبإقامة وجوهكم •• قال : إنى أشهد الله وأشهدكم ، فعدل عن الخبر إلى الأمـر فى الآيتين لأغراض بلاغيـة سبق بيانهـا عند حديثنا عن المخالفة فى صيغ الأفعـال ، فارجع إليهـا(١٢) •

---

(٨) البقرة : ٢٤٣ •

(٩) الكشـاف : ٣٧٨/١ •

(١٠) الأعـراف : ٢٩ •

(١١) هـود : ٥٤ ، ٥٥ •

(١٢) انظـر ص ١٧٥ •

الفصـــل والوصـــل

قال تعـــالى :

(إذا وقعت الواقعـة ليس لوقعتهـا كاذبة • خافضـة رافعـة)
الواقعـة : ١ ـ ٣

(التـائبون العـابدون الحامدون السـائحون الراكعون الساجدون الآمـرون بالمعـروف والنـاهون عن المنـكر والحافظون لحـدود الله)
التـوبة : ١١٢

(الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار)
آل عمـران : ١٧

(سيقولون ثلاثة رابعهـم كلبهم ويقولون خمسـة سادسهم كلبهم رجمـا بالغيب ويقولون سبعة وثامنم كلبهم قـل ربى أعلم يعدتهم)
الكهف : ٢٢

(وما أهلكنا من قـرية إلا لهـا منذرون) الشعراء : ٢٠٨

(وما أهلكنا من قـرية إلا ولها كتاب معلوم) الحجر : ٤ •

(من ذا الذى يقـرض الله قرضـا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون) البقرة : ٢٤٥ •

(وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون • الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) البقرة : ١٤، ١٥ •

(إن الأبرار لفى نعيم • وإن الفجار لفى جحيم) الانفطار ١٣، ١٤

(قـل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشـاء وتنزع الملك ممن تشـاء وتعـز من تشـاء وتذل من تشـاء بيدك الخير إنك على كل شىء قـدير) آل عمـران : ٢٦ •

(يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) الأعراف: ٣١ .

(وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا) البقرة : ٨٣

(قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون) هود ٥٤

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت. وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت) الغاشية : ١٧-٢٠

(آلم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) البقرة ١، ٢ .

(وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا) لقمان : ٧ .

(واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون) الشعراء : ١٣٢ - ١٣٤ .

(قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) يس : ٢٠ ، ٢١ .

(فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) طه : ١٢٠ .

(وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) البقرة : ٤٩ .

(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن)

فصلت : ٣٤

(الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى . وهل أتاك حديث موسى) طه : ٨ ، ٩ .

(٠٠ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) الحج : ٥ ٠

(وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين) يوسف : ٣٠ ٠

(فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) يوسف : ٣١ ٠

❋ ❋ ❋

تتكون الجملة من ألفاظ يضم بعضها إلى بعض وفق أسس وضوابط ، ويتكون الكلام من جمل يتصل بعضها ببعض ، وتتشابك وتتلاحم ، هذا التشابك وذاك التلاحم له ضوابط ، وله أسس وأصول ينبغى الإحاطة بها والتنبه لها ٠

فالعلاقات بين الجمل ، والترابط بين المفردات ، يقوم على أسس وضوابط ، وتلك الأسس والضوابط تحتاج إلى وعى من الدارس ، لكى يقف عليها ويحيط بها ، فهناك حروف تستخدم فى الربط بين الجمل ، وفى ربط المفردات ، وهى حروف العطف ، وهناك جمل يقوى الاتصال بينها ويشتد ، فلا تحتاج إلى هذه الحروف ، حيث تغنى عنها قوة الاتصال الداخلى بين تلك الجمل ، وهناك جمل تتباعد فلا يتأتى فيها الوصل بحروف العطف ٠

وقد شغل البلاغيون بذلك ودرسوا هذه العلاقات فى باب (الفصل والوصل) ويعد هذا الباب من أهم أبواب البلاغة ، لخفائه ، ودقة مسالكه ، وصعوبة مسائله ، ولهذا جعلوه البلاغة ، فقالوا فى إجابة السائل عنها : البلاغة معرفة الفصل من الوصل(١) ٠

---

(١) انظر : البيان والتبيين ٨٨/١

وعندما ننعم النظر فى مفردات الجملة فى القرآن الكريم ، ونتأمل كيف يتم الربط بينها ، وننظر بوعى فى العلاقات بين الجمل ، ونتأمل كيف تتلاقى ، يتجلى لنا العديد من الأسرار والمزايا واللطائف التى تكمن وراء نظم المفردات والجمل فى آيات الذكر الحكيم .

انظر فى قوله تعالى : « **إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة** »(٢) نجد هذين الوصفين (خافضة رافعة) قد أتيا متصلين بلا عاطف للدلالة على المبالغة فى التهويل والتفظيع ، فهذا الاتصال يدل على أنها تخفض وترفع فى آن واحد ، وفى سرعة خاطفة ، ولو عطف الوصفان فقيل : خافضة ورافعة ، لخفت هذا المعنى ، وزال أثره .

ومن البين أن الخافض الرافع على الحقيقة هو الله تعالى ، يخفض أقواما ويرفع آخرين ، يخفض أعداءه فى أسفل الدركات ، ويرفع أولياءه إلى أعلى الدرجات ، وقد نسب الخفض والرفع إلى الواقعة تجوزا للدلالة على المبالغة فى أهوال ذلك اليوم ، كما قدم الخفض على الرفع من أجل ذلك .

لقد بنى الكلام على المبالغة فى التهويل والتفظيع ، فقدم الخفض ، ونسب هو والرفع إلى الزمان (الواقعة) تجوزا ، وأتيا ملتحمين (خافضة رافعة) بلا عطف ، فسياق الكلام وما بنى عليه ، يرفض مجىء الواو ويأباها ، لمناقضتها للغرض المقصود منه .

وانظر فى الآيتين الكريمتين : « **التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله .... الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين**

---

(٢) سورة الواقعة : ١ - ٣ .

والمستغفرين بالأسحار »(٣) تجد فى آية التوبة أن الصفات قد توالت بلا عطف ما عدا الصفات الثلاث الأخيرة فقد جاءت معطوفة ، وفى آية آل عمران جاءت الصفات معطوفة ، علام يدل ذلك ؟ وما الغـرض من مجىء الواو وتركها بين هذه الصفات ؟

إن مجىء الواو بين الصفات يدل على كمال أولئك الموصوفين فى كل صفة على حدة ، وتركها يدل على أنها مجتمعة فيهم ، وكأنها صفـة واحدة ، فمجىء الواو دل على كمال الموصوفين فى كل صفة من الصفات المذكورة ، وتركها دل على كمال اجتماع هذه الصفات فى الموصوفين(٤)

ففى آية التـوبة جـاءت الصفات : (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون) بلا عطف ، فدل ذلك على اجتمـاع تلك الصفات فى المؤمنين ، وأن اجتماعها فيهم قد بلغ الغاية والكمال ، حتى كأنها صفـة واحدة ، وجاءت الصفات : (الآمـرون بالمعـروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله) معطوفة بالواو فدل ذلك على أنهم قد بلغوا الغـاية والكمال فى كل صفة منها على حدة ٠

وكذا مجىء الواو فى آية آل عمران : (الصـابرين والصـادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) دل مجىء هذه الواو على أن الذين اتقوا قد بلغوا الغـاية وحد الكمال فى كل صفة من الصفات المذكـورة ٠

وتأتى الواو بين الصفة وموصوفها ، أو بين الحال وصاحبها فيكون

---

(٣) الآيتان بالترتيب ، التوبة : ١١٢ ، آل عمران : ١٧ ٠

(٤) انظـر الكشاف ٤١٧/١ ٠

للكلام معنى يختلف عنه عند عدم مجيئها ، انظـر إلى قوله تعالى : **(سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجمـا بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ..)(٥)** مجىء الواو بين الصفة وموصوفها فى قوله : (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) يؤذن بصحة هذا القول وصوابه ، حيث دلت على تأكيد لصوق الصفة بموصوفها ، وكأنهم قد قالوا قولين ، قالوا هم سبعة ، وقالـوا ثامنهم كلبهم ، ومرد ذلك إلى ما فى الواو من معنى المغايرة ، وهذان القولان يؤكد كل منهما الآخر ، وهو ما آذن بصحة هذا القول ودل على صوابه ، ولذا جاء عقبه **(قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليـل)** .
ولم تأت الواو بين الصفة وموصوفها فى القولـين الآخرين : **(ثلاثـة رابعهم كلبهم ... خمسة سادسهم كلبهم)** حيث لم يرد هذا التأكيـد لعدم صحة القولين ، ولذا جاء عقبهما قوله تعالى : (رجما بالغيب).

يقول الزمخشرى : (فإن قلت : فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة ، ولم دخلت عليها دون الأولين ؟ قلت : هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخـل على الواقعـة حالا عن المعرفة فى نحو قولك : جاءنى رجل ومعه آخر ، ومررت بزيد وفى يده سيف، وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت ومستقر ، وهذه الواو هى التى آذنت بأن الذين قالوا (سبعة وثامنهم كلبهم) قالوه عن ثبات علم وطمأنينـة نفس ، ولم يرجمـوا بالظن كما رجم غيرهم ، والدليل عليه أن الله سبحانه أتبـع القولـين

---

(٥) سورة الكهف آية ٢٢ .

الأولين قوله (رجما بالغيب) وأتبع الثالث قوله (ما يعلمهم إلا قليل) (٦) ·

فالواو تأتى بين الصفة وموصوفها عندما يقتضى المقام تأكيد المعنى وتثبيته ، لأنها تدل على تأكيد لصوق الصفة بموصوفها ، وعلى أن اتصافه بها أمر ثابت ومستقر ، تأمل الآيتين الكريمتين :

(وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ·· وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) (٧) تجد أن الواو قد جاءت بين الصفة وموصوفها فى آية الحجر ، ولم تأت فى آية الشعراء ، ويرجع ذلك إلى أن الكتاب مما يمكن إخفاؤه وإنكاره ، فاقتضى ذلك مجيء الواو تأكيدا للصوق الصفة بموصوفها ، ودفعا لما قد يقع من إنكار الكتب ، أما المنذرون فلا يتأتى إنكارهم، ولذا خلت الآية من الواو، لأن المعنى لايحتاج إلى توكيد ·

وعندما تتلاقى الجمل يدق المسلك ، ويكون لواو العطف عندئذ شأن ، ويحتاج الدارس إلى مزيد من إنعام النظر فى تلك الجمل المتلاقية ، ليدرك ما بينها من صلات وروابط ، وليعرف متى يؤتى بالواو بين هذه الجمل ، ومتى يمتنع الإتيان بها ·

ففى قوله تعالى : (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون · الله يستهزيء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) (٨)

---

(٦) الكشاف ٤٧٩/٢ ·

(٧) الآيتان بالترتيب : الحجر ٤ ، والشعراء ٢٠٨ ·

(٨) سورة البقرة : الآيتان ١٤ ، ١٥ ·

تلاقت هذه الجمل : (إنا معكم ٠٠ إنما نحن مستهزءون ٠٠ الله يستهزىء بهم ٠٠ ويمدهم فى طغيانهم) وجاءت الثلاث الأولى بلا عطف ، ثم عطفت الرابعة على الثالثة بواو العطف ٠٠ ما سبب ذلك ؟

إن الجملة الثانية : (إنما نحن مستهزءون) مؤكدة للأولى (إنا معكم) فهى شديدة الاتصال بها ، وهذا يمنع مجىء الواو ، إذ بين الجملتين من التلاحم والوصل الداخلى ما يمنع الوصل الخارجى بحرف العطف ٠

وأما الجملة الثالثة : (الله يستهزىء بهم) فلا يتأتى عطفها على الجملتين السابقتين ، لأنها ليست من مقول المنافقين ، ولا يتأتى عطفها على قولهم ، أى : على جملة (قالوا) لأن استهزاء الله بهم ليس مقيدا بوقت خلوهم إلى شياطينهم ، وكذلك يمتنع عطفها على الجملة الشرطية (إذا خلوا ٠٠) لأنه وإن صح عطفها عليها إلا أن هذا العطف يوهم أنها معطوفة على قول المنافقين أو مقولهم ، ولذا وجب الفصل ٠

أما مجىء الواو بين جملتى : (الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم) فلأن الغرض هو الإخبار عن الله تعالى بهذين الخبرين ، والدلالة على أنه تعالى يفعل بهم أمرين : الاستهزاء والمد فى الطغيان، ولو تركت الواو فقيل : (يستهزىء بهم يمدهم فى طغيانهم) لتغير المعنى، إذ يصبح المفهوم أن الله تعالى يجازيهم بجزاء واحد هو الاستهزاء الذى فسر بالمد فى الطغيان ، وهذا غير مراد ٠

وتأمل قوله تعالى : **(من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون)(٩)**

---

(٩) سورة البقرة آية ٢٤٥ ٠

تجد أن الواو قد جاءت بين هذه الجمل : (يقبض ·· يبسط ·· اليه ترجعون) لأن الغرض الإخبار بهـا عن الله تعـالى ، والـدلالة على اختصاصه بها ، ولا يتأتى ترك الواو بين هذه الجمل لأنه لا سبيل للوصل بينهـا إلا بهـا ·

والآية مسـوقة للحث على الإنفـاق فى سبيـل الله ، حيث بدأت بالاستفهام ، ثم جعلت المنفق مقرضا لله تعـالى ، وعجلت له الجـزاء المضاعف ، كما تنبىء بذلك هذه الفاء (فيضاعفه) واختتمت بالجملة الحالية : (والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون) التى دلت على اختصاصه تعالى بالقبض والبسط وكون الرجوع إليه ، لقد تضاعفت وسائل الحث على الإنفاق ـ كما ترى ـ والذى نود أن نلفت إليه وننبه عليـه ، أن أجزاء الجملة الحالية يجب وصلها بالواو ، إذ لا يستقيم نظمها إلا بهذا الوصل ·

وكذا القول فى قوله تعالى : (**قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخـير إنك على كل شىء قدير**)(١٠) حيث توالت هذه الجمل التى تكشف عن قدرة الله تعالى وكمال ملكه ، ووصل بينها بالواو : (تؤتى الملك ·· وتنزع الملك ··· وتعز ··· وتذل ···) ثم فصلت جملة : (بيـدك الخير) عن هذه الجمل ، لأنها جملة تعليلية ، تبين سبب اختصاصـه تعالى بما تقدم ، والجمل التى هذا شانها لا تعطف بالواو ، لأن بينهـا وبين ما تقدم وصلا يمنع هذا العطف ·

---

(١٠) سورة آل عمران آية ٢٦ ·

ثم جاءت جملة : (إنك على كل شىء قدير) مؤكدة لهذه الجملة التعليلية ، ملتحمة بها ، فامتنعت الواو كذلك ، لما بين الجملتين من وصل قوى منع الوصل الخارجى بالواو .

وقد وضع البلاغيون ضابطا يحدد الجمل التى يجب أن يوصل بينها بالواو ، وهو : أن تتفق الجملتان خبرا أو إنشاء لفظا ومعنى أو معنى فقط ، وأن توجد بينهما المناسبة المسوغة للعطف ، ولا يمنع من العطف مانع .

ففى قوله تعالى : (**إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم**)(١١) اتفقت الجملتان فى الخبرية لفظا ومعنى ، وتحقق التناسب بينهما ، حيث تقابل طرفا الإسناد فى كل منهما ، الأبرار والفجار ، والنعيم والجحيم ، ولم يمنع من العطف مانع ، كما رأينا فى (إنا معكم إنما نحن مستهزءون . الله يستهزىء بهم) وفى (بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) حيث منع الوصل الداخلى بين هذه الجمل من الوصل الخارجى بالواو ، وسيأتى لهذا مزيد بيان عند تجلية مواضع الفصل .

وفى قوله تعالى : (**يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**)(١٢) اتفقت الجمل فى الإنشائية لفظا ومعنى ، وتحقق بينها التناسب - كما ترى - حيث اتحد المسند إليه فى كل منها وهو واو الجماعة ، وتناسبت الأفعال المأمور بها وهى أخذ الزينة والأكل والشرب وعدم الإسراف ، ولم يمنع من العطف

---

(١١) سورة الانفطار : الآيتان ١٣ ، ١٤ .

(١٢) سورة الأعراف آية ٣١ .

مانع ، وقد فصلت الجملة التى ختمت بها الآية الكريمة : (**إنه لا يحب المسرفين**) لأنها خبرية وتعليلية ، فلا يتأتى وصلها بما تقدم من جمل إنشائية .

وانظر فى الآيتين الكريمتين : (**وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا .. قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون**)(١٣) حيث وصل بين جمل الآيتين ، لاتفاق جمل الأولى فى الإنشائية معنى ، لأن جملة (لا تعبدون إلا الله) خبرية لفظا ، إنشائية معنى ، وقد مر بنا السر البلاغى لوضع الخبر موضع الإنشاء بها .

واتفاق جملتى الآية الثانية فى الخبرية معنى ، لأن جملة (واشهدوا) إنشائية لفظا خبرية معنى ، فهى مما وضع فيه الإنشاء موضع الخبر لغرض بلاغى ، كما مر بنا (١٤) .

والتناسب واضح بين الجمل فى الآيتين ، بين الأمر بعبادة الله تعالى ، وبالإحسان إلى الوالدين ، وإلى ذى القربى واليتامى والمساكين ، والقول الحسن للناس جميعا ، وذلك فى الآية الأولى ، وبين الشهادتين ، شهادة الله تعالى وشهادة القوم على براءته - عليه السلام - مما يشركون ، وذلك فى الآية الثانية .

وقد يخفى التناسب بين الجمل فى بعض الآيات الكريمة عند النظرة العاجلة ، ولكن بالتأنى وإنعام النظر يتجلى التناسب ويتضح ، انظر إلى قوله تعالى : (**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى**

---

(١٣) الآيتان بالترتيب : البقرة ٨٣ ، وهود ٥٤ .

(١٤) ارجع إلى ص ٢٥٢ ، ص ١٧٥ .

السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت)(١٥) ما وجه التناسب بين الإبل والسماء والجبال والأرض؟ النظرة العاجلة لا ترى تناسبا بينها ، ولكن بإنعام النظر يتجلى لنا أن أهل الوبر تكون عنايتهم مصروفة إلى الإبل ، ينتفعون بها فى جل معاشهم ، والانتفاع بها يتوقف على أن ترعى وترتوى ، وذلك يكون بنزول الماء ، فيكثر تقلب وجوههم فى السماء ، ولابد لهم من مأوى يتحصنون به ، ولا شىء لهم فى ذلك كالجبال ، وهم دائمو التنقل فى الأرض لتعذر طول إقامتهم فى مكان ، أرأيت كيف اتضحت المناسبة وتجلت بين الإبل والسماء والجبال والأرض فى ذهن العربى وخيال أهل الوبر (١٦) ؟ .

هذا والتناسب بين الجمل مطلوب سواء وصلت تلك الجمل أم فصلت ، فلا يصح أن تتلاقى الجمل وتقرن موصولة أو مفصولة إلا عند تحقق المناسبة بينها ، وإلا كان الكلام معيبا ، وقد صرح البلاغيون بذلك فى علم البديع عندما تحدثوا عن (مراعاة النظير) ونبهوا إلى ضرورة مراعاة التجانس والتآلف والتآخى بين ألفاظ الكلام وجمله .

فمراد البلاغيين بوجود المناسبة المسوغة للعطف بين الجمل الموصولة ، مناسبة خاصة وهى : أن يكون بين طرفى الإسناد فى كل جملة تناسب وتلاق ، ولا يريدون بذلك : التجانس والتآلف والتآخى بين أجزاء الكلام ، فهذا تناسب عام ، والبلاغيون لا يعنون أن الجمل المفصولة لا يراعى فيها هذا التناسب العام ، بل الجمل جميعها سواء فى ذلك ، لا تلتقى وتكون كلاما إلا وهى متناسبة متآلفة .

---

(١٥) سورة الغاشية : الآيات ١٧ ـ ٢٠ .

(١٦) انظر الكشاف ٤/٢٤٧ .

وعندما ننظر فى النظم القرآنى ، ونتامل الجمل التى تلتقى بلا عطف، نجد أن هذه الجمل إما أن تكون بينها ترابط قوى، واتصال تام ، يمنع العطف بالواو ، وهو ما عرف عند البلاغيين بكمال الاتصال وشبه كمال الاتصال ، وإما أن تكون فاقدة للمناسبة الخاصة التى تسوغ الوصل ، وتجوز العطف بالواو ، وهذا ما يعرف بكمال الانقطاع وشبه كمال الانقطاع .

انظر إلى قوله تعالى : (**الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**)(١٧) تجد أن جملة (ذلك الكتاب) قد دلت على قصر الكتاب على القرآن ، فهو الكتاب الكامل ، وجملة (لا ريب فيه) تفيد نفى الريب عنه ، فهى تؤكد كماله ، وجملة (هدى للمتقين) أفادت المبالغة فى هدايته ، حيث نكر (هدى) وأخبر به عن الكتاب ، وفرق بين : هو هدى ، وهو هاد ، إنه جنس الهدى ، وهذا ما يدل على كمال هدايته ، لقد التقت هذه الجمل التى تدل على المبالغة فى : كمال القرآن ، ونفى الريب عنه ، وكمال هدايته ، فهى جمل متصلة ملتحمة، يؤكد بعضها بعضا ، بينها وصل قوى يمنع العطف بالواو .

وخذ قوله تعالى : «**ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم**»(*) تجد أن الجملة الثانية (إن هذا إلا ملك كريم) مقررة للأولى (ما هذا بشرا) ومؤكدة لها ، فإن نفى البشرية عنه ـ عليه السلام ـ يستلزم كونه ملكا، ولذا لا يتأتى الوصل بينهما بالواو ، كيف وبينهما وصل أقوى، وارتباط أشد من هذا الوصل الخارجى الذى يتم بالواو .

وكذا القول فى الآية الكريمة : (**وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا**

---

(١٧) سورة البقرة : الآيتان ١ ، ٢ .

(*) سورة يوسف : آية ٣١ .

كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا)(١٨) حيث وقعت جملة : (كأن فى أذنيــه وقرا) مؤكدة ومقررة لجملة (كأن لم يسمعها) فهى وثيقة الصلة بها ، ولا يتأتى مجىء الواو بينهما ، ولاحظ الترقى فى وصف هذا المعرض المتكبر ، حيث شبه فى الجملة الأولى بحال من لم يسمع الآيات ، لأنه لا يعــرض عن القرآن ويتولى عن آياته إلا من لم يسمع ، وهذا يشعر بأن من سمع الآيات لا يتصور منه التولى والاستكبار ، إذ تأخذه تلك الآيات لما فيها من الإعجاز ، وهم أرباب البيان ، ولذا جــد المشركون فى صد الناس عن سماع القــرآن ، قال تعــالى : **«وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القــرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »(١٩)** ٠

ثم شبه فى الجملة الثانية بحال من فقد السمع كلية ، وصار فى أذنيه وقر ، فالجملة الأولى تصور المعرض المستكبر غير سامع ، وسمعه صحيح يستطيع أن يسمع به ، والجملة الثانية تصوره فاقدا الســمع ، وهذا أبلغ فى الذم والتقبيح ، لأنه صــار لا يسمع ، فأنى لفــاقد السمع أن يســمــع ٠

ومما ينبغى التنبيه إليه ، أن نون (كأن) فى التشبيه الثانى جاءت ثقيلة مشددة ، ليتلاءم ذلك مع ثقل الوقر ، الذى صار حقيقة فى صمم الأذنين ، أما فى التشبيه الأول فقد جاءت مخففه ، فتخفيفها يتلاءم مع وجود السمع ، إذ السمع باق لم يفقد ٠

وفى قوله تعالى : **(واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ٠ أمدكم بأنعام وبنين ٠ وجنات وعيون)(٢٠)** نجد أن الأنعام والبنين والجنات والعيون جزء مما أمدهم الله به ، فالجملة الثانية (أمدكم بأنعام وبنين وجنات

---

(١٨) سورة لقمان آية ٧ ٠

(١٩) سورة فصلت آية ٢٦ ٠

(٢٠) ســورة الشعــراء : الآيات ١٣٢ ـ ١٣٤ ٠

وعيون) مرتبطة بالجملة الأولى (أمدكم بما تعلمون) ارتباط البدل بالمبدل منه (بدل البعض) ولهذا لم تعطف عليها لأن الصلة بينهما صلة قوية تمنع العطف بالواو .

وانظر فى قوله تعالى : **(بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا إذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون ... قال ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسالكم أجرا وهم مهتدون)**(٢١) تجد أن جملة (قالوا إذا متنا ..) مرتبطة بجملة (قالوا مثل ما قال الأولون) ارتباط البدل بالمبدل منه (بدل الكل) وجملة (اتبعوا من لا يسالكم ..) مرتبطة بجملة (اتبعوا المرسلين) ارتباط بدل الاشتمال ، وتلك الروابط منعت الوصل بالواو ، لأنها روابط قوية لا يتأتى معها العطف.

وعند النظر فى جملة (البدل) نراها أوفى بالغرض ، وأدل على المراد ، من جملة (المبدل منه) فقوله تعالى (أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون) أوفى بالغرض وهو الحث على التدبر وشكر النعمة من قوله (أمدكم بما تعلمون) حيث فصلت جملة (البدل) بعض النعم وجلتها وأبرزتها أمام الكفرة ، دون إحالة إلى علمهم وهم المعاندون ، والمعاند لا يقر النعم التى يعلمها ، بل يجحد وينكر ، لذا كان البدل أوفى بالغرض وأدل عليه .

وقوله تعالى : **(قالوا إذا متنا وكنا ترابا ..)** أوفى بالدلالة على تمسك الكفرة بمقالة الآباء ، لأنها أبرزت تلك المقالة التى تمسك بها الكفار ، ورددوها دون تفكير ، وهى إنكارهم البعث بعد الموت، وفى هذا ما لا يخفى من الدلالة على ضعف عقولهم .

---

(٢١) الآيات بالترتيب : المؤمنون ٨١ ، ٨٢ ، ويس ٢٠ ، ٢١ .

وقوله تعالى : (**اتبعوا من لا يسألكم أجرا ..**) أوفى بالغرض وهو الحث على اتباع الرسل والإيمان بهم ، لأنها أبرزت صفاتهم ، فهم مهتدون ، ولا يسألون أجرا على تبليغ الرسالة ، وهذا أدعى لاتباعهم والإيمان برسالتهم .

وتأمل قوله تعالى : (**فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى**)(٢٢) تجد أن جملة (قال يا آدم هل أدلك) قد بينت الجملة الأولى (فوسوس إليه الشيطان) ففى هذه الجملة خفاء وإبهام تتطلع النفس إلى إيضاحه وبيانه ، وقد جاءت الجملة الثانية موضحة ومبينة لذلك ، فهى مرتبطة بالجملة الأولى ارتباط عطف البيان بالمعطوف عليه ، وهذا الارتباط يمنع الوصل بالواو .

وكذا القول فى قوله تعالى : (**وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم**)(٢٣) حيث وقعت الجملتان : (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) بيانا لجملة : (يسومونكم سوء العذاب) فلم يعطفا عليها بالواو ، لما بين البيان والمبين من صلة قوية تمنع الوصل بالواو .

وقد جاءت هذا الواو فى قوله تعالى : « **وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم** »(٢٤) فمجىء الواو فى هذه الآية قد جعل التذبيح جنسا آخر ، وليس بيانا لسومهم سوء العذاب ، وكأن التذبيح قد أوفى على جنس العذاب ، وزاد عليه ، وكذا الاستحياء

---

(٢٢) سورة طه آية ١٢٠ .
(٢٣) سورة البقرة آية ٤٩ .
(٢٤) سورة إبراهيم آية ٦ .

يصير فى هذا السياق جنسا ثالثا غير تذبيح الأبناء وسوم سوء العذاب ٠

ومرد ذلك إلى اختلاف السياق والمقام ، فالمقام فى سورة إبراهيم مقام تذكير بأيام الله ، وهذا يقتضى تعداد النعم وتفصيلها ، أما المقام فى سورة البقرة فمقام تذكير بجنس النعمة ، ومثل هذا المقام لا يحتاج إلى تعداد وتفصيل ، بل يكفى فيه مجرد التذكير(٢٥) ٠

وانظر فى قوله تعالى : (**قالوا إنما أنت من المسحرين ٠ ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ٠٠ قالوا إنما أنت من المسحرين ٠ وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ٠ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين**)(٢٦) تجد أن الواو قد ذكرت بين جملتى : (إنما أنت من المسحرين ٠٠ ما أنت إلا بشر مثلنا) فى مقالة أصحاب الأيكة لشعيب ـ عليه السلام ـ ولم تذكر فى مقالة ثمود لصالح ـ عليه السلام ـ ما سبب ذلك ؟ وما مرجعه؟

يعلل الزمخشرى ذلك بقوله : (فإن قلت : هل اختلف المعنى بادخال الواو ههنا وتركها فى قصة ثمود ؟ قلت : إذا أدخلت فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم ، التسحير والبشرية ، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحرا ، ولا يجوز أن يكون بشرا ، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد ، وهو كونه مسحرا ، ثم قرر بكونه بشرا)(٢٧)٠

ويرجع ذلك إلى أن أصحاب الأيكة قد أرادوا أن يعددوا فى مقالتهم

---

(٢٥) ارجع إلى ص ١٠ ٠

(٢٦) الآيات بالترتيب : الشعراء ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٨٥ ـ ١٨٧ ٠

(٢٧) الكشاف ١٢٧/٣ ٠

الأسباب المنافية للرسالة ، ولذا أضافوا (وإن نظنك لمن الكاذبين) فصارت الأسباب فى اعتقادهم ثلاثة :

١ ـ كونه مسحرا (إنما أنت من المسحرين) ٠

٢ ـ كونه بشرا (وما أنت إلا بشر مثلنا) ٠

٣ ـ كونه كاذبا (وإن نظنك لمن الكاذبين) ٠

أما ثمود فلم يقصدوا تعداد هذه الأسباب ، وإنما قصدوا إلى رد الرسالة ورفضها ، ولذا ذكروا سببا واحدا لهذا الرفض ، وهو كونه مسحرا ، ثم قرروه بكونه بشرا مثلهم ٠

وبهذا يتبين لنا أنه لكى ندرك الارتباط بين الجمل ، لابد من الإحاطة بالسياق ، والوقوف على قرائن أحواله ، فإن بناء الجمل ومعرفة كيفية التلاقى بينها تابع للمقام ، ومتوقف على الغرض المسوق له الكلام ٠

وقد يكون الترابط بين الجملتين والاتصال بينهما بمثابة الترابط بين السؤال وجوابه ، فيمتنع وصلها بالواو كما يمتنع عطف الجواب على سؤاله ٠

انظر إلى قوله تعالى : **(وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين)(٢٨)** نجد أن الاتصال بين هذه الجمل كالاتصال بين الأسئلة وأجوبتها ، فإن الجملة الأولى (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) تثير فى النفس تساؤلا عن سبب تلك المراودة ، وتأتى إجابة هذا التساؤل فى قوله : (قد شغفها حبا) وتلك الإجابة تثير تساؤلا آخر عن رأى النسوة فى

---

(٢٨) سورة يوسف آية ٣٠ ٠

هذا الذى حدث لامرأة العزيز ، وتغلغل حب يوسف ـ عليه السلام ـ فى شغاف قلبها ، وتأتى الإجابة فى قوله : **(إنا لنراها فى ضلال مبين)** لقد اتصلت هذه الجمل وتداخلت هذا التداخل ، الذى لا يتأتى معه الوصل بالواو ، لأن ما بينها من الترابط أقوى من الوصل الخارجى .

وقد يكون ترك الواو ومجىء الجمل مفصولة راجعا إلى فقدان التناسب بينها ، أى : التناسب الخاص المسوغ للعطف ، وذلك عند اختلاف الجمل خبرا وإنشاء لفظا ومعنى أو معنى فقط .

انظر إلى قوله تعالى : **(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن)**(٢٩) تجد الجملة الأولى خبرية لفظا ومعنى ، والثانية إنشائية لفظا ومعنى ، فلا تناسب بينهما ، ولذا فصلتا ، حيث لا مسوغ للوصل بينهما بواو العطف .

وفى قوله تعالى : **(قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم)**(٣٠) تجد أن الجملة الأولى (لا تثريب عليكم اليوم) خبرية لفظا ومعنى ، والجملة الثانية (يغفر الله لكم) خبرية لفظا ، إنشائية معنى ، لأنها جملة دعائية ، ولذا فصل بينهما لاختلافهما إنشاء وخبرا ، معنى لا لفظا .

وقد تتحد الجملتان خبرا أو إنشاء ، ويفصل بينهما بسبب فقدان التناسب الخاص ، كما فى قوله تعالى : **(الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما انزل إليك وما انزل**

---

(٢٩) سورة فصلت آية ٣٤ .

(٣٠) سورة يوسف آية ٩٢ .

من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ٠ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ٠ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)(٣١) حيث فصل بين قوله : (الذين يؤمنون) وقوله : (إن الذين كفروا ٠٠) لعدم وجود المناسبة الخاصة التى تسوغ وصلهما، أما المناسبة العامة التى تصحح جمعهما فى سياق واحد ، فهى محققة ، إنها التضاد بين القصتين ، قصة المؤمنين وقصة الكفرة ، فهذا التضاد يؤلف بين أجزاء الكلام ، ويبعث على التشويق والتطلع ، فالمخاطب عندما يقف على قصة المؤمنين يتطلع إلى الوقوف على ما يقابلها ، وهو قصة الكفرة ٠

هذا وقد توجد الواو بين الجمل التى اختلفت إنشاء وخبرا ، كما فى قوله تعالى : (**الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ٠ وهل أتاك حديث موسى**)(٣٢) أو بين الجمل الخبرية أو الإنشائية التى فقدت المناسبة الخاصة المسوغة للعطف ، كما فى الآيات : (**ومن يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون٠٠٠٠ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى٠٠٠٠قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ٠ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم** ٠٠)(٣٣) فتلك الواو ليست واو العطف التى تصل بين الجمل المتناسبة ، وإنما هى واو الاستئناف ، أو واو القصة ـ كما سماها البلاغيون ـ فهى تعطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر ،

---

(٣١) سورة البقرة آية ٣ ـ ٦ ٠

(٣٢) سورة طه آية ٨ ـ ٩ ٠

(٣٣) الآيات بالترتيب : الأعراف ١٨٦ ، الحج ٥ ، الأنعام ٥٠ ، ٥١٠

أو تعطف جملة أو عدة جمل مسوقة لغرض على جملة أو عدة جمل مسوقة لغرض آخر .

يقول الزمخشرى موجها العطف فى قوله تعالى :(**أعدت للكافرين . وبشر الذين آمنوا**) : (فإن قلت : علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطفه عليه ؟ قلت : ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى يعطف عليه ، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين ، فهى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين ، كما تقول : زيد يعاقب بالقيد والإرهاق وبشر عمرا بالعفو والإطلاق)،(٣٤) .

وهكذا يتجلى لنا أن الفصل والوصل بين الجمل باب دقيق المسلك، صعب المأخذ ، يحتاج إلى وعى وطول ممارسة لطرق القول ، وصياغات الكلام ، حتى يقف الدارس على مسائله .

ويزداد الأمر دقة وصعوبة ، عندما يكون المطلب هو دراسة الفصل والوصل بين الجمل ، فى النظم القرآنى المعجز ، إذ يحتاج الدارس عندئذ إلى الإحاطة بسياق الجمل ، والوقوف على الغرض المسوقة له ، وليس ذلك هينا ، بل يحتاج إلى معاناة وصبر ، وإنعام نظر ، وحسن تدبر لآيات الذكر الحكيم ، حتى يتضح للناظر ما تقصد إليه من معان وأغراض .

* * *

---

(٣٤) الكشاف ٢٥٣/١ .

الإيجـاز والإطنـاب

قال تعالى :

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القـربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) • النحل ٩٠

(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) • الأعراف ١٩٩

(إن ربكم الله الذى خلـق السـموات والأرض فى سـتة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمـر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)•

الأعراف ٥٤

(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) • الحجر ٩٤

(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيـه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسـلين) •

القصص ٧

(يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) • الزخرف ٧١

(ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقـون) •

البقرة ١٧٩

(وما تلك بيمينك ياموسى • قال هى عصاى أتوكأ عليهـا وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى) • طه ١٧ ، ١٨

(وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) ٠
الحجر ٦٦

(حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) ٠
البقرة ٢٣٨

(من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) ٠ البقرة ٩٨

(ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) ٠ الحجر ٨٧

(وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) ٠ التحريم ٤

(كلا سوف تعلمون ٠ ثم كلا سوف تعلمون) ٠ التكاثر ٣، ٤

(فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) ٠
الذاريات ٢٣

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله) ٠ التوبة ١١١

(لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) ٠ النساء ٩٥

(فلا أقسم بمواقع النجوم ٠ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ٠ إنه لقرآن كريم) ٠ الواقعة ٧٥ ـ ٧٧

*** * ***

لكل من الإيجاز والإطناب مقام يقتضيه ، فإذا اقتضى المقام الايجاز كان الاطناب عيا ، وإذا اقتضى الإطناب كان الإيجاز تقصيرا وإخلالا ٠ والإيجاز نوعان :

١ - إيجاز بالحذف : ويكون بطى جزء من أجزاء الكلام ، والسكوت عنه لتحقيق غرض من الأغراض ، وقد مر بنا هذا النوع ، ووقفنا على كثير من أسرار الحذف ومزاياه فى النظم الكريم .

٢ - إيجاز قصر : وهو بناء الكلام ابتداء على الإيجاز بحيث تدل الألفاظ القليلة على معان كثيرة .

انظر إلى قوله تعالى : (**ألا له الخلق والأمر**)(١) تجد أن هذه الجملة من الآية الكريمة قد دلت على استقصاء جميع الخلق والشئون ، حيث نبهت الآية إلى خلق السموات والأرض والاستواء على العرش وإغشاء الليل النهار ، وتسخير الشمس والقمر والنجوم ، ولنقرأ : (**إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره**) ثم تأتى هذه الجملة (ألا له الخلق والأمر) مفتتحة بأداة التنبيه (ألا) التى تدل على أن مدخولها من الأمور المهمة ، وإنه لكذلك ، إنه جملة قليلة الألفاظ غزيرة المعانى ، إذ دلت على اختصاصه تعالى بجميع الخلق والشئون ، التى أشارت الآية إلى بعض منها ، ولك أن تتصور مدى اتساع الخلق والأمر ، الذى دلت عليه تلك الجملة القصيرة ، المبنية على الإيجاز .. ذاك هو إيجاز القصر .

ومنه قوله تعالى : (**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**)(٢) فهذه الآية الكريمة مع قلة ألفاظها ، جامعة لمكارم الأخلاق ، لأن فى (أخذ العفو) التسامح فى الحقوق ، واللين والرفق

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٤ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٩٩ .

فى الدعاء إلى الدين ، والصفح عمن أساء ، والرفق فى الأمور كلها ، وفى (الأمر بالعرف) صلة الرحم وحفظ اللسان وغض البصر وكف الأذى ، والقيام بمتطلبات الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وفى (الإعراض عن الجاهلين) التؤدة فى معالجتهم والترفق بهم والصبر عليهم والحلم وكظم الغيظ .

لقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ فى هذه الآية بجميع مكارم الأخلاق، ولذا قال بعض العلماء : (ليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من تلك الآية الكريمة)(٣) .

وتأمل قوله تعالى : (**إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى**) تجد أن الآية قد جمعت كل خصال الخير فى (العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى) إذ العدل هو الصراط المستقيم والوسطية التى جعل الله عليها هذه الأمة .

قال تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس)(٤) فلا إفراط ولا تفريط ، بل عدل فى جميع الأمور ، اعتقادا وعبادة وعملا وخلقا .

والإحسان هو الإخلاص والمراقبة ، كما جاء معناه فى الحديث : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وذا يستلزم الإتقان والإخلاص والمراقبة والخضوع والخوف من ذى الجلال والاكرام.

وإيتاء ذى القربى يتسع لكل النوافل التى ينبغى النهوض بها ، هذا فيما أمر الله تعالى به فى الآية ، اما النهى فعن كل خصال الشر ،

---

(٣) انظر الكشاف ٢/١٣٩ .

(٤) سورة البقرة آية ١٤٣ .

عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وعن المنكر : كل ما أنكره الشرع وحرمه ، وعن البغى : الاستكبار والطغيان ومجاوزة حدود الله التى نهى عن مقاربتها .

فالآية جامعة لكل خصال الخير والشر ، ولذا قال عبد الله بن مسعود : (ما فى القرآن آية أجمع للخير والشر من هذه الآية) وقرأها الحسن يوما ثم وقف فقال : (إن الله جمع لكم الخير كله والشر كله فى آية واحدة ، فوالله ما ترك (العدل والإحسان) من طاعة الله شيئا إلا جمعه ، ولا ترك (الفحشاء والمنكر والبغى) من معصية الله شيئا إلا جمعه)(٥) .

وانظر فى قوله تعالى : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)(٦) لقد ظل رسول الله ﷺ يدعو إلى الله تعالى سرا ثلاث سنوات ، ثم أمر ﷺ فى هذه الآية أن يجهر بالدعوة ، فيصدع بما أوحى الله به إليه ، ويظهره ويبينه للناس جميعا ، ولا يعبأ بما يراه من علامات الإنكار والاستبشاع التى تظهر على وجوه الكفرة المعاندين ، فإن (الصدع) هو الشق الذى يظهر فى الشىء المصدوع كالزجاجة ، والمراد فى الآية : أن يبلغ ﷺ ما أمر بتبليغه ، وإن شق ذلك على قلوب الكفرة فانصدعت ، وظهر أثر ذلك الصدع على وجوههم ، كما يظهر على ظاهر الزجاجة المصدوعة ، فرأى الناظر فى تلك الوجوه : التقبض والإنكار والاستبشاع .

عليه ﷺ الا يعبأ بهؤلاء ، وأن يسر بآخرين انصدعت قلوبهم

---

(٥) انظر الإتقان ١٦٤/٣ .

(٦) سورة الحجر آية ٩٤ .

للحق ، فاستبشروا به وظهر هذا الاستبشار على وجوههم ، وهؤلاء هم المؤمنون ، الذين استجابوا لله ولرسوله .

أرأيت المعانى الكثيرة التى انطوت عليها الاستعارة فى الآية الكريمة ، إنه الإيجاز والإعجاز ، وقد روى أن بعض الأعراب لما سمع هذه الآية سجد ، وقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام .

وتأمل قوله تعالى : (**وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين**)(٧) تجده قد أفصح عن كثرة الخيرات فى الجنة ، ودل على كثرة نعيمها ، وفيها كما قال ﷺ : (مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) هاتان الجملتان من الآية الكريمة قد أحاطتا بكل نعيم يمكن تصوره وتخيله .

ولننعم النظر (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) إن الأنفس جميعها ، والأعين كلها ، لو أطلق لها العنان لتتصور وتتخيل ما يشتهى ويلذ ، فإن كل ما تصورت وتخيلت لموجود فى الجنة ، وما فى الجنة أكثر وأكثر .

والذى يعنينا الآن : كم يبلغ كنه ومقدار ما تصورت الأعين وتخيلت الأنفس التى أطلق لها العنان لتتصور وتتخيل ؟ مهما بلغ كنهه ومقداره فقد انطوت عليه هاتان الجملتان من الآية الكريمة : (**وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين**) .

وفى قوله تعالى : (**وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من**

---

(٧) سورة الزخرف آية ٧١ .

المرسلين)(٨) كثرت المعانى فى الآية الكريمة ، حيث اجتمع فيها أمران : (أرضعيه .. فالقيه) ونهيان : (ولا تخافى ولا تحزنى) وخبران وبشارتان : (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) .

روى أن الأصمعى استفصح امرأة أعرابية أنشدت شعرا فقال لها متعجبا : قاتلك الله ما افصحك ! فاجابته : أبعد قوله تعالى : (**وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه** ..) فصاحة ، وقد جمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين ؟(٩) .

ومن المشهور فى هذا الباب قوله تعالى : (**ولكم فى القصاص حياة**)(١٠) إذ لا يكاد يخلو كتاب من كتب البلاغة من الاستشهاد بهذه الجملة من الآية الكريمة لإيجاز القصر ، وغزارة المعنى بها واضحة ، فإن هذه الألفاظ القليلة يندرج تحتها معان كثيرة ، لأن الإنسان إذا علم أنه متى قتل قتل كان ذلك داعيا له إلى أن يمتنع عن القتل ولا يقدم عليه ، فارتفع بالقتل الذى هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم بعضا ، وكان ارتفاع القتل حياة لهم .

ومن المشهور فى هذا المعنى قول العرب : (القتل أنفى للقتل) فهو أوجز كلام قالته العرب فى هذا المعنى ، ولا وجه للمقارنة بين هذا القول وما عليه النظم الكريم ، ولكن العلماء يقدحون أذهانهم فيما يظهر لهم من ذلك ، وقد ذكروا وجوها فضلت بها تلك الجملة من الآية الكريمة على القول المذكور فاقت العشرين وجها منها :

١ - الجملة القرآنية (فى القصاص حياة) أقل حروفا من القول المذكور (القتل أنفى للقتل) .

---

(٨) سورة القصص آية ٧ .

(٩) انظر القرطبى ١٣/١٦٧

(١٠) سورة البقرة آية : ١٧٩

٢ ـ فى هذا القول تكرار للفظ (القتل) وهو لفظ يشعر مجرد ذكره بالوحشة ، فضلا عن تكراره ، أما الجملة القرآنية فالمذكور فيها لفظ (القصاص) وهو مشعر بالمساواة ، منبىء بالعدل ، لأنه مأخوذ من قص الأثر أى : تتبعه ، كما ذكر فيها أيضا لفظ (الحياة) والنفس أقبل له من لفظ (القتل) .

٣ ـ ليس كل قتل نافيا للقتل،وإنما ينفى القتل القتل إذا كان على جهة القصاص ، حيث يتتبع الجانى فيؤخذ بجنايته ، أما القتل ابتداء فإنه لا ينفى القتــل ، والجملة القرآنية قد صرحت بالقصاص دون القول المــأثور .

٤ ـ الجملة القرآنية فيها طباق لطيف حيث جعل أحد الضــدين ، وهو الفناء محلا وأصلا لضــده وهو الحيــاة ، وذلك بدخــول حــرف الجر (فى) على (القصــاص) فقــد جعله كالمنبع للحياة والمعــدن لها ، ولا يوجــد شىء من ذلك فى القول المــأثور .

٥ ـ فى تنكير لفظ (حياة) دلالة على التعظيــم والتنويع ، إذ يدل على أن فى القصاص حياة عظيمــة ممتدة ، لأن من هــم بالقتل عندما يعلم أنه ســيقتص منه يرتدع وينزجر ويكف عن القتل ، فيحيــا ويحيا صاحبه ، وتلك حيــاة فريدة عظيمة .

٦ ـ أن الجملة القرآنية رادعة عن القتــل والجراح معا لشمول القصاص لهما ، وليس كذلك القول المــأثور .

٧ ـ القصــاص يفهم من الجملة القرآنية من أول وهلة ، ولا يفهم من القول المــأثور إلا بعــد معرفة أن المــراد بالقتل الأول ما كان على وجــه القصــاص .

٨ - الجملة القرآنية مبنية على الإثبات ، والقول المأثور مبنى على النفى ، والإثبات أشرف لتقدمه على النفى ، فهو أول والنفى ثان عنه ، وتابع له (١١) .

* * *

أما الإطناب فهو الزيادة فى ألفاظ الكلام بحيث تحقيق تلك الزيادة غرضا ، وتفيد فائدة ، فإن كانت الزيادة بلا غرض ولا فائدة كانت حشوا أو تطويلا .

تأمل قوله تعالى : (**وما تلك بيمينك يا موسى . قال : هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى**)(١٢) كان يكفى فى الجواب أن يقول موسى - عليه السلام - (عصا) ولكنه أطنب وفصل ، فذكر المسند إليه (هى) وأضاف العصا إلى نفسه (عصاى) وذكر وظائفها بعضها مفصلا (أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى) وبعضها مجملا (ولى فيها مآرب أخرى) ولعله كان يطمع فى أن يسأل عن تلك المآرب فيجيب عنها ، وبذا يمتد الحديث ويطول ، وذلك لأنه فى مقام رب العزة ، وهو مقام يحسن فيه الإطناب ، ويستمتع بإطالة الكلام ، فالزيادة فى الجواب قد اقتضاها المقام ، ودعا إليها رغبة موسى - عليه السلام - فى امتداد الحديث مع ربه .

ومنه قوله تعالى : (**وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين**)(١٣) حيث جاء قوله : (**أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين**)

---

(١١) انظر الإتقان ١٦٦/٣

(١٢) سورة طه الآيتان ١٧ ، ١٨ .

(١٣) سورة الحجر آية : ٦٦

بيانا وإيضاحا لقوله (ذلك الأمر) والبيان إذا جاء بعد الإبهام كان أوقع فى النفس ، لمجيئه وهى متطلعة إليه منشغلة به بسبب الإبهام المتقدم ، ولا يأتى ذلك إلا فى الأمور المهمة التى تحتاج إلى تحقيق وتأكيد ، كما فى الآية الكريمة ، فقضاء الله تعالى بحلول العذاب أمر يحتاج إلى تنبيه وتأكيد .

وخذ قوله تعالى : (**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى**)(١٤) تجد أن الصلاة الوسطى قد خصت بالذكر بعد أن ذكرت مدرجة فى الصلوات ، فهذه من قبيل ذكر الخاص بعد العام تنبيها إلى مزية الخاص وزيادة فضله .

ومثله قوله تعالى : (**من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين**)(١٥) حيث ذكر (جبريل وميكال) مدرجين فى الملائكة،ثم أعيد ذكرهما لغرض بلاغى،بينه صاحب التحرير والتنوير بقوله : (وخص جبريل بالذكر هنا لزيادة الاهتمام بعقاب معاديه ، وليذكر معه ميكائيل ، ولعلهم عادوهما معا ، أو لأنهم زعموا أن جبريل رسول الخسف والعذاب ، وأن ميكائيل رسول الخصب والسلام ، وقالوا نحن نحب ميكائيل ، فلما أريد إنذارهم بأن عداوتهم الملائكة تجر عليهم عداوة الله ، وأعيد ذكر جبريل للتنويه به وعطف عليه ميكائيل لئلا يتوهموا أن محبتهم ميكائيل تكسب المؤمنين عداوته).(١٦) .

---

(١٤) سورة البقرة آية : ٢٣٨

(١٥) سورة البقرة آية : ٩٨

(١٦) التحرير والتنوير ٦٢٣/١

ومنه قوله تعالى : **(ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم)**(١٧) فإن المراد بالسبع المثانى : سورة الفاتحة على أظهر الأقوال ، وقد سميت (مثانى) لتكرر قراءتها فى الصلاة ، أو لأنها تثنى بما يقرأ بعدها ، وعلى هذا القول الظاهر ، فى بيان المراد بالمثانى ، يكون ذكر (القرآن العظيم) بعدها من قبيل ذكر العام بعد الخاص تنويها بشأن الخاص حيث ذكر مرتين ، مرة مستقلا ، ومرة مندرجا فى العام(١٨) .

ومثله قوله تعالى : **(وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير)**(١٩) حيث ذكر (جبريل) أولا منفردا ، ثم ذكر ثانيا مندرجا فى العام (الملائكة) تعظيما له ، وتنويها بشأنه ..

وخذ قوله تعالى : (كلا سوف تعلمون ٠ثم كلا سوف تعلمون)(٢٠) تجد إطنابا بالتكرار ، حيث كررت جملة (كلا سوف تعلمون) وهذا التكرار يؤكد الإنذار والتحذير ، ويشعر الحرف (ثم) بالمبالغة فى الردع ، إذ يدل على التدرج والارتقاء فى الإنذار والتحذير .

وفى قوله تعالى : (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون)(٢١) جاء هذا التشبيه : (مثل ما أنكم تنطقون) مؤكدا

---

(١٧) سورة الحجر آية : ٨٧

(١٨) انظر : تفسير أبى السعود ٨٨/٥

(١٩) سورة التحريم آية : ٤

(٢٠) سورة التكاثر الآيتان : ٣ ، ٤ .

(٢١) سورة الذاريات آية : ٢٣

لجواب القسم ، حيث شبه الحق الذى يوعـدون به فى ظهوره ووضوحه بما ينطقون ، لقد تم المعنى من القسم عند قوله تعالى : (إنه لحـق) ثم جـاء : (مثل ما أنكـم تنطقون) زائدا لغرض وهو تأكيد جـواب القسم والدلالة على ظهوره ووضوحه ، ويسمى البلاغيون هـذه الزيادة التى تأتى بعد تمام المعنى للدلالة على غرض : (الإيغال) ·

وفى قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهـم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سـبيل الله فيقتلون ويقتلون وعـدا عليه حقا فى التـوراة والإنجيـل والقـرآن ومـن أوفى بعهـده مـن الله)(٢٢) إطناب بالتذييل ، إذ نجد فيه تذييلين ، أولهما قوله تعالى (وعدا عليه حقـا) وهو تذييل غير جـار مجرى المثل لاحتياجه فى فهـم معنـاه إلى ما قبلـه ، وثانيهما قوله تعالى : **(ومن أوفى بعهـده من الله) ؟** وهو تذييل جار مجرى المثل ، لعدم احتياجه فى فهم معناه إلى ماقبله، وجريانـه على الألسـنة كما تجـرى الأمثال السـائرة ، وكلا التذييلين لتحقيـق المعنى وتأكيـده ·

ونجد فى قوله تعالى : **(لا يسـتوى القاعـدون من المؤمنين غير أولـى الضرر والمجاهـدون فى سـبيل الله بأموالهـم وأنفسـهم)(٢٣)** إطنابا بالتكميل أو الاحتراس ، وذلك فى قولـه : (غير أولى الضرر) فهو احتراس يدفع توهم أن القاعد بعـذر داخـل فى عـدم الاسـتواء الذى أشـارت إليـه الآية الكريمة ، لأن المتخلف بعذر له أجر المجاهد ، كما أخبر بذلك - ﷺ - حيث قال فى غـزوة تبـوك : **(إن بالمدينـة لرجالا ما سرتم مسيرا،ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض)(*)**

---

(٢٢) سورة التوبة آية ١١١ ·

(٢٣) سـورة النسـاء آية : ٩٥

(*) رواه مسـلم ·

وفى قوله تعالى :(**فلا أقسم بمواقع النجوم٠وإنه لقسم لو تعلمون عظيم٠إنه لقرآن كريم**)(٢٤) نجد إطنابا بالاعتراض ، حيث اعترض بين القسم وجوابه بقوله : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وفى داخل هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الصفة والموصوف وهو قوله (لو تعلمون) وكلا الاعتراضين لتعظيم القسم ، وتفخيم المقسم عليه ، وهو القرآن الكريم ، والتنويه بشأنه(٢٥) ٠

ومن الإطناب حروف الزيادة التى تزاد فى النظم للدلالة على معنى وتحقيق غرض ، كزيادة (إن) وزيادة (ما) ونحوهما من حروف الزيادة ٠

تأمل الآيتين الكريمتين : (**فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ٠٠٠٠ فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس**)(٢٦) تجد زيادة (أن) بعد (لما) فى الآيتين ، وتلك الزيادة للدلالة على غرض ، فقد كانت الشقة بعيدة بين يوسف وأبيه - عليهما السلام - ولما ذهبوا بقميص يوسف لإلقائه على وجه يعقوب ، صاروا به أياما حتى وصلوا إلى أبيهم ، فزيادة (أن) هنا تدل على أن المجىء لم يكن على الفور ، بل كان هناك تراخ وامتداد ، لبعد ما كان بينهما من مسافة ٠

---

(٢٤) سورة الواقعة آيات : ٧٥ - ٧٧

(٢٥) الاعتراض : هو أن يؤتى فى أثناء الكلام الواحد ، أو بين كلامين متصلين فى المعنى ، كالتوكيد والمؤكد ، والبيان والمبين ، والبدل والمبدل منه ، والمعطوف والمعطوف عليه بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة أو لغرض سوى دفع الإيهام ، فإن كان الغرض هو دفع الإيهام كان الإطناب احتراسا لا اعتراضا ٠

(٢٦) الآيتان بالترتيب : يوسف ٩٦ ، القصص ١١ ٠

وكذا تدل زيادة (أن) فى الآية الثانية على أن موسى ـ عليه السلام ـ لم يبادر إلى البطش بالثانى ، كما بادر إلى وكز الأول **(فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه)**(٢٧) الوكز هنا كان سريعا وعلى الفور ، بدليل هذه الفاء ، أما البطش الذى أراده ـ عليه السلام ـ فى المرة الثانية ، عندما استصرخه الذى استنصره بالأمس ، فلم يكن على الفور بدليل أنه قال للمستصرخ : (إنك لغوى مبين) فزيادة (أن) فى قوله : (فلما أن أراد أن يبطش) تدل على هذا الغرض ، وهو عدم إسراع موسى ـ عليه السلام ـ إلى البطش بالعدو الثانى .

وانظر فى قوله تعالى : **(والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون)**(٢٨) تجد أن زيادة (ما) فى قوله : (وإذا ما غضبوا قد دلت على ندرة وقوع الغضب من هؤلاء الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، فهم لا يغضبون إلا فى القليل النادر ، وإذا ما غضبوا يكون منهم العفو والصفح عن أولئك الذين أغضبوهم ، ولعل التعبير بإذاهنا فى الأمر النادر ، دون التعبير (بإن) التى يعبر بها فيه ، إنما هو من أجل مناسبة (إذا) فى اللفظ لـ (ما) الزائدة .

* * *

---

(٢٧) سورة القصص آية : ١٥

(٢٨) سورة الزخرف آية : ٣٧

التشـــبيه

قال تعالى :

(ثم قسـت قلوبكم من بعـد ذلك فهى كالحجارة أو أشـد قسوة وإن من الحجارة لمـا يتفجر منه الأنهـار وإن منها لمـا يشـقق فيخرج منه المـاء وإن منها لمـا يهبط من خشـية الله) البقرة ٧٤

(وهى تجرى بهـم فى موج كالجبال •••) • هود ٤٢

(وله الجوار المنشـآت فى البحر كالأعلام) • الرحمن ٢٤

(كأنهن الياقوت والمرجـان) • الرحمن ٥٨

(يوم تكون السـماء كالمهل • وتكون الجبال كالعهن) •

المعـارج ٨ ، ٩

(الم نجعل الأرض مهادا • والجبال أوتادا) النبأ ٦ ، ٧

(وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة •••) الأعراف ١٧١

(وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) •

لقمـان ٣٢

(والق عصـاك فلمـا رآهـا تهتز كأنها جـان ولى مـدبرا ولـم يعقب يا موسى لا تخف إنى لا يخـاف لدى المرسـلون) •

النمـل ١٠

(أذلك خير نزلا أم شـجرة الزقوم • إنا جعلناها فتنـة للظالمين إنها شـجرة تخرج فى أصـل الجحيـم • طلعهـا كأنه رءوس الشـياطين) • الصـافات ٦٢ ـ ٦٥

(إن الله يحـب الذين يقاتلـون فى سـبيله صـفا كأنهـم بنيـان مرصـوص) • الصـف ٤

(فمالهم عن التذكرة معرضين • كأنهم حمر مستنفرة • فرت من قسورة) • المدثر ٤٩ - ٥١

(فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ••) • الشعراء ٦٣

(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) • المنافقون ٤

(إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر • تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) • القمر ١٩ ، ٢٠

(إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) • القمر ٣١

(يوم يكون الناس كالفراش المبثوث • وتكون الجبال كالعهن المنفوش) • القارعة ٤ ، ٥

(خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) • القمر ٧

(وعندهم قاصرات الطرف عين • كأنهن بيض مكنون) • الصافات ٤٨

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) • الجمعة ٥

(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح) • الكهف ٤٥

(الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ••) • النور ٣٥

(مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) ٠ البقرة ٢٦١

(الذين ياكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بانهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا) ٠ البقرة ٢٧٥

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) ٠ العنكبوت ٤١

* * *

شاع التشبيه فى اللغة ، وكثر فى النظم القرآنى الكريم ، وفى الحديث النبوى الشريف ، ومن أجل هذا عنى به الباحثون ، واهتمت به الدراسات البلاغية ، وجدت فى الكشف عن أسراره وإبراز مزاياه ٠

ودراستنا للتشبيه فى النظم القرآنى تهدف إلى ما يلى :

١ ـ أن يقف الدارس على العناصر التى تتكون منها الصور التشبيهية فى النظم الكريم ، وكيف تتلاءم تلك العناصر وتتسق مع السياق ومع المعنى المراد تصويره ٠

٢ ـ أن يدرك ما يكمن وراء التشبيهات القرآنية من أسرار ودقائق٠

٣ ـ أن يقف على مقاصد التشبيه القرآنى ، وعلى أغراضه التى يرمى إلى تحقيقها ٠

عندما ننعم النظر فى طرفى التشبيه القرآنى يتجلى لنا أنهما قد تنوعا ، فقد شبهت الحياة الدنيا ، وشبهت الأرض والسماء والشمس والقمر والموج والجبال ، والأصنام التى عبدها المشركون ، شبهت الجنة

والنار وأحوال الكفرة والمنافقين وأعمالهم ، ومصارع الأمم المكذبة ؛ وأحوال الأشياء عند قيام الساعة : السماء والأرض والجبال ، وأحوال الناس عندئذ ، إلى غير ذلك من الأمور التى عرض النظم الكريم لتشبيهها وتصويرها .

أما المشبه به فنجده مستمدا من عناصر الطبيعة ، فهو السراب والحجارة والحمر المستنفرة ، والخشب المسندة ، والعنكبوت اتخذت بيتا ، والحمار يحمل أسفارا ، والكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، والمهاد والأوتاد والسبات والعرجون القديم ، والصم البكم العمى ، والإنسان الذى يتخبطه الشيطان من المس ، والذى يغشى عليه من الموت ، والذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، والرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، وظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، وصفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ، وحبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، واللؤلؤ والياقوت والمرجان ، والبنيان المرصوص ، وأعجاز النخل ، وهشيم المحتظر ، والعصف المأكول ، والرميم والغثاء ، والجراد المنتشر ، والفراش المبثوث ، والعهن المنفوش ، والهباء المنثور ، والوردة والدهان والمهل .. إلى غير ذلك مما ذكر فى النظم الكريم .

هذا إجمال يحتاج إلى تفصيل ، وتفصيله يتطلب تتبع تلك التشبيهات فى مواطنها وسياقاتها من النظم الكريم ، لتجلية أسرارها ، والكشف عما وراءها من مقاصد وأهداف .

ففى قوله تعالى : (**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة**

او أشد قسوة)(١) تشبيه لقلوب اليهود بالحجارة فى صلابتها وجمودها ، وأنها لا ينفذ إليها شيء من الخير والحق ، فالتشبيه يصور غفلة اليهود ، وتحجر قلوبهم ، وشدة إعراضهم عن الهدى والحق .

ويتجلى المغزى من هذا التشبيه عندما ننعم النظر فى سياقه ، ولنقرأ : **(وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون. ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون)**(٢) .

لقد وقفوا على تلك المعجزة ، وأمام أعينهم وقعت تلك القصة الخارقة ، قصة القتيل الذى قتل ، وأمرهم الله أن يذبحوا بقرة وأن يضربوه ببعضها ، ففعلوا بعد أن طال سؤالهم فى شأن البقرة ما هى ؟ وما لونها ؟ وأحيا الله القتيل فأخبرهم بقاتله ، وتلك آية كان ينبغى بعدها أن تلين قلوبهم ، ولكنها قست ، وقسوة القلوب مستبعدة بعد حدوث تلك الآية الخارقة ، ولذا عطفت عليها بالحرف (ثم) الدال على استبعاد وقوع القسوة بعد رؤية الآية ، تنزيلا للاستبعاد المعنوى منزلة البعد الزمنى ، وقد أشير إلى الآية باسم الإشارة الموضوع للبعيد (ذلك) وضعا له موضع الضمير ، للدلالة على عظم الآية وبعد أثرها فى القلوب الحية التى تستجيب وتلين للحق ، ولكن قلوب اليهود ليست كذلك ، إنها ميتة ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة .

---

(١) سورة البقرة آية : ٧٤

(٢) سورة البقرة آيات : ٧٢ ـ ٧٤

وانظر إلى قوله تعالى عقب التشبيه : (أو أشد قسوة) وإلى إخباره عن الحجارة بأن منها ما يتفجر منه الأنهار،ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء ، ومنها ما يهبط ويسقط من موضعه استجابة لأمر الله ، فالحجارة وإن كانت علما فى القسوة ، فإن قلوب اليهود أشد قسوة منها ، وصياغة (افعل التفضيل) من الفعل (قسا) قياسية ، ولكن النظم الكريم آثر التعبير بلفظ (أشد) فلم يقل : فهى كالحجارة أو أقسى ، للتصريح بالشدة ، وللإشعار بجفاء القلوب وغلظها وخلوها خلوا تاما من أنواع الخير ، ومن النفع المشار إليه فى الحجارة .

وبهذا يتبين لنا أن سياق التشبيه يوضح ويظهر المغزى المراد منه وأنه لا يمكن الإحاطة بمعانى التشبيه ، وإدراك أثره ، منتزعا من سياقه الذى ورد فيه ..

تأمل قوله تعالى : (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال)(٣) حيث شبه الموج بالجبال فى ضخامته وجلاله ، ويتجلى هذا المعنى فى سياق الآيات الكريمة التى ورد بها التشبيه ، فقد أبرز هذا السياق صنع نوح الفلك بأمر الله ، وسخرية الملأ منه كلما مروا عليه ، ثم أخبر عن الركوب فيها ، ونداء نوح ابنه : (**يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين**)(٤) **إنه** موج عظيم ضخم ، ومن ثم شبه بالجبال فى ضخامته وارتفاعه ، لأن الجبال توحى بالضخامة والجلال معا ، وكأن كل موجة من ذاك الموج كانت كجبل فى ارتفاعها وضخامتها .

---

(٣) سورة هود آية : ٤٢

(٤) سورة هود الآيتان ٤٢ ، ٤٣ .

وعند تشبيه السفن الجوارى فى البحر أوثر التعبير بلفظ (الأعلام) دون (الجبال) ولنقرأ : (**ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ... وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام**)(٥) فالأعلام جمع (علم) وهو الجبل ، وقد أوثر التعبير بها دون الجبال لغرض ، وهو الدلالة على جمال الفلك الجارية فى البحار ، تشق الأمواج ويزدان بها سطح البحر ، فضلا عن الدلالة على ضخامتها وعظمها ، ومعنى (الجمال) مأخوذ من لفظ (الأعلام) خاصة ، لأن الكلمة المشتركة بين عدة معان تتداعى معانيها عند ذكرها ، ولما كان من معانى (العلم) الراية التى تستخدم فى الزينة والتجميل ، كان ذكر (الأعلام) موحيا للنفس بهذا المعنى ، فضلا عن الدلالة على معنى ضخامة الجبال وعظمها(٦) .

وعندما جاء (الموج) فى سياق يوحى بالفزع والخوف والرهبة أوثر فى تشبيهه التعبير بكلمة (الظلل) وهى كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما ، ولنقرأ : (**وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور**)(٧) المقام - كما نرى - مقام رهبة وخوف ، فهؤلاء قوم يذكرون الله عند الشدة ، وينسونه عند الرخاء ، وها هم أولاء فى شدة ، قد غشيهم الموج ، والموج يكون أشد إرهابا وأقوى تخويفا إذا ارتفع فظلل الرءوس ، هنالك تذهل الرهبة النفوس وتبلغ القلوب الحناجر ، إذ ظللهم الموج فلم يبق إلا أن يطبق عليهم ،

---

(٥) الآيتان بالترتيب : الشورى ٣٢ ، الرحمن ٢٤

(٦) انظر : من بلاغة القرآن ٢٠١

(٧) سورة لقمان آية : ٣٢

تامل قوله تعالى : (**وإذ نتقنا الجبل فوقهم كانه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة**)(٨) إن مقام الفزع والخوف فى الآيتين يلائمه التشبيه بالظلال والظلة ، لأن ذلك يؤذن بالإحاطة والإطباق عليهم ، فيشتد خوفهم ، ويبلغ الفزع منهم كل مبلغ ٠

وفى إيثار التعبير بالباء دون (على) فى قوله (واقع بهم) والجبل إنما يقع عليهم ، ما يشعر بشدة الخوف وكمال الفزع ، وكأن قلوبهم قد انتزعت منهم وتعلقت بذاك الجبل الذى ظللهم ، وعما قليل سيهوى بهم فى مكان سحيق ٠

ويرجع السبب فى التخويف والترهيب إلى رفض اليهود قبول أحكام التوراة لثقلها وغلظها ، وأنهم قد بلغوا فى الرفض والإباء مبلغا لم يعد يجدى فيه إلا إجبارهم على قبولها ، وإلزامهم إياها بالتخويف والترهيب(٩) ٠

وفى قوله تعالى : (الم نجعل الأرض مهادا ٠ والجبال أوتادا ٠ وخلقناكم أزواجا ٠ وجعلنا نومكم سباتا ٠ وجعلنا الليل لباسا ٠٠)(١٠) هذه الآيات من سورة النبأ مسوقة للدلالة على قدرة الله تعالى ، وإظهار نعمه التى أنعم بها على عباده ، وهى نعم كثيرة لا يمكن إحصاؤها، قال تعالى «**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**»(١١) وقد ذكرت الآيات من هذه النعم : الأرض والجبال والأزواج والنوم والليل والنهار والشمس والماء الذى أخرج به الحب والنبات ، وفي تعداد هذه النعم

---

(٨) سورة الأعراف آية : ١٧١
(٩) انظر الكشاف ١٢٩/٢
(١٠) سورة النبأ آيات : ٦ ـ ١٠
(١١) سورة إبراهيم : آية ٣٤ ٠

ترد تلك التشبيهات التى توضح النعمة وتجليها ، فالأرض مهاد ليتمكن الإنسـان من السـير عليها ، والمشى فى مناكبها مبتغيا من فضـل الله ، والجبال أوتاد تثبت الأرض حتى لا تميد بأهلها ، والنوم سبات أى موت **(الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضي عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)** (١٢) فالنوم راحة تامة للإنسـان ، يستأنف بعده نشاطه فى عمارة الكون ، والليل لباس ، يستر الخلائق بظلامه كما يسـترهم اللباس ، فيسـكنون للراحـة ، ثم يتحركون لمعاشهم نهارا ، حيث تكون الشمس سراجا وهاجا يملأ الكون ضـياء .

لقد توالت تلك التشبيهات التى تجلى نعم الله تعالى على الناس ، وقد جاءت محذوفة الوجـه والأداة ، إبرازا للنعم ، لمـا فى ذلك من دعوى الاتحـاد ، وحمل المشـبه به على المشـبه ، وهو ما يعرف عند البلاغيين بالتشبيه البليغ ، فالأرض مهاد وليست كالمهـاد ، والجبـال أوتاد وليست كالأوتاد ، والنوم سـبات وليس كالسبات .. وهكذا أدى حذف أداة التشبيه إلى تجلية تلك النعم ، حيث يحمل المشـبه به على المشبه ، كما هو الشان فى التشبيهات البليغـة .

وتتجلى قدرة الله تعالى فى تغييرهذه الأشياء وتبديلها يوم ينفخ فى الصور ، فالسمـوات السبـع الشـدائد تفتـح عنـدئذ فتكـون أبوابا ، والجبال التى كانت أوتادا ورواسى تثبت الأرض وتحفظها أن تميـد ، يسيرها الله تعـالى فتكون سرابا يلوح ويبدو للعين من بعيد أنه شىء ، وهو لا شىء ، نقرأ ذلك فى قوله تعالى : (**يوم ينفخ في الصور فتأتون**

---

(١٢) سـورة الزمـر آية : ٤٢

افواجا • وفتحت السماء فكانت ابوابا • وسيرت الجبال فكانت سرابا)(١٣) •

الجبال هنا شبهت بالسراب ، الذى يحسبه الناظر من بعيد شيئا حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وفى موضع آخر - فى سورة المزمل - شبهت بكثبان الرمل المهيلة ، قال تعالى : **(يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا)**(١٤) وتشبيه الجبال بالكثيب المهيل هنا يتلاءم مع سياق الآيات الكريمة ، حيث يبدو فى هذا السياق الثقل والتانى ، ولنقرأ : **(أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا • إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا • إن ناشئة الليل هى أشد وطئا واقوم قيلا • إن لك فى النهار سبحا طويلا • واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا)**(١٥) فالثقل والتانى والامتداد هو جو السورة الكريمة ، وقد جاء وصف الجبال متلائما مع هذا ، حيث تتحول الجبال الراسيات إلى كثبان تنهال فى تؤدة (وكانت الجبال كثيبا مهيلا) •

ثم نجد هذه الجبال الثقال تتحول إلى (عهن) فى سورة المعارج **(يوم تكون السماء كالمهل • وتكون الجبال كالعهن)**(١٦) والعهن هو الصوف المصبوغ الوانا ، وهذا يدل على اختلاف الوان الجبال **(ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود)**(١٧)

---

(١٣) سورة النبأ آيات : ١٨ - ٢٠

(١٤) سورة المزمل آية : ١٤

(١٥) سورة المزمل آيات : ٤ - ٨

(١٦) سورة المعارج الآيتان ٨ ، ٩ •

(١٧) سورة فاطر آية : ٢٧

ولم يوصف (العهن) هنا (بالمنفوش) كما وصف فى سورة القارعة فى قوله تعالى : (**وتكون الجبال كالعهن المنفوش**)(١٨) ليتلاءم مع تشبيه السماء بالمهل وهو دردى الزيت ، أو ما أذيب من الفلزات كالفضة ، حيث تذاب على مهل ، وقد شبهت السماء بالمهل فى هذه الآية الكريمة ، وشبهت فى سورة الرحمن بالوردة والدهان ، قال عز وجل : « **فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان** »(١٩) هذا هو شأن السماء ، التى بناها الله فوقنا سبعا شدادا ، تنتهى شدتها ، وتتحول إلى مهل ، وتصير وردة كالدهان .

سكت فى سورة المعارج عن ذكر وصف العهن ، ليتلاءم التشبيهان ، تشبيه السماء بالمهل ، وتشبيه الجبال بالعهن ، وذكر الوصف (المنفوش) فى سورة القارعة ليتلاءم مع تشبيه الناس بالفراش المبثوث ، ومع الوصف الذى وصفت به القيامة ، وهو (القارعة) فالقرع هو الضرب بشدة ، وهذا يلائمه ما قيد به المشبه به فى كل تشبيه من التشبيهين (المبثوث .. المنفوش) .

وفى سورة الواقعة شبهت الجبال بالهباء المنبث « **إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا** »(٢٠) ، والهباء هو الشىء الذى تراه فى البيت من ضوء الشمس منبثا شبيها بالغبار ، فتلك الذرات التى لا ترى إلا فى الضوء المنبعث من أشعة الشمس هى الهباء ، وذاك شىء أضعف وأبعد من العهن المنفوش .

---

(١٨) سورة القارعة آية : ٥

(١٩) سورة الرحمن آية : ٣٧

(٢٠) سورة الواقعة آيات : ٤ ـ ٦

فبإنعام النظر فى تلك التشبيهات التى شبهت بها الجبال عندما تتغير وتتبدل يوم القيامة ، يتجلى لنا اتساق كل تشبيه مع السياق الذى ورد فيه ، ففى سورة المزمل لم يرد وصف للقيامة ، وإنما الذى ذكر هو رجف الأرض والجبال (يوم ترجف الأرض والجبال) وكان الثقل والتأنى ، والتمهل والتؤدة ، هو جو السورة الكريمة - كما ذكرنا - ولذا شبهت الجبال بالكثبان المهيلة ، ولعلك تشعر فى المشبه به (كثيبا مهيلا) بقوة ما تزال للجبال ، ولا توجد تلك القوة فى التشبيهات الأخرى ، وفى سورة المعارج ، ورد ذكر العذاب الواقع بالكافرين ، وسؤال السائل عنه ، وكشف عن طول ذلك اليوم **« فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة »**(٢١) ولذا شبهت الجبال بالعهن ، ثم تأتى سورة القارعة وسورة الواقعة ، فتكون الجبال فى القارعة (عهنا منفوشا) وفى الواقعة (هباء منبثا) ووصف القيامة فى الواقعة أشد وأقوى ، حيث حقق وقوعها ، وأخبر بما يكون من خفض ورفع عند هذا الوقوع وأكد رج الأرض وبس الجبال بالمصدر (إذا رجت الأرض رجا • وبست الجبال بسا) وقد لاءم ذلك أن تشبه الجبال بالهباء المنبث ، فهو أبعد من العهن المنفوش - كما بينا - ولاءمه أيضا ترك أداة التشبيه ، فتركها أبلغ ، لما فيه من دعوى الاتحاد ، وحمل المشبه به على المشبه •

ثم يأتى تشبيه الجبال بالسراب فى سورة النبأ ، وهو أبعد من كل ما ذكر من تشبيهات ، لأن ما ذكر : (الكثيب المهيل ، والعهن المنفوش والهباء المنبث) هو شىء يشاهد ويرى مهما ضعف وبعد ، أما السراب فهو لا شىء ، يحسبه الناظر شيئا فإذا جاءه لم يجده شيئا ،

---

(٢١) سورة المعارج آية : ٤

وهذا يتلاءم مع سياق السورة الكريمة ، حيث صرح بيوم الفصل ، وبالنفخة الثانية ، وإتيان الناس أفواجا للحساب « **إن يوم الفصل كان ميقاتا • يوم ينفخ فى الصور فتاتون أفواجا** »(٢٢) ولم يصرح بشىء من ذلك فى سياقات التشبيهات الأخرى ، فإن ما صرح به هو القارعة والواقعة ورجف الأرض ورجها وبس الجبال ، وبهذا يتبين لنا أن تشبيهات الجبال عندما تتغير وتتبدل يوم القيامة ، قد جاءت متلائمة مع سياقاتها ، ومتسقة مع المعنى الذى أبرزه السياق •

يقول الفخر الرازى : (اعلم أن الله تعالى ذكر فى مواضع من كتابه أحوال هذه الجبال على وجوه مختلفة ، ويمكن الجمع بينها على الوجه الذى نقوله ، وهو أن أول أحوالها (الاندكاك) وهو قوله **(وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة)**(٢٣) •

والحالة الثانية لها : أن تصير كالعهن المنفوش ، وذكر الله تعالى ذلك فى قوله : **(يوم يكون الناس كالفراش المبثوث • وتكون الجبال كالعهن المنفوش)**(٢٤) وقوله : **(يوم تكون السماء كالمهل • وتكون الجبال كالعهن)**(٢٥) •

والحالة الثالثة : أن تصير كالهباء وذلك أن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن ، وهو قوله : **(إذا رجت الأرض رجا • وبست**

---

(٢٢) سورة النبأ : الآيتان ١٧ ، ١٨ •

(٢٣) سورة الحاقة آية : ١٤ ، ويدخل فى هذه الحال جعلها كثيبا مهيلا ، إذ يحولها الدك من الصلابة والقوة إلى تلك الكثبان المهيلة •

(٢٤) سورة القارعة : الآيتان ٤ ، ٥ •

(٢٥) سورة المعارج : الآيتان ٨ ، ٩ •

الجبـال بسـا • فكانت هبـاء منبثـا)(٢٦) •

والحالة الرابعة : أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة فى مواضعها ، والأرض تحتها غير بارزة ، فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها ، وهو المراد من قوله تعالى : **(ويسالونك عن الجبـال فقل ينسفها ربى نسـفا • فيذرهـا قاعـا صفصـفا • لا ترى فيهـا عوجـا ولا أمتـا)(٢٧) •**

والحالة الخامسة : أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض ، فتطيرها شعاعا فى الهواء كأنها غبار ، فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجساما جامدة ، وهى الحقيقة مـارة ، إلا أن مرورهـا بسـبب مرور الرياح بها ، صيرها مندكة متفتتة ، وهى قوله تعالى : **(وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب)**(٢٨) ثم بين أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره ، فقال تعالى : **(ويوم نسـير الجبـال وترى الأرض بارزة)(٢٩) •**

الحالة السادسة : أن تصير سرابا ، بمعنى : لا شىء ، فمن نظر إلى مواضعها لم يجـد فيها شـيئا ، كما أن من يرى السراب من بعـد إذا جاء الموضع الذى كان يراه فيـه لم يجده شيئا ، والله أعلم)(٣٠) •

---

(٢٦) سـورة الواقعة آيات : ٤ ـ ٦

(٢٧) سـورة طـه آيات : ١٠٥ ـ ١٠٧

(٢٨) سـورة النمـل : آية ٨٨ •• ويرى بعض العلمـاء أن هذه الآية الكريمة تخبر عن مـرور الجبال فى الدنيـا وتحركها بتحرك الأرض ، إذ الأرض تدور حول محورها كل يوم ، وحول الشمس كل عام ، وتدور الجبال بدوران الأرض ، لأنها تابعـة لهـا ، ولذا فهى تمـر مـر السحاب •

(٢٩) سـورة الكهف آية : ٤٧

(٣٠) تفسير الفخر الرازى ١٢/٣١ ، ١٣

وقد وضح لنا انسجام كل تشبيه من التشبيهات التى تناولت تصويرهذه الأحوال فى سياقه، واتساقه مع المعنى الذى يبرزه السياق، من حيث وصف الأحداث الواقعة يوم القيامة ٠٠ قوة وضعفا ٠٠ إجمالا وتفصيلا ٠

فإذا ما تركنا الجبال ، وانتقلنا إلى الناس ، لنبصر أحوالهم فى ذلك اليوم ، نجد النظم الكريم يشبههم عند خروجهم من الأجداث بالجراد المنتشر ، وذلك فى قوله تعالى : (**فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شىء نكر ٠ خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر**)(٣١) ويصور سرعة خروجهم فى قوله تعالى : (**يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ٠ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة**)(٣٢) ويصور ضعفهم وتخاذلهم فى قوله تعالى : (**يوم يكون الناس كالفراش المبثوث**)(٣٣) إن كل تشبيه من هذه التشبيهات يبرز جانبا ويكشف عن حال من أحوال الناس فى ذلك اليوم ، والجانب الذى يبرزه التشبيه نراه متلائما مع السياق الذى ورد فيه ٠

ففى سورة المعارج أبرز السياق استعجال الكفرة بالعذاب ، وسؤالهم إياه تهكما واستهزاء (**سال سائل بعذاب واقع ٠ للكافرين ليس له دافع**)(٣٤) وكشف عما فطر عليه الإنسان من العجلة والتسرع (**إن الإنسان خلق هلوعا ٠ إذا مسه الشر جزوعا ٠ وإذا مسه الخير**

---

(٣١) سورة القمر : الآيتان ٦ ، ٧ ٠

(٣٢) سورة المعارج : الآيتان ٤٣ ، ٤٤ ٠

(٣٣) سورة القارعة آية ٤ ٠

(٣٤) سورة المعارج : الآيتان ١ ، ٢ ٠

منوعا)(٣٥) ولذا جاء التشبيه مصورا هذا الجانب ، جانب السرعة ، إنهم يخرجون من الأجداث سراعا ، كما كانوا يسرعون إلى عبادة الأوثان فى الدنيا (**كأنهم إلى نصب يوفضون**) ولكن هنالك فرق بين الإسراعين ، فهم فى إسراعهم إلى نصبهم يكونون فرحين لاهين ، واليوم يسرعون خاشعة أبصارهم ذهولا من هول الموقف ، وتغشاهم الذلة والمهانة ، ويبدو عليهم الندم والتحسر .

ونلمح فى هذا التشبيه التهكم والسخرية ، فلطالما سخر هؤلاء الكفرة فى الدنيا واستهزأوا ، واليوم يتهكم بهم ويسخر منهم جزاء وفاقا ، (**فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون**)(٣٦) .

يقول سيد قطب : (وفى مشهدهم وهيئتهم وحركتهم فى ذلك اليوم ما يثير الفزع والتخوف ، كما أن فى التعبير من التهكم والسخرية ما يناسب اعتزازهم بأنفسهم واغترارهم بمكانتهم ، فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى ، كأنماهم ذاهبون إلى نصب يعبدونه ، وفى هذا التهكم تناسق مع حالهم فى الدنيا ، لقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب فى الأعياد ، ويتجمعون حولها ، فهاهم أولاء يسارعون اليوم، ولكن شتان بين يوم ويوم)(٣٧) .

وفى سورة القمر شبه الناس عند خروجهم من الأجداث بالجراد المنتشر ، فى الكثرة والتدافع والتداخل ، فهم ينتشرون على غير هدى،

---

(٣٥) سورة المعارج : الآيات ١٩ - ٢١ .

(٣٦) سورة المطففين آية ٣٤ .

(٣٧) فى ظلال القرآن ٣٧٠٣/٦ .

ويندفعون على غير نظام ، يموج بعضهم فى بعض ، وهم فى هذا التدافع والتداخل فى ذهول من هول ما حدث ، حيث دعا الداعى إلى شىء نكر ، تنكره النفوس لشدته وفظاعته ، فأبصارهم خشعا خضوعا واستسلاما .

التشبيه هنا يصور الكثرة وشدة التدافع ، وتداخل الناس فى انتشارهم ، ونجد فيه قوة لا نجدها فى تشبيه سورة القارعة ، حيث شبه الناس هناك بالفراش المبثوث،فى كثرتهم وانتشارهم على غير نظام، ولكن يبدو فى التشبيه بالفراش المبثوث الضعف والتخاذل ، ويبدو فى التشبيه بالجراد المنتشر القوة والتماسك ، ويرجع ذلك إلى ما يلى :

١ ـ أن الفراش يضرب به المثل فى الوهن والضعف ، والخفة والتهافت والحماقة والطيش ، حيث قالوا : (أطيش من فراشة)(٣٨).

٢ ـ أن الجراد عند بداية انتشاره يكون قويا متماسكا ، ثم يتساقط بعد ذلك متهالكا ، ولا توجد تلك القوة فى الفراش .

٣ ـ أن الانتشار فيه فضل تماسك لا يوجد فى البث ، يضاف لهذا أنه قد عبر عن الانتشار باسم الفاعل (منتشر) وعبر عن البث باسم المفعول (المبثوث) فالانتشار واقع من الجراد ، والبث واقع على الفراش .. الناس عند خروجهم من الأجداث كالجراد الذى ينتشر بنفسه ، وهم عند القارعة كالفراش الذى يبثه غيره ، وكأنه لضعفه ووهنه لا يقوى على الفعل بنفسه .

وبعد وضوح هذا الفرق بين التشبيهين ، ننظر فى سياقهما فنجد

---

(٣٨) انظر مجمع الأمثال ٢/٢٩٩ .

كل تشبيه منسجما فى سياقه ، ومتلائما مع المعنى ، ففى سورة القارعة يتلاءم التشبيه مع ما وصفت به القيامة : (**القارعة • ما القارعة • وما أدراك ما القارعة**)(٣٩) إذ القرع هو الضرب بشدة وقد تكرر هذا الوصف (القارعة) وتكرر الاستفهام عنها (ما القارعة • وما أدرك ما القارعة) مما يدل على شدة التهويل والتفظيع ، ومن ثم جاء تشبيه الناس بالفراش المبثوث ، وتشبيه الجبال بالعهن المنفوش متلائمين ومتسقين مع ذلك التهويل •

وفى سورة القمر يتلاءم التشبيه مع سياق السورة الكريمة ومع التشبيهات الواردة بها ، ولنتأمل تشبيه صرعى عاد باعجاز النخل المنقعر فى قوله تعالى : (**تنزع الناس كانهم اعجاز نخل منقعر**)(٤٠) إنه يصور مصارعهم عند بداية الإهلاك ، حيث أرسلت عليهم الريح الصرصر فى يوم نحس مستمر ، فالقوم يقاومون الريح ، والريح تنزعهم حتى أهلكوا فصاروا كاعجاز النخل المنقعر ، أى : المنقلع عن مغارسه، الساقط على الأرض ، فما زالت به قوة وصلابة •

ويختلف التصوير هنا عن تصوير هلاكهم فى سورة الحاقة ، حيث سخرت عليهم الريح سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فكانوا بعدها صرعى (**كانهم أعجاز نخل خاوية**)(٤١) وفرق بين أعجاز النخل المنقعر ، وأعجاز النخل الذى تاكلت أجوافه فصارت خاوية ، القوم فى تشبيه الحاقة بليت أجسامهم وتاكلت ، وهذا يتلاءم مع تسخير الريح عليهم

---

(٣٩) سورة القارعة : ١ ـ ٣ •

(٤٠) سورة القمر آية ٢٠ •

(٤١) سورة الحاقة آية ٧ •

سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، ومع الأوصاف المذكورة فى السورة : (الحاقة .. والقارعة .. والطاغية .. والعاتية .. والأخذة الرابية .. وطغيان الماء) هذا التجاوز فى الصفات يلائمه الإبعاد فى الإهلاك الذى ذكر فى السورة الكريمة .

أما التشبيه فى سورة القمر فليس فيه هذا البعد فى الإهلاك ، وذلك ليتلاءم مع ما وصفت به الريح ، فهى ريح صرصر ، أرسلت عليهم، ولم تسخر زمنا كما هناك ، ولذا اكتفى معها باقتلاع النخل وإسقاطه على الأرض تصويرا لإصراعهم ، وتمثيلا لصرعاهم .

وانظر إلى تشبيه مصارع ثمود بهشيم المحتظر فى قوله تعالى : **(إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر)**(٤٢) فالهشيم ما تساقط من يابس الشجر فداسته الدواب وراثت عليه ، وهو اقوى من العصف المأكول فى قوله تعالى :**(فجعلهم كعصف مأكول)**(٤٣) لأن العصف قد أكل وافنى ، وتحول عن جنسه إلى شىء آخر ، وذا يتلاءم مع سياق سورة الفيل ، وما صرح به فيها من تعجب وتقرير لما فعله الله تعالى بأولئك الكفرة الذين أرادوا هدم بيته ، لقد أرادوا هدم الكعبة ، واقتلاع جذور الإسلام ، وإذا كان إهلاكهم أشد ، إنهم صاروا كالعصف المأكول ، تبدلت أجسامهم وتغيرت ، وصارت إلى هذا الذى كنى عنه القرآن ، ولا يخفى عليك ما فى تلك الكناية من تحقير لهم ، أما ثمود فقد صارت أجسامهم بعد الإهلاك كالهشيم الذى داسته الدواب وراثت عليه ، وفى هذا من الإهانة لهم ما ترى .

ثم انظر إلى تشبيه الساعة فى ختام السورة الكريمة : **(وما أمرنا**

---

(٤٢) سورة القمر آية ٣١ . (٤٣) سورة الفيل آية ٥ .

إلا واحدة كلمح بالبصر)(٤٤) وإلى تشبيهها فى سورة النحل فى قوله تعالى : (**وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب**)(٤٥) تجد أن التشبيه هنا لا يصور السرعة التى يصورها تشبيه سورة النحل ، لأن (لمح البصر) أسرع من (لمح بالبصر) فهم يقولون : لمحته ببصرى ، أى : صوبته إليه ، ولمح بصرى ، أى : امتد إلى الشىء ، وفى التصويب تراخ إذا ما قورن بالامتداد ، كما أن إضافة اللمح إلى البصر فى سورة النحل أدل على السرعة ، وكأن الباء المتصلة بالفاعل فى سورة القمر ، قد أكسبت المعنى تراخيا ، ولهذا جاء فى سورة النحل (أو هو أقرب) ولا يتاتى مجىء ذلك فى سورة القمر .

ولا يخفى عليك تلاؤم التشبيه هنا مع افتتاح السورة الكريمة بقوله تعالى : (**اقتربت الساعة**) وتلاؤم تشبيه سورة النحل مع افتتاحها بقوله تعالى : (**أتى أمر الله**) فالذى هنا اقتراب ، والذى فى النحل إتيان ، والإتيان يلائمه (كلمح البصر أو هو أقرب) والاقتراب يلائمه (كلمح بالبصر) .

أرأيت كيف يتلاءم التشبيه مع السياق ، وينسجم مع المعنى الذى يبرره ، ويتسق مع التشبيهات الواردة فيه ؟ فالجراد فى بداية انتشاره قوى متماسك ، وقوم هود أقوياء ، الريح تنزعهم وهم يقاومون ، وأنى لهم المقاومة ، وثمود قوم صالح صاروا كهشيم المحتظر ، وهو أقرب وأقوى من العصف المأكول ، والامتداد والتراخى الذى بيناه فى قوله تعالى : (كلمح بالبصر) يقرب هذا التشبيه من تشبيهات السورة الكريمة ويجعله متلائما معها ، ومتسقا مع افتتاحها .

---

(٤٤) سورة القمر آية ٥٠ .

(٤٥) سورة النحل آية ٧٧ .

وعد إلى التشبيهات المذكورة ، وتأمل تلك القيود التى قيد بها المشبه به فيها : (منتشر .. المبثوث .. المنفوش .. منقعر .. خاوية .. المحتظر .. ماكول) تجد أثرها بارزا فى الدلالة على الغرض من التشبيه ، وتحديد الفروق التى أشرنا إليها ، بل إن بعضها لا يتم التشبيه إلا به ، كالوصفين (منقعر وخاوية) إذ لا يتاتى تشبيه الصرعى باعجاز النخل قائما منغرسا ..

وهذا هو شان التشبيهات المقيدة ، حيث يكون لالقيد أثره فى إبراز الغرض من التشبيه ، وتجلية المعنى المراد ، تامل قوله تعالى : (**وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب** مسندة)(٤٦) تجد أن هذا القيد (مسندة) قد أبرز حال المنافقين ، وجلى ما طبعوا عليه من الخوف والفزع والغفلة والبلاهة والخلو من أى نفع ، ولو طوى هذا الوصف (مسندة) لضاع هذا المغزى ، لأن الخشب قد يستفاد بها ، فتوضع فى جدار ، أو يصنع منها باب ، أو توضع فى سقف ، أو يحمل عليها ، لذا قيدت بهذا القيد (مسندة) للدلالة على خلو المنافقين من أدنى نفع .

يقول الزمخشرى : (فإن قلت : ما معنى قوله (كأنهم خشب مسندة) ؟ قلت : شبهوا فى استنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحائط ، ولأن الخشب إذا انتفع به ، كان فى سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، وما دام متروكا فارغا غير منتفع به أسند إلى الحائط ، فشبهوا به فى عدم الانتفاع ، ويجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب

---

(٤٦) سورة المنافقون آية ٤ .

المسندة إلى الحيطان ، شبهوا بها فى حسن صورهم وقلة جدواهم)(٤٧)

وفى قوله تعالى : (**إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص**)(٤٨) تجد أن كلا من المشبه والمشبه به قد قيد بقيد ، فقد قيد المشبه بالحال (صفا) وقيد المشبه به بالصفة (مرصوص) وهذان القيدان يبرزان الغاية من التشبيه ، ويجليان المعنى المراد ، وهو أن تستوى نيات المجاهدين ، وتجتمع كلمتهم ، وينعدم أى خلل بين صفوفهم ، ولو طوى القيدان فقيل : إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله كأنهم بنيان ، ما وجدت لهذا المعنى سبيلا ٠

وانظر فى قوله تعالى : (**فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم**)(٤٩) تجد أن هذا القيد (العظيم) قد أبرز ضخامة الجبل ، ودل على عظم ارتفاع الماء ، فإن الطود هو الجبل المرتفع الثابت فى مقره ، ووصفه بالعظم يدل على شدة ارتفاع الماء ، وفى هذا إظهار وتجلية للنعمة التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل ، حيث انحصر الماء بهذه الصورة ، فتمكنوا من عبور البحر والنجاة من فرعون وقومه ٠

ويأتى تقييد العرجون بالقدم فى قوله تعالى : (**والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم**)(٥٠) مبرزا الغاية من تشبيه القمر به ، فالعرجون هو : عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة ، والقديم : المحول ، أى : الذى مضى عليه حول ، وإذا قدم

---

(٤٧) الكشاف ١٠٩/٤ ٠

(٤٨) سورة الصف آية ٤ ٠

(٤٩) سورة الشعراء آية ٦٣ ٠

(٥٠) سورة يس آية ٣٩ ٠

العرجون دق وانحنى واصفر ، فشبه القمر به من هذه الأوجه الثلاثة : الدقة والانحناء والاصفرار(٥١) .

فهذا القيد (القديم) قد أبرز المعنى ، وأوضح الغاية من التشبيه (لأن العرجون القديم لا يشارك القمر فى الشكل فحسب ، وإنما هناك معان أخرى ، منها أن العرجون القديم كأنه شيء تائه لا يلتفت إليه، وكذلك القمر فى هذه المرحلة ، تراه ضالا في السماء لا تتعلق به الأبصار ، ومنها أن كلا منهما كان موضع العناية ومتعلق الأنظار ، فالعرجون كان حامل الثمر والنفع ، والقمر كان مرسل النور والهداية، وقوله (حتى عاد) يطوى قصة رحلة طويلة بدأها هلالا ثم مضى فى مسيرة طويلة حتى عاد ، وهذه النهاية متلائمة كل التلاؤم مع النهايات فى آيات السياق ، انظر : (**وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم**)(٥٢) .

الآيات الثلاثة تفوح بريح العدم ، فالنهار بحركته يسلخ من الليل فتبقى الظلمة والجمود ، والشمس تجرى أولا ثم تقف عند مستقرها الأبدى ، والقمر يبدأ قصة مسيرته حتى ينتهى نوره ويعود كأنه موات)(٥٣) .

وفى قوله تعالى : (**فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة**)(٥٤) قيد المشبه به (حمر) بقيدين ،

---

(٥١) انظر الكشاف ٣/٣٢٣ .

(٥٢) سورة يس آيات ٣٧ - ٣٩ .

(٥٣) التصوير البياني ص ٢٦ . (٥٤) سورة المدثر آيات ٤٩ - ٥١

أولهما (مستنفرة) وثانيهما (فرت من قسورة) فلم يكتف باستنفارها حتى ذكر ما استنفرها وفرت منه ، إنه أسد هصور يطاردها ويريد الفتك بها ، ولك أن تتصور ما وراء ذلك من شدة إعراض الكفرة عن التذكرة ، وما يوحى به التشبيه من السخرية والاستخفاف بهم .

وقد جاء تشبيه إعراض الكفرة عن الآيات والذكر دالا على تحقيرهم ، ومشعرا بشدة الإعراض والنفور فى مواطن كثيرة من آيات الذكر الحكيم ، انظر إلى قوله تعالى : (**ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون**)(٥٥) تجد مدى التحقير والإهانة فى تمثيلهم وقد أعرضوا عمن يدعوهم إلى الحق بالأنعام التى لا تسمع إلا دعاء ونداء ، ثم وصفهم بهذه الصفات التى التحمت وصارت كأنها شىء واحد قد تمكن منهم وأحاط بهم (صم بكم عمى) فهم فى إعراضهم عن الهدى ليسوا إلا كذلك ، لأنه لا يعرض عن الحق والهداية إلا فاقد وسائل الإدراك تلك .

وتأمل قوله تعالى : (**وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا**)(٥٦) تجد أن التدرج فى بيان حال ذلك الكافر ، الذى ولى مستكبرا عند تلاوة الآيات عليه ، وتشبيهه بمن لم يسمع ، ثم بمن فقد السمع كلية ، يشعر بعظمة القرآن ، ويدل على إعجازه ، وبلوغه الغاية فى الهداية ، إذ لا يعرض عنه إلا من لم تتوفر له سبل سماعه ، أما من يسمع ويعقل فلا يتأتى له الإعراض والاستكبار .

وفى وصف القرآن لنساء الجنة يأتى تشبيههن ببيض النعام وباللؤلؤ والياقوت والمرجان ، ولنقرأ : (**فيهن قاصرات الطرف لم**

---

(٥٥) سورة البقرة آية ١٧١ .   (٥٦) سورة لقمان آية ٧ .

يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . كأنهن الياقوت والمرجان ... وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون ... وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن بيض مكنون)(٥٧) والغاية من تلك التشبيهات تصوير الصفاء ، وإبراز الحسن ، وتجلية ما يجب على النساء من الاستتار والحفظ ، وما ينبغى على الرجال نحوهن من الحذر والتلطف، فهذه الأشياء المشبه بها ، يبدو فيها الصفاء ونقاء اللون ، وهى أشياء ثمينة تصان ويحرص عليها ، وبيض النعام فضلا عن صفائه ونقاء لونه، ينبغى الرفق والتلطف والحذر والحيطة عند التعامل معه .

ثم يأتى هذا القيد (المكنون) فينبه إلى ما يجب على النساء من الاكتنان والاستتار ، ويدل على أنه فى هذا الكن يبقى الجمال ، ويبلغ الحسن غايته ، فبيض النعام مكنون بريشه ، يصان بهذا الكن من الغبار ونحوه ، فيبقى نقاؤه ، ويظل لونه الأبيض المشوب بصفرة صافيا لا يتغير ، واللؤلؤ المكنون هو المصون فى صدفه أو المخزون ، وبهذه الصيانة يبقى جماله ، ويدوم نقاؤه ، فلا يتغير بما يقع عليه ويتراكم، لو لم يكن مكنونا .

ولذا وجدنا (اللؤلؤ) فى تشبيه القرآن للولدان مرة مكنونا ليدل على بقاء الجمال ودوام الحسن ، وذلك فى قوله تعالى : (**ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون**)(٥٨) ومرة منثورا ، أى : قد نثر من سلكه أو من صدفه ، ليدل هذا القيد (منثورا) على انتشارهم

---

(٥٧) الآيات بالترتيب : الرحمن ٥٦ ـ ٥٨ ، الواقعة ٢٢ ، ٢٣ ، الصافات ٤٨ ، ٤٩ .

(٥٨) سورة الطور آية ٢٤ .

فى المجالس ، وامتلاء تلك المجالس بحسنهم وجمالهم ، وذلك فى قوله تعالى : (**ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا**)(٥٩) ولعلك تدرك من هذا أن الغلمان لا يجب عليهم ما يجب على النساء من الاستتار والاكتنان .

ويؤكد النظم الكريم كن النساء بجعلهن قاصرات الطرف ، ومقصورات فى الخيام (**فيهن قاصرات الطرف ... حور مقصورات فى الخيام**) فهن قد قصرن الطرف على أزواجهن حياء ، لا ينظرن إلى غيرهم ، وهن مقصورات أى : محبوسات فى الخيام ، حفظا لهن وتكريما .

وتأمل التعبير باسم المفعول : (مكنون .. ومقصورات) ماذا تجد وراءه ؟ إنه يدل على مسئولية الرجال تجاه نسائهم ، فالنساء لم يفعلن الكن ولا القصر ، ولكنه واقع عليهن ، فهن يكنن ويقصرن حفظا لهن وتكريما ، والذى يفعل الكن والقصر هم الرجال ، تلك مسئوليتهم، أما قصر الطرف حياء ، فالنساء فاعلاته ، ولذا جاء اسم فاعل (فيهن قاصرات الطرف) .. أرأيت روعة القرآن ، ودقة تعبيره ، ولطف إشاراته ، إنه الإعجاز .

وعد إلى ما ذكرناه من تشبيهات ، فانظر فى طرفى التشبيه ، تجد أنهما فى معظم ما ذكرنا محسوسان ، أى : يدركان بالحواس ، وقد قرر البلاغيون أن طرفى التشبيه إما محسوسان ، ومعظم ما عرضنا له من هذا النوع ، وإما معقولان ، أى : يدركان بالعقل لا بالحس ، كما

---

(٥٩) سورة الإنسان آية ١٩ .

فى قوله تعالى : (**وجعلنا نومكم سباتا**)(٦٠) فكل من النوم والموت أمر عقلى لا تدركه الحواس ، وإما مختلفان ، أى : أحدهما معقول ، والآخر محسوس ، كما فى تشبيه أعمال الكفار برماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، وتشبيه وهن ما يعبد من دون الله بالعنكبوت اتخذت بيتا ، وتشبيه أحوال المنافقين وتخبطهم بالذى استوقد نارا ، فقد شبهت تلك الأمور المعقولة التى لا تدركها الحواس بما تقع عليه الحاسة ، وسيأتى تجلية هذه التشبيهات .

أما تشبيه المحسوس بالمعقول فلم يرد فى النظم الكريم ، لأن الغرض من تشبيهاته إيضاح الأمور المعنوية بالصور التى تدركها الحواس، وما جاء فيه من التشبيه بالأمور الخيالية التى لا تقع عليها الحاسة ، كالتشبيه بالجن فى قوله تعالى : (**فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب**)(٦١) وكالتشبيه برءوس الشياطين فى قوله تعالى : (**إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم • طلعها كأنه رءوس الشياطين**)(٦٢) فيرجع إلى شهرة المشبه به ، وكثرة تخيله ، حتى ارتسمت فى الخيال صورة له تكاد تكون محسوسة ، ففى الخيال صورة واضحة للجان تمثله سريع الحركة ، لا يكاد يهدأ ولا يستقر ، وفيه صورة بشعة مرعبة لرءوس الشياطين ، وما يكمن بداخلها من إغواء تمثلها قبيحة منفرة(٦٣) .

---

(٦٠) سورة النبأ آية ٩ .

(٦١) سورة النمل آية ١٠ .

(٦٢) سورة الصافات الآيتان ٦٤ ، ٦٥ .

(٦٣) لنا بحث مفرد بعنوان : (استعمالات كلمة (الرأس) فى القرآن الكريم) أفضنا فيه فى تجلية هذه الصورة (طلعها كأنه رءوس الشياطين) فارجع إليه فى مجلة كلية اللغة بالقاهرة ١٩٩٣ م.

وإذا كان لقيد الذى يقيد به أحد طرفى التشبيه أو كلاهما أثره فى تحقيق الغرض من التشبيه ، وتحديد المعنى ، وتجلية المغزى ، فإن التشبيهات المركبة أدخل فى ذلك ، لأن التشبيه المركب تشبيه كثرت قيوده وتعددت ، فهو يتكون من عدة أمور اتحدت وتداخلت وكونت هيئة مركبة ، ولابد من الإحاطة بكل أمر من هذه الأمور المكونة للهيئة، وإدراك ما يشىء به ويدل عليه حتى يتضح وجه الشبه ، فهى هيئة مركبة منتزعة من تلك الأمور ، جامعة بين طرفى التشبيه .

هذه التشبيهات المركبة كثرت فى النظم الكريم ، وقد شاع فيها مجىء لفظ (المثل) بالتحريك فى جانب المشبه والمشبه به معا ، أو فى جانب أحدهما ، وأدخلت الكاف على المشبه به منهما ، وقلما شبهت حال مركبة بحال مركبة دون وجود لفظ (المثل) ولهذا سمى التشبيه المركب بالتشبيه التمثيلى(٦٤) .

تأمل قوله تعالى : (**مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين**)(٦٥) تجد أن حال المنافقين من حيث الحيرة والتخبط والقلق والاضطراب قد مثلت بحال الذى استوقد نارا ، وما كاد ضوء

---

(٦٤) انظر التحرير والتنوير ٣٠٣/١ ، ٣٠٤ .. هذا وقد اختلف علماء البلاغة فى التفرقة بين التشبيه التمثيلى والتشبيه غير التمثيلى .. ارجع إلى كتابنا (دراسات بلاغية) ص ١٧٥ وما بعدها لتقف على آرائهم فى التفرقة بين التشبيه والتمثيل .

(٦٥) سورة البقرة آيات ١٧ ـ ١٩ .

النار يبدو ويضىء ما حوله حتى خبا ، فعاد الظلام أشد مما كان ، حيث ذهب الله بنورهم فصاروا يتخبطون فى ظلماتهم ٠

ثم يبرز النظم الكريم سبب حيرتهم وتخبطهم ، فيصورهم فى صورة (الصم البكم العمى) انظر كيف جاءت هذه الصفات بلا عاطف، فالتحمت وصارت كأنها صفة واحدة ، تصور شدة نفورهم وإعراضهم عن الهدى ، وتأمل ما وراء حذف أداة التشبيه وطى المشبه - على نية تقديره - من مبالغة فى وصفهم بتلك الصفات (صم بكم عمى) والدلالة على شدة التصاقها بهم ٠

ويتلو ذلك تشبيه ثالث ، كشفا لحالهم بعد كشف ، وإيضاحا لها بعد إيضاح ، فيصورهم النظم الكريم بحال من أخذته السماء بصيب فيه ظلمات ورعد وبرق ، فامتلأ رعبا وفزعا ، وأخذ يسد أذنيه بأصابعه خوفا من الصواعق أن تنزل به (٦٦) ٠

ومما يلاحظ أن التمثيل الأول قد ذكر فيه لفظ (المثل) فى جانب المشبه والمشبه به معا ، والمراد بالمثل : الحال العجيبة والقصة الغريبة ذات الشأن ، على سبيل الاستعارة ، فإن المعنى : حالهم العجيبة وصفتهم الغريبة كحال رجل استوقد نارا ٠٠ استعير لفظ (المثل) للحال العجيبة والصفة الغريبة ذات الشأن (٦٧) ٠

---

(٦٦) تناولنا هذه التشبيهات الثلاثة فى كتابنا (بلاغة تطبيقية) وأفضنا فى تحليلها وتجليتها وإبراز دقائقها ، فلم نتعرض لشىء من ذلك هنا تحاشيا للتكرار ، ولتراجع التشبيهات فى الكتاب المذكور ص ٤٧ وما بعدها ٠

(٦٧) انظر الكشاف ١/١٩٥ ٠

ومن تلك التشبيهات المركبة قوله تعالى : (**مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهـن البيـوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون**) (٦٨) مثلت حال الكفرة فى اتخاذهم أولياء يعبدونها من دون الله بحال العنكبوت اتخـذت لنفسـها بيتا من ذلك النسج الضعيف الذى لا يجير آويا ولا يريح ثاويا ، فنسج العنكبوت مثل عند الناس فى الضعف والوهن ، وهذا شان ما يعبد من دون الله ويتخذ وليا ويبغى ربا ٠

وبإنعام النظر فى هذا التمثيل ، نجد أن التعبير بكلمة (بيتـا) يوحى بمعان كثيرة ، فالبيت له خصائص وله فوائد ، إذ يأوى إليـه صاحبه ، فيسكن فيه ، ويتقى بـه الحـر والبرد وعصف الرياح وأذى الأمطار ، وغير ذلك مما يقام له البيت ، ولكن العنكبوت لا يحصل لها من اتخاذها ذلك النسج شىء من معانى البيت وفوائده ، كذلك الكفرة لا يحصل لهم باتخاذ الأوثان أولياء من دون الله شىء من معانى الولى ٠٠ البيت ينفع صاحبه ويمنع عنه الضرر ، ولا شىء من ذلك فى نسج العنكبوت ، فإن الأذى ينفذ منه إليها ، لا يمنع ذاك النسج عنها ضررا ولا يجلب لها نفعا ، وهذا شان ما يعبد من دون الله ٠٠

ولا يخفى عليك ما فى التمثيل من تنبيه للكفرة وحث لهم عـلى النظر والتأمل ليقفوا على الخطأ ويتجلى لهم الباطل ، فيقلعوا عنه ، فإن نسج العنكبوت إذا خيم فى زاوية من مكان وظل مدة ، تعقبه صاحب المكان حتى يزيله وينظف المكان منه ، ويقتل العنكبوت الذى نسج ، أو على الأقل يؤذى فى أثناء عملية التنظيف جسده ، وإن نسج فى فضاء فسرعان ما تهب ريح فتجعله هباء منثورا ٠٠

---

(٦٨) سورة العنكبوت آية ٤١ ٠

وكذا ما يعبد من دون الله ، إن استمر العابد فى عبادته له ، وداوم على اتخاذه وليا ، فلن يكون فى ذلك إلا الضرر للعابد ، والأذى الذى يلحقه ، فينبغى التنبه والإقلاع عما فيه الأذى والضرر .

ويشعر التعبير بالاتخاذ فى جانب المشبه والمشبه به (اتخذوا .. اتخذت) بما لهذه الأشياء من نفع ، فالحجارة والشمس والقمر والنجوم وغير ذلك مما يعبد من دون الله ، له نفع ، ويستدل به على قدرة الله تعالى ، والخطأ إنما هو فى عبادتها من دون الله واتخاذها آلهة ، وكذا نسج العنكبوت ، لا يخلو من فائدة ، كاصطيادها به الذباب ونحوه، والخطأ إنما هو فى اتخاذه بيتا ، وليس فيه خصائص البيت(٦٩) .

وفى إيثار التعبير بلفظ (أولياء) دون (آلهة) ما يدل على كمال قدرة الله تعالى ، وتفرده بالجلال والسلطان ، وظهور عجز من سواه ، فهم فى الوهن والضعف عندما يلجأ إليهم، ويراد نفعهم، وينظر إلى قدرتهم ، كنسج العنكبوت عندما يتخذ بيتا .

وتأمل قوله تعالى : (**له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال**)(٧٠) تجده تمثيلا لحال ما يعبد من دون الله تعالى ، وعدم إجابته من يدعوه بحال من بسط كفيه إلى الماء يطلب منه أن يبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، لأن الماء لا يشعر ببسطه كفيه، ولا يحس بعطشه وحاجته إليه ، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه

---

(٦٩) انظر تفسير الفخر الرازى ٦٩/٢٥ .

(٧٠) سورة الرعد آية ١٤ .

كما يريد ، وهذا شأن ما يدعون من دون الله ، فهو لا يسمع دعاء من يدعوه ، ولا يشعر به ، ولا يقدر على إجابته ، ولا يستطيع نفعه .

وقيل : إن المعنى على تمثيل حالهم فى عدم إجابة الأصنام لدعائهم بحال من أراد أن يغترف من الماء بكفيه ليروى عطشه ، فبسطهما ناشرا أصابعه ، فلم تلق كفاه من الماء شيئا ، ولم تصلا إلى فيه بشىء منه ، فظل على حاله من الظمأ والعطش ، ولم يفده ما فعل من بسط كفيه إلى الماء ، وذاك شأن من يدعو آلهة لا تجيب ، لأنها لا تسمع دعاء(٧١) .

وقد بدئت الآية الكريمة بقوله تعالى : (**له دعوة الحق**) أى : الدعوة الثابتة ، الواقعة فى محلها ، المجابة عند وقوعها ، والإضافة للإيذان بملابسة الدعوة للحق ، واختصاصها به ، وكونها بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال ، كما يقال : تلك كلمة الحق ، وقيل : إن الحق هو الله ، والمعنى : لله دعوة الله ، أى : الدعوة اللائقة بحضرته ، كما فى قوله ﷺ : (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله)(*)وعن الحسن - رضى الله عنه - أنه قال :(الحق هو الله ، وكل دعاء إليه دعوة حق) ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : (**وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال**) أى : ضياع وخسران ، لأنهم يدعون آلهة لا تستطيع إجابة ، ولا يخفى عليك ما فى بدء الآية وختامها من إيضاح وتجلية للمثل(٧٢) .

وفى بناء التمثيل على النفى والاستثناء (لا يستجيبون لهم بشىء

---

(٧١) انظر الكشاف ٣٥٤/٢ .

(٧٢) انظر تفسير أبى السعود ١١/٥ .

(*) رواه البخارى ومسلم .

إلا كباسط كفيه إلى الماء ٠٠) تأكيد للذم بما يشبه المدح ، ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من تنبيه وإيقاظ ٠

ومن هذه التشبيهات المركبة قوله تعالى : (**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين**)(٧٣) حيث شبه اليهود فى أنهم كلفوا علم التوراة والعمل بها ثم لم يعملوا بما فى تضاعيفها من الآيات التى من جملتها الآيات الناطقة بنبوة محمد ﷺ شبهوا فى ذلك بالحمار يحمل أسفارا ، فاليهود حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها، ولكنهم غير عاملين بها ، ولا منتفعين بآياتها ، إذ فيها نعت رسول الله ﷺ والتبشير به ، وهم يعلمون ذلك ولم يؤمنوا به ﷺ فحالتهم هذه تشبه حال الحمار الذى يحمل كتب العلم القيمة ، ويتعب فى حملها ، ولا ينتفع بما فيها من علم ، لأنه لا يدرى منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب ، وهذا مثل كل من علم ولم يعمل بمقتضى علمه ، وبئس المثل مثلا (٧٤) ٠

ولا يخفى عليك تركيب طرفى التشبيه فى الآية الكريمة ، فالمشبه هيئة مكونة من اليهود وحفظهم التوراة ، وعدم عملهم بمقتضى ما حفظوا ، والمشبه به هيئة مكونة من الحمار وحمله وكون المحمول أسفارا ، وقد أجاز بعض العلماء كالعلوى صاحب الطراز ، وابن أبى الأصبع صاحب بديع القرآن ، أن يكون التشبيه فى الآية من قبيل التشبيه المتعدد ، حيث شبهت اليهود بالحمار فى الغباوة والجهل

---

(٧٣) سورة الجمعة آية ٥ ٠

(٧٤) انظر الكشاف ١٠٣/٤ ٠

والبلادة ، وشبهت التوراة بكتب العلم (الأسفار) وشبه حفظهم التوراة بحمل الحمار الأسفار ، وهذا ليس بشيء ، لأن المراد من التشبيه تصوير العناء بلا منفعة ، وهذا لا يتأتى إلا بالتركيب ، بأن يتعدى الحمل إلى الأسفار ، ويقترن بالحمل جهل الحمار بمضمونها ، وقد أفاض الإمام عبد القاهر فى تجلية هذا التشبيه ، وبيان الغرض منه ، وإيضاح أن هذا الغرض لا يتحقق إلا بتركيب طرفيه(٧٥) .

ومن تلك التشبيهات المركبة تصوير النظم القرآنى لإنفاق المال، إذ يرسم لنا صورا للمنفق فى سبيل الله وابتغاء وجهه ، وللمنفق منا ورياء ، وللكفرة ينفقون ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر .

تأمل قوله تعالى : (**مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم**)(٧٦) هذه صورة للمنفق فى سبيل الله ، مخلصا فى إنفاقه ، مبتغيا به وجه الله تعالى ، قد ابتعد بإنفاقه عن المن والأذى والرياء ، ومما يلاحظ أن التشبيه قد أوجز فى جانب المشبه : (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) ثم جاء التفصيل فى جانب المشبه به ، فهو حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، لقد ضوعف جزاء الصدقة إلى سبعمائة ضعف،والله يضاعف لمن يشاء،ولم يقل النظم الكريم كمثل حبة أنبتت سبعمائة حبة ، بل آثر التفصيل فى بيان الأجر (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) ليقف القارىء على

(٧٥) ارجع إلى أسرار البلاغة ١/ ٢١٠ .

(٧٦) سورة البقرة آية ٢٦١ .

أجر الصدقة ، كيف ينمى فى نمو الحبة ، وتفرعها إلى سبع سنابل ، وتكوين الحبات ، فى كل سنبلة مائة حبة ، حتى صارت الحبة إلى سبعمائة حبة ، رآها القارىء وهى تنمو فى الحبة وتكون فى السنابل، وقد أخبر ﷺ أن الله يربى الصدقة لصاحبها كما يربى الرجل فلوه ، أى : مهره الصغير ، حتى تكون مثل الجبل .

يقول ﷺ : (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل)(٧٧) .

وليس المراد بالعدد فى قوله : (سبع سنابل) حقيقة العدد ، بل المراد : الكثرة ، فإن السبعة ومضاعفاتها ترد للدلالة على الكثرة ، قال تعالى : (**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم**)(٧٨) ولذا أوثر التعبير بجمع الكثرة (سنابل) دون جمع القلة (سنبلات) كما ورد فى سورة يوسف ، فى قوله تعالى : (**وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات**)(**٧٩**) ليشعر ذلك بالكثرة ويؤذن بالمضاعفة (والله يضاعف لمن يشاء) .

ما حقيقة الحبة الممثل بها ؟ : قد تكون حبة موجودة فى واقع الناس ، تنبت هذا الإنبات وتثمر ذلك الإثمار ، وقد تكون حبة متخيلة، على سبيل الفرض لتظهر الكثرة ومضاعفة الأجر ، يقول الزمخشرى :

---

(٧٧) رواه البخارى ومسلم .. وعدل التمرة : قيمتها ، و (الفلو ، بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو : المهر الصغير .

(٧٨) سورة التوبة آية ٨٠ .

(**٧٩**) **سورة يوسف آية ٤٣ .**

« فإن قلت:كيف صح هذا التمثيل والممثل به غير موجود ؟ قلت : بل هو موجود فى الدخن والذرة وغيرهما ، وربما فرخت ساق البرة فى الأراضى القوية المغلة فيبلغ حبها هذا المبلغ،ولو لم يوجد لكان صحيحا على سبيل الفرض والتقدير)(٨٠)وتقضى الصياغة أن يقدر مضاف فى جانب المشبه به ليناظر ما فى المشبه،ويصبح المعنى:مثلهم كمثل باذر حبة .. فطوى هذا المضاف ، وفى طيه ثم إسناد الإنبات إلى ضمير الحبة (أنبتت سبع سنابل) إسنادا مجازيا ، ما يدل على سرعة النمو ، فقد توارى المضاف وهو باذر الحبة حتى لا يحجب الأنظار عن مشاهدة هذا النمو السريع للحبة التى أنبتت سبع سنابل بأمر الله تعالى وأثمرت ذلك الإثمار .. إن طى المضاف قد جعل الأذهان معلقة بأولئك الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، غير مصروفة عنهم بصارف ما وهى تشاهد ثواب إنفاقهم ينمو ويتضاعف من خلال ذلك التصوير المبدع .

ويأتى تمثيل آخر للمنفق ابتغاء وجه الله فى قوله تعالى : **(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل)(٨١)** حيث يصور النظم الكريم ثواب إنفاقهم ، ويبين كيف ينمو ويتضاعف ، فيشبهه بجنة ، هذه الجنة بربوة ، أى : مكان مرتفع ، وقد خص الجنة بهذا المكان ، لأن الشجر فيها يكون أزكى ، وأحسن منظرا وأطيب ثمرا .. تلك الجنة قد أصابها (وابل) وهو المطر الشديد فتضاعف ثمرها ، أو أصابها (طل) وهو المطر الصغير القطر ، وهذا يكفيها لكى تثمر وتؤتى أكلها ضعفين لكرم منبتها ، فهى بربوة .

---

(٨٠) الكشاف ٣٩٣/١ .

(٨١) سورة البقرة آية ٢٦٥ .

ويشعر هذا التعبير (فإن لم يصبها وابل فطل) بأن الصدقة كثيرة كانت أو قليلة إذا ما قصد بها وجه الله تعالى ، وبذل فيها الوسع ، فهى زاكية عنده ، وثوابها يضاعف ، كما أن كل واحد من المطرين يضاعف أكل الجنة (٨٢) .

وكما أسند الإنبات فى التمثيل السابق إلى الحبة ، فقد أسند الإيتاء هنا إلى الجنة إسنادا مجازيا ، فالجنة تؤتى أكلها بأمر الله، ويتضاعف هذا الإيتاء أضعافا ، ذاك هو المراد بالتثنية (ضعفين) فليس المراد بها العدد ، بل أريد بها : التكثير ومضاعفة الإيتاء .

ويتخلل التمثيلين السابقين فى النظم الكريم تمثيل إنفاق المن والأذى ، والإنفاق رئاء الناس ، حيث جاء قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين** »(٨٣) مشبها الذى ينفق الصدقات ثم يبطلها بالمن والأذى ، بالكافر الذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فكل منهما قد أحبط عمله ، وضيع ثوابه ، هذا بالمن والأذى ، وذاك بالرياء وعدم الإيمان .

ثم يرسم النظم الكريم صورة الإحباط والضياع : (فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ..) لقد اتحد إنفاق المؤمن الذى يمن عطاءه بإنفاق الكافر وامتزجا ، ورسمت لهما هذه الصورة ، صورة حجر أملس تراكم عليه التراب ، وما أيسر إزالة تراب تراكم

---

(٨٢) انظر الكشاف ١/٣٩٥ .   (٨٣) البقرة : ٢٦٤ .

على حجـر أملس ، إن أقـل شىء يزيله ، ومع ذلك (أصابه وابل) أى : مطـر عظيم القطـر ، بدد التراب وترك الحجـر صلدا ، نقيـا خاليـا مما تراكم عليـه .

وانظـر إلى تلك الفـاءات (فمثـله .. فأصـابه وابل فتركه ..) التى تصـور السـرعة وتلاحق الأحداث ، وتشعر بأن إنفـاق الكافر ، ومثـله المنـان عطاءه ، لا يثبت وإنما يحبطه الله فيصير هباء منثورا .

ولا يخفى عليـك ما وراء اندماج التمثيلين من قـوة الردع وشدة الزجـر للمؤمن الذى يبطل صدقته بالمن والأذى ، إنه هو والكافر سـواء فى الحـرمان وضياع الثواب وسـوء المصـير ، ولذا ختمت الآية الكريمة بهذا التعـريض **(والله لا يهـدى القـوم الكافرين)** ، **فهو تعريض بأن** المن والأذى والرياء من صفات الكافرين ، فعلى **المؤمن أن يتجنب هذه** الصفات وأن يكون عنهـا بمعـزل(٨٤) .

ويأتى تمثيـل ثان للصدقة التى يبطلها المن والأذى ، ويحبطهـا الرياء ، وذلك فى قوله تعـالى : **« أيود أحدكم أن تكون له جنـة من نخيـل وأعنـاب تجـرى من تحتها الأنهار له فيهـا من كل الثمرات وأصـابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصـابها إعصـار فيـه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون »**(٨٥) ، إنهـا صـورة تبرز كيفية إبطال العمـل وإحباطه ، مهما عظم واشتدت حاجة صاحبه إليه ، لقد أبطله رياؤه وأحبطه منـه .

الصـورة التى يرسمها النظم الكريم هنا صـورة جنـة من نخيـل **وأعناب ، لا تنقطع عنها الميـاه ، فالأنهار من تحتها** تجرى ، ويا لها

---

(٨٤) انظـر روح المعـانى ٣/٣٥ .   (٨٥) البقرة : ٢٦٦ .

من جنة عظيمة ، جمعت بالإضافة إلى النخيل والأعناب كل الثمرات (له فيها من كل الثمرات) ، وصار صاحبها فى أشد الاحتياج إليها لأمرين : أولهما : أنه صار كبيرا (أصابه الكبر) ، وثانيهما : أن ذريته فى حاجة إلى رعايته (وله ذرية ضعفاء) .

هذه الجنة التى عظم شأنها ، واشتدت حاجة صاحبها إليها ، تزول فجأة ، وتختفى من الوجود ، ما الذى أزالها وأخفاها ؟ .. (أصابها إعصار فيه نار فاحترقت) ، والمراد بالإعصار : الريح التى تستدير فى الأرض ثم ترتفع نحو السماء، ويسميها الناس : الزوبعة، ولا يخفى عليك ما وراء الفاءين (فاصابها .. فاحترقت) من تصوير لسرعة الإهلاك ، وما وراء (إعصار فيه نار) من تصوير لشدة الإبادة .. الجنة لم يبق بها شىء (احترقت) ، لقد أتى الإعصار عليها بناره ، فاحترقت أشجارها ، واحترق نخيلها .

وتأمل دقة التعبير القرآنى الكريم ، حيث عبر هنا فى تصويره إهلاك الجنة بقوله : (فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت) وعبر فى تصويره إهلاك الحرث بقوله : (كمثل ريح فيها صر) ولنقرأ: « **إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون** »(٨٦) ، الحال الممثلة واحدة ، وهى الإنفاق الذى ينفقه الكافر فى الدنيا ، فيبطله الله تعالى لكفره وعدم إيمانه ، وقد مثلت فى سورة البقرة بجنة

---

(٨٦) **سورة آل عمران : ١١٦ ، ١١٧ .**

احترقت بإعصار فيه نار ، ومثلت فى سورة آل عمران بحرث أهلك بريح فيها صر ، اختلاف المهلك فى الموضعين ، لأن الحرث يكفى فى إهلاكه تلك الريح الشديدة البرودة (فيها صر) ، أما الجنة فبها نخيل وأعناب ، والريح تهلك الثمار والزروع ، وتبقى أصول الأشجار والنخيل فتكون بعد إهلاك ثمارها ، مظنة الإثمار فى أعوام مقبلة ، ولذا عبر عن إهلاك الجنة بقوله : (فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت) ليدل على الإفناء التام ، وأنه لم يبق شىء من أصول النخيل والأشجار ، وعبر عن إهلاك الحرث بقوله : (ريح فيها صر) فتلك الريح كافية لإهلاك حرث القوم الذين ظلموا أنفسهم ، بل هى أبلغ فى تصوير الخسران ، إذ تهلك الريح الحرث ، ويظل ما خلف عن الإهلاك باقيا ، فهو لم يحترق ، وعلى صاحب الحرث إزالة تلك المخلفات ، وتنظيف الأرض منها ، وهذا غرم يضاف إلى فقدان الثمار فيزداد الخسران .. أرأيت مدى دقة النظم القرآنى فى اختيار الألفاظ المعبرة التى تتسق مع السياق وتتلاءم مع المعنى ، إنه الإعجاز.. ضع (ريح فيها صر) مكان (إعصار فيه نار) ثم انظر أيستقيم لك المعنى أم تراه قد اختل ؟

وعد إلى تشبيهات الإنفاق فى سورة البقرة وتأمل تسلسلها ، لقد بدأت بتمثيل حال من ينفق فى سبيل الله ، وتبع ذلك تمثيل حال المنان عطاءه والمرائى به ، ثم تمثيل حال من ينفق ابتغاء مرضاة الله ، واختتمت بتمثيل حال المنان والمرائى ، التى طويت لوضوحها ودلالة السياق عليها ، وهذا التنويع فيه لفت وتنبيه للقارىء وحث على تدبر هذه الصور ، والوقوف على بعد ما بينها ، فاقتران الصورة بما يقابلها ، ثم اختلاف المشبه به في كل صورة يأخذ

بلب القارىء ، ويثير فكره ، ليقف على هذه الصور ، ولذا التفت في التمثيل الرابع إلى الخطاب « **أيود أحدكم أن تكون له جنة ..** » وبدىء بهذا الاستفهام الإنكارى الدال على التنبيه والإيقاظ ، وطويت حال المشبه لتبقى صورة المشبه به ماثلة أمام القارىء الذى هيىء لتدبرها والإحاطة بها .

كثر فى النظم الكريم التمثيل بالنباتات والزروع ، والأشجار والثمار ، فقد رأينا تشبيه الإنفاق فى سبيل الله وابتغاء مرضاته بحبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، وبجنة بربوة أصابها وابل أو طل فآتت أكلها ضعفين ، وتشبيه الإنفاق رياء وأذى ومنا بجنة من نخيل وأعناب فيها من كل الثمرات والمياه لا تنقطع عنها ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، وتشبيه إنفاق الكفار بحرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر فأهلكته .

وترجع كثرة التشبيه بالزرع والنبات والشجر والثمار إلى انتشارها وإلى سرعة نمو النبات والزرع ، ومشاهدة الناس لمراحل ازدهاره ونضارته ثم اصفراره وذبوله ، وإلى مشاهدتهم الأشجار ووقوفهم على نفعها وفوائدها ، وإلى سهولة إدراكهم ورؤيتهم لما يحدث للزرع والنباتات والثمار والأشجار عندما تصيبها الرياح والأعاصير فتحترق أو تصبح هشيما تذروها الرياح إلى أماكن بعيدة .

ومما مثل بالنباتات (الحياة الدنيا) فقد مثلت فى سرعة تغيرها وزوالها بعد **إقبالها وبهجتها** واطمئنان الناس إليها بالنبات ، **ينمو ويزين الأرض** ، **وفجاة يأتى أمر الله فينمحى ويصبح كأن لم** يكن ، ولنقرأ : « **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء**

فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون »(٨٧) .

التمثيل هنا للحياة الدنيا التى اغتر بها أهلها ، وركنوا إليها ، واطمأنوا بها ، فبغوا فى الأرض بغير حق .. يمثل النظم الكريم هذه الحياة حتى ينتبه هؤلاء إلى حقيقتها ، فلا يطمئنوا بها ، ولا يغتروا بزخرفها ، ويكفوا عن البغى فى الأرض بغير الحق ، ويتزودوا فيها بخير زاد وهو التقوى وصالح الأعمال .

(إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) الاختلاط معناه : تداخل الأشياء بعضها فى بعض ، فالباء فى قوله : (فاختلط به) إما للسببية ، والمعنى : أن هذا الماء كان سببا فى إنبات النبات ونموه واختلاط بعضه ببعض وتداخل فروعه وأغصانه ، وإما للمصاحبة ، والمعنى على ذلك : أن الماء قد اختلط بالنبات وجرى فيه ، ويؤذن اختلاط الماء بالنبات وجريانه فيه بحب الناس للدنيا ، وتغلغل هذا الحب فى قلوبهم ، وسريان فتنتها إلى أحشائهم سريان الماء فى النبات .

وفى قوله : **(حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها)** تصوير لإقبال الدنيا على أهلها ببهجتها وزخرفها حتى اعتقدوا أنهم قادرون عليها ، وأنها غير زائلة ، فقد بدت أمامهم كالعروس التى تزينت بأنفس أنواع الزينة ، ولذا مالوا لها وركنوا إليها واطمأنوا بها .. وعندئذ **(أتاها أمرنا ليلا أو نهارا**

---

(٨٧) سورة يونس : ٢٤ .

فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالأمس) تلك هى المفاجاة التى غفلوا عنها ، وهى مجىء أمر الله ، وما قدره من الآفات والأوبئة فى أى وقت من أوقات الليل أو النهار ، فتاتى على هذه النباتات التى زينت الأرض ، فتجعلها حصيدا ، أى : كأنها قد حصدت ، حيث أصابها الذبول واليبس ، وذهبت نضارتها وخضرتها ، وأصبحت الأرض صعيدا جرزا كأن لم تغن بالأمس بهذا النبات الذى قد زينها وجماها وجعلها كالعروس

ويوحى هذا التشبيه (كأن لم تغن بالأمس) بقصر المدة التى تزينت فيها الأرض ، فهى ما كادت تأخذ زخرفها وتتزين حتى انمحت عنها تلك الزينة ، وكأن لم تكن ، وتختتم الآية الكريمة بالحث على التفكير فى شأن هذه الدنيا ، والوقوف على حقيقتها **(كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون)** ٠

وبإنعام النظر فى سياق السورة الكريمة نجد أن التمثيل منسجما مع هذا السياق ، ومتسقا مع ما ورد فيه ، فقد أبرز السياق تغير الناس وتقلبهم ، فهم عند الشدة يضرعون إلى الله ، فإذا ما زالت الشدة وصاروا فى أمن ورخاء ، بغوا فى الأرض بغير الحق ، ولنقرأ : **« وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ٠٠٠ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا ٠٠٠ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ٠ فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق »**(٨٨) ٠

---

(٨٨) يونس ، الآيات بالترتيب : ١٢ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ٠

ولعلك تدرك الصلة الوثيقة بين ما ورد فى التمثيل فى الآية الكريمة وبين هذه الأوصاف التى جرى بها السياق ، ولننظر : **(حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ... حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها)** .. **(جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ... أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا)** ... **(مر كان لم يدعنا إلى ضر مسه .. كأن لم تغن بالأمس)** الأنسجة اللغوية التى جرت فى التمثيل وفى سياقه أنسجة واحدة ، بينها من التآلف والترابط ما قد رأيت ، وهذا يبين لنا مدى تلاؤم التمثيل وانسجامه فى سياقه الذى ورد فيه .

وجاء تمثيل الحياة الدنيا بالنبات فى سورتين أخريين ، فى سورة الكهف فى قوله تعالى : **« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا »**(٨٩) ، ثم فى سورة الحديد فى قوله تعالى : **« اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »**(٩٠) .

وكان تمثيل سورة الكهف موجزا حيث أفاض السياق قبله فى تجلية قصة الرجلين ، وأظهر الحوار الذى دار بينهما تغير الأحوال ، وندم صاحب الجنتين على شركه بربه ، وتحسره على ما فرط فى جنب الله ، حيث أحيط بثمر جنتيه التى افتخر بهما ، وظن أنهما لن تبيدا أبدا ، ثم جاء تمثيل الحياة الدنيا فى ختام هذه القصة

---

(٨٩) الكهف : ٤٥ .   (٩٠) الحديد : ٢٠ .

كالتعقيب عليها ، فليس المراد تفصيل أحوال الحياة الدنيا - كما كان الحال فى سورة يونس - بل المراد تصوير الإقبال منها ثم الإعراض والزوال ، وتفصيل ذلك تكفلت به قصة الرجلين التي أفاض السياق فى تجليتها .

أما تمثيل سورة الحديد فقد امتد ليتلاءم مع السياق الذى أبرز أحوال طوائف من الناس .. الكفار الذين يريدون أن يقتبسوا من نور المؤمنين يوم القيامة ، واليهود الذين قست قلوبهم ، والمؤمنين الذين تصدقوا وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وقد بدا فى السياق الحديث عن المال ، حيث أمر الذين آمنوا أن ينفقوا مما جعلهم مستخلفين فيه ، ثم أمروا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق .

وبعد ذلك يأتى التمثيل ليكشف عن حقيقة الحياة الدنيا ، إنها لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر فى الأموال والأولاد ، فهى تشبه الغيث الذى يختلط بالنبات فينمو الزرع ويتكاثر حتى يعجب الزراع ؛ ثم يذبل وييبس فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما ، وتأمل كلمة (يهيج) ومدى تلاؤمها فى اللفظ مع اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر ، وانظر إلى كلمة (غيث) وكيف أفادت ما أفاده قوله تعالى فى التمثيلين الآخرين : (كماء أنزلناه من السماء) إذ الغيث هو الماء النازل من السماء .

هذه التمثيلات الثلاثة ، أولها : نزولا تمثيل سورة يونس ، ثم الكهف ثم الحديد ، وكذا ترتيبها فى المصحف ، وقد بدأ أولها نزولا بذكر الحياة الدنيا (إنما مثل الحياة الدنيا) واختتم بذكرها آخرها نزولا (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) وهذا ما يسميه البلاغيون : تشابه الأطراف ، فالصور الثلاث تمثل شيئا واحدا هو

الحيـاة الدنيـا ، وقد جاءت كل صـورة منها مختلفة فى أبنيتها عن الاخرين ، متلائمة فى سياقها الذى وردت فيه ، على نحو ما رأينا .

ومما مثـل بالزرع : النبى - ﷺ - وأصحابه يلتفـون حـوله ، يؤازرونه ويناصرونه ، وذلك فى قوله تعـالى : « **ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخـرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سـوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ..** »(٩١) ، فالآية تمثـل التفاف الصحابة حـول الرسول - ﷺ - ومؤازرتهم له ، حتى انتشـر الإسـلام وقوى وضرب بجرانه ، بالزرع الذى أخرج شطأه ، أى : تولدت منـه أعواد صغيرة على جانبيـه ، وتعـرف هـذه الأعـواد بالفـراخ (فـآزره فاستغلظ فاستـوى على سـوقه) أى : قـوى الـزرع فراخـه ، وسـاندته تلك الفـراخ ، وهذا معنى التـآزر ، حتى صـار الزرع بفراخه من القـوة بمكان ، وصـار مستويا على سـوقه ، يقف فى وجـه ما يهب عليـه من رياح وعواصف ، وصـار بقوته وروعة منظـره يعجب الزراع .. هذا مثـل النبى - ﷺ - وأصحابه ، حيث التفوا حوله وعزروه ونصـروه واتبعـوا النور الذى أنزل معـه ، فصـاروا قوة ونجوما فى الهـداية ، وذا ما يغيظ كل كفـار عنيد .

يقول الزمخشرى : « وهذا مثـل ضربه الله لبدء أمـر الإسـلام ، وترقيـه فى الزيادة إلى أن قـوى واستحكم ، لأن النبى - ﷺ - قام وحده ثم قـواه الله بمن آمن معـه ، كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع »(٩٢) .

ويركز النظم القـرآنى على إيضاح أن الإيمان بالله واليوم الآخـر

---

(٩١) الفتـح : ٢٩ .

(٩٢) الكشاف ٥٥١/٣ .

والاستقامة على الطريقة وامتثال شرع الله هو الأساس الذى إذا تحقق نجا صاحبه ، وإذا انعدم هلك ، مهما كثرت أعماله الصالحة وتعددت ، فأعمال البر والخير لا تنفع بدون الإيمان ، ويضرب الله الأمثال للناس ليتجلى لهم ذلك ويتضح ، ولنقرأ قوله تعالى : **« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم »**(٩٣) .

فهو يمثل شرع الله حين يشرق فى قلب المؤمن ، ويسطع فى صدره ، فيمضى على الهدى ، ويستقيم على الطريقة ، ممتثلا الحق ، مفرقا بينه وبين الباطل ، يمثل هذا الإشراق بالمصباح الذى توهج نوره ، وازداد ضياؤه ، حيث وضع فى (مشكاة) وهى كوة ضيقة ليست نافذة وتعرف بالطاقة ، وذا المصباح فى زجاجة تجمع ضوءه ، وتلك الزجاجة كأنها كوكب درى ، والمصباح لا يطفأ أبدا ، إذ يستمد وقوده (من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية) لقد صفا زيته لأنه من تلك الشجرة المباركة التى لا تحجب عنها الشمس ، فهى لا شرقية ولا غربية ، أى : ليست فى مشرقة أبدا ، ولا فى مقناة أبدا ، بل تصيبها الشمس والظل كل منهما فى وقته ، ولذا صفا زيتها فهو يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار(٩٤) .

انظر كيف تضاعف ضوء المصباح ، لقد هيىء له مكان خاص

---

(٩٣) سورة النور : ٣٥ .

(٩٤) انظر روح المعانى ١٦٨/١٨ .

يجمـع الضـوء ويحكمه ، ووضــع فى زجاجة خاصة (كأنها كوكب درى) فازداد بذلك توهجا وإشراقا ، واستمد وقـوده من زيت خاص يكاد يضىء ولو لم تمسسـه نـار ٠

هذا مثل شرع الله الذى وضعه لعبـاده ، فهو يشرق هذا الإشـراق فى قلوب من يشـاء منهم ، ومهما تشابكت وتداخلت أمـور الحيـاة ومسائلها فى دنيـا النـاس ومعاملاتهم ، فإن المنهج شديد الضياء ، والنـور يشـرق أمـام كل أمـر ويسطع أمام كل مسـألة ، ويضىء كل تعـامل ، إنه (نور على نور يهدى الله لنـوره من يشـاء ٠٠) ذاك نور الحـق يشـرق فى قلب المؤمن ، فيمضى المؤمن فى هذا الإشراق ، ويسـير فى نور الله الذى أضـاء السموات والأرض ، فلا لبس ولا خفاء، بل وضوح وجلاء، ولهذا نرى المؤمن ذاكرا مسبحا **(فى بيوت أذن الله أن ترفـع)** لا تلهيـه تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة شرعه ٠

أما الكافر فيتخبط فى الظلام ، ويلهث وراء السراب ، لأنه عاند وكابر ، وأعـرض عن شـرع الله الذى أضـاء الكون ، ولذا نراه هناك وراء الوهم والسـراب وفى الظلمات التى تراكمت ، ولنقـرأ : « **والذين كفـروا أعمـالهم كسـراب بقيعة يحسبه الظمـآن ماء حتى إذا جـاءه لم يجـده شيئـا ووجد الله عنده فوفاه حسـابه والله سريع الحساب ٠ أو كظلمـات فى بحـر لجى يغشـاه موج من فوقه مـوج من فوقه سحاب ظلمـات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعـل الله له نورا فما له من نور »(٩٥)** ٠

فهذا تمثيل لأعمال الكفرة الصالحة التى يحسبونها تنفعهم وتنجيهم،

---

(٩٥) سـورة النـور : ٣٩ ، ٤٠ ٠

مثلت أولا بالسراب يبصره الظمآن فى الصحراء الممتدة فيحسبه ماء ، فيجد إليه ، وعندما يصله لا يجد شيئا ، ويلقى هناك زبانية جهنم ، يأخذونه فيعتلونه إليها بعنف وقوة ٠

ثم مثلت مرة أخرى بظلمات متراكمة من بحر لجى وسحاب قد تكاثف ، تجمعت ظلمات الأمواج وظلمات السحاب (يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب) فكانت (ظلمات بعضها فوق بعض) ويرى بعض العلماء أن التمثيل الأول لأعمال الكفار الصالحة التى يحسبونها نافعة لهم ، والثانى لكفرهم وأعمالهم القبيحة التى ليس فيها شائبة خير(٩٦) ٠

والذى نراه أن التمثيلين لشىء واحد وهو أعمال الكفرة الصالحة التى يحسبونها تنفعهم فإذا بهم يرونها سرابا يلهث وراءه ، وظلاما قد تراكم ، أحالها إليه كفرهم وإعراضهم عن نور الله ، وإذا كانت هذه الأعمال الصالحة سرابا وظلاما، فغيرها من الكفر والأعمال القبيحة التى عملوها تكون كذلك من باب أولى ٠

يقول الزمخشرى : « شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التى يحسبها تنفعه عند الله ، وتنجيه من عذابه ، ثم تخيب فى العاقبة أمله ، ويلقى خلاف ما قدر ، بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء ، فيأتيه فلا يجد ما رجاه ، ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق ٠٠ شبه أعمالهم أولا فى فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئا ، ولم يكفه خيبة وكمدا أن لم يجد شيئا كغيره من السراب ، حتى وجد عنده

---

(٩٦) انظر القرطبى ١٨٧/١٢ ، وأبى السعود ١٨١/٦ ٠

الزبانية تعثله إلى النار ، ولا يقتل ظمأه بالماء ، وشبهها ثانيا في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة ، وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب »(٩٧) .

وعندما نتأمل هذه التشبيهات الثلاثة ، يتضح لنا : التقابل بين تشبيهي أعمال الكفار من حيث العناصر المكونة للصورة في كل منهما ، فالأول سراب في صحراء ممتدة ، والثاني ظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب .. عناصر الصورة في التشبيه الأول مستمدة من البر ، والبر خراب ليس فيه إلا الصحراء وأهوالها ، والكافر يلهث وراء الوهم ويركض وراء السراب في هذا الخراب ، وفي التشبيه الثاني مستمدة من البحر والسحاب ، حيث أطبقت ظلماتهما ، وغاب نفعهما فلا وجود له في وسط هذا الظلام .

كما يتضح لنا التقابل بين التشبيه الأول والتشبيه الثالث ، حيث أبرزت عناصر التشبيه الأول تضاعف النور وشدة الضياء ، وأبرزت عناصر التشبيه الثالث تراكم الظلمات وشدة الظلام ، فنجد في التمثيل الأول (نور على نور) يقابله في الثالث (ظلمات بعضها فوق بعض) وتحتشد العناصر في الأول لبيان وهج النور وشدة الضياء (كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري) ، وفي الثالث لبيان تداخل الظلمات وتكاثفها (يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب) والضياء في الأول دائم ومستمر ، لا ينقطع ولا يزول، لأن المصباح يستمد زيته (من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية) والظلمات في الثالث كذلك ، لأنها ظلمات في بحر لجي ، والمبالغة في الأول (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) تقابلها

---

(٩٧) الكشاف ٣/٦٩ ، ٧٠ .

المبالغة فى الثالث (إذا أخرج يده لم يكد يراها) ، وكما قال فى الأول (يهدى الله لنوره من يشاء) ، قال فى الثالث : (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) .

ونجد التشبيهات متسقة فى سياقها متلائمة مع المعانى التى أبرزتها السورة الكريمة ، فقد تناولت السورة حادثة الإفك ، وبينت جزاء من خاض فيها ، وجزاء من يرمى المحصنات الغافلات ، ومن يرمون أزواجهم ، وأمرت بالاستئذان وبغض البصر وبأن تستتر المرأة ولا تبدى زينتها ، وبأن يستعف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله .. إلى غير ذلك مما شرع الله ، وأبرز فى هذه السورة الكريمة ، ثم قال تعالى : **« ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين »**(٩٨) ، وتأتى بعد ذلك هذه التشبيهات التى تصور شرع الله ومنهج السماء ، وتصور حال من أعرض عنه ، والتمس الهدى فى غيره ، إن شرع الله هو النور الذى يشرق فى قلب المؤمن ، ومن أعرض عنه فإن له معيشة ضنكا ، حيث يتخبط فى الظلمات ، ويعيش فى وهم السراب والضياع ثم يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر فيوفيه حسابه .

واقرأ تمثيل أعمال الكفرة فى سورة إبراهيم : **« مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد »**(٩٩) ، لقد مثلت برماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، فتبددت هذه الأعمال وضاعت ، وذهبت هباء منثورا ، حيث اشتدت الريح بالرماد ، وهذا يؤذن

---

(٩٨) سورة النور : ٣٤ .

(٩٩) سورة إبراهيم : ١٨ .

بشدة إثارته وتبدده ، لأن الريح اشتدت به لا عليه ، التعدية بالباء ، ثم إسناد العصف إلى اليوم تجوزا ، قد دلا على قوة العصف واختفاء الرماد وذهابه إلى مكان سحيق ، إنه رماد ويكفى لإذهابه أدنى ريح ، ومع ذلك كانت هذه الشدة وذاك العصف اللذان لا يتصور بعدهما وجود أى أثر للرماد ، كذلك أعمال الكفار تذهب سدى .

والملاحظ هنا أن الكافر لا وجود له ؛ وأن أعماله هى التى برزت فى التمثيل ، وهناك فى سورة النور برز الكافر يركض وراء السراب الذى يصور أعماله .. فلماذا ؟ لأن السياق فى سورة النور يشرح شرع الله ويوضح حدوده التى مثلها بالنور ، فالمؤمن هناك يسعى بنور الله ، ويمضى على هديه ، والكافر يعرض عن النور ، ويأبى إلا التخبط فى الظلمات والركض وراء الوهم والسراب ، لهذا أبرزه التمثيل ليتلاءم مع سياق السورة .

أما فى سورة إبراهيم فإن السياق يصور الكافر وقد انتهت حياته ، فها هو ذا فى جهنم (يسقى من ماء صديد) الزبانية تسقيه إياه فهو (يتجرعه ولا يكاد يسيغه) ، والموت قد أحاط به من كل مكان ، وكأنه جيش يهجم عليه من كل ناحية ، فلا يستطيع مقاومة **(ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ)** ذلك هو سياق التمثيل ، ولا يتأتى فيه - كما نرى - أن يبرز الكافر كما برز فى سياق سورة النور .

هذا وعندما نتتبع التشبيهات فى سياقها من النظم الكريم نراها مع السياق نسيجا لغويا واحدا ، إذ نجد « كل تشبيه إنما هو امتداد للأنسجة اللغوية التى صاغت السياق كله »(١٠٠) .

---

(١٠٠) انظر أمثال سورة النور : ص ١٢١ ، فى مجلة كلية اللغة بالقاهرة ، العدد الثامن ، ١٩٩٠ م .

وتتضافر التشبيهات التى تلتقى فى سياق واحد على تجلية أهداف وإبراز معان يقصد إلى تحقيقها .. ارجع إلى تشبيهات سورة البقرة التى تناولت تصوير الإنفاق، وانظر كيف صورت تضاعف الإنفاق فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ، وصورت ذهاب إنفاق المن والأذى والرياء سدى، وهى بهذا تهدف إلى الحث على الإخلاص فى الإنفاق ، والابتعاد عن الرياء والمن والأذى ، الذى يبطل الصدقات ، وكان النسيج اللغوى للتشبيهات والسياق الذى وردت فيه واحدا إذ رأيناه يبرز مضاعفة الثواب وإرباء الصدقات ، ويحث على إنفاق الطيبات ، ويحذر من المن والأذى والرياء ، ومن إنفاق الخبيث وأكل الربا .. ويستمد عناصره من الزرع والنبات والماء والتراب وما تخرج الأرض (**حبة انبتت سبع سنابل .. صفوان عليه تراب فاصابه وابل .. جنة بربوة أصابها وابل .. جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار .. انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الأرض**)

ويبرز المضاعفة والإرباء : (**والله يضاعف لمن يشاء ... فآتت أكلها ضعفين .. ويربى الصدقات**) ، كما يبرز الفقدان والضياع (**لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى .. فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ... يمحق الله الربا**) .

هذه الأنسجة اللغوية تضافرت على تجلية المعنى الذى يقصد السياق إلى تحقيقه ، وهو الحث على إنفاق الطيبات ، ابتغاء وجه الله ، والبعد عن الخبيث والمن والأذى والرياء والربا ، ويأتى تصوير آكلى الربا بأنهم لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، وسبب ذلك أنهم قالوا : « **إنما البيع مثل الربا وأحل الله**

البيـع وحـرم الربا » ثم يحذر النظم الكريم ويتوعد آكلى الربا وينذرهم بحـرب من الله ورسوله ، وفى نفس السيـاق يعد الذين يؤدون الزكاة ، وينظرون المعسـر إلى ميسـرة ، وينفقون أموالهم بالليـل والنهـار سرا وعلانية ، ويطمئنهم بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون(١٠١) .

وبهذا يتجلى لنـا أن السياق الكريم يضـع ضوابط وأسسا تنظم التعامل المـالى بين النـاس ، فيحث على الزكاة وبذل الصدقات ابتغاء وجـه الله ، ويحذر من الإنفـاق منـا وأذى ورياء ، وينفـر من الربا ، ويتوعد آكليـه ، وينذرهم بحـرب لا قبـل لهم بها ، حـرب من الله ورسوله ، وينهض التشبيه بدوره فى تجلية هذه المعانى .

وعد إلى قوله تعـالى فى سـورة الرعد : **« له دعـوة الحق والذين يدعـون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كبـاسط كفيـه إلى المـاء ليبلـغ فاه وما هو ببالغـه وما دعاء الكافرين إلا فى ضـلال »**(١٠٢) فالتمثيـل - كما بينا - يصـور عجز الأصنام التى تعبد من دون الله ، وأنهـا لا تقدر على شىء ، ومن يدعوها ويطلب نفعهـا ، شأنه شـأن من بسط كفيه إلى المـاء يطلب منـه أن يبلـغ فاه ، أو بسط كفيه ناشرا أصـابعه ليغـرف من المـاء ، فالمـاء لا يجيبه ، وكفاه اللتـان نشـر أصابعهما لا يمسكان ماء ليبلغ فاه .

التمثيـل يبين أن دعاء الأصنام باطل ، وأن الدعـاء الحق ما كان لله (له دعـوة الحـق) وسياق السورة الكريمة قد ركـز على تجليـة الحـق والتفـرقة بينـه وبين الباطل ، فالله هو الحـق وهو القـادر **« الله يعلم ما تحمـل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء**

---

(١٠١) اقـرأ الآيات : ٢٦١ - ٢٨١ من سـورة البقـرة .

(١٠٢) سـورة الرعـد : ١٤ .

عنده بمقدار .. وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال .. ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال . له دعوة الحق »(١٠٣) ، فالله ذو الحق وهو القادر ، والذين يدعون من دونه لا يقدرون على شىء « **قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار »**(١٠٤) .

ويستمر السياق فى تجلية الحق وإحقاقه ، وإظهار الباطل وإبطاله ، فيبين رسوخ الحق وثبوته ونفعه ، وخفة الباطل وانعدام وزنه ونفعه ، وانهما لا يلتقيان ولا يمتزجان ، بل يظل الباطل منعدم الفائدة ، وإن طغى على الحق يوما ، لا يدوم طغيانه ، إذ سرعان ما يزول فيظهر الحق ويثبت ، مثل ذلك مثل الزبد يعلو السيل الذى يحمله (**فاحتمل السيل زبدا رابيا**) ومثل خبث المعادن (**ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله**) هذا الزبد لا ينفع ولا يمكث ، بل يزال ويبدد ، ويمحى عن الماء والمعادن ، فيرمى به بعيدا ، (**يذهب جفاء**) ليظهر ما تحته من الماء الصافى الذى ينفع الناس ، والمعادن الخالصة التى يتخذونها حلية أو متاعا « **كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال »**(١٠٥) .

---

(١٠٣) الرعد ، الآيات بالترتيب : ٨ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ .

(١٠٤) الرعد : ١٦ . (١٠٥) الرعد : ١٧ .

فالحق يبقى ويمكث ، بل هو باق ثابت ، والباطل يضمحل وينمحق وإن علا الحق يوما ، وطغى عليه فى بعض الأوقات ، واستخفه ضعاف الإيمان ، وروجوا له ، فسرعان ما يرمى به ويذهب جفاء ليظهر ما ينفع الناس .

وبهذا يتبين لنا كيف تتضافر التشبيهات فى سياقها لتبرز المعنى الذى يتناوله السياق ، ويقصد إلى تحقيقه ، فالسياق فى السورة يتناول إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وقد تضافرت الصور لتجلية هذا المعنى ، فابرزت الكافر أعمى يتخبط فى ظلام ، ويدعو أصناما لا تستجيب له ، ويمضى وراء باطل سرعان ما يتبدد كما يتبدد الزبد ، وأما المؤمن فإنه يبصر الحق ، ويمضى فى نوره ، ويدرك نفعه ، ويعلم أنه ثقيل ثقل الماء والمعادن ، ويحتاج إلى صبر وإلى جهاد ، فإن أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ، كما بين ﷺ ، المؤمن يدرك ذلك فيقول الحق ولو كان مرا ، وبهذا ينتصر الحق ، ويظهر على الباطل ، الذى قد يطغى على الحق يوما ، ولكنه سرعان ما ينمحق ويتبدد ، كما يتبدد الزبد ويرمى به ويذهب جفاء فيبقى ما ينفع الناس .

* * *

الاستعارة

قال تعالى :

(أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) البقرة : ١٦ .

(الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) البقرة : ٢٧ .

(فإذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام)

البقـرة : ١٩٨

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) آل عمران : ١٠٣

(ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفـوا إلا بحبـل من الله وحبـل من النـاس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة) آل عمران : ١١٢

(قـل لو كنتم فى بيوتكم لبـرز الذين كتب عليهم القتـل إلى مضـاجعهم) آل عمـران : ١٥٤

(وهو الذى يتوفاكم بالليـل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيـه ليقضى اجـل مسمى) الانعـام : ٦٠ .

(ولمـا سكت عن موسى الغضب أخذ الالواح وفى نسختها هدى ورحمـة للذين هم لربهم يرهبون) الاعراف : ١٥٤ .

(والذين يكنـزون الذهب والفضـة ولا ينفقونها فى سبيـل الله فبشـرهم بعذاب اليم ..) التـوبة : ٣٤ .

(حتى إذا اخذت الأرض زخرفها وازينت ..) يونس : ٢٤ .

(وأرسلنا الرياح لواقح فانزلنـا من السماء ماء فاسقيناكموه وما انتم له بخازنين) الحجـر : ٢٢ .

(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) الحجر : ٩٤ .

(وضرب الله مثـلا قـرية كانت آمنـة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعـون) النحـل : ١١٢ .

(واخفض لهما جناح الذل من الرحمـة وقـل رب ارحمهما كما ربيـاني صغيرا) الإسـراء : ٢٤ .

(واستفــزز من استطعت منهم بصــوتك واجلب عليهم بخيــلك ورجلك ٠٠) الإســراء : ٦٤ ٠

(وتركنــا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعــا) الكهف : ٩٩ ٠

(قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا) مريم : ٤

(٠٠ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جــذوع النخــل) طــه : ٧١ ٠

(بل نقذف بالحــق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهــق ٠٠)
الأنبيــاء : ١٨ ٠

(إذا رأتهــم من مــكان بعيــد سمعــوا لهــا تغيظــا وزفيــرا)
الفــرقان : ١٢

(وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) سبأ : ٢٤ ٠

(وما يستوى البحــران هذا عذب فرات سائغ شــرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحمــا طــريا وتستخرجون حليه تلبسونها ٠٠)
فاطر : ١٢

(وما يستوى الأعمى والبصــير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظــل ولا الحــرور ، وما يستوى الأحيــاء ولا الأموات إن الله يسمع من يشــاء وما أنت بمسمع من فى القبــور) فاطر : ١٩ ــ ٢٢ ٠

(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) يس : ٣٧ ٠

(قالوا يا ويلنــا من بعثنــا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرســلون) يس : ٥٢ ٠

(إذا ألقوا فيهــا سمعوا لهــا شهيقا وهى تفور) الملك : ٧ ٠

(افمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم) الملك : ٢٢ .

(الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) التكاثر : ١ ، ٢ .

(فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس) التكوير : ١٥ ـ ١٨ .

***

الاستعارة ميدان واسع للتصوير والإبداع ، وهى قائمة على تناسى التشبيه وادعاء أن المشبه صار فردا من أفراد المشبه به ، لأنها فى الأصل تشبيه بولغ فيه بطى المشبه وادعاء دخوله فى جنس المشبه به وصيرورته فردا من أفراده ، وذلك فى الاستعارة التصريحية ، أو بطى المشبه به والدلالة عليه بإثبات لازم من لوازمه للمشبه ، وذلك فى الاستعارة المكنية .

وتقوم الاستعارة على نقل الألفاظ من معانيها اللغوية التى وضعت لها إلى معادن أخرى تستعمل فيها استعمالا جديدا يضفى على المستعار له لونا من المبالغة حيث يحيله من جنسه إلى جنس آخر(١) .

---

(١) معظم البلاغيين يرى أن المنقول فى الاستعارة هو اللفظ حيث ينقل من معناه اللغوى إلى المعنى المجازى ، ويرى الإمام عبد القاهر أن النقل للمعانى لا للألفاظ ، انظر دلائل الإعجاز : ٣٩٣ ، ولعل الذى أغرى البلاغيين بأن يجعلوا المنقول اللفظ المستعار ، لا المعنى المستعار منه ، أن الادعاء الذى يصير به المستعار له شيئا آخر ، خارجا عن حقيقته ، مقيد بالصفة المشتركة بينه وبين المستعار منه ، فالرجل الشجاع يخرج عن طبيعة الرجال فى صفة الشجاعة فحسب ، وتبقى له الصفات الأخرى ثابتة

=

وهذا الاستعمال الجديد للألفاظ استعمال مجازى ، وفى كل مجاز لابد من علاقة بين المعنيين ، اللغوى الذى وضع له اللفظ ، والمجازى الذى استعمل فيه ، ومن قرينة تمنع إرادة المعنى اللغوى .

وعلاقة الاستعارة هى المشابهة بين المعنيين المستعار له والمستعار منه ، ففى قولنا : كلمت أسدا ، استعير لفظ (الأسد) من (الحيوان المفترس) وهو المعنى الموضوع له اللفظ إلى (الرجل الشجاع) وهو المعنى المجازى الذى استعمل فيه ، والعلاقة بين المعنيين المشابهة ، وأما القرينة فهى لفظ (كلمت) لأن الأسد بمعنى (الحيوان المفترس) لا يكلم .

هذا وعندما ننظر إلى الاستعارة فى النظم القرآنى نجد لها ميدانا خصبا فى الدلالة على المعانى التى يقصد إليها .. تأمل قوله تعالى : « **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** »(٢) ، تجد أن الاشتراء مستعار للاختيار والاستبدال، فمعنى اشتروا الضلالة بالهدى : استبدلوها به ، واستحبوها عليه ، حيث كانوا متمكنين من الهدى ، وكان واضحا أمامهم على يد من جاءهم به وكأنه فى أيديهم ، ثم هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ،

=

مستقرة ، ثم هو يدخل فى طبيعة الأسود بهذه الصفة فقط ، فلا يدعى له هيئة الأسد وعبالة عنقه ومخالبه وسائر أوصافه .. النقل إذاً إنما هو نقل لجزء من مدلول اللفظ ، وليس نقلا لكل مدلوله ، وهذا ما أغرى البلاغيين على القول بأن المنقول هو لفظ المشبه به (المستعار) الذى أطلق على المشبه (المستعار له) انظر التصوير البيانى : ١٨٥ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٦ .

فمن تركه إلى الضلالة فقد استبدلها به ، وعطل فطرة الله تعالى .

واستعارة الاشتراء للاستبدال تصور شدة إعراض المنافقين ، واستحبابهم الضلالة على الهدى ، فهم لم يستبدلوها بالهدى فحسب ، بل عنوا أنفسهم ، وتكلفوا مشقة التجارة ، لكى يحصلوا على الضلالة ويفوزوا بها ، كما يكد التاجر ويتعب ليحصل على ربح فى تجارته ، وهذا يدل على شدة حبهم للضلال وتمسكهم به ، فإن المرء يحرص على شراء ما أحب .

يقول القرطبى : « (واشتروا) من الشراء ، والشراء هنا مستعار ، والمعنى : استحبوا الكفر على الإيمان ، كما قال - تعالى - : (**فاستحبوا العمى على الهدى**) فصلت : ١٧ ، فعبر عنه بالشراء ، لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه »(٣) .

فالاستعارة - كما نرى - تصور شدة حبهم للضلال ، وبغضهم للهدى ، لأن الإنسان يشترى ما يرغب فيه ويحبه ، ويبيع ما يزهد فيه ويرغب عنه ، ثم جاء قوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم) مقويا للمعنى المجازى ، لأن الربح والتجارة من ملائمات الشراء .

يقول الزمخشرى : « فإن قلت : هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازا فى معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح والتجارة كان ثم مبايعة على الحقيقة ؟ قلت : هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقفى بأشكال لها وأخوات ، إذا تلاحقن لم تر كلاما أحسن منه ديباجة

---

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٤٧/١ .

وأكثر ماء ورونقا ، وهو المجاز المرشح .. »(٤) .

وقد كثرفى النظم القرآنى استعارة (النوروالبصروالحياة) للإيمان والهدى ، كما كثر استعارة (الظلمات والعمى والموت) للكفر والضلال ، ولنقرأ الآيات الكريمة : « **قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ... وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات ... الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ..** »(٥) وتدل هذه الاستعارات على أن شرع الله الذى شرعه لعباده يضىء ويشرق فى صدر المؤمن ، فيبصر الخير والحق ، ويحيا حياة طيبة ، أما الكافر فإنه يتخبط فى ظلمات الكفر والضلال ، ولا يبصر نور الله الذى أنزل لعباده ، فكأنه ميت ، والميت فاقد الحس لا يرى نورا ، ولا يدرك إشراق الإيمان ، ويظل الكافر ما عاش يتخبط فى ظلمات الكفر ، ويركض وراء الوهم والسراب .

ومما يلاحظ أن هذه الاستعارات نراها فى القرآن مقترنة ، فالأعمى بجوار البصير ، والظلمات بجانب النور ، والموت يقرن بالحياة ، والإنسان بفطرته يرغب فى الحياة ، ويحب النور والإبصار ، ويكره الظلام والعمى والموت ، فاقتران هذه المعانى التى تصور الإيمان والهدى ، والكفر والضلال تنبه القارىء وتحثه للإقبال على الحق ، والتخلى عن الباطل والضلال ، ووراء إفراد النور وولى المؤمنين ،

---

(٤) الكشاف ١/١٩٣ .

(٥) الآيات بالترتيب : الرعد ١٦ ، فاطر ١٩ ــ ٢٢ ، البقرة ٢٥٧ .

وجمـع الظلمات وأولياء الذين كفروا معـان لطيفـة سبق بيانها عند الحديث عن الإفـراد والتثنية والجمـع (٦) .

وجاء فى النظم الكريم استعـارة (الحبل) لعهد الله وميثـاقه ، لمـا فى العهد من ثبات الوصـلة بين المتعاهدين ، كما يستوثق بالحبل وتحـكم به الأشيـاء ، قال تعـالى : « **واعتصموا بحبـل الله جميعـا ولا تفـرقوا** »(٧) ، فقد استعير (الحبـل) لعهد الله تعالى وميثاقه ، ثم رشحت الاستعارة بالاعتصام ، لأن الاعتصام من ملائمات الحبـل ، والمعنى : اجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به ، ولا تفرقوا عنه .. أو اجتمعوا على التمسـك بعهده تعـالى إلى عباده وهو الإيمان والطاعة ، أو على التمسك بكتابه فهو حبل الله المتين (٨) .

ومن ذلك قوله تعالى : « **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثـاقه ويقطعون ما أمـر الله به أن يوصـل ...** »(٩) فقد استعير الحبـل للعهد ، ثم حذف المستعار منـه وهو (الحبـل) ورمـز له بشىء من لوازمه وهو (ينقضون) وأثبت هذا اللازم للمستعار له (العهد) على سبيـل الاستعارة المكنية .

يقول الزمخشرى : « وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكنوا

(٦) ارجـع إلى ص ٢٦ .

(٧) سـورة آل عمـران : آية ١٠٣ .

(٨) ويصح أن تكون الاستعارة فى الآية استعارة تمثيلية ، وأن المـراد تمثيـل استظهار المؤمن بربه ووثوقه بحمـايته باستمساك المتدلى من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه . انظر الكشاف ١/ ٤٥٠ .

(٩) سـورة البقـرة : آية ٢٧ .

عَن ذكـر الشيء المستعار ، ثم يرمزوا إليـه بذكـر شيء من روادفه ؛ فينبهوا بتلك الرمـزة على مكانه ، ونحوه قولك : شجاع يفترس أقرانه ، وعالم يغترف منـه النـاس ، وإذا تزوجت امـرأة فاستوثرها ، لم تقل هـذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعـالم بأنهما أسد وبحـر ، وعلى المـرأة بأنها فـراش »(١٠) .

تلك طريقة الاستعارة بالكناية ، المطوى فيهـا هو المشبه به ، حيث يرمز له بلازم من لوازمه يثبت للمشبه ، وهذا الإثبات تخييل أو استعارة تخييلية ، كما سماها البلاغيون ، وهى قرينة الاستعارة المكنية .

ومنها قوله تعـالى : « **ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفـوا إلا بحبل مـن الله وحبـل من النـاس وباءوا بغضـب من الله وضـربت عليهـم المسكنة** »(١١) ، فقد شبه كل من الذلة والمسكنة بالقبـة أو البيت الذى يضرب على صـاحبه ، ثم طوى المشبه به ورمـز له بلازم من لوازمـه (ضربت) وتنبىء هذه الاستعارة بإحاطة الذلة والمسكنة باليهـود ، وملازمتهما لهم ، وتمكنهما منهم ، وكأنهم يسكنون فيهمـا كما يسـكن المـرء فى بيتـه ويقيم فيـه .

الذلة لا تنفك عنهم إلا بحبـل من الله وحبـل من النـاس ، أى : لا عـز لهم إلا بذمة الله وذمـة المسلمين ، ولا يخفى علينـا الاستعـارة

---

(١٠) الكشاف ٢٦٨/١ ، والوثير : الفراش الوطىء ، يقال : استوثر الفراش أى : وطأه ومهده ، انظر لسان العرب مادة (وثر) ، شبهت المـرأة بالفراش بجامع السـكن فى كل ، ثم حذف المشبه به ، ورمـز له بلازمه (استوثر) وأثبت هذا اللازم للمرأة على سبيل الاستعارة المكنية .

(١١) آل عمران : ١١٢ .

التصريحية فى قوله : (إلا بحبل من الله وحبل من الناس) حيث استعير الحبل للعهد والذمة .

وتأمل الآيات الكريمة : **« ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح .. حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ... وأرسلنا الرياح لواقح »**(١٢) تجد أن الاستعارة فيها من هذا النوع ، استعارة مكنية ، فقد شبه الغضب بالآمر الذى يغرى موسى - عليه السلام - على ما صدر منه ، من إلقاء الألواح وأخذه برأس أخيه يجره إليه .. وشبهت الأرض بعروس تزينت بأنفس أنواع الزينة .. وشبهت الرياح التى تحمل الغيث بالنوق الحوامل بجامع النفع فى كل منهما ، ثم طوى المشبه به فى هذه التشبيهات ، ورمز له بلازم من لوازمه وهو السكوت ، وأخذ الزينة ، واللواقح لأن اللواقح من خصائص النوق ..

ولا يخفى علينا ما وراء هذه الاستعارات من تصوير الأمر المعنوى وإبرازه فى صورة المشاهد المحس ، فالغضب مغر يثير موسى - عليه السلام - ويوغر صدره ، ولذا ألقى الألواح وصنع ما صنع ، فلما سكت وكف عن إغرائه ، عاد موسى إلى حلمه وأخذ الألواح ليبلغ رسالة ربه .. والأرض عروس تأخذ زخرفها وتتزين بأنفس أنواع الزينة ، والرياح المحملة بالغيث نياق حوامل تفيض برحمة الله وترسل الخير إلى حيث يشاء فيسقى الله بما حملت أنعاما وأناسى كثيرا ، وعكس ذلك الريح العقيم أى : الجافة التى لا تحمل خيرا ، فقد استعار القرآن لها (المرأة العقيم) لا يرجى حملها ، ولايط..

---

(١٢) الآيات بالترتيب : الأعراف ١٥٤ ، يونس ٢٤ ، الحجر ٢٢ .

فى ولد منهـا ، قال تعـالى : « **وفى عـاد إذ أرسلنـا عليهم الـريح العقيـم . ما تذر من شئ أتت عليـه إلا جعلتـه كالـرميم** »(١٣) ، فصفة (العقم) تصـور جفاف الريح وعدم ترقب خير منها ، لأن الأنفس جبلت على حب المـال والبنـين ، « **المـال والبنـون زينـة الحيـاة الدنيـا** »(١٤) والمـرأة حـرث تلد ، وقد أمـرنا - ﷺ - أن نتزوج الودود الولود ، فإذا انعدمت هذه الصفة فى المـرأة وصـارت عاقـرا عقيما ، رغبت عنهـا الانفس وعافتها ، كذلك الريح التى لا تحمـل خيرا ، وارجـع إلى ما ذكرنـاه حـول إفـراد الريح وجمعها فى باب الإفـراد والتثنية والجمع لتقف على سر جمـع الرياح اللواقح وإفـراد الريح العقيـم(*) .

ومن تلك الاستعـارات المكنيـة ما جـاء فى الآيات الكـريمة : « **والليـل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس ... واخفض لهمـا جنـاح الذل من الرحمـة ... بل نقذف بالحـق على البـاطل فيدمغـه فإذا هو زاهـق ... واشتعل الراس شيبا** »(١٥) فقد شبه الصبح بإنسـان مكروب زال عنـه كربه فتنفس محمـلا أنفاسـه تلك الكرب والهمـوم لتلقى بها بعيدا عنه ، وكأن ظلام الليـل قد كتم أنفـاس النهار وحبس ضياءه وحجب نوره ، كما يكتم المكروب أنفاسـه فى صدره ، وعنـدما انزاح الليـل وولى الظـلام ، نشـر الصبـح نوره فملأ الكون ضيـاء وإشـراقا ، وكان الصبـح كائن حى كتم الليـل انفاسـه ، ولمـا ولى عنه الليـل تنفس الضياء والإشـراق ، وانزاحت عنه همـومه وآلامه ،

---

(١٣) الذاريات : ٤١ ، ٤٢ . (١٤) الكهف : ٤٦ .

(*) انظـر ص ٢٤ .

(١٥) الآيات بالترتيب : التكوير ١٧،١٨ ، الإسراء ٢٤ ، الأنبياء ١٨ ، مـريم : ٤ .

تماما كما يتنفس المكروب الذى زال كربه وانزاح همه .. فالاستعارة - كما نرى - استعارة مكنية حيث شبه الصبح بالمكروب الذى زال كربه، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وهو التنفس ، وأسند التنفس إلى الصبح تخييلا (١٦) .

وكذا شبه الإنسان بالطائر فى قوله تعالى : (**واخفض لهما جناح الذل**) فالطائر يبسط جناحيه على صغاره حنوا ورحمة ، والإنسان مأمور بأن يكون كذلك مع أبويه ، ثم طوى المشبه به ورمز له بلازمه وهو الجناح ، وإضافة الجناح إلى الذل تشعر بما ينبغى أن يكون عليه الإنسان من خضوع لأبويه ، والتذلل لهما رحمة وإشفاقا وبرا ، وهذا التذلل يسمو به ، ويرفعه إلى عنان السماء ، كما يرتفع الطائر بجناحيه ويحلق بهما فى أجواء الهواء ، ولا عجب فى ذلك ، فقد رفرف بجناحيه على أبويه وخفضهما لهما تذللا ، فوجب له هذا السمو وذاك العلو .

وشبه الباطل بجرم صغير ، والحق بجرم قوى ضخم ألقى على الجرم الصغير الذى هو الباطل ففتته وحطمه (فإذا هو زاهق) ، لم يبق منه شىء ، وقد طوى المشبه به ، ورمز له بلازمه وهو القذف على سبيل الاستعارة المكنية ، وكذا شبه الشيب بشواظ النار فى إنارته وإشراقه ، ثم طوى المشبه به ورمز له بلازمه (اشتعل) .

هذا ويرى الزمخشرى - رحمه الله - أن فى هذه الآية الكريمة استعارتين استعارة مكنية فى كلمة (شيبا) حيث استعير لها شواظ النار ، واستعارة تبعية فى لفظ (اشتعل) حيث استعير الاشتعال

---

(١٦) انظر روح المعانى ٣٠/٥٩ .

لانتشار الشيب فى الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ(١٧) .

وكذا فى آية الأنبياء (**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه**) يرى فيها استعارتين ، تبعية فى لفظى (نقذف ويدمغ) حيث استعير القذف والدمغ لدحض الباطل بالحق ، ومكنية فى لفظى (الحق والباطل) حيث شبه كل منهما بجرم كما أوضحنا .

يقول رحمه الله : « شبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وإنارته ، وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة » .. ويقول عن آية الأنبياء : « واستعار لذلك - أى لدحض الباطل بالحق - القذف والدمغ تصويرا لإبطاله وإهداره ومحقه ، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه »(١٨) .

وانفكاك الاستعارة المكنية عن الاستعارة التخيلية ، وعدم استلزامها إياها ، مما عليه المحققون من أهل البيان ، فإن قرينة الاستعارة المكنية كما تكون استعارة تخييلية ، قد تكون استعارة تصريحية(١٩) .

---

(١٧) ارجع إلى التجوز فى الإسناد ص ١٤٥ لتقف على تجليتنا الاستعارة فى هذه الآية الكريمة .

(١٨) الكشاف ٥٠٢/٢ ، ٥٦٥ .

(١٩) انظر روح المعانى ٦٠/١٦ ، وشروح التلخيص ١٥٩/٤ ،وحاشية السيد على المطول ٣٨٤ ، ولا يخفى علينا أنه لا يتأتى اعتبار الاستعارتين معا فى آن واحد فى الشواهد المذكورة - كما صرح الزمخشرى - رحمه الله - ولكن الذى يتأتى ، اعتبار إحداهما فحسب ، ففى قوله تعالى : (**الذين ينقضون عهد الله من بعد** =

وفى قوله تعـالى : « **فإذا أفضتم من عرفات فاذكـروا الله عنـد المشعـر الحـرام** »(٢٠) استعيرت الإفاضة لخروج الحجيج ونزولهم من

=

ميثـاقه) إذا جعـل (الحبـل) مستعارا لعهد الله كان النقض حقيقة ، وكان إيقاعه على العهد قرينة ، وإن جعل (ينقضون) استعارة تبعيـة للإبطال كان العهد حقيقـة .

وكذا القـول فى الآيات الكريمة : (**بل نقذف بالحـق على الباطل فيدمغه ... واشتعل الرأس شيبا ... ولمـا سكت عن موسى الغضب**) إما أن نجعـل الاستعارة مكنية فى (الحـق والباطل .. والشيب .. والغضب) أو نجعلها تبعية فى (نقذف ويدمـغ .. واشتعـلَ .. وسكت) ولا يتأتى اعتبـار الاستعارتين معـا فى آن واحد .

والسياق هو الذى يحتكم إليـه فيما نعتبره من الاستعارتين ، إذ من خلاله ندرك ما المقصود بالتصوير ، وما الذى يهتم بتجليته ويركـز على بيـانه وإيضـاحه ، فإن كان الاسم كانت الاستعارة مكنية وإن كان الفعـل كانت تبعية .

هذا وسنفرد بحثـا مستقلا ـ إن شـاء الله ـ للمـوازنة بين الاستعارتين المكنية والتبعية ، فإن السكاكى رحمـه الله قد رد الاستعارة التبعيـة إلى المكنية ، وكذلك فعل بالمجاز العقلى بحجة الضبط وتقليـل الأقسام ، ونرى أن هذا يحتاج إلى بحث مستقل، يعالج هذه الفنون الثلاثة : المكنية والتبعية والمجـاز العقلى .. يوضح آراء العلمـاء فى تحديد مفهوم كل .. يبرز ما بينهـا من فـروق .. يجلى كيف يتمكن الدارس من خلال النظر فى السياق من تحديد لون المجاز .. ونحن عازمون ـ إن شاء الله تعالى ـ على إفـراد بحث لهذا ، والله المستعان .

(٢٠) سـورة البقـرة : آية ١٩٨ .

عرفات إلى المزدلفة ، وتشعر هذه الاستعارة بالخشوع والوقار وكثرة عـدد الحجيج الذين يخـرجون من عـرفة كالفيضـان ، يقول صاحب التحـرير والتنوير : « والعـرب كانوا يسمون الخروج من عرفة (الدفع) ويسمون الخروج من مزدلفة (إفاضـة) وكلا الإطلاقين مجـاز ، لأن الدفـع هو إبعـاد الجسم بقوة ، ومن بلاغة القـرآن إطـلاق الإفاضـة على الخروجين ، لمـا فى (أفاض) من قرب المشـابهة من حيث معنى الكثرة دون الشدة »(٢١) .

كما تدل هذه الاستعارة على كثرة الفيض الذى يخرج به الحجيج من عرفة ، فهم قد نزلوا من عـرفة بخير كثير ، وفيض عظيم من رحمة الله تعـالى وتجليـه عليهم بالمغفـرة والعتق من النـار .

وانظر فى قوله تعـالى : « **وتركنا بعضهم يومئذ يمـوج فى بعض ونفخ فى الصـور فجمعنـاهم جمعـا** »(٢٢) فقد استعير (المـوج) لحـركة النـاس واضطرابهم ، ثم اشتق منه (يموج) بمعنى يضطرب ويدفـع بعضهم بعضـا على سبيل الاستعارة التبعية فى الفعل ، وكذا الاستعارة فى (أفضتم) ولكن الحـركة هنا تختلف عن الحركة هناك ، فالإفاضـة تصـور الحركة فى خشوع ووقار ، وهذا شـأن الحجيج الذين أفاض الله عليهم رحمتـه ، وتجلى عليهم بمغفرته ، فخرجوا من عرفات فى خشـوع وخضـوع ، أما المـوج هنا (يموج فى بعض) فيصـور الحـركة المضطربة التى تكون على غير نظام ، وهى حـركة الناس عند البعث أو حركة يأجوج ومأجوج عند دك السد ، إنها حركة قلق واضطراب وتدافع ، وكأنها الموج المتلاطم الذى يدفع بعضه بعضا .

---

(٢١) التحـرير والتنـوير ٢٣٨/٢ .

(٢٢) الكهف : ٩٩ .

وفى قوله تعالى : « **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** »(٢٣) استعيرت (الإذاقة) لمس الضر والشدائد ، وقد شاعت هذه الاستعارة حتى جرت مجرى الحقيقة ، واستعير (اللباس) لما يغشى الإنسان ويلتبس به من الشدائد والخوف ، ولا يخفى علينا أن الإذاقة فى قوله (فأذاقها الله) مما يلائم المستعار له ، وهو ما يغشى الإنسان ويلتبس به من الشدائد ، ويسمى البلاغيون هذا تجريدا ، فاستعارة (اللباس) لما يغشى الناس استعارة مجردة ، حيث ذكرت معها (الإذاقة) وهى مما يلائم المستعار له .

يقول الزمخشرى : « فإن قلت : الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما ؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة إيقاعها عليه ؟ قلت : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها ، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب ، شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع ، وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ، ما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث ، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس ، فكأنه قيل : فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف .

ولهم فى نحو هذا طريقان لابد من الإحاطة بهما ، فإن الاستنكار

---

(٢٣) النحل : ١١٢ .

لا يقع إلا لمن فقدهما ، أحدهما أن ينظروا فيه إلى المستعار له ، كما نظر إليه ههنا ، ونحوه قول كثير :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا

غلقت لضحكته رقاب المال

استعار (الرداء) للمعروف ، لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه ، ووصفه بالغمر الذى هو وصف المعروف والنوال ، لا صفة الرداء ، نظرا إلى المستعار له ، والثانى أن ينظروا فيه إلى المستعار ، كقوله :

ينازعنى ردائى عبد عمرو رويدك يا أخا عمرو بن بكر

لى الشطر الذى ملكت يمينى

ودونك فاعتجر منه بشطر

أراد (بردائه) : سيفه ، ثم قال : (فاعتجر منه بشطر) فنظر إلى المستعار فى لفظ (الاعتجار) ، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقيل : فكساهم لباس الجوع والخوف ، ولقال كثير : ضافى الرداء إذا تبسم ضاحكا »(٢٤) .

---

(٢٤) الكشاف ٤٣١/٢ ، ٤٣٢ .. وبهذا يتبين لنا أن الاستعارة باعتبار ما يذكر معها من ملائمات ثلاثة أنواع :

١ - استعارة مرشحة : وهى التى يذكر معها ما يلائم المستعار فتقوى بذلك الاستعارة وتزداد بعدا ، كما فى الآيات : (**اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ... وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ... حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ... واعتصموا بحبل الله جميعا**) فإن الربح والتجارة مما يلائم =

ومجيء الاستعارة مجردة فى الآية الكريمة هو الملائم لما يقتضيه

=

(الاشتراء) المستعار ، وقوله (وما أنت بمسمع من فى القبور) مما يلائم (الأموات) المستعار للكفار ، وقوله (ازينت) مما يلائم (العروس) المستعارة للأرض ، وقوله (اعتصموا) مما يلائم (الحبل) المستعار لعهد الله وميثاقه ، وهذه الملائمات قد قويت بها الاستعارة وازدادت بعدا ، ولهذا سميت : استعارة مرشحة .

٢ ـ استعارة مجردة : وهى التى يذكر معها ما يلائم المستعار له ، كما فى الآية الكريمة ، فإن الإذاقة تلائم (ما يغشى الإنسان ويلتبس به) وهو المستعار له ، وكما فى بيت كثير (غمر الرداء) فإنه استعار (الرداء) للمعروف ، وقوله (غمر) يلائم المعروف المستعار له .

٣ ـ استعارة مطلقة : وهى التى لم تقترن بما يلائم أيا من الطرفين ، وتلك كثيرة ويسهل عليك الوقوف عليها فيما ذكرناه من شواهد ، أو اقترنت بما يلائم كلا من المستعار والمستعار له ، كما فى قول كثير :

رمتنى بسهم ريشه الكحل لم يضر

ظواهر جلدى وهو للقلب جارح

فقد استعير (السهم) للنظرة القاتلة بجامع قوة التأثير فى كل ، وذكر فى البيت ملائم للمستعار وهو (ريشه) وملائم للمستعار له وهو (الكحل) ، وكما فى قول زهير :

لدى اسد شاكى السلاح مقذف

له لبد أظفاره لم تقلم

حيث استعير (الأسد) للشجاع ، وذكر ما يلائم الأسد وهو (اللبد) وما يلائم البطل الشجاع وهو (شاكي السلاح) .

المعنى ، لأن النظم الكريم يهدف إلى الدلالة على معنيين : شدة الإصابة ، وشمولها وإحاطتها بهم جميعا ، فتلك قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، ما جزاؤها ؟ عقاب شديد يصيب أهلها ويحيط بهم ويأتى عليهم جميعا ، وهذا ما يؤديه تجريد الاستعارة (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) إذ لو قيل : فأذاقها الله طعم الجوع والخوف، أو فكساها الله لباس الجوع والخوف ، لتكون الاستعارة مرشحة ، لدل الأول على شدة الإصابة دون الإحاطة والشمول ، والثانى على الإحاطة دون شدة الاصابة ، ولذا آثر النظم الكريم التعبير بالإذاقة واللباس للدلالة على الأمرين معا : الشدة والإحاطة ..

وفى قوله تعالى : « **وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى** »(٢٥) استعيرت الوفاة للنوم بجامع السكون وفقدان الإدراك فى كل ، واستعير البعث للإيقاظ بجامع الإدراك والحركة فى كل ، واستعير الجرح للكسب والاكتساب ، ثم سرت الاستعارة من المصادر إلى أفعالها على سبيل الاستعارة التبعية ، وقد أوثر التعبير بالمضارع (يتوفاكم .. يبعثكم) ليضع أمامنا هذه الصورة وهى تقع ، ولكى نبصر فيها وندرك من خلالها نهاية الإنسان ومصيره إلى ربه ، ثم بعثه للحساب والجزاء ، فإن هذا يتكرر فى نومنا واستيقاظنا ونحن عنه غافلون .

وكما استعيرت الوفاة للنوم ، استعير المضجع والمرقد للموت ، انظر إلى قوله تعالى : « **قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم**

---

(٢٥) الانعام : ٦٠ .

القتل إلى مضاجعهم »(٢٦) حيث استعير المضجع للمصرع ، ليصور لنا أن الإنسان يساق إلى حتفه كما يساق إلى مضجعه ، ولا يتأبى أحد على قدرة الله وإرادته ، وفى هذا زجر وردع لأولئك الذين قالوا : (لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا ..) .

وخذ قوله تعالى : « **ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا .. »**(٢٧) ، فقد استعير المرقد بمعنى الرقاد أو القبر - فهو إما مصدر ميمى أو اسم مكان - للموت ، وتشعر هذه الاستعارة بسرعة البعث ، وقصر المدة التى يقبر فيها الإنسان ، وكأنه قد رقد رقدة ثم استيقظ منها ، ولذا عبر عنه - أى عن الموت - بالزيارة فى قوله تعالى : « **ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر »**(٢٨) أراد عز وجل : ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وأقبرتم منفقين أعماركم فى طلب الدنيا والاستباق إليها والتهالك عليها إلى أن أتاكم الموت(٢٩) .

فقد استعيرت (زيارة المقابر) للموت ، وهذا يؤذن بسرعة البعث وبقصر حياة البرزخ ، وكأنها زيارة للقبور يمضى بعدها الزائرون إلى ربهم للحساب والجزاء .

ويصور النظم الكريم صوت جهنم وهى تتاجج وتتلظى لابتلاع الكفرة ، فيثبت لها : (التغيظ والزفير والشهيق) ويجعل هذه الصفات لها ، ولنقرأ : « **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا**

---

(٢٦) آل عمران : ١٥٤ .

(٢٧) يس : ٥١ ، ٥٢ .

(٢٨) التكاثر : ١ ، ٢ .

(٢٩) انظر الكشاف ٢٨١/٤ .

... إذا ألقوا فيهـا سمعوا لهـا شهيقا وهى تفـور . تكاد تميز من الغيـظ »(٣٠) ، فإن الغيظ والزفير والشهيق من صفات الإنسان ، إذ الغيظ أشد الغضب وهو الحـرارة التى يجدها الإنسـان من فوران دم قلبـه ، ويكون هذا الغيظ مصحوبا بصوت الزفير أو الشهيق ، وقد أثبت لجهنم الغيظ المصحوب بالزفير ، وجعل لها ، وذلك عندما ترى الكفرة من مكان بعيد ، وكأن الزفير الذى هو إخـراج النفس وإرساله أشبه بحال الاستقبال ، ثم أثبت لهـا التغيظ ، بل (تكاد تميز من الغيظ) أى : تتقطع ، وهذا التغيظ مصحوب بالشهيق ، أثبت لهـا ذلك عندما ألقوا فيهـا ، وكأن الشهيق الذى هو رد النفس وابتلاعه أشبه بحال إلقـائهم فى جوفها وابتلاعها إياهم(٣١) .

والاستعارة فى الآيتين استعارة مكنية ، حيث شبهت جهنم بحيوان ضخم يزفـر ويشهق من شدة غيظـه ، ثم طوى المشبه به وأسندت لوازمه وهى التغيظ والزفير والشهيق إلى المشبه وجعلت له على سبيل التخييل ، وتأمل ما يوحى به التعبير بالسماع فى قوله : (سمعوا لهـا) إن التغيظ والزفير والشهيق الذى أثبت لجهنم يسمعه الكفرة إذا ألقـوا فيهـا ، ويسمعونه من مكان بعيد ، وهذا يؤذن بشدة التأجج والتلهب ، ويدل على فظاعة وبشاعة الأهوال التى تنتظرهم .

واستعار النظم الكريم (الصدع) وهو الشـق الذى يظهـر فى الشىء المصدوع كالزجاجة ، للجهر بالدعـوة وإظهارها ، وذلك فى قوله تعـالى : « فاصدع بما تؤمـر وأعرض عن المشركين »(٣٢) وتشعـر

---

(٣٠) الآيات بالترتيب : الفرقان ١٢ ، الملك ٧ ، ٨ .

(٣١) انظـر الإعجـاز البـلاغى : ١٢٤ .

(٣٢) الحجر : ٩٤ .

هذه الاستعارة بما سيحدثه الجهر بالدعوة من أثر فى القلوب ، فإن قلوب الكفرة ستنصدع ، وسيظهر أثر ذلك الصدع على وجوههم ، فيرى فيها التقبض والإنكار والاستبشاع ، أما المؤمنون فستنصدع قلوبهم أيضاً ولكن للحق إذ يستبشرون به ، ويظهر أثر ذلك الاستبشار على وجوههم .

وقريب من الصدع (السلخ) الذى استعاره النظم الكريم لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل ، كما تسلخ الشاة فيزال عنها جلدها ، قال تعالى : « **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون** »(٣٣) وتدل هذه الاستعارة على قدرة الله تعالى ، فإن الليل والنهار يتصلان اتصال الجلد بالحيوان ، وفى فصلهما وتخليص أحدهما من الآخر حتى لا يبقى أثر لهذا على ذاك ما يدل على قدرة الله الباهرة(٣٤) .

وتأمل الآيات الكريمة : «**والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ... ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم ... قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك أنت الحليم الرشيد** »(٣٥) تجد أن العذاب الأليم لا يبشر به وإنما ينذر ، وعذاب الحميم لا يذاق بل يغص ويتجرعه الكافر ولا يكاد يسيغه ، والمراد بالعزيز الكريم : الذليل المهان ، وأصحاب الأيكة لم يريدوا وصف شعيب - عليه السلام - بالحلم والرشاد بل أرادوا وصفه بالسفاهة والغى .

---

(٣٣) يس : ٣٧ .

(٣٤) انظر تلخيص البيان فى مجازات القرآن : ٢٣٠ .

(٣٥) الآيات بالترتيب : التوبة ٣٤ ، الدخان ٤٨، ٤٩ ، هود ٨٧ .

يقول الزمخشري : « وأرادوا بقولهم (إنك لأنت الحليم الرشيد) نسبته إلى غاية السفه والغي ، فعكسوا ليتهكموا به ، كما يتهكم بالشحيح الذي لا يبض حجره فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك »(٣٦) .

فالتعبير في الآيات الكريمة على سبيل الاستعارة ، استعارة التبشير للإنذار ، والإذاقة للغص والتجرع ، والعزة والكرم للذلة والإهانة ، والحلم والرشاد للسفاهة والغي ، فقد استعير للشيء ضده ، وذلك بغرض التهكم والسخرية ، وتسمى هذه الاستعارة : الاستعارة العنادية التهكمية .

ولا تخفى علينا الاستعارة المكنية في قوله تعالى : (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) حيث شبه (عذاب الحميم) بما يصب ثم حذف المشبه به ورمز له بلازمه (صبوا) الذي أوقع على (عذاب الحميم) تخييلا .

ومثله قوله تعالى : **« ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين »**(٣٧) حيث شبه (الصبر) بالسائل الذي يفرغ ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه (أفرغ) الذي أوقع على (الصبر) على سبيل الاستعارة التخييلية .

لقد أبرزت الاستعارة في الآيتين الأمر المعنوي (العذاب والصبر) في صورة الأمر الحسي المشاهد ، فالصبر ماء بارد يفرغ على قلوب

---

(٣٦) الكشاف ٢/٢٨٧ .. وقوله : (لا يبض حجره) بفتح الياء وكسر الباء وتشديد الضاد ، مثل يضرب للبخيل الذي لاخيرفيه ، ولاينال منه نفع ، والبض : أدنى مايكون من السيلان ، والمعنى : ما تندى صفاته ، انظر مجمع الأمثال ٣/١٨١ ولسان العرب مادة : بضض .

(٣٧) سورة الأعراف : آية ١٢٦ .

المؤمنين فيذهب ما يجدون من الشدائد وحر الكرب ، والعذاب سائل يصب فوق رءوس الكفار فيصهر به ما فى بطونهم والجلود .

يتضح لنا مما تقدم أن الاستعارة المكنية يطوى فيها المشبه به ويرمز له بلازم من لوازمه ، وهذا اللازم يثبت للمشبه ويجعل له على سبيل التخييل ، أما الاستعارة التصريحية فيطوى فيها المشبه بعد ادعاء دخوله فى جنس المشبه به وصيرورته فردا من أفراده ، وتقع هذه الاستعارة فى المصادر وفى الأسماء الجامدة (اسم الجنس والعلم الذى اشتهر بصفة معينة) فتكون أصلية ، كما تقع فى الأفعال والمشتقات والحروف فتكون استعارة تبعية ، لأن جريانها فى الأفعال والمشتقات تابع لجريانها فى مصادرهما ، ولأن الحرف لا يدل على معنى مستقل ، بل يدل على معنى فى غيره ، ولذا لا يصلح للتشبيه ولا للاستعارة ، بل يقع كل منهما فى متعلق معناه ، فهو الذى يستقل بالدلالة .

وقد وقفنا على شواهد كثيرة للاستعارة التبعية فى المشتقات والأفعال ، أما الاستعارة التبعية فى الحروف ، فمن شواهدها قوله تعالى : « **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** »(٣٨) ، فقد استعير (الاستعلاء) للتمسك بالهدى والثبات عليه بجامع الاستقرار والتمكن ، ودل على الاستعارة بالحرف (على) الموضوع للاستعلاء ، واستعيرت الظرفية التى هى ارتباط حاصل بين الظرف والمظروف ، لانغماس الكفرة فى الضلال بجامع الإحاطة والاحتواء ، ودل على الاستعارة بالحرف (فى) الموضوع للظرفية (٣٩) .

---

(٣٨) سورة سبأ : آية ٢٤ .

(٣٩) رأى الجمهور فى بيان هذه الاستعارة : أن يشبه الارتباط الحاصل بين المهتدين والهدى ، أو بين الضالين والضلال ، بالارتبط الحاصل بين الحرف ومدخوله ، ثم يسرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات ، فيستعار الحرف (على) أو الحرف (فى) من المشبه به للمشبه .. ورأى الخطيب : أن يشبه =

ويؤذن اختلاف حرفى الجر الداخلين على الهدى والضلال بأن المهتدى كأنه مستعل على جواد يركضه حيث شاء ، أو مستعل منارة ينظر إلى الأشياء ويبصر حقائقها .. والضال كأنه منغمس فى ظلام يتخبط فيه لا يرى شيئا ، ولا يدرى أين يتجه ، أو كأنه محبوس فى سجن لا يستطيع الخروج منه(٤٠) .

فالمهتدى قد تبددت أمامه الحجب ، لأنه نظر من عل ، فأبصر نورالحق والهدى، ومضى فى ضوء هذا النورفعلت منزلته وسمت مكانته، والضال قد انغمس فى ظلامه ، وهوى فى ضلاله ، فلم يبصر الحق ، ولم ير النور ، بل ظل يتخبط فى ظلام ، ويهبط إلى مهاوى الضلال ، لا يعرف له وجهة ، ولا يبصر له غاية .

وتأمل قوله تعالى : « **فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل** »(٤١) فقد استعيرت الظرفية المدلول عليها بالحرف (فى) لاستعلاء المصلوب على الجذع ، بجامع التمكن والاستقرار فى كل ، وتشعر هذه الاستعارة بشدة التصليب ، وكأن المصلوبين قد وضعوا فى داخل جذوع النخل ، وأحاطت بهم تلك

= مدخول الحرف وهو (الهدى) أو (الضلال) بالاستعلاء أو بالظرف ، أى : يشبه الهدى بالاستعلاء ، والضلال بالظرف بجامع مطلق ارتباط وتعلق فى كل ، ثم يستعار (الاستعلاء) للهدى و (الظرفية) للضلال ويدل على الاستعارة بالحرف(على) والحرف (فى) . ارجع إلى الإيضاح ١٣٦/٣ ، وإلى شروح التلخيص ١١٧/٤ .

(٤٠) انظر الكشاف ٢٨٩/٣ ، وأبى السعود ١٣٢/٧ .

(٤١) طه : ٧١ .

الجذوع واحتوتهم كما يحيط الظرف بمظروفه ويحتويه ، ويكمن وراء هذه الشدة تغيظ فرعون الذى كان يأمل أن يتغلب على موسى بسحرهم ، فإذا بهم يخذلونه ، ويؤمنون بموسى ، ويخرون لله سجدا

هذا وقد تكون الاستعارة مركبة ، وذلك بأن تستعار هيئة مركبة لهيئـة أخرى ، فيكون التركيب كله تمثيـلا لهيئة طويت ، ولذا سماها البلاغيون : استعارة تمثيليـة .

تأمل قوله تعـالى : « **واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك** »(٤٢) تجده تمثيـلا لإغـواء الشيطان وتسلطه على من يغـويه وتربصـه بهم وقعوده لهم كل مرصد ، فقد استعـير لهذه الحال التى عليها الشيطان، صورة فارس مغوار هجم على قوم بجنوده فصوت بهم صـوتا أفـزعهم وأزعجهم ، وظل بهم هو وجنـوده حتى استأصلوهم .

يقول العـلامة أبو السعود : « ويجـوز أن يكون استفزازه بصوته ، وإجـلابه بخيله ورجله تمثيـلا لتسلطه على من يغـويه ، فكأنه مغوار أوقـع على قـوم فصوت بهم صـوتا يزعجهم من أماكنهم ويقلعهم عن مراكـزهم ، وأجلـب عليهـم بجنـوده مـن خيـالة ورجـالة حتى استأصلهم »(٤٣) .

وانظر فى قوله تعـالى : « **وما يستوى البحـران هذا عذب فـرات سائغ شـرابه وهذا ملح أجاج ..** »(٤٤) حيث ضرب البحران العذب

---

(٤٢) الإسراء : ٦٤ .

(٤٣) تفسير أبى السعود ١٨٤/٥ .

(٤٤) فاطر : ١٢ .

والملح مثلين للمؤمن والكافر ، فالمؤمن تكثر فوائده ويعم نفعه ، فهو لين الجانب ، سمح فى جميع أحواله ، يفيض على الناس بالخير ، ولا يمنع أحدا معروفا، فمثله مثل البحر العذب الفرات ، يسوغ شرابه فيرتوى منه الظمآن وينهل منه الناس جميعا ، أما الكافر فهو منعدم النفع ، غليظ جاف ، فاحش متفحش ، لا يقبل عليه أحد ، ولا يرجى منه خير ، فمثله مثل البحر الملح الأجاج ، يحرق المرىء بملوحته ، فلا يستساغ شرابه ، ولا يقبل أحد على شرب مائه .

وقد جاء بعد المثلين قوله تعالى : « ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » على سبيل الاستطراد لبيان صفة البحرين وما علق بهما من نعم الله وعطائه وفضله « ويحتمل غير طريقة الاستطراد وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب فى منافع من السمك واللؤلؤ وجرى الفلك فيه ، والكافر خلو من النفع ، فهو فى طريقة قوله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة »(٤٥) ، ثم قال: « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله »(٤٦) .

وخذ قوله تعالى : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من

---

(٤٥) البقرة : ٧٤ .

(٤٦) الكشاف ٣/٣٠٤ .. ومراده بتشبيه الجنسين بالبحرين : استعارة العذب الفرات للمؤمن ، واستعارة الملح الأجاج للكافر ، فعبر عن ذلك بالتشبيه باعتبار الأصل ، لأن الاستعارة مبنية على التشبيه وقائمة عليه .

يمشى سـويا على صـراط مستقيم »(٤٧) تجد فيـه تمثيلين : أولهمـا لحال الضـال الذى انغمس فى ضـلاله ، وأخذ يتخبط فى ظلمـات الكفر ، ويهبط فى مهاوى الشـرك ، فقد مثـل بحـال رجل يمشى مكبا على وجهــه ، وهى صـورة تثير السخرية والتعجب ، فهذا الرجـل يستطيع أن ينهض وأن يقـوم من انكبابه فيمشى سـويا ، ولكنه يصـر على هذا الوضـع المزرى ، يمشى منتكسا مكبا على وجهـه ، وهـذا ما يثير التعجب والسخرية فى آن واحد ·· تلك صـورة الضال ، يترك الهدى والنور ، ويصـر على الضلال والتخبط فى ظلام الوهم والسراب ·

وثانى التمثيلين : لحال المهتدى الذى يمضى فى نور الله مبصـرا الحـق ، فقد مثـل بحال رجـل يمشى سـويا على صـراط مستقيم ، تخير الطريق السـوى الذى لا عوج فيـه ، ومضى معتدلا فى سـيره ، مبصـرا غايته ، هذا شـأن المؤمن أشرق نور الإيمـان فى صـدره ، وسطع ضياء الحـق فى قلبه ، فمضى على صراط مستقيم ·

وقد جاء التمثيلان بصيغة الاستفهام (**أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سـويا على صـراط مستقيم**) وذلك للتنبيه وإيقاظ الفكر ، ليتأمل القـارىء الصورتين المقترنتين ، ويقف على البعد الذى بينهما ، فهذا يتخبط فى ظلمـات الكفر والجهل والعمى ، ويهبط إلى مهـاوى الهـلاك والضيـاع ، لأنه رفض الانصيـاع للحـق والاهتـداء بنـوره ، وذاك يبصـر طريقه ، ويدرك غايته ، فيمضى فى نور الحـق والهداية ، حتى يصـل إلى بر النجاة ، ويتحقق له الفوز والفلاح ·

* * *

---

(٤٧) الملك : ٢٢ ·

المجـــاز المـرســـل

قــال تعـــالى :

(أو كصيب من السماء فيـه ظلمات ورعد وبرق يجعلون اصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر المـوت) البقـرة : ١٩ ٠

(وما كان لمؤمن أن يقتـل مؤمنا إلا خطـأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبـة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا) النساء : ٩٢

(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليـه بمثـل ما اعتـدى عليكم)

البقـرة : ١٩٤

(هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا) غافر : ١٣ ٠

(وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب) النساء : ٣

(وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ٠ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) نوح : ٢٦ ، ٢٧ ٠

(وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون)

آل عمـران : ١٠٧

(واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها) يوسف ٨٢

(فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفـارا ٠ يرسـل السماء عليكم مدرارا) نوح : ١٠ ، ١١ ٠

(واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) الشعراء : ٨٤ ٠

* * *

اتضـح لنـا أن المجـاز لابد له من علاقة تجمـع بين المعنيين ، المعنى الأصـلى الذى وضـع له اللفظ ، والمعنى المجازى الذى استعمل فيـه ، ولابد له من قرينة تمنـع إرادة المعنى الأصلى ، وتصـرف اللفظ إلى المعنى المجازى الذى استعمل فيـه ٠

والعلاقة فى الاستعارة ـ كما رأينا ـ هى المشابهة ، أما المجاز المرسل فليست علاقته المشابهة ، بل له علاقات أخرى غيرها ، لأن الاستعارة مبنية على دعوى الاتحاد ودخول المشبه فى جنس المشبه به ، وصيرورته فردا من أفراده ، والمجاز المرسل ليس كذلك ، فقد أطلق عن دعوى الاتحاد المعتبرة فى الاستعارة ، كما أطلقت علاقته فلم تقيد بعلاقة واحدة ، بل له علاقات كثيرة ليس منها المشابهة ، ولذا سمى (مجازا مرسلا) وأهم علاقاته ما يلى :

١ ـ **الكلية** : ويراد بها إطلاق الكل وإرادة الجزء ، وعندما يطلق الكل على الجزء يكون وراء ذلك غرض يقصد إلى تحقيقه والدلالة عليه ، تأمل قوله تعالى : « **قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا • فلم يزدهم دعائى إلا فرارا • وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا** »(١) ، فقد عبر عن (الأنامل) بالأصابع ، لأن من يسد أذنه يسدها بأنملة الأصبع ، ولكن النظم الكريم أراد أن يصور شدة إعراض أولئك الكفار عن دعوة نوح ـ عليه السلام ـ فهم يبالغون فى سد مسامعهم حتى لا يسمعوا شيئا مما يقول ، وكأن الأنامل لا تكفى لسد الآذان فجعلوا فيها أصابعهم ، وكما بالغوا فى سد الآذان بالغوا فى إخفاء أبصارهم وإخفاء أنفسهم ، فاستغشوا ثيابهم ، أى : طلبوا أن تغشاهم أو تغشيهم حتى لا يبصروه ـ عليه السلام ـ ، كراهة النظر إليه ، وحتى لا يراهم فيدعوهم (وأصروا) على الكفر والضلال أى : أكبوا عليهما ، مستعار من أصر الحمار على العانة إذا أصر

---

(١) سورة نوح : آيات ٥ ـ ٧ .

أذنيه وأقبل عليها (٢) .

فالسياق - كما نرى - يصور شدة إعراض الكفار ، وفرارهم عن دعوة نوح - عليه السلام - ورفضهم السماع والنظر إليه كراهة وبغضا ، وجاء التعبير بالمجاز المرسل (أصابعهم) مصورا لشدة الرفض والإعراض ومتلائما مع المبالغة التى أفادها السياق .

ومما يصور شدة الفرار والإعراض إسناد زيادة الفرار إلى الدعاء فى قوله : (فلم يزدهم دعائى إلا فرارا) حيث أسند الفعل إلى سببه ، فدعاء نوح الذى كان ينبغى أن يكون سببا فى إيمانهم وهدايتهم، لأنه يدعوهم إلى المغفرة والرحمة كان سببا فى زيادة النفور والإعراض .

ولا يخفى علينا المجاز المرسل فى قوله : (لتغفر لهم) فهو عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان والهداية ، فإن آمنوا واهتدوا غفر الله لهم ، فهذا مجاز مرسل علاقته المسببية ، لأن الغفران مسبب عن الإيمان والهداية ، مترتب عليهما .

ومن ذلك قوله تعالى : ((أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين))(٣) فقد دل التعبير عن الأنامل بالأصابع فى قوله : (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) على المبالغة فى سد مسامعهم خوفا ورعبا من الصواعق والرعد والبرق الذى أحاط بهم .

ومن البين أن الذى تسد به الأذن أصبع خاصة هى السبابة ، ولكن النظم الكريم عدل عنها إلى ذكر الأصابع لغرضين :

الأول : أن السبابة على وزن (فعالة) صيغة مبالغة من السب ،

---

(٢) انظر تفسير أبى السعود ٩/٣٧ .

(٣) سورة البقرة : ١٩ .

فكان اجتنابها أولى بأدب القرآن ، ولذا فقد استبشعوها وكنوا عنها بالمسبحة والسباحة والمهللة .

الثانى : أنه ليس بلازم أن يسدوا مسامعهم فى تلك الحال بالسبابة ، لأنهم فى حال حيرة ودهش واضطراب ، حيث أحاطت بهم الظلمات والرعد والبرق ، وصاروا يخشون الموت من الصواعق ، فأى أصبع اتفق لهم أن يسدوا بها فعلوا ، دون مراعاة المعتاد فى مثل هذا(٤) .

وكذا القول فى سورة نوح ، لقد أبوا إباء واستكبروا استكبارا وأعرضوا إعراضا وبلغ إعراضهم مبلغا جعلهم يسرعون بوضع أى أصبع اتفق لهم وضعها فى الأذن كلما دعا نوح - عليه السلام - حتى لا يسمعوا دعاءه .

٢ - **الجزئية** : والمراد بها إطلاق الجزء وإرادة الكل ، وهذا الجزء الذى يطلق على الكل لابد أن يكون مهما وأساسيا فى الكل ، ومتميزا بخصوصية توجب له هذا الإطلاق ، وتجعله أدل على المعنى المراد وأوفى بالغرض .

تامل قوله تعالى : « **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير** رقبة **مؤمنة** .. » تجد أن المراد بالرقبة : العبد أو الأمة الرقيق ، أطلق الجزء وأريد الكل ، وإيثار التعبير بهذا الجزء (الرقبة) فى مثل هذا المقام ، مقام الحث على تحرير الرقيق ، وإنقاذهم من ذل العبودية هو الملائم ، لأنه ينبه ويشير إلى موضع وضع الأغلال وهو الرقاب ، ولذا آثر النظم الكريم التعبير بالرقبة مرادا بها العبد أو الأمة ، فى مقامات الحث على تحرير الرقيق وتخليصهم من قيد العبودية ، ولنقرأ : « **فكفارته**

---

(٤) انظر حاشية السيد علي الكشاف ٣١٧/١ .

إطعـام عشـر مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ••• فتحرير رقبـة من قبل أن يتماسا ••• وما أدراك ما العقبة • فـك رقبـــة »(٥) •

ولا يتأتى فى هذا المقـام أن يعبر بالرأس أو العين أو الكف ، لأن هذه الأجـزاء ليس لها تلك الخصوصية التى تميزت بها الرقبـة وجعلتها أدل على هذا المعنى ، وهو الحث على تحرير الرقيق وإنقاذهم من ذل الرق وقيد العبـودية •

ولذا لمـا اختلف المقـام ولم يعد المـراد التنبيـه إلى ذل العبودية، عبر عن الرقيق بالفتيات والعبد والأمة ، ولنقـرأ : « **ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنـات ••• ولا تكرهوا فتياتكم على البغـاء إن أردن تحصنـا ••• ولاتنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خيرمن مشركة ولو اعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنـوا ولعبد مؤمن خير من مشـرك ولو اعجبـكم** »(٦) لا يتأتى هنا أن يعبر بالرقبـة التى تذكر بذل الرق ، لأن التعبير بها لا يتلاءم مع هذا السياق الذى يحث على تزوج الرقيق وتزويجهم ، وينهى عن إكراه الأمة على البغـاء ، فهذا المقـام يقتضى إنسـاء ذل الرق ، والتذكير بما يحبب الأمة والعبد ويقربهما من النفوس والقلوب ، لذا كان ذكـر الإيمـان والفتيات (ولأمة مؤمنـة •• ولعبد مؤمن •• فتياتكم المؤمنـات) إننا نشعر هنا بحـرص السيـاق على إبراز ما يحبب العبد والأمة ويقـربهما من القلوب ، لأن المعنى الذى ينشده يقتضى ذلك •

ويعبر النظم الكريم عن الإنسـان بالوجه وبالعين وبالأذن وبالقدم

---

(٥) الآيات بالترتيب : المـائدة ٨٩ ، المجادلة ٣ ، البلد ١٢،١٣ •
(٦) الآيات بالترتيب : النساء ٢٥ ، النور ٣٣ ، البقرة ٢٢٠ •

فى سياقات تطلبت هذه الأجـزاء ، وكانت هى الأدل على المعنى ، تأمل قوله تعـالى : « ومن يسلم وجهـه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعـروة الوثقى لا انفصـام لهـا .. »(٧) فقد عبر عن الذات هنـا بالوجـه ، لأن الآية تحث على تفـويض الأمـر إلى الله ، والتوجـه والإقبال عليـه ، ومن يفعـل ذلك فقد استمسـك بالعـروة الوثقى ، والإقبال إنما يكون بالوجـه فلاءم ذلك أن يعبر به عن الذات لمـزيد اختصاصه بالمعنى المـراد .

وفى قوله تعـالى : « ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قـل أذن خير لكم »(٨) أوثر التعبير عن النبى - ﷺ - بالأذن ، لأنهم أرادوا ذمه ووصفه بأنه كثير السماع ، ولكنه لا يميز بين الصدق والكذب ، والخطـأ والصواب فيما يسمع ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، لقد بالغـوا فى وصفه بذلك حتى جعلوه كله أذنا ، يقول العلامة الجمل: « (هو أذن) أى : يسمـع كل كلام من غير أن يتدبر فيـه ويميز بين ما يليق سماعه وما لا يليـق ، فغرضهم الذم ، وإنما قالوا ذلك فيـه لأنه كان لا يواجههم بسـوء صنيعهم ، ويصفح عنهم ، فحملوه على عدم التنبـه وعدم التفطن ، وهو إنما كان يفعـل ذلك معهم رفقـا بهم ، وتغافلا عن عيوبهم ، وفى إطلاق الأذن عليـه مجاز مرسل من إطلاقهم اسم الجـزء على الكل للمبـالغة فى استماعه حتى صار كأنه عين آلـة الاستماع ، وفى المفتاح أنه مجاز مرسل كما يراد بالعين الرجل إذا كان ربيئـة ، لأن العين هى المقصودة منه فصارت كأنها الشخص كله »(٩) .

وفى قوله تعـالى : « وأنفقـوا فى سبيـل الله ولا تلقـوا بأيديكم

---

(٧) لقمـان ٢٢ .

(٨) التوبة : ٦١ .

(٩) الفتوحات الإلهية ٢/٢٩٤ .

إلى التهلكة »(١٠) أوثر التعبير عن الأنفس بالأيدى ، لأنها جاءت فى سياق الأمر بالإنفاق فى سبيل الله ، واليد هى آلة العطاء ، ومظهر الجود والشح ، والإنفاق والإمساك ، قال تعالى : « **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط** »(١١) فلما كانت اليد مصدر الإنفاق والإمساك ، وكان إنفاقها منجيا لصاحبها ، وإمساكها موديا به إلى الهلاك ، أوثرت بالتعبير عنه فى سياق الإنفاق ، وصارت كأنها الشخص كله ، لمزيد اختصاصها بالإنفاق .

وفى قوله تعالى : « **وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا . فكلى واشربى وقرى عينا** »(١٢) عبر بالعين عن النفس والذات ، إذ المراد بقوله (وقرى عينا) الدلالة على طيب نفسها وسرورها ، وقد عبر عن النفس (الذات) بالعين ، لأنها هى التى ترى ما يسر النفس فهى أدل على المعنى المراد ، ولذا أوثرت بالتعبير فى هذا المقام ، وصارت كأنها الذات كلها .

وكثر فى النظم الكريم التعبير عن الصلاة بجزء من أجزائها المهمة ، كالقيام والركوع والسجود ، ونجد الجزء الذى عبر به عن الصلاة مهما فى موضعه ، وكأن معناه هو المراد تحقيقه ، تأمل الآيات الكريمة : « **يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا ... كلا لا تطعه واسجد واقترب ... ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ... فاسجدوا لله واعبدوا ... وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون** »(١٣) ، فقد عبر عن الصلاة بالقيام

---

(١٠) البقرة : ١٩٥ . (١١) الإسراء : ٢٩ .

(١٢) مريم : ٢٤ ، ٢٥ .

(١٣) الآيات بالترتيب : المزمل ٢،١ ، العلق ١٩ ، الحجر ٩٧، ٩٨ ، النجم : ٦٢ ، المرسلات ٤٨ .

والسجود والركوع ، وتلك أجزاء من أجزاء الصلاة ، وأركان من أركانها ، فهى أجزاء مهمة ، وقد جاء التعبير بالقيام عن صلاة الليل (قم الليل) لأن القيام أشق الأركان فى صلاة الليل ، إذ الليل مظنة النوم والتكاسل ، ولما كان العرب يأنفون من الركوع والسجود عبر بكل منهما عن الصلاة (**فاسجدوا لله ... وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون**) حثا لهم على الخضوع لله ، وامتثال أمره .. وفى مقام تسلية الرسول - ﷺ - والتسرية عنه ، حيث كان يضيق صدره بما يقولون ، وكان يلقى الأذى والعنت من الكفار ، يأتى فى هذا المقام التعبير عن الصلاة بالسجود (**كلا لا تطعه واسجد واقترب ... فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين**) لأن اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، حيث المناجاة والتضرع إليه بالدعاء .. ارأيت كيف كان الجزء المعبر به عن الصلاة مهما فى موضعه ومقصودا بالمعنى وكأنه هو الصلاة كلها فى ذلك الموضع ؟ ..

٣ - **السببية** : والمراد بها إطلاق السبب وإرادة المسبب ، ويأتى ذلك فى المقامات التى تظهر فيها أهمية السبب ، ويقوى ارتباطه بالمسبب ، تأمل قوله تعالى : ((**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**))(١٤) تجده قد عبر عن جزاء الاعتداء بقوله : (فاعتدوا) أى : عبر بالسبب وأراد المسبب ، والتعبير بالسبب هنا وهو (الاعتداء) يبرز أهمية مجازاة الظالم ، ويؤكد ضرورة التصدى له ، وعدم التهاون معه ، لأنه ينتهك حرمات المسلمين ، ويعتدى على حرمة الشهر الحرام ، ولنقرأ : (**الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ..**) ففى مثل

---

(١٤) البقرة : ١٩٤ .

هذا السياق لا يتأتى عفو ، ولا تكون مسامحة ، بل ينبغى درء الظالم وردع المعتدى ، ولذا جعل عقابه اعتداء عليه ، حيث عبر عن مجازاته على عدوانه بالاعتداء (فاعتدوا عليه) .

وانظر إلى عدالة الإسلام فى قوله تعالى : (**بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله**) فعندما أمر عز وجل أن يتصدى المسلمون للظالم ويضربوا على يديه ، ولا يتهاونوا معه ، قيد ذلك بالمثلية (بمثل ما اعتدى عليكم) وأمر بالتقوى (واتقوا الله) وذلك حتى لا يمتد الردع ويتجاوز فيه الحد .

ومن ذلك قوله تعالى : « **وجزاء سيئة سيئة مثلها** »(١٥) حيث عبر عن جزاء السيئة بأنه (سيئة مثلها) حثا على ردع الباغى والضرب على يديه وعدم التهاون معه حتى يقلع عن بغيه ، فإن أقلع عن بغيه وجاء نادما ، فعندئذ يكون العفو ، وهذا - والله أعلم - معنى قوله تعالى عقب الحث على جزاء السيئة بالسيئة (**فمن عفا وأصلح فأجره على الله**) أما إذا ظل الباغى على بغيه وأصر على عدوانه ، فلا ينبغى التهاون معه ، بل ينبغى ردعه وأخذه بالشدة ، وكما قيد الاعتداء فى الآية السابقة بقوله (بمثل ما اعتدى عليكم) قيدت السيئة هنا بقوله (مثلها) حتى لا يتجاوز العقاب الحد فينقلب عدوانا وظلما .

وتأمل قوله تعالى : « **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم**»(١٦) تجد أن المراد بقوله (قدم صدق) المنزلة العالية والفضل العظيم ، فعبر عن ذلك بالقدم ، لأنها السبب الموصل إلى تلك المنزلة وإلى هذا الفضل .

---

(١٥) الشورى : ٤٠ .　　(١٦) يونس :٢ .

وفى إيثار التعبير عن الفضل وبعد المنزلة بسببه المرسل إليه وهو (القدم) ثم إضافتها إلى (الصدق) ما يدل على تمكن الذين آمنوا من الفضل والمرتبة العالية ، فهى قدم صدق قد ثبتها الله تعالى كما ثبت أقدام المؤمنين يوم بدر ، قال تعالى : « ويُنزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام »(*) ، وليست قدما تزل بعد أن ثبتت على الإسلام كما فى قوله تعالى : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها .. »(**)) .

يقول أبو السعود : « (أن لهم قدم صدق) ، أى : سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم ، وإنما عبر عنها بها إذ بها يحصل السبق والوصول إلى المنازل الرفيعة ، كما يعبر عن النعمة باليد لأنها تعطى بها ، وقيل : مقام صدق والوجه أن الوصول إلى المقام إنما يحصل بالقدم ، وإضافتها إلى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها ، والتنبيه على أن مدار نيل ما نالوه من المراتب العلية هو صدقهم فإن التصديق لا ينفك عن الصدق »(١٧) .

٤ - **المسببية** : والمراد بها إطلاق المسبب وإرادة السبب ، كما فى قوله تعالى : « **خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج** .. »(١٨) فالأنعام لاتنزل من السماء، وإنما ينزل الماء الذى يكون به وجودها ، أطلق المسبب (الأنعام) وأراد السبب وهو الماء الذى ينزله الله فينمو به النبات ويكون سبب وجود تلك الأنعام ، ويدل التعبير بالمسبب فى الآية الكريمة على قوة السبب وشدة ارتباطه بالمسبب ، فالذى أنزله الله ليس ماء توجد به

(*) الأنفال : ١١ . (**) النحل : ٩٤ .

(١٧) تفسير أبى السعود ١١٧/٤ . (١٨) الزمر : ٦ .

تلك الأنعام ، بل الأنعام ذاتها ، وفى هذا ما يطمئن المؤمن ويجعل نظره دائما إلى السماء ، ففيها رزقه « **وفى السماء رزقكم وما توعدون** »(١٩) .

وكذا القول فى الآية الكريمة « **هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب** »(٢٠) حيث أطلق (الرزق) على الغيث ، والرزق مسبب عنه ، وذلك للإشعار بقوة السبب ، والدلالة على أن الله تعالى بيده الأمر كله ، فأرزاق العباد بيده يقسمها كيف يشاء ، وينزلها كما قدر وأراد « **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء** »(٢١) وليس هذا تقليلا من شأن الأسباب ، بل تعميقا للإيمان فى قلب المؤمن ، ليكون نظره إلى السماء دائما ، واستعانته برب السموات والأرض ، رب العرش العظيم ، ومن أجل هذا كان التعبير عن السحاب فى الآية الكريمة بالسماء ، مجازا مرسلا علاقته المجاورة .

وتأمل قوله تعالى : « **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** »(٢٢) ، فقد أطلق (النار) وأراد : الأموال التى يكون أكلها سببا فى دخول النار ، أى : عبر بالمسبب وأراد السبب ، وفى هذا التعبير ما يدل على التنفير والتفظيع والتبشيع ، وعليك أن تتصور امرأ يلقم النار فيأكلها فتندنع إلى أمعائه وتتقد فى أحشائه ، ذاك هو آكل أموال اليتامى ظلما ، هذا جزاؤه فى الدنيا ، وفى الآخرة (سيصلون سعيرا) وفى التعبير بالبطون تصوير للنيران وهى تتلظى وتتقد فى أجوافهم فتحرقها ، ووراء هذا التصوير من التبشيع والتنفير ما ترى .

وخذ قوله تعالى : « **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من**

---

(١٩) الذاريات : ٢٢ .
(٢٠) غافر : ١٣ .
(٢١) الشورى : ٢٧ .
(٢٢) النساء : ١٠ .

الشيطـان الرجيم »(٢٣) تجد أن المعنى : فإذا أردت قـراءة القـرآن فاستعذ بالله ، فعبر بالقـراءة وعى مسببة عن الإرادة وتابعـة لهـا ، والدليـل على ذلك تلك الفـاء فى قوله (فاستعـذ) فهى تدل على الترتيب ، والاستعاذة ليست مرتبـة على القـراءة ، بل سابقة لها ، والقـراءة هى التى تترتب عليهـا ، فوجب أن يكون المـراد بالقـراءة إرادتها والعـزم عليهـا .

والتعبير عن السبب (الإرادة والعـزم) بالمسبـب (القـراءة) فى الآية الكريمة وراءه معنى دقيـق وهو الحث على تحقـق الإرادة ووقـوع العـزم ، حتى كأن القـراءة قد وقعت وتحققت فقرىء القـرآن فعـلا عند العـزم على القـراءة وإرادتها « **فإذا عـزمت فتوكل على الله »**(٢٤) ، إن العمـل ينبغى أن يتحقـق فـور إرادته والعزم عليه ، لأن الإسـلام لا يعـرف التقـاعد والتقاعس وأحـلام اليقظـة والأمانى الكاذبة ، وإنما ينشد العمـل الجاد والسعى الدءوب وعمارة الأرض ، وهذا ما نراه وراء التعبير بالمسبب عن السبب فى الآية الكريمة .

٥ ـ **اعتبـار ما كان :** والمـراد بهذه العلاقة أن يعبـر عن الشيء بصفته التى كان عليهـا من قبـل للدلالة على غرض من الأغراض ترجع الدلالة عليـه إلى خصوصية فى تلك الصفة التى كان عليها ، من ذلك قوله تعـالى : « **إنه من يأت ربه مجـرما فإن له جهنم لا يموت فيهـا ولا يحيـا »**(٢٥) ، فإن الوصف بالإجـرام إنما هو باعتبـار ما كان عليـه فى الدنيـا ، إذ لا يوصف أحد بالإجـرام بعد الموت ، ويدل هذا

---

(٢٣) النحـل : ٩٨ .
(٢٤) آل عمـران : ١٥٩ .
(٢٥) طـه : ٧٤ .

الوصف على أن المجرم يوم القيامة تبدو عليه آثار الذلة والمهانة والندم والتحسر ، حيث يستشعر الإجرام الذى ظل عليه طوال حياته، وكان سببا فى هذا المصير الذى صار إليه .

ومنه قوله تعالى : « **وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب** »(٢٦) ، فإن وصف من تدفع إليهم أموالهم باليتم إنما هو باعتبار ما كانوا عليه من قبل ، لأن اليتيم لا يدفع إليه الوصى ماله إلا إذا بلغ مبلغ الرجال وصار رشيدا ، فهو عندئذ لا يسمى يتيما إلا باعتبار ما كان عليه فى الماضى .

وإيثار التعبير عنهم بتلك الصفة (اليتامى) مع أن اليتم قد زال ، يثير فى النفس مشاعر العطف والرحمة بهؤلاء ، ويذكر بحرمانهم من عطف وحنان الأبوة ، فلا يطمع طامع فى أموالهم ، كما يدل على وجوب المبادرة بدفع مال اليتيم إليه بمجرد أن يانس الوصى منه رشدا « **فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم**»(٢٧) انظر إلى الفاء والتعبير بإن فى قوله (فإن آنستم) إن ذلك يدل على وجوب دفع الأموال إليهم فور إيناس الرشد بلا تباطؤ ولا توان، فلا ينتظر الوصى ويتريث بحجة أن يتحقق من رشدهم ، وكأن صفة اليتم ما تزال بهم وقت دفع الأموال ، لأنها تدفع إليهم عقب زوالها مباشرة .

٦ - **اعتبار ما سيكون :** وذلك بأن يعبر عن الشىء باعتبار ما سيئول إليه لتحقيق غرض من الأغراض ، تأمل قوله تعالى :

---

(٢٦) النساء : ٢ .

(٢٧) النساء : ٦ .

« **ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا** .. »(٢٨) تجده قد أطلق لفظ (الخمر) على الثمر الذى يعصر ، لأن هذا الثمر يئول إلى خمر ، ولعل هذا الإطلاق ينبه المؤمن ويلفته إلى رزق الله الحسن ، وما ينبغى على المؤمن إزاءه ، إن الواجب عليه أن يأكل منه حلالا طيبا ، وألا يصيره إلى سكر، ويحوله إلى خمر تؤذى ، فلما كان العصر مغيرا الثمرات ومحولا لها إلى خمر ، سكت النظم الكريم عن ذكر الثمر الذى يعصر ، واطلق عليه اسم ما سيصير إليه إسراعا بالإفصاح عن الضرر الناجم عن الفعل ، ليدرك المؤمن أن هذا العصر يجب ألا يكون ؛ ولذا لعن - صلى الله عليه وسلم - الخمر وشاربها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه ؛ وجاء فى بيان أضرارها العديد من الأخبار ، فهى مفسدة للعقل متلفة للمال ؛ وهى أم الخبائث ، وقد أتى تحريمها فى القرآن تدريجيا مرتبطا بالأحداث التى كشفت عن أضرارها ومخاطرها(٢٩) .

---

(٢٨) يوسف : ٣٦ .

(٢٩) كان أول ما نزل فى الخمر قوله تعالى : (**ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا**) النحل : ٦٧ . ولما نزلت هذه الآية سئل - ﷺ - عن الخمر فقيل له « أفتنا فى شأن الخمر فإنها مذهبة للعقل متلفة للمال » فنزل قوله تعالى : (**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**) البقرة : ٢١٩ . ثم نزل قوله تعالى : (**يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**) النساء : ٤٣ . وذلك =

وخذ قوله تعالى : **« وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا • إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا »**(٣٠) فقد أطلق (فاجرا كفارا) على ما يلده الكفرة ، والمولود لا يولد كذلك ، بل يولد على الفطرة ، فتسميته (فاجرا كفارا) باعتبار ما سيصير إليه عند بلوغه مبلغ الرجال ، وهذا يشعر بأن نوحا - عليه السلام - قد يئس من إيمان قومه وضاق بهم ذرعا ، فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الإيمان بالله وهم يسخرون منه ، ولم يؤمن معه إلا قليل ، ولذا صار على يقين بأن من يخرج من أصلابهم سيكون مآله الكفر والفجور ، لأن من يلده لن يتركه على فطرته التى ولد عليها ، بل سيضله وسيفسد تلك الفطرة •

ومن ذلك قوله تعالى : **« فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف**

=

عندما صلى أحدهم بالناس وقد شرب الخمر ، فأخطأ فى قراءة القرآن ، ثم يشرب بعض الصحابة الخمر ويتناشدون شعرا فيه هجاء مما كان بين الأوس والخزرج قبل الإسلام ، ويضرب أحدهم فتسيل دماؤه ، فيهرعون إلى رسول الله - ﷺ - ويدعو عمر - رضى الله عنه - قائلا : « اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا » ، وعندئذ ينزل التحريم القاطع للخمر فى قوله تعالى : **(يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون • إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون)** المائدة : ٩٠، ٩١ • انظر أسباب النزول ٤٩، ١١٣، ١٥٤ •

(٣٠) نوح : ٢٦ ، ٢٧ •

وبشـروه بغـلام عليم »(٣١) ، وقوله عز وجل : **« رب هب لى من الصـالحين • فبشـرناه بغلام حليم »**(٣٢) حيث وصف الغلام بصفتى : (العلم والحلم) حين مولده ، وهو لا يكون كذلك إلا بعد حين ، ووراء المجـاز فى الآيتين طمأنة إبراهيم ـ عليـه السلام ـ بأن الغلام سيبلغ مبلغ الرجال ، وأنه سيؤتى الحكمة ويكون عليما حليما ، وتلك بشـارة أحـرى كان إبراهيم ـ عليـه السلام ـ فى حاجة إليهـا ، لأن شـأن من يولد له فى الكبر أن يظل مشغـولا على من ولده ، خائفـا على مصـيره من بعده •

٧ ـ **الحاليــة :** وهى أن يطلق اسم الحال ويراد المحل •• تأمل الآيات الكـريمة : **« وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمـة الله ••• إن المتقين فى ظـلال وعيون • وفواكه مما يشتهون ••• وأدخلناه فى رحمتنـا إنه من الصالحين »**(٣٣) تجد أن أولئك المتقين الذين ابيضت وجوههم قد أدخلوا الجنـة وحلوا بها ، وأخذوا يستمتعون بنعيمهـا ، ويتقلبون فى الظلال والعيون والفواكه ، تتنزل عليهم رحمـة الله ، ففى الآيات مجـاز مرسـل علاقته الحالية ، حيث أطلق الحال وأريد المحل ، فالرحمـة والنعيم يحلان بالجنـة ، وينبىء هذا المجـاز بأن أولئـك المتقين الذين ابيضت وجوههم فى ذلك اليوم ، قد رضى الله عنهم ورضوا عنـه ، فأحاطت بهم الرحمـة كما يحيط الظرف بمظروفه ، وغشيهم النعيم فصـاروا يتقلبون فيه ويستمتعون به •

---

(٣١) الذاريات : ٢٨ •

(٣٢) الصـافات : ١٠٠ ، ١٠١ •

(٣٣) الآيات بالترتيب : آل عمـران : ١٠٧ ، المرسـلات ٤١ ، ٤٢ ، الأنبيـاء : ٧٥ •

٨ - **المحليـــة** : وهى أن يطلق المحل ويراد الحال به .. انظر إلى قــوله تعــالى : « **واســال القــرية التى كنــا فيهــا والعــير التى اقبلنــا فيهــا** »(٣٤) فقد عبر بالقــرية وأريد أهلها الذين يحلون بها ويقيمون فيهــا ، والغرض من ذلك الدلالة على انتشــار خبر الســرقة وذيوعــه ، وكذلك أطلقت (العــير) وأريد أصحابها الذين يمتطــون ظهورها ، وهذا مجاز آخر علاقته المجاورة ، وكلا المجازين يؤكد انتشار خبر السرقة وذيوعه بين النــاس جميعــا ، فقد بلغ فى الشهرة مبلغا لو سئلت عنه الجمادات والحيوانات لأجابت عنه ونطقت به .

ويشعر هذا المجــاز بحال إخوة يوسف - عليــه السلام - وحرصهم على أن يؤكدوا لأبيهم خبر الســرقة ، فقد أرســل معهم (بنيامين) بعد أن أعطوه موثقا ليعودن به إليــه إلا أن يحاط بهم ، أما وقد سرق - حسبما رأوا حيث أخرجت صــواع الملك من وعائه أمامهم - فقد حالت هذه السرقة بينهم وبين الرجوع به إلى أبيهم ، لأن جزاء السارق فى شريعتهم أن يؤخذ بسرقته ، ولذا فليس أمــامهم إلا أن يؤكدوا لأبيهم وقــوع الســرقة واشتهارها وعلم النــاس جميعــا بها ، وهذا ما ينبىء به المجــاز المرسل فى موضعيه من الآية الكريمة .

ومن ذلك قوله تعــالى : « **يا أيهــا الذين آمنــوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبــالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفى صــدورهم أكبر ..** »(٣٥) حيث أطلقت (الأفــواه) واريد الألسنة التى تحــل بها ، كما أطلقت (الصدور) واريد ما تحــل بها وهى القلوب ، وكلا المجــازين يصــور شدة الغيظ الذى يملأ قــلوب

---

(٣٤) يوسف : ٨٢ .
(٣٥) آل عمران : ١١٨ .

الحاقدين ويفيض على ألسنتهم ، فهذا الغيظ قد ضاقت به قلوبهم وفاض منهـا فامتلأت به صدورهم ، ثم بدا على ألسنتهم ، بل بدا من أفواههم ، وكأن اللسـان يعجـز عن حمـل هـذا الغيـظ وينوء بتلك البغضـاء لشدتهما وضخامة حجمهما .

٩ - **المجاورة** : وهى أن يعبر بالشىء عما يجاوره، وذلك إذا كثر اقترانهما وقوى ارتباطهما ، وأصبح الذهن يستحضر أحدهما عند ذكر الآخر،كما رأينا فى إطلاق العير وإرادة أصحابها الذى يمتطون ظهورها فى قوله (والعير التى أقبلنا فيها) فإن الاقتران بين العير وأصحابها من الكثرة بمكان ، والمجاورة بينهما قـوية والارتباط وثيق ، ولذا سـاغ التعبير بالعير وإرادة أصحابها ، وكما رأينا فى إطـلاق السماء وإرادة السحاب فى قوله : (وينزل لكم من السماء رزقا) .

ومن ذلك قوله تعـالى : « **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفـارا يرسـل السماء عليكم مـدرارا** »(٣٦) حيث أطلقت (السماء) وأريد السحاب لمجاورتهما فى مرأى العين ، وحضور السحاب فى الذهن عند ذكر السماء، ويوحى التعبير بالسماء عن السحاب بكثرته، وكأن السماء كلهـا قد أرسلت عليهم مدرارا ، كما يذكـر برحمـة الله وعظيم فضـله الذى يفيض به على من يستغفره ويؤمن به ويتوكل عليه .

١٠ - **الآليـــة** : وهى أن يعبر عن الشىء باسم آلتـه التى يحصل بهـا ، كما فى قوله تعـالى : « **قالوا فاتوا به على أعـين الناس لعلهم يشهدون** »(٣٧) إذ المـراد : فاتوا به على مـرأى من النـاس ، فعبر عن الرؤية بآلتهـا وهى (الأعين) وهذا يدل على شدة تغيظهم ورغبتهم

---

(٣٦) نوح : ١٠ ، ١١ .

(٣٧) الأنبيـاء : ٦١ .

فى أن يبصر النــاس جميعــا ما ينزل به - عليـه السلام - ويرونه رأى العين ، فيكون ذلك زاجرا لهم عن التفكير فى مثله .

والتعبير بالحـرف (على) فى قوله (على أعين الناس) يدل على أنهم قد جعلوه بمـرأى منهم ، وصـار فى مكان مرتفع لا يكاد يخفى على أحد ، وهذا ينبىء بتمكنهم من رؤيته وثبات ما يحدث له فى الأعين كما يتمكن الراكب من دابتـه ويثبت عليهـا ، ففى التعبير استعارة تبعيـة فى الحـرف (على) حيث شبه تمكنهم من رؤيته وثبات ما يحدث له فى الأعين بتمكن الراكب من دابتــه وثباته عليهـا ، ثم استعير الحرف (على) الدال على التمكن والاستعـلاء من المشبه به للمشبـه .

يقول الزمخشرى : « فإن قلت : فما معنى الاستعلاء فى (على) ؟ قلت : هو وارد على طريق المثـل ، أى : يثبت إتيـانه فى الأعين ويتمكن فيهـا ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه »(٣٨) .

ومن ذلك قوله تعـالى : **« وما ارسلنـا من رسـول إلا بلســان قـومه ليبين لهم ... »**(٣٩) حيث أطلق (اللسـان) وأريد اللغـة التى تؤدى به ، وهذا ينبىء بوضوح الرسالات وجلائها ، إذ الرسـول ينطق بلســان قومه ، وأرسـل بهذا اللســان ، فلا غموض ولا لبس فيما يقول ، ولا حجـة عندئذ لمن أعرض ونأى ، لأنه يعـرض عنادا وينأى تكبرا ، بعد أن أدرك ما جاءت به الرسل ، ووضح له الأمر ..

ومثله قوله تعـالى : **« واجعل لى لسـان صدق فى الآخرين »**(٤٠)

---

(٣٨) الكشاف ٢/٥٧٧ .. والمـراد بقـوله : (هو وارد على طـريق المثـل) : الاستعارة التبعية فى الحرف كما بينا .

(٣٩) إبراهيم : ٤ .   (٤٠) الشعراء : ٨٤ .

فقد عبر باللسان وأريد الذكر الحسن ، لأن هذا الذكر يؤدى باللسان ويحصل به ، فهو آلته ، ويشعر التعبير عن الذكر الحسن باللسان بأن ذلك الذكر يدوم ويبقى بعد ذهاب صاحبه ، حيث تلهج به الألسنة ويظل يجرى عليها ما بقى لسان ينطق ٠

* * *

الكناية

قال تعالى :

(يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ٠ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) ٠

الحج : ١ ، ٢

(وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم)

المنافقون : ٥

(وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) المائدة : ٦٤ ٠

(ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا) الفرقان : ٢٧ ٠

(نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ٠٠) البقرة : ٢٢٣

(ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) المائدة : ٧٥ ٠

(يا أيها المدثر ٠ قم فأنذر ٠ وربك فكبر ٠ وثيابك فطهر ٠٠)

المدثر : ١ - ٤

(ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) التحريم : ١٢ ٠

(وإذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم ٠ أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) ٠
الزخرف : ١٧ ، ١٨

(وحملناه على ذات الواح ودسر) القمر : ١٣ ٠

(وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ٠٠) النساء : ٤٣

(ترميهم بحجارة من سجيل ٠ فجعلهم كعصف ماكول) الفيل٤،٥

* * *

الكناية ضرب من إخفاء المعانى وتخبئتها وراء روادفها لتحقيق اغراض يقصد إليها المتكلم ، حيث يترك التصريح بالمعنى الذى يريده ويعمد إلى روادفه وتوابعه فيومىء بها إليه ، فهى كما عرفها الإمام عبد القاهر : « أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيومىء به إليه ، ويجعله دليلا عليه ٠٠ »(١) ٠

من ذلك تكنيتهم عن السفينة بابنة اليم ، وعن الحية بابنة الرمل، وعن الحرب بأم قسطل ، وعن القلب بموطن الاسرار وموضع الحقد ومجامع الأضغان ، وعن الكرم والجود بكثرة الرماد وجبن الكلب وهزال الفصيل وبسط اليد ، وعن البخل بقبض اليد وغلها إلى العنق ، وعن الندم بعض الأنامل والسقوط فى الأيدى وتقليب الكفين ، إلى غير ذلك مما ورد عن العرب من كنايات ٠٠

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٠٥ ٠

وترجع بلاغة الكناية إلى أنها بمثابة إقامة الدعوى مشفوعة بدليلها ، فالمعنى إذا جاء مصحوبا بدليله كان أقوى تأثيرا وأشد إقناعا، ولذا قالوا : الكناية أبلغ من التصريح ، وفسر ذلك الإمام عبد القاهر بقوله : « ليس المعنى إذا قلنا : (إن الكناية أبلغ من التصريح) أنك لما كنيت عن المعنى زدت فى ذاته ، بل المعنى أنك زدت فى إثباته فجعلته أبلغ وآكد وأشد ، فليست المزية فى قولهم : (جم الرماد) أنه دل على قرى أكثر ، بل أنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته إيجابا هو أشد ، وادعيته دعوى أنت بها أنطق وبصحتها أوثق »(٢) .

هذا وتختلف الكناية عن المجاز فى أن قرينتها لا تمنع إرادة المعنى الأصلى للفظ الذى كنى به ، ففى قولنا : فلان كثير الرماد ، كناية عن كرمه وجوده ، لا تمنع القرينة إرادة المعنى الأصلى ، وهو كثرة الرماد عند فلان هذا وحول بيته ، أما المجاز فالقرينة فيه قرينة مانعة .

وذكر علماء البيان أن الكناية ثلاثة أنواع : كناية عن صفة كما فى قولهم : فلان جبان الكلب ، وعض فلان أنامله ، وقبض يده ... وكناية عن موصوف كما فى تكنيتهم عن الحية بابنة الرمل وعن السفينة بابنة اليم وعن القلب بموطن الأسرار .. وكناية عن نسبة كما فى قول زياد الأعجم :

إن السماحة والمروءة والندى
فى قبة ضربت على ابن الحشرج

---

(٢) دلائل الإعجاز ١٠٩،١١٠

حيث كنى عن نسبة هذه الصفات إلى ابن الحشرج وهو عبد الله ابن الحشرج أمير نيسابور بجعلها فى قبة مضروبة عليه ٠

وقد كثرت الكناية فى النظم القرآنى الكريم فجاءت فيه الكناية عن الندم والتحسر فى صور كثيرة ، والكناية عن الكرب والأهوال ، والكناية عن الاستكبار والإعراض ، والكناية عن الفيض والعطاء ، وعن الشح والإمساك ، والكناية عما يستقبح ذكره كالعذرة والبول والروث وقضاء الحاجة ، وعما يستحيى التصريح به كالجماع ، وعن العفة والطهر ، إلى غير ذلك من الكنايات القرآنية ٠

تأمل قوله تعالى : « **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ٠ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** »(٣) تجد الآية الثانية كناية عن الكرب وشدة أهوال القيامة ، وقد صورت تلك الكناية ذهول الناس ، وتمكن الفزع من قلوبهم وأخذه منهم كل مأخذ ، فالمرضعة تذهل عن رضيعها الذى ألقمته ثديها(*) ، والحامل تضع حملها من شدة الفزع ، لقد فقد الناس إدراكهم وسيطر عليهم الصمت والسكون ، فتراهم سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكنه الهول الشديد الذى أفقدهم الوعى والإدراك ٠

وتأتى الكناية عن الكرب والهول فى قوله تعالى : « **يوم يفر المرء من أخيه ٠ وأمه وأبيه ٠ وصاحبته وبنيه ٠ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** »(٤) فنجد صورة أخرى تختلف عما فى الآية

---

(٣) الحج : ١ ، ٢ ٠ (٤) عبس : ٢٤ ـ ٢٧ ٠

(*) يقال (مرضع) بدون التاء لمن شأنها الإرضاع وإن لم تباشره ، ويقال : (مرضعة) بالتاء لمن ألقمت الرضيع ثديها مباشرة الإرضاع ٠ انظر الفتوحات الإلهية ٣/١٥١ ٠

السابقة ، إنها صورة فرار وحركة لا صمت وذهول ، كلتا الصورتين كناية عن الكرب والهول ، ولكنهما مختلفتان ، فالناس فى الأولى سكارى أصابهم الذهول من هول المفاجأة ، ففقدوا الوعى والإدراك ، وذلك عند زلزلة الأرض ومباغتة الساعة (**إن زلزلة الساعة شىء عظيم**) .. وأما الصورة الثانية فهى صورة الناس عند مجىء الصاخة ، لقد جعلهم الهول يفرون ، كل قد شغل بنفسه ، لا يلتفت إلى غيره ولا يعبأ به ، نشعر فى هذه الصورة بعدم فقدان الوعى والإدراك ، الذى رأيناه فى الصورة الأولى ، والذى كان سببه مفاجأة الساعة ، لأن الصورة هنا ـ فى سورة عبس ـ تبرز جانبا آخر ، هو جانب الفرار من الآخرين ، وانشغال كل إنسان بشأنه .

وتأتى الكناية عن الاستكبار والإعراض فى الآيات الكريمة : « **وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ... فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا ... ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا** »(٥) فنجد أن حركة الرأس (اللى والإنغاض وتصعير الخد) قد كنى بها عن التكبر والإعراض ، فإنغاض الرأس تحريكها إلى أعلى وإلى أسفل تكذيبا وإعراضا ، ولى الرأس إمالتها من جانب إلى جانب تكبرا وإعراضا ، وتصعير الخد إمالته وليه كبرا وتعاليا ماخوذ من (الصعر) وهو داء يصيب البعير يلوى منه العنق ..

ولا يخفى علينا ما وراء لى الرأس من تصوير شدة الإعراض والنفور ، وما وراء تصعير الخد من تذكير بالصعر الذى يصيب البعير ،

---

(٥) الآيات بالترتيب : المنافقون ٥ ، الإسراء : ٥١ ، لقمان ١٨ .

فلعل هذا التذكير يكون زاجرا للمتكبر ، ومنفرا له من حركة التعالى والتكبر ، التى تصور صاحبها وكانه قد أصيب بهذا الداء ، كما لا يخفى علينا ما وراء حركة الإنغاض من سخرية وتهكم ٠٠ إن الحركات الثلاث ـ كما نرى ـ كناية عن التكبر والإعراض ، ولكن كل حركة تنفرد بخصوصية تجعلها تبرز جانبا لا تنهض بإبرازه الحركتان الأخريان ٠٠

فوراء (إنغاض الرءوس) وهو تحريكها إلى أعلى وإلى أسفل تكمن السخرية والاستهزاء وعدم المبالاة ٠٠ ووراء (لى الرءوس) وهو إمالتها من جانب إلى جانب يكمن الاستكبار والنفور ٠٠ ووراء (تصعير الخد) نرى الإعراض والتعالى على الناس كبرا وخيلاء ٠

ويكنى النظم الكريم عن الندم والتحسر بالعض على اليدين ، والسقوط فى الأيدى ، وتقليب الكفين ، ولنقرأ : « **ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ٠٠٠ ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ٠٠٠ وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا** »(٦) إن الظالم يوم القيامة يشتد ندمه ، ويقوى تحسره ، ولا يجد ما يفرغ فيه غيظ الندم والتحسر إلا العض بأسنانه على كلتا يديه ، والفعل (عض) يتعدى بنفسه ، ولكنه عدى بالحرف (على) وكأن اليدين قد صارتا بداخل الفم وتحت الأضراس ، فالأضراس تطحنها طحنا ٠٠ إن النادم يعض أنامله غيظا ، قال تعالى : « **وإذا خلوا عضوا عليكم**

---

(٦) الآيات بالترتيب : الفرقان ٢٧ ، الأعراف ١٤٩ ، الكهف ٤٢ ٠

الأنامل من الغيظ »(٧) ولكن هذا الظالم لا يعض أنامله فحسب ، بل يعض كلتا يديه ، وهو لا يعضهما بل يعض عنيهما ، وهذا يشعر بشدة الندم والتحسر ٠

وعبدة العجل لما رأوا أنهم قد ضلوا اشتد ندمهم ، وقالوا : **« لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين »** وتكنى الآية عن ندمهم بتلك الصورة (سقط فى أيديهم) لا نرى هنا عضا للأيدى ، وإنما نرى رءوسا قد سقطت فيها ، تريد أن تتوارى وتختفى من شدة الخزى والندم ، وانظر إلى حذف الفاعل (الرءوس) وبناء الفعل (سقط) للمفعول ، إن هذا الحذف يؤذن بما يريده النادمون من إسقاط رءوسهم فى أيديهم ، فهم يريدون إخفاء تلك الرءوس ، بل يريدون أن يختفوا هم ويتواروا عن الأعين لشدة ما أصابهم من الخزى والندم ٠

وصاحب الجنتين الذى طغى وتكبر ، وتعالى على صاحبه قائلا: (**ما أظن أن تبيد هذه أبدا**) أحيط بثمره ، فأصبح لا يرى شيئا مما استغنى به بالأمس فطغى ، وإنما يرى جنة خاوية على عروشها فأصابته الدهشة واشتد به الندم ، ويصور النظم الكريم ندمه بقوله : (**فأصبح يقلب كفيه**) لقد أصابه الذهول ، وأخذ من هول المفاجأة يقلب كفيه ، وتلك صورة الندمان الذى أفقدته المفاجأة صوابه ، وذهبت بوعيه وإدراكه، إنه يتذكر عندئذ كفره وطغيانه فيقول متمنيا : (**يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا**) ٠٠

وتأمل الكناية فى الآيات الكريمة : **« ولا تجعل يدك مغلولة إلى**

---

(٧) آل عمران : ١١٩ ٠

عنقك ولا تبسطها كل البسط ... المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ... وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء »(٨) فقد كنى عن البخل والإمساك بقبض اليد ويغلها إلى العنق، وكأن الإنسان الشحيح الممسك مطبق على يديه قابض عليهما يخشى أن يتفلت منه شيء فيصيبه الغم والحزن ، إن نفسه قد امتلكته فلم يعد حرا ، بل غلت يداه إلى عنقه ، وأنى لمغلول اليد أن ينفق ويعطى ؟ .

كما كنى فى الآيات الكريمة عن الفيض والعطاء ببسط اليد ، وهذا يدل على غاية العطاء ونهاية الجود ، إن اليد ممدودة مبسوطة، فمن أراد شيئا لا يسأل ولا يطلب ، بل يغترف كيف يشاء ومتى يشاء .. واليهود لعنهم الله بما قالوا قد كنوا بقولهم : (يد الله مغلولة) عن الشح والإمساك ، فرد عليهم بهذا الدعاء (غلت أيديهم) ثم كنى عز وجل عن فيض عطائه بقوله : (بل يداه مبسوطتان) وأوثر لفظ التثنية (يداه) للمبالغة فى العطاء ، فيداه عز وجل مبسوطتان دائما ، لا يمنع أحدا عطاءه .

ولا يصرح النظم الكريم بما يستقبح ذكره ، ولا بما يستحيى التصريح به ، بل يكنى عن ذلك ، تهذيبا للنفس ، وإرشادا وتعليما ، فنجده يكنى عن الروث والبول والعذرة وعن قضاء الحاجة ، كما يكنى عن (الجماع) فى مواطن كثيرة بما لا يجد الرجل حرجا من ذكره أمام النساء ، ولا تجد المرأة حرجا من ذكره أمام الرجال ، فقد

---

(٨) الآيات بالترتيب : الإسراء ٢٩ ، التوبة ٦٧ ، المائدة ٦٤ .

كنى عنه بالسر والملامسة والمباشرة والإفضاء والمس والرفث والإتيان والتغشية والدخول والاستمتاع والقرب ، وغير ذلك مما لا يخدش ذكره حياء ، ولا يجد الناطق به حرجا ٠

ففى الآيات الكريمة : **«فجعلهم كعصف مأكول ٠٠٠ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ٠٠٠ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا»**(٩) ، كنى بالمأكول عن الروث، فإن المراد تشبيههم بالعصف المأكول وهو التبن وأوراق الزرع الذى أكلته الدواب وراثته ، ولم يصرح بلفظ (الروث) استهجانا للتصريح به ، وتلك طريقة القرآن يكنى عما يستقبح ذكره ويستهجن(١٠) ٠

وكنى بقوله : (يأكلان الطعام) عما لابد لآكل الطعام من فعله وهو التبول والتبرز ، ولا تمنع الكناية من إرادة المعنى الأصلى ـ كما ذكرنا ـ وفى هذا ردع للنصارى الذين اتخذوا عيسى وأمه إلهين من دون الله ، فليس هو ـ عليه السلام ـ وأمه سوى بشرين ، تجرى عليهما أحكام البشر وصفاتهم التى تبعدهما عما نسب إليهما ٠

يقول الزمخشرى : « فما منزلتهما إلا منزلة بشرين أحدهما نبى والآخر صحابى ، فمن أين اشتبه عليكم أمرهما حتى وصفتموهما بما لم يوصف به سائر الأنبياء وصحابتهم ، مع أنه لا تمييز ولا تفاوت بينهما وبينهم بوجه من الوجوه ، ثم صرح ببعدهما عما نسب إليهما

---

(٩) الآيات بالترتيب : الفيل ٥ ، المائدة ٧٥ ، النساء : ٤٣ ٠

(١٠) انظر روح المعانى : ٣٠/٢٣٧ ٠

فى قوله : (كانا يأكلان الطعـام) لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعـه من الهضم والنفض ، لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعـروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة وقرم ، وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الأجسام »(١١) ٠

وكنى بقوله : (أو جاء أحد منكم من الغـائط) عن قضاء الحاجة ، فإن الغـائط أصله ما انخفض من الأرض ، وجمعـه : غيطان وأغواط ، وكانت العـرب تقصد إلى تلك الأماكن المنخفضة لقضـاء حاجتها تسترا عن أعين النـاس ، ولذا كنوا عن قضـاء الحاجة بقولهم : ذهب إلى الغـائط ، أو جاء من الغـائط(١٢) ٠

لقد كنى بالتعبيرين الكريمين : (كانا يأكلان الطعام ٠٠ أو جـاء أحد منكم من الغـائط) عن قضـاء الحاجة ، ترفعا عن ذكر ما يستقبح ويستهجن ، وتجـد كل تعبير منسجما فى سيـاقه متـلائما مع المعنى المـراد ، فالسياق فى آية المـائدة يبرز بشرية عيسى وأمه ، وهذا يلائمه (كانا يأكلان الطعـام) والسياق فى آية النسـاء لبيـان موجبات الغسل والوضـوء ، والذى يلائم ذلك (أو جـاء أحـد منـكم من الغـائط) ولو رمنا وضـع أحد التعبيرين مكان الآخـر لوجدنا تجافيا ونبـوا ، فلا يتأتى أن يقـال فى آية المـائدة : كانا يجيئان من الغـائط ، كمـا

---

(١١) الكشاف ٦٣٥/١ ٠ والقرم بفتح فسكون : الأكل ، وبفتحتين : شدة الشهـوة إلى اللحم ، يقال : قـرم إلى اللحم بكسر الراء أى : اشتهاه ثم كثر استعماله فى غير اللحم حتى قالوا : قرمت إلى لقـائك ، انظر لسان العرب مادة : قرم ٠

(١٢) انظر تفسير القرطبى ١٤٣/٥ ٠

لا يتاتى أن يقال فى آية النساء : أو أكل أحدكم الطعام ، لأن هذا يتناقض مع المعنى الذى يبرزه السياق فى كل آية ، فأكل الطعام لا يوجب الوضوء ، وإنما يوجبه المجىء من الغائط ، والدلالة على بشرية عيسى ومريم يلائمها أكل الطعام وما يترتب عليه ، لا المجىء من الغائط ، أرأيت مدى دقة النظم القرآنى ، وكيف تنسجم الألفاظ المعبر بها فى سياقاتها وتتلاءم ؟ ذلك هو القرآن المعجز « **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** »(١٣) .

وكنى بقوله : (أو لامستم النساء) عن (الجماع) وقد كثرت الكناية عن (الجماع) فى النظم القرآنى ، وتجد الكناية عنه فى كل موضع منسجمة مع المعنى الذى يبرزه السياق ، فلما كان السياق هنا عن الوضوء والطهارة ، جاءت الكناية عنه باللمس (أو لامستم) لتومىء إلى وجوب الاحتياط والتحرز ، وضرورة التطهر إذا خولطت المرأة ، ولو كانت المخالطة لمسا ، هذا تصوير الكناية وذاك إيحاؤها.

ويكنى عنه النظم الكريم (بالرفث وبالمباشرة وإتيان الحرث وابتغاء ما كتب الله وبالإفضاء والمس والسر والدخول والاستمتاع والقرب والتغشية) وتجد وراء كل كناية مغزى يلائم السياق الذى وردت به ، فقد كنى عنه بالرفث عند تحريمه فى الحج وعند الإشارة إلى ما وقع منهم ليلة الصيام من اختيانهم أنفسهم ، إذ حرم الله عليهم الطعام والنساء بعد صلاة العشاء فى بادىء الأمر ، ثم أحل لهم ذلك إلى الفجر ، كما تخبر الآية الكريمة .. ولنقرأ : « **الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج**

---

(١٣) النساء : ٨٢ .

... احل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .. »(١٤) كنى عنه بالرفث فى هذين الموضعين ، لأن الرفث أصله : الفحش من القول ، وهذا يتلاءم مع حظره فى الحج ، ويومىء إلى استهجان ما وقع منهم ليلة الصيام قبل إباحته ، ولذا سماه اختيانا لأنفسهم .

يقول الزمخشرى : « فإن قلت : لم كنى عنه ههنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله : « **وقد أفضى بعضكم إلى بعض ... فلما تغشاها .. باشروهن .. أو لامستم النساء .. دخلتم بهن .. فاتوا حرثكم .. من قبل أن تمسوهن .. فما استمتعتم به منهن .. ولا تقربوهن ..** » قلت : استهجانا لما وجد منهن قبل الإباحة ، كما سماه اختيانا لأنفسهم »(١٥) .

ولذا كنى عنه بعد ذلك فى نفس الآية الكريمة بالمباشرة ، وابتغاء ما كتب الله (**فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم**) كما كنى عنه بإتيان الحرث فى قوله تعالى : « **نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم** »(١٦) ، وفى هذه الكنايات إيماء إلى الغاية السامية من قضاء الشهوة ، إنها الإنجاب وتعمير الكون وابتغاء ما كتب الله ، ولذا جعلت المرأة حرثا تنبت كما تنبت الأرض ..

ويكنى عن تركه بالاعتزال وعدم الاقتراب ، وذلك فى أثناء

---

(١٤) الآيتان بالترتيب : البقرة ١٩٧ ، ١٨٧ .

(١٥) الكشاف ٣٣٨/١ .

(١٦) البقرة : ٢٢٣ .

الحيض ، قال تعالى : **« ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ٠٠ »**(١٧) لأن الاعتزال وعدم الاقتراب هما اللذان يتلاءم التعبير بهما عن تركه فى أثناء المحيض لما فيه من الأذى لكلا الزوجين والمولد(١٨) ٠

أما تركه فى غير المحيض فقد كنى عنه بنفى المباشرة ، قال تعالى : **« ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد »**(١٩) إذ ليس فيه الأذى المشار إليه هناك ، فعند ترتب الأذى أمر بالاعتزال ونهى عن الاقتراب ، للدلالة على الحظر والمبالغة فى المنع ، وهنا نهى عن المباشرة فحسب ، لأن الذى يترتب عليه فقدان ثواب الاعتكاف وهو سنة ، لا أذى يصيب الزوجين والولد ٠

ويكنى عنه بالإفضاء فى قوله تعالى : **« وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا »**(٢٠) ،

---

(١٧) البقرة : ٢٢٢ ٠

(١٨) الأذى الذى يصيب الرجل أن دم المحيض قد يتسرب إلى شواره ثم يحتبس فيه ويتعفن فيسبب بثورا وقروحا وأمراضا معضلة ، والأذى الذى يصيب المرأة زيادة هيجان فى الرحم يترتب عليه الوهن والضعف ، أما أذى الولد فإن النطفة تختلط بدم الحيض وبالبويضة قبل إبان صلاحها للتخلق النافع الذى وقته بعد الجفاف ، وقد قرر الطب أن الجنين المتكون فى وقت الحيض يولد مجذوما ، أو يصاب بالجذام فيما بعد ٠٠

انظر التحرير والتنوير ٣٦٦/٢ ٠

(١٩) البقرة : ١٨٧ ٠ (٢٠) النساء : ٢١ ٠

والإفضـاء مأخوذ من (الفضـاء) وهو المكان الواسـع ، وقد حذف مفعول الفعـل (أفضى) لتذهب النفس كل مذهب فى تصور الإفضـاء الذى يفضى به كل من الزوجين للآخـر ، وفى إيثـار التعبير بالإفضـاء وحذف مفعوله زجـر للزوج الذى يستبدل زوجا مكان زوج ويطمع فى أخذ ما أتى التى رغب عنها من مال ، ولو كثر هذا المـال الذى أمهـره إياها ، إن وراء هـذه الكناية وحذف المفعـول والاستفهـام (وكيف تأخذونه) ؟ إنكار شديد وردع قـوى لمن يطمع فى أخذ ما أعطى زوجه بعد تلك العشـرة التى كانت بينهما ٠٠ ولا يتأتى هنا أن يكنى بالمباشرة أو اللمس أو الإتيـان ونحو ذلك ، لأن الذى يدل على التشابك والتداخل وتغلغـل العلاقات بينهما إنما هو الإفضـاء المكنى به ٠٠

وكنى عنه بالدخول فى قـوله تعـالى : « **وربائبكم اللاتى فى حجـوركم من نسـائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهـن فلا جنـاح عليكم** »(٢١) لأن المـراد بيـان ما يحرم الربيبة وهى ابنة المـرأة المدخول بها ، فإنها تحـرم بالدخول بأمها ، والبنـاء عليهـا ، وضرب الحجـاب وإدخالهـا الستر ٠٠ وقريب من هـذا التكنية عنـه بالاستمتاع فى قوله تعـالى : « **فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة** »(٢٢) فإن المـراد تذكير الأزواج بنعمة الاستمتاع حتى تجود أنفسهم بالأجـور وهى المهور التى دفعوها لأزواجهم ، ويطيبوا بهـا نفسـا ، ولا يخفى علينـا أن مجـرد ضرب الحجـاب على المـرأة وإدخالها الستر يعد دخولا بها ، وأما الاستمتاع فيمتد وقتـه ويطـول زمنـه ، حتى تتحقق المتعـة التى يدل عليها اللفظ (استمتعتم) وقد

---

(٢١) النسـاء : ٢٣ ٠

(٢٢) النسـاء : ٢٤ ٠

أوثر التعبير بالدخول فى الآية الاولى للدلالة على تحريم الربيبة بمجرد إدخال أمها الستر وإن قصر أمد هذا الدخول ، وأوثر التعبير بالاستمتاع فى الآية الثانية ليهون على الرجل أمر المال الذى دفعه فتجود فقط ، إلا أن تعفو أو يعفو الذى بيده عقد النكاح أى وليها .

وجاءت الكناية عنه بالمس فى الآيات الكريمة : ((**لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ... وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ... يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ... قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر**))(٢٣) لقد كنى عنه بالمس فى هذه الآيات الكريمة ، لأن المس أدنى درجات الاستمتاع بالمرأة ، فهو ملائم لما ذكرته مريم ، حيث استبعدت أن يكون لها ولد ولم يصبها من بشر أدنى درجاته وهو المس ، وهو الملائم كذلك لبيان ما يجب للمرأة المطلقة وما يجب عليها ، إن أدنى درجاته وهو (المس) يوجب لها الصداق كاملا ، ويوجب عليها العدة ، أما إذا انتفى هذا القدر منه ، فلا عدة عليها ، ولا صداق لها غير مفروض ، فإن فرض فلها نصفه فقط ، إلا أن تعفو أو يعفو وليها .

وكنى عنه بالسر فى قوله تعالى : ((**ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا**))(٢٤) .

---

(٢٣) الآيات بالترتيب : البقرة ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، الأحزاب : ٤٩ ، آل عمران ٤٧ .

(٢٤) البقرة : ٢٣٥ .

يقول الزمخشرى : « والسر وقع كناية عن النكاح الذى هو الوطء ، لأنه مما يسر ، قال الأعشى :

ولا تقربن جارة إن سرها

عليك حرام فانكحن أو تابدا

ثم عبر به عن النكاح الذى هو العقد لأنه سبب فيه .. »(٢٥) .

والكناية بالسر هنا تشعر بوجوب الإخفاء والكتمان ، والابتعاد عن مواعدة المعتدة بالنكاح ، فإنه لا يجوز إلا التعريض بالخطبة أو الإكنان فى النفس كما جاء فى الآية الكريمة .

وكنى عنه بالتغشية فى قوله تعالى : **« فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به .. »**(٢٦) لأن الآية تخبر عن الالتقاء الأول بين الزوجين ، فعبر عنه بالتغشية ليذكر بالملاطفة التى ينبغى أن تكون بين الزوجين عند التقائهما حتى ليبدو الالتقاء وكأنه ـ كما يقول صاحب الظلال ـ امتزاج طائفين لا التقاء جسدين ، إيحاء للإنسان بالصورة الإنسانية فى المباشرة ، وافتراقها عن الصورة الحيوانية الغليظة(٢٧) .

وبهذا يتجلى لنا أن النظم القرآنى قد كنى عما يستقبح ذكره ويستهجن ، وعما يستحيى أن يصرح به ، وقد جاءت التكنية عن ذلك متلائمة فى سياقها ، منسجمة مع المعنى الذى يبرزه السياق ، ولذا فإن قول من قال : إن المراد بالفرج فى قوله تعالى : **«ومريم ابنة عمران التى احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا .. »**(٢٨) شوارها ، أى :

---

(٢٥) الكشاف ١/٣٧٣ .

(٢٦) الأعراف : ١٨٩ .

(٢٧) انظر فى ظلال القرآن ٣/١٤١٢

(٢٨) التحريم : ١٢ .

الفـرج الحقيقى ، قول ساقط ، لأن القـرآن قد تنزه عن ذكر ما يستقبح ويستهجن ، وعن التصريح بما يستحيى أن يصـرح به ، فكنى عن ذلك - كما رينـا - وانظـر إلى تكنيته عن طلب الفاحشـة فى قوله تعـالى : **« وراودته التى هـو فى بيتهـا عن نفسـه »**(٢٩) وإلى تكنيتـه عن السبابة بالإصبع فى قوله تعـالى : **« يجعلـون أصـابعهم فى آذانهم من الصـواعق حذر المـوت »**(٣٠) تحاشيا للتصريح بالفاحشة ، وتجنبا لمـا تحمله السبابة من معنى السب والشتم .

أيتاتى بعد ذلك أن يقال : إن المـراد بالفـرج فى الآية الكريمة شـوار مـريم ؟ ذاك قول ساقط وخطـأ فاحش .. إن المـراد بالفـرج فى الآية : فـرج القميص ، وهى أربعـة : الكمان والأعلى والأسفل ، وقد كنى بقوله تعـالى : (أحصنت فرجها) عن عفتها وطهارتها .

يقـول الزركشى : « فإن قيـل : فقد قال الله تعـالى : **« والتى احصنت فرجهـا »**(٣١) فصرح بالفـرج ؟ قلنـا : أخطأ من توهم هنـا الفـرج الحقيقى ، وإنما هو من لطيف الكنايات وأحسنها ، وهى كناية عن فرج القميص ، أى : لم يعلق ثوبها ريبة ، فهى طاهرة الأثواب ، وفـروج القميص أربعـة : الكمان والأعلى والأسفل ، وليس المـراد غير هذا ، فإن القـرآن أنزه معنى والطف إشـارة وأملح عبـارة من أن يريد ما ذهب إليـه وهم الجـاهل ، لا سيما والنفخ من روح القدس بأمـر القدوس، فأضيف القدس إلى القدوس، ونزهت القانتة المطهرة عن الظن

---

(٢٩) يوسف : ٢٣ . (٣٠) البقـرة : ١٩ .

(٣١) الأنبيـاء : ٩١ .

الكاذب والحدس »(٣٢) .

ومثله فى الكناية عن العفة والطهارة قوله تعالى : **« يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر »**(٣٣) حيث كنى بقوله : (وثيابك فطهر) عن العفة وطهارة النفس ، لأن من طهر باطنه وعفت نفسه عنى بتطهير ظاهره .

يقول الزمخشرى : « يقال : فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل والأردان : إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق ، وفلان دنس الثياب للغادر ، وذلك لأن الثوب يلابس الإنسان ويشتمل عليه ، فكنى به عنه ، ألا ترى إلى قولهم : أعجبنى زيد ثوبه كما يقولون : أعجبنى زيد عقله وخلقه ، ويقولون: المجد فى ثوبه والكرم تحت حلته ، ولأن الغالب أن من طهر باطنه ونقاه ، عنى بتطهير الظاهر وتنقيته ، وأبى إلا اجتناب الخبث وإيثار الطهر فى كل شىء »(٣٤) .

وفى قوله تعالى : **« وحملناه على ذات الواح ودسر »**(٣٥) كنى عن السفينة التى نجى الله بها نوحا بحمله عليها هو ومن آمن معه ، بذات الألواح والدسر ، وتشعر هذه الكناية بعظم النعمة ، وكمال قدرة الله تعالى ، فسفينة ضعيفة كهذه (ذات الواح ودسر) لا تقوى على مقاومة الطوفان لولا قدرة الله وعنايته (تجرى بأعيننا) فهى التى أجرتها ، ونجا نوح ومن آمن معه بفضل الله وقدرته .

ومثله فيما دلت فيه الكناية على ضعف المكنى عنه قوله تعالى : **« أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين »**(٣٦) حيث

---

(٣٢) البرهان ٣٠٦،٣٠٥/٢ .. وانظر القرطبى ٢٢٤/١١ .

(٣٣) المدثر : ١ - ٤ .

(٣٤) الكشاف ١٨١/٤ .

(٣٥) القمر : ١٣ .

(٣٦) الزخرف : ١٨ .

كنى عن الإناث بالتنشئة فى الحلية ، وعدم الإبانة فى الخصام ، وقد جعل المشركون الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، ونسبوها إلى الله - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، وقاتلهم الله أنى يؤفكون - لقد تجرأوا على عباد الرحمن ، ونسبوا إلى الله تعالى ما يحقرونه لأنفسهم ، إن أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسودا ، وأصابه الهم والحزن ، وأخذ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، هذا الذى حقروه ، واعتقدوا ضعفه ، وكرهوا أن ينسب إليهم نسبوه إلى الله تعالى ، وجعلوا الملائكة إياه ، وتوحى تلك الكناية بإنكار ما وصفوا واستبشاع ما اعتقدوا ، ولذا جاء توبيخهم وتوعدهم فى مواطن كثيرة ٠٠ ولنقرأ : « **فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون ٠ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ٠٠٠ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون** »(٣٧) ٠

فالاستفهام فى هذه الآيات الكريمة للتبكيت والإنكار التكذيبى ، وفيه وعيد شديد لأولئك الكفار حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ونسبوهم إلى الله تعالى ، وذلك تجرؤ على الله وعلى ملائكته ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، ولهم الويل مما يصفون ٠

* * *

---

(٣٧) الآيات بالترتيب : الصافات ١٤٩، ١٥٠ ، الزخرف ١٩ ٠

بين الكناية والتعريض

التعريض معنى يفهم من عرض الكلام وجانبه ، ومنه التعريض بالخطبة ، قال تعالى : « **ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء** »(١) وذلك بأن يقول لها : إنك لجميلة وصالحة ، ولعل الله يرزقك زوجا صالحا ، وإنى لفى حاجة إلى امرأة صالحة ، ونحو ذلك .

وأما الكناية فيدل عليها اللفظ ، حيث يعبر عن المعنى بردفه وتابعه ، يقول الزمخشرى : « فإن قلت : أى فرق بين الكناية والتعريض ؟ قلت : الكناية أن تذكر الشىء بغير لفظه الموضوع له ، كقولك : طويل النجاد والحمائل لطول القامة ، وكثير الرماد للمضياف ، والتعريض أن تذكر شيئا تدل به على شىء لم تذكره ، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم ، ولذا قالوا : (وحسبك بالتسليم منى تقاضيا) ، وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ، ويسمى التلويح ، لأنه يلوح منه ما يريده »(٢) .

ففى قوله تعالى : « **ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون** »(٣) تعريض بعدم عبادة قومه لله الذى فطرهم ، بدليل قوله تعالى : (وإليه ترجعون) فهو يريد نصح قومه ، ولكنه تعجب من حاله وعدم عبادته ، وأبرز الكلام فى معرض المناصحة لنفسه

---

(١) البقرة : ٢٣٥ .

(٢) الكشاف ١/٣٧٢ .

(٣) يس : ٢٢ .

تلطفا بهم ومداراة ، حيث أسمعهم الحق على وجه يمنع غضبهم ، ولم يصرح بنسبتهم إلى الضلال والباطل ، وفى هذا ما يعين على قبول الحق ، لأنه أدخل فى إمحاض النصح ، إذ لم يرد لهم إلا ما أراده لنفسه(٤) .

ومثله قوله تعالى : « **أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون . إنى إذاً لفى ضلال مبين** »(٥) حيث عرض بضلالهم واتخاذهم تلك الآلهة التى لا تغنى عنهم شيئا ، وقد نسب الضلال إلى نفسه والاتخاذ ، واستفهم عن الاتخاذ منكرا وقوعه منه ، تلطفا بهم ـ كما بينا فى الآية السابقة ـ واستمالة لهم وترغيبا فى الحق .

ومنه قوله تعالى : « **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** »(٦) حيث عرض بضلال الكفار ولم يصرح بأى الفريقين على هدى وأيهما فى ضلال مبين، وفى هذا التعريض ترغيب لهم فى الهدى، وتلطف بهم ، فهو كما قالوا ضرب من إنصاف الخصم ، حيث لم يواجه بضلاله ، ولكنه إذا رجع إلى عقله وتدبر ، أدرك أنه الفريق الضال ، وعلم أنه الزم الحجة ، ولذا كان التعريض أوقع من التصريح وأبلغ .

يقول الزمخشرى : « وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به ، قد أنصفك صاحبك ، وفى درجه بعد تقدمه ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على هدى ومن هو فى الضلال المبين ، ولكن التعريض

---

(٤) انظر الإتقان ١٤٨/٣ .
(٥) يس : ٢٣، ٢٤ .
(٦) سبأ : ٢٤ .

والتورية أفضى بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا ، ونحوه قول الرجل لصاحبه : علم الله الصادق منى ومنك ، وأن أحدنا لكاذب ، ومنه بيت حسان :

اتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء »(٧)

ومنه قوله تعالى : « **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب** »(٨) حيث أثبت التذكر لأولى الألباب وقصر عليهم ، وهذا من الوضوح بمكان ، فهو لا يخفى على أحد ، ولكن وراءه التعريض بأولئك الذين لم يستجيبوا للحق ، لأنهم لو كانوا من الذين يعقلون ما ترددوا فى قبول الحق والاستجابة له ، فمن يطمع فى استجابتهم وتذكرهم يكون كمن يطمع فى ذلك من غير أولى الألباب .

وقد مر بنا فى باب القصر أن أجمل مواقع (إنما) عندما تأتى للتعريض ، كما فى الآية الكريمة ، وذلك لأنها تستعمل فى المعانى الواضحة التى لا يجهلها المخاطب ، وهذا هو سبب حسن التعريض بها .

انظر إلى الآيات الكريمة : « **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ... إنما يستجيب الذين يسمعون ... إنما أنت منذر من يخشاها** »(٩) فإن وراء قصر الإنذار على من يخشون ، والاستجابة على من يسمعون ، تعريض بأن الذين لا يخشون ربهم ولا يخافون الساعة ولا يستحقون الإنذار ، لأن إنذارهم لا يجدى ولا يثمر ، فهم قوم لا يسمعون ،

---

(٧) الكشاف ٢٨٩/٣ ، والبيت لحسان بن ثابت - رضى الله عنه - يرد به على من هجا النبى ﷺ ، وقبله :

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

(٨) الرعد : ١٩ .

(٩) الآيات بالترتيب : فاطر ١٨ ، الأنعام ٣٦ ، النازعات ٤٥ .

وإنما يستجيب من يسمع ويعقل ، ووراء ذلك من الذم والتوبيخ لهم ما لا يخفى .

وفى قوله تعالى : « **ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين** »(١٠) الراجح من أقوال المفسرين أن هذا من كلام يوسف - عليه السلام - وأنه تعريض بامرأة العزيز فى خيانتها أمانة زوجها ، وبالعزيز فى خيانته أمانة الله تعالى ، حين ساعدها بعد ظهور الآيات ورؤية الشواهد التى تشهد ببراءته - عليه السلام - على حبسه وإيداعه السجن حتى حين(١١) .

وانظر فى قوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شئ مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين** »(١٢) ، تجد فى ختام الآية الكريمة بقوله تعالى :« **والله لا يهدى القوم الكافرين** » تعريضا بالذين ينفقون أموالهم منا وأذى ، ويراءون الناس فى إنفاقهم ، فإن كلا من المن والأذى والرياء من صفات الكفار ، وفى هذا التعريض حث للمؤمنين وتنبيه لهم إلى وجوب تجنب هذه الصفات التى تبطل صدقاتهم ، وأن يكونوا عنها بمنأى ومعزل(١٣) .

وخذ قوله تعالى : « **قال بل فعله كبيرهم هذا** »(١٤) إنه تعريض بالكفرة حيث عبدوا أصناما لا تنفع ولا تضر ، بل لا تستطيع

---

(١٠) يوسف : ٥٢ .

(١١) انظر الكشاف ٢/٣٢٧ .

(١٢) البقرة : ٢٦٤ .

(١٣) انظر روح المعانى ٣/٣٥ .

(١٤) الأنبياء : ٦٣ .

أن تدفع عن نفسها شيئا ، ولا تجيب أحدا ، ولذا أعقب التعريض بتلك السخرية (**فاسألوهم إن كانوا ينطقون**) ولا يخفى علينا ما وراء ذلك من تهكم وتسفيه لعقولهم ·

ومنه قوله تعالى : « **وإذا الموءودة سئلت · بأى ذنب قتلت** »(١٥) ففيه تعريض بالوائدين الذين قتلوا البنات بلا موجب لقتلهن ، وفى ذلك ما لا يخفى من التبكيت والإهانة ·

ومثله قوله تعالى : « **أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ··** »(١٦) ففيه تعريض بالنصارى الذين اتخذوا عيسى ـ عليه السلام ـ وأمه إلهين من دون الله ، ولا يخفى علينا ما وراء هذا التعريض من الإهانة والتوبيخ لهم ··

واقرأ قوله تعالى : « **والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** »(١٧) ، وقوله عز وجل : « **قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى** »(١٨) تجد فى الآيتين تعريضا بأن اللعن والعذاب على الكفار وأعداء الله ، وبيان ذلك أن اللام فى قوله : (والسلام) للاستغراق ، فإذا قال عيسى ـ عليه السلام ـ . (والسلام على) فكأنه قال : وكل السلام على وعلى أتباعى خاصة ، وفى هذا تعريض بأن ضد السلام وهو اللعن والعذاب على من اتهموا مريم بالبغاء ·

وكذا القول فى الآية الثانية ، ففيها تعريض بأن اللعنة والعذاب على من كذب وتولى ، ولم يتبع هدى الله الذى جاءت به الرسل ،

---

(١٥) التكوير : ٨، ٩ ·　　(١٦) المائدة : ١١٦ ·

(١٧) مريم : ٣٣ ·　　(١٨) طه : ٤٧ ·

ولا يخفى علينا عند النظر فى سياق الآية الكريمة أن المقام مقام لجاج وعناد ، وإنكار للحق ، وإعراض عن الهدى والبينات ، فهو مقام يليق به مثل هذا التعريض(١٩) .

وبهذا يتجلى لنا أن وراء التعريض فى النظم القرآنى معانى كثيرة ، كالذم والإهانة والتوبيخ والتبكيت واستدراج الخصم وإنصافه والتلطف به واستمالة الضال وترغيبه فى الحق .. إلى غير ذلك من المعانى الكامنة وراء التعريض فى النظم الكريم .

هذا وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل ، وأن يجزينا عنه خير الجزاء ، وأن يعفو عنا فلا يؤاخذنا بما يكون قد جرى به القلم فى غفلة منا فكتب حول كتاب الله تعالى ما لا يليق ، وحسبى أنى اجتهدت فلى أجران أو أجر ، ولله الحمد فى الأولى والآخرة ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

---

(١٩) انظر الكشاف ٥٠٨/٢ ، وتفسير الفخر الرازى ٢١٧/٢١ .. وقد مر بنا عند الحديث عن الآية الأولى (والسلام على) فى الباب الأول (لكل مقام مقال) جواز أن تكون (أل) فى الآية الكريمة للعهد ، وأوضحنا المعنى على ذلك هناك ، وقلنا إن الأرجح أنها للاستغراق .. ارجع إلى ص ١٣ ، ١٤ .

المصـــادر والمـــراجع

— **الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى** : ط. دار التراث بالقاهرة .

— **أسباب النزول للنيسابورى** : مكتبة الدعوة بالقاهرة .

— **أسرار البلاغة لعبد القاهر** : ط. دار الطباعة المحمدية ١٣٩٢ هـ .

— **الإعجاز البلاغى ، د/ محمد أبو موسى** : مكتبة وهبة ، ١٤٠٥ هـ .

— **إعجاز القرآن للباقلانى** : ط. دار المعارف ، ١٩٧٧ م .

— **أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى** : ط. دار الكتب العلمية ببيروت ، ١٤٠٨ هـ .

— **الإيضاح للخطيب القزوينى** : ط. صبيح ، ١٣٩٢ هـ .

— **البحر المحيط لأبى حيان** : ط. دار الفكر ، ١٤٠٣ هـ .

— **البرهان فى علوم القرآن للزركشى** : ط. دار التراث بالقاهرة .

— **بصائر ذوى التمييز ، للفيروزابادى** : ط. نهضة مصر ، ١٤٠٦ هـ .

— **البيان والتبيين للجاحظ** : ط. الخانجى بالقاهرة ، ١٩٧٥ م .

— **تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة** : ط. دار الكتب العلمية ، ببيروت ، ١٤٠١ هـ .

— **تحرير التحبير لابن أبى الإصبع** : طبع فى القاهرة ، ١٣٨٣ هـ .

— **التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور** : ط. الدار التونسية ١٩٨٤ م.

— **التصوير البيانى ، د/ محمد أبو موسى** : ط. دار التضامن ١٤٠٠ هـ

— **تفسير أبى السعود** : ط. دار إحياء التراث العربى ببيروت ١٤١١ هـ

— **تفسير ابن كثير** : ط. الحلبى .

— **تفسير الجلالين** : ط. دار التراث بالقاهرة .

— **تفسير الطبرى** : ط. دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ م .

— **تفسير الفخر الرازى** : ط٠ دار الفكر ، ١٤٠٥ هـ ٠

— **تلخيص البيـان فى مجازات القـرآن للشريف الرضى** :
ط٠ عالم الكتب ، ١٤٠٦ هـ ٠

— **ثلاث رسـائل فى إعجاز القـرآن للرمانى والخطابى والجرجانى** :
ط٠ دار المعارف ، ١٩٧٦ م ٠

— **الجـامع لأحـكام القـرآن للقرطبى** : ط٠ دار الكتب العلميـة ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ ٠

— **الجمـان فى تشبيهـات القـرآن لابن ناقيـا** : ط٠ منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٧٤ م ٠

— **خصائص التراكيب ، د/ محمد أبو مـوسى** :
ط٠ دار التضـامن ، ١٩٨٠ م ٠

— **الخصائص لابن جنى** : ط٠ دار الهدى ببيروت ، الطبعة الثانية ٠

— **دلائل الإعجاز لعبد القاهر** : ط٠ الفجالة ، ١٩٨٩ م ٠

— **روح المعانى للألوسى** : ط٠ دار إحياء التراث العربى ببيروت ٠

— **سـر الفصـاحة لابن سنـان الخفـاجى** : ط٠ دار الكتب العلميـة ببيروت ، ١٤٠٢ هـ ٠

— **شروح التلخيص** : ط٠ الحلبى ، ١٩٣٧ م ٠

— **الصاحبى لابن فارس** : ط٠ الحلبى ، ١٩٧٧ م ٠

— **الصناعتين لأبى هلال العسكرى** : ط٠ الحلبى ، ١٩٧١ م ٠

— **الطراز للعلوى** : ط٠ دار الكتب العلمية ببيروت ، ١٤٠٠ هـ ٠

— **العقد الفريد لابن عبد ربه** : ط٠ دار الكتب العلمية ببيروت ، ١٤٠٤هـ

— **العمدة لابن رشيق** : ط٠ دار الجيل ببيروت ، ١٩٧٢ م ٠

— **فتح القدير للشوكانى** : ط٠ دار المعرفة ببيروت ٠

— **الفتوحات الإلهية للعلامة الجمل** : ط٠ الحلبى ٠

— في ظلال القرآن لسيد قطب : ط٠ دار الشروق ، ١٤١٢ هـ ٠

— القاموس المحيط للفيروز آبادي : ط٠ الحلبي ، ١٣٧١ هـ ٠

— الكتاب لسيبويه : ط٠ الهيئة المصرية ، ١٣٩١ هـ ٠

— الكشاف للزمخشري : ط٠ الحلبي ، ١٣٩٢ هـ ٠

— لسان العرب لابن منظور : ط٠ دار المعارف ، ١٩٧٩ م ٠

— المثل السائر لضياء الدين بن الأثير : ط٠ دار نهضة مصر ، ١٩٧٣ م

— مجاز القرآن لأبي عبيدة : ط٠ الخانجي ٠

— المجازات النبوية للشريف الرضي : ط٠ الحلبي ، ١٣٥٦ هـ ٠

— مجمع الأمثال للميداني : ط٠ دار الجيل ببيروت ، ١٤٠٧ هـ ٠

— محاسن التأويل للقاسمي : ط٠ الحلبي ، ١٣٧٦ هـ ٠

— المطول لسعد الدين التفتازاني : مطبعة أحمد كامل ، ١٣٣٠ هـ ٠

— معاني القرآن للفراء : ط٠ الهيئة المصرية ، ١٩٨٠ م ٠

— مغني اللبيب لابن هشام : ط٠ المدني ٠

— مفتاح العلوم للسكاكي : ط٠ الحلبي ، ١٣٥٦ هـ ٠

— من بلاغة القرآن ، د/ أحمد بدوي : ط٠ دار نهضة مصر ، ١٩٧٧ م

— الموازنة للآمدي : ط٠ المكتبة العلمية ببيروت ٠

— النبأ العظيم ، د/ محمد عبد الله دراز : ط٠ السعادة ، ١٣٨٩ هـ

— نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي : ط٠ الآداب ، ١٣١٧ هـ ٠

— النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين بن الأثير :
ط٠ دار الفكر ببيروت ٠

— الوساطة لعلي بن عبد العزيز الجرجاني : ط٠ الحلبي ، ١٣٨٦ هـ

محتويات الكتاب

المقـــدمة ٣ ، ٤

لكل مقام مقال ٥ ـ ٢٠

بين النصيب والكفل (٦) بين الفجر والتفجير (٩) عطف تذبيح الأبناء على سوم العذاب فى سورة إبراهيم وترك العطف فى سورة البقرة (٩) إفراد سبيل الحق وجمع سبل الضلال (١١) تنكير « السلام » الملقى على « يحيى » وتعريف « السلام » الملقى على « عيسى » فى سورة مريم (١٢) أضرب الخبر (١٥) بين تشبيه صرعى عاد بأعجاز النخل المنقعر وبأعجاز النخل الخاوية (١٨) .

الإفراد والتثنية والجمع ٢٠ ـ ٣١

إفراد السمع وجمع القلوب والأبصار (٢٢) جمع الشفيع وإفراد الصديق (٢٣) إيضاح المثل « أعز من بيض الأنوق » (٢٣) إفراد الريح وجمعها (٢٤) إفراد الولى وجمعها .. إفراد النور وجمع الظلمات (٢٦) إفراد السماء وجمعها (٢٧) ملازمة الأرض والنار والإفراد(٢٨) جمع الألباب (٢٨) إفراد الجنة وتثنيتها وجمعها (٢٩) إفراد المشرق والمغرب وتثنيتهما وجمعهما (٢٩) إفراد الكرة وتثنيتها (٣٠) .

التعريف والتنكير ٣١ ـ ٤٨

التعـريف بضـمير المتكلـم (٣٣) التعـريف بضـمير

المخاطب (٣٤) التعريف بضمير الغائب (٣٥) التعريف بالعلمية (٣٦) التعريف بالأسماء الموصولة (٣٧) التعريف بأسماء الإشارة (٣٩) التعريف بالألف واللام (٤١) التعريف بالإضافة (٤٣) أغراض التنكير (٤٥) .

التوابع والقيود ٤٨ - ٧٣

التقييد بالصفة (٥٠) البدل وأغراضه (٥٢) عطف البيان وأغراضه (٥٤) التوكيد اللفظى والمعنوى (٥٥) التأكيد بكل وإفادتها التأسيس (٥٨) دخول النفى على « كل » واستدراك سعد الدين على عبد القاهر ورد هذا الاستدراك (٥٩) التقييد بالحال (٦١) التقييد بالمفعول لأجله (٦٢) عطف النسق (٦٣) التقييد بإن وإذا (٦٤) التقييد بالجار والمجرور (٦٧) .

التقديم ٧٣ - ٩٧

التقديم من شجاعة العربية (٧٥) تقديم « الشفاعة » على « العدل » فى الآية (٤٨) و « العدل » على « الشفاعة » فى الآية (١٢٣) من سورة البقرة (٧٧) تقديم الضمير « نحن » على اسم الإشارة « هذا » فى الآية (٨٣) من سورة « المؤمنون » وعكس ذلك فى الآية (٦٨) من سورة « النمل » (٧٩) تقديم ضمير المخاطبين على ضمير الأبناء فى قوله « نحن نرزقكم وإياهم » وعكس ذلك فى قوله « نحن نرزقهم وإياكم » (٨٠) التقديم لدفع توهم غير المراد (٨١)

اغراض اخرى للتقديم (٨٢) التقديم فى نطاق الآية الكريمة (٨٥) التقديم فى نطاق الجملة القرآنية (٨٧) دلالة التقديم على الاختصاص (٨٧) بين قوله « إن الله معنا » وقوله « إن معى ربى سيهدين » (٨٨) أغراض أخرى للتقديم فى نطاق الجملة القرآنية (٩٠) دلالة التقديم مرتبطة بالسياق وقرائن أحواله (٩٢) تقديم المسند إليه على خبره الفعلى (٩٣) المقامات التى تقتضى التقديم للدلالة على التوكيد (٩٥) .

الاسمية والفعلية ٩٨ - ١٠٤

بين دلالة الاسم ودلالة الفعل (٩٩) . آية الكهف « وتحسبهم ايقاظا وهم رقود » (٩٩) . آية الملك « صافات ويقبضن » (١٠٠) . آية الأعراف« أدعوتموهم أم أنتم صامتون » (١٠٠) . آية يس « لا يسالكم اجراوهم مهتدون » (١٠١) . آية التوبة « حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » (١٠٢) . آية الأنبياء « اجئتنا بالحق ام انت من اللاعبين » (١٠٢) . آية البقرة « قالوا آمنا .. قالوا إنا معكم » (١٠٣) . آية هود « قالوا سلاما قال سلام » (١٠٣) . آية يوسف « يمرون عليها وهم عنها معرضون » (١٠٤) .

الحذف ١٠٥ - ١٣٤

دقة مسلكه (١٠٧) . حذف جزء الكلمة « الاقتطاع » (١٠٨) . حذف الحرف (١١٣) . حذف المضاف (١١٥) . حذف المسند إليه (١١٦) .

بناء الفعل للمفعول (١١٨) . حذف الفعل (١٢١) . الاكتفاء (١٢٤) . حذف الخبر (١٢٥) . ما يحتمل حذف المسند أو المسند إليه (١٢٦) . الاحتباك (١٢٧) حذف الأجوبة (١٢٨) . حذف المفعول (١٣٠) . حذف الجملة (١٣٢) . حذف الجمل (١٣٣) .

التجوز فى الإسناد ١٣٤ - ١٥٠

معنى الإسناد (١٣٦) بين تعريفى عبد القاهر والخطيب للتجوز فى الإسناد (١٣٧) . بين المجاز اللغوى والمجاز العقلى (١٣٧) ملابسات المجاز العقلى فى النظم القرآنى (١٣٨) قرينة المجاز (١٤٩) .

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر ١٥٠ - ١٨١

معنى مخالفة الظاهر (١٥٢) صور الخروج عن مقتضى الظاهر (١٥٢) الالتفات (١٥٣) أسلوب الحكيم (١٦٣) وضع المضمر موضع المظهر (١٦٥) وضع المظهر موضع المضمر (١٦٧) التغليب (١٧١) المخالفة فى صيغ الأفعال (١٧٥) .

القصر ١٨١ - ٢١١

لمحة موجزة عن أسس القصر وضوابطه (١٨٣) . تفاوت طرق القصر فى الدلالة (١٨٦) . طريق التقديم ومقاماته (١٨٧) . بين إنما والنفى والاستثناء (١٩١) معان تنزيلية (١٩٢) . القصر بالتعريف وبضمير الفصل (٢٠٠) . المقصور عليه فى التعريف (٢٠٢) المقررات البلاغية وما يقتضيه السياق (٢٠٣)

نوعا القصر الحقيقى (٢٠٥) العطف بلا وبل ولكن (٢٠٧) التعريض بإنما (٢٠٩) ٠

الإنشـــــاء ٢١١ - ٢٥٣

لمحة موجزة عن الخبر والإنشاء (٢١٣) الأمر والنهى صيغهما (٢١٥) ما تستعمل فيه صيغ الأمـر وصيغة النهى (٢١٨) المعانى البلاغية للأمر والنهى (٢١٨) التمنى (٢٢٢) الأداة الموضوعة له (٢٢٣) التمـنى بغير « ليت » (٢٢٤) الاستفهام : معناه وأدواته (٢٢٥) بناء جملة الاستفهام بعد الهمزة وهل (٢٢٦) المعانى البلاغية للاستفهام (٢٢٩) ٠ النداء (٢٣٣) معناه وأدواته (٢٣٣) الغاية من النداءات القرآنية (٢٣٤) سر نداء القريب « بيا » (٢٣٥) نـداء « الرب » في القرآن (٢٣٦) نداء الجبال والأرض والسماء (٢٣٧) نـداء الويـل والحســرة والبشـرى (٢٣٨) صـيغة « اللهم » (٢٣٩) ٠ القسم - أصل معناه - حروفه (٢٤٠) المقسم به فى القرآن (٢٤١) المقسم عليه (٢٤٢) حذف القسم (٢٤٤) حذف جواب القسـم (٢٤٥) التناسب بـين القسـم وجوابـه (٢٤٧) ٠ وضـع الخبر موضع الإنشاء (٢٤٩) وضع الإنشاء موضع الخبر (٢٥٢) ٠

الفصـل والوصـل ٢٥٣ - ٢٧٣

لمحة موجزة عن أهمية الفصل والوصل (٢٥٥) الربط بين المفردات (٢٥٦) مجىء الواو بين الصفة وموصوفها وبين الحال وصاحبها (٢٥٧) الربط بين الجمل (٢٥٩) الجمل التي يجب وصلها بالواو (٢٦٢) التناسب بين

الجمل : معناه ـ دقته ـ مراد البلاغيين به (٢٦٣) الجمل التى يجب فصلها (٢٦٥) مرجع الوصل والفصل بين الجمل إلى السياق وما يقتضيه المقام (٢٦٨) واو الاستئناف او القصة والفرق بينها وبين واو العطف (٢٧٢) .

الإيجاز والإطناب ٢٧٤ ـ ٢٨٧

نوعا الايجاز (٢٧٥) إيجاز الحذف وأسراره (٢٧٦) إيجاز القصر ـ نماذج من النظم القرآنى يتجلى فيها إيجاز القصر (٢٧٧) الإطناب (٢٨٢) أنواع الإطناب: الايضاح بعد الابهام ـ ذكر الخاص بعد العام (٢٨٣) ذكر العام بعد الخاص ـ التكرار (٢٨٤) الإيغال ـ التذييل ـ التكميل (٢٨٥) الاعتراض ـ حروف الزيادة (٢٨٦) .

التشبيه ٢٨٨ ـ ٣٤٣

الغاية من دراسة التشبيه فى النظم الكريم (٢٩٠) عناصر التشبيهات القرآنية (٢٩١) تشبيه القلوب بالحجارة (٢٩٢) تشبيه الموج بالجبال (٢٩٣) تشبيه الجوار بالأعلام (٢٩٤) تشبيه الموج بالظلل (٢٩٤) تشبيه الجبل بالظلة (٢٩٥) تشبيهات سورة النبأ(٢٩٥) تشبيه الجبال بالكثيب المهيل وبالعهن والعهن المنفوش والهباء المنبث وبالسراب (٢٩٧) أحوال الجبال يوم القيامة (٣٠٠) أحوال الناس يوم القيامة (٣٠٢) التشبيه بأعجاز النخل المنقعر وأعجاز النخل الخاوية(٣٠٥)

التشـبيه بهشـيم المحتظـر وبالعصـف المأكـول (٣٠٦)
التشبيه بهشـيم المحتظـر وبالعطف المأكـول (٣٠٦)
فى التشبيهات المقيدة (٣٠٨) تشبيه المنافقين بالخشب
المسندة (٣٠٨) تشبيه المقاتلين فى سبيل الله صفا بالبنيان
المرصـوص (٣٠٩) تشـبيه انحصـار المـاء بالطـود
العظيم (٣٠٩) تشبيه القمر بالعرجون القديم (٣١٠)
تشبيه إعراض المنافقـين بالحمـر المسـتنفرة (٣١١)
تشبيهات نساء الجنة (٣١٢) تشبيهات غلمان الجنة(٣١٣)
التشبيه بالجان وبرءوس الشياطين (٣١٤) التشبيهات
المركبة (٣١٥) تصوير حال المنافقين بحال من استوقد
نارا (٣١٦) تمثيـل حال عبـدة الأصـنام بالعنكبوت
اتخذت بيتا (٣١٧) تمثيل ما يعبد من دون الله فى عدم
إجابته من يدعوه بحال من بسط كفيه إلى المـاء ليبلـغ
فاه (٣١٨) تمثيل حال اليهود فى حملهم التوراة وعدم
العمل بمقتضاها بحال الحمار يحمل أسـفارا (٣٢٠)
تصوير النظم القرآنى للإنفاق (٣٢١) كـثرة التمثيل
بالزروع والثمار والنباتات فى النظم الكريـم (٣٢٨)
تمثيل الحياة الدنيا (٣٢٩) تمثيل مؤازة الصحابة للنبى
ﷺ(٣٣٣) تمثيل إشراق شرع الله فى قلب المؤمن (٣٣٤)
تمثيل أعمال الكفار (٣٣٥) تضافر التشبيهات الملتقية
على تجليـة مقاصـد السـياق الكريم وانبساق انسـجتها
اللغوية من مشكاة واحدة (٣٤٠) .

الاســــــتعارة ٣٤٣ - ٣٧٠

معناها - أنواعها (٣٤٦) النقل فى الاستعارة (٣٤٦) استعارة الاشتراء للاستبدال (٣٤٧) استعارة « النور والبصر والحياة » للإيمان و « الظلمات والعمى والموت » للكفر (٣٤٩) استعارة الحبل للعهد (٣٥٠) الاستعارة المكنيــــة (٣٥١) انفــكاك الاســـتعارة المكنيـــة عن التخييلية (٣٥٥) الاســـــتعارة التبعيـــة فى الأفعــال والمشتقات (٣٥٦) تجريد الاستعارة وترشيحها (٣٥٨) الاستعارة المطلقة (٣٦٠) استعارة الوفاء للنوم والبعث للإيقاظ (٣٦١) استعارة « المضـجع والمرقـد وزيــارة القبــور » للمــوت (٣٦٢) شـــهيق جهنـم وزفيرهــا وتغيظها (٣٦٢) استعارة « الصدع » للجهر بالدعــوة و « السلخ » لإزالة الضوء (٣٦٣) الاستعارة العنادية التهكميــة (٣٦٤) إيضـــاح المثــل « فــلان لا يبــض حجره » (٣٦٥) الاستعارة التبعية فى الحروف (٣٦٦) الاستعارة التمثيلية (٣٦٨) .

المجــاز المرســـل ٣٧١ - ٣٩٠

بين الاستعارة والمجاز المرسل (٣٧١) علاقات المجــاز المرسل (٣٧٢) الكليــة (٣٧٢) الجزئيــة (٣٧٤) السببية (٣٧٨) المسببية (٣٨٠) اعتبار ما كان (٣٨٢) اعتبار ما سيكون (٣٨٣) الحالية (٣٨٦) المحلية (٣٨٧) المجاورة (٣٨٨) الآلية (٣٨٩) .

الكنـــــاية ٣٩٠ - ٤١٤

معناهــا - بلاغــة التعبير بها (٣٩١) بــين الكنــاية

والمجاز (٣٩٢) أنواع الكناية (٣٩٢) كثرة الكناية في النظم القرآنى (٣٩٣) الكناية عن الكرب وشدة الأهوال (٣٩٣) الكناية عن الاستكبار والإعراض (٣٩٤) الكناية عن الندم والتحسر (٣٩٥) الكناية عن البخل والشح وعن الكرم والعطاء (٣٩٦) الكناية عما يستقبح ذكره (٣٩٧) الكناية عما يستحيى التصريح به (٤٠٠) الكناية عن العفة والطهارة (٤٠٦) الكناية عن السفينة (٤٠٧) الكناية عن الأنثى (٤٠٨) بين الكناية والتعريض (٤٠٩) .

المصادر والمراجع ٤١٥

محتويات الكتاب ٤١٩

★★★

الصواب والخطأ

الخطأ	صوابه	السطر	الصفحة
اختلافا	اختلاف	١٢	٦
وتتنازع	وتنازع	١٥	١٣
(السلام)	(والسلام على)	٢١	١٣
فهى تعريض	فهو تعريض	١٠	١٤
نصوير	تصوير	٩	١٩
الؤفخر	الفخر	١	٣٤
إن أتخذونك	إن يتخذونك	١٢	٤٠
وتريدهم	وترديدهم	١٩	٧٩
فالمقصد	فالمقتصد	٧	٨٣
بـان	وبـان	١٤	٨٣
مع الله قال تعالى	مع الله .. قال تعالى	٩	٩٢
عيد الظاهر	عبد القاهر	١٦	٩٦

قبل السطر الأخير سطر ساقط وهو : ٩٩

دائـون عليه ،ولكن اعينهم وتفتحة،فإذا ما نظرت إليهم حسبتهم

الخطأ	صوابه	السطر	الصفحة
وقال الذى نجا منهم	وقال الذى نجا منهما	١	١٠٧
واذكر بعد أمة أنبئكم	واذكر بعد أمة أنا أنبئكم	١	١٠٧
وطرفه	وترفه	١٤	١١٢
بينة	بنية	٤	١١٣
وهمزة	وهمزه	٢	١٣٩
أمرض	أعرض	١٩	١٤٧
أن أشكر لله	أن اشكر لله	١٠	١٦٠
إهدنا	اهدنا	٢	١٦٢

الخطا	صوابه	السطر	الصفحة
إتيان الأرض والسماء فيهما	إتيان الأرض والسماء بمن فيهما	١٨	١٧٢
إثيات لشىء شىء	إثبات شىء لشىء	٢١	١٨٣
بانفى والاستثناء	بالنفى والاستثناء	٢٣	١٩٠
وابن أبى الأصبع	وابن أبى الإصبع	١٩	٣٢٠
نصارتها .. واضبحت	نضارتها .. وأصبحت	٥	٣٣٠
بدعون	يدعون	١١	٣٤١
الاصابة	الإصابة	٨	٣٦١
المرفة	السرقة	٤	٣٨٧
افترانهما	اقترانهما	٦	٣٨٨
ويغلها	وبغلها	٥	٣٩٧
الطن	الظن	١٩	٤٠٦

رقم الإيـداع بدار الـكتب والوثائق القومية
٨٦٢٥ / ١٩٩٢

مطبعة الحسـين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
تليفون ٥١٠٦٧٢٤